

خطب الشيخ محمد الغزالي

في شؤون الدين والحياة

للتطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازي - القاهرة

دار الأحياء

هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١

ص . ب : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدي : ١١٥١١

خطب الشيخ محمد الغزالي

في شؤون الدين والحياة

مراجعة

إعداد

د. عبد الحميد قطب الدكتور محمد عيسى

المجلد الثاني

دار الأحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أخي الشيخ قطب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

لقد طالعت جهدك في كتابة الخطب والمحاضرات التي
أكرمني الله بإلقائها خدمة لدينه .

وأثلج صدرى وعيك المكتمل ، وحسبك الدقيق ،
وبقينك الحى .

وأملئ أن يمن الله علينا بنعمة المغفرة والقبول ، وأن
يجعل عملك فى نشر هذه المعرفة الإسلامية خالصاً
لوجهه وعزاً فى الدارين .

ولا زلت موصول الخطأ فى نشر الحق ورفع لواء
الدعوة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

أخوك

محمد الغزالي

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

أما بعد :

فيسرني ويسعدني أن أقدم للقراء الأعزاء الجزء الثاني من خطب الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي .

وفضيلة الشيخ محمد الغزالي - حفظه الله - غني عن التعريف فهو بالنسبة إلى قراء العربية بمثابة الذهب في عالم المعادن لا يكاد يجهله أحد !! .

إنه صوت الإسلام الصافي الفذ الحنون الذي يعرف كيف يحرق الأفتدة ويضيئها في الوقت نفسه !! .

والحق أنني عندما عازمت على إعداد هذه الخطب التي ألقاها شيخنا كنت أستهدف بذلك أن أورد للمنبر هيئته ، وأن أعيد للمسجد مكانته ، وأن أثبت بالدليل القاطع أن الخطابة في الإسلام - كما يقول شيخنا في أحد كتبه - مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ، ويثب من فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر .

وذاك هو السر في أن نبي الإسلام ﷺ كان يخطب كل أسبوع وكل عيد ، ويخطب أو ينيب عنه أميراً يخطب في وفود الحجيج عند جبل الرحمة .

أقول : وذاك هو السر في تسجيلنا وإعدادنا هذه الخطب التي تجعل - فعلاً - هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ، ويثب من فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر .

لقد كنت أشعر وأنا أستمع إلى هذه الخطب الفذة بجلال المنبر وخطره ، وفضل المسجد ودوره .

●● فمن خلال هذه الخطب الفياضة طرحت مفاهيم العقيدة ، وتعاليم الشريعة ، وعولجت المشكلات ، وقدمت الحلول .

●● من خلال هذه الخطب تعلم الناس أن الإسلام روح يسرى في كيان هذه الأمة فيحيي مواتها ، ويبدد ظلامها !!

●● من خلال هذه الخطب تعلم الناس أن الإسلام

دين ودولة ، عقيدة وشريعة ، مصحف وسيف ، جسد وروح ، عقل وعاطفة ، إيمان ونظام ، دنيا وآخرة .

●● من خلال هذه الخطب ارتفع صوت الغزالي يُذكر المسلمين بأيام الإسلام المجيدة ، وعزهم المفقود ، ويروي للأجيال أخبار الرجال الذين قضوا على دروب الجهاد فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا !! .

●● من خلال هذه الخطب ارتفع صوت الغزالي مدوياً كالرعد العاصف يحذر من الأخطار المحدقة بالأمة والتحديات الكبرى التي تنتظرها .

● من خلال هذه الخطب اشتبك الغزالي مع سماسرة الاستعمار العالمي في العالم الإسلامي الذين عاشوا بيننا ينبحون ديننا ويخدمون أعداءنا ..

اشتبك معهم الغزالي فكشف دورهم ، وفصح ضلالهم ، وشرّد بهم من خلفهم !! .

● من خلال هذه الخطب وقف الغزالي في وجه ماأسماه بالفرعونية الحاكمة والقارونية الكائزة وخاض معركته مع هؤلاء تحت شعار في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، فصدع بالكلمة التي ترضى الله وتسخط كل عدو له !! .

●● من خلال هذه الخطب واجه الغزالي ما أسماه بالتدين المغشوش الذي يعلو صوته بالحفاظ على الإسلام حيث لا خطر ، ويصمت كأن الأمر لا يعنيه حيث يوشك الإسلام على الغرق !! .

بهذا التدفق العلمي والعاطفي والأدبي بيّن الغزالي حقائق الإسلام ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ (الأنفال : ٤٢) .

فكان بحق - ولا نركيه على الله - من هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً .. (الأحزاب : ٣٩) نشهد شيخنا - ولا نركيك على الله - أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة فجزاك الله عنا وعن الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها خير الجزاء .

ونسأل الله أن يبارك في عمرك ويمد في أجلك ، وأن يديم عليك نعمة الإيمان والتوفيق .

والله الموفق ..

كتبه الفقير إلى الله تعالى

قطب عبد الحميد قطب

القاهرة في ١٥ شوال ١٤٠٨ هـ .

تأملات في مناسك الحج

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
في سنة ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فإن الحج هو الركن الخامس في أركان الإسلام الخمسة ، وقد افترض
الله هذا الركن على عباده فقال جل شأنه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آ ن عمران .
٩٧] .

ولمّا كان الحج يتضمن أعمالاً مختلفة ، وكانت هذه الأعمال موضع
تساؤل خصوصاً في هذا العصر الذي توضع الأديان فيه موضع الاهتمام ،
ويتحرك من يسمون أنفسهم مثقفين ، أو أتباع الفكر العقلي الحر ، يتحرك
هؤلاء ليلبوا استعرايهم لمناسك الحج والأعمال التي يقوم المسلمون بها ،
ويطلبون لذلك تفسيراً يرون أنه قد يرضى عقولهم ، ويشبع قصولهم .

وبحسب نسوق أفعال الحج كما وردت مع الحكمة التي اتصلت بها
وشرعت من أجلها ، ليعلم من يجهل ما في الحج من منافع دينية وديوية ،
وأن هذه المناسك ليست أموراً عامضة ، ولا أفعالاً مبهمّة كما يتصور هؤلاء .

الحج — أساس — سفر صالح ، ورحلة إلى الأماكن التي دَرَج فيها الأنبياء ، وابتعث منها الوحي ، وكانت مَشْرِقا للإسلام ، ومجتمعاً أول للسلف الصالحين .

والمقصود من هذه الرحلة أمور عقلية وعاطفية معاً ، فإن الإنسان لا يعيش بالفكر النطري وحده ، ولكن مشعره وعواطفه شديدة السيطرة عليه ...

والإسلام يجتهد في تحويل الإيمان من صورة عقلية تُسكن الرأس إلى معان عاطفية تُغمر القلب ، وتتشبث بالعواد ، وينفعل الإنسان بها ، ويحيا طول عمره وفقها .

معنى صيرورة لفكر العقل إلى عاطفة حارة هو ما يقول الله جل شأنه فيه ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] .

قد ترى عقلاً أن الله موجود ، ولكن هذه الرؤية العقلية لا تكمل إلا إذا تبعها مشاعر عاطفية تُسكن قلبك ، وتجعلك تتجه إلى الله بقلب يُحسُّ عظمته ، ويُكرِّم نعمته .

قد ترى عقلاً أن الكذب رديئة ، أن الشرك فضيحة ، ولكن تحول هذا الفكر العقلي إلى إحساس نفسي يجعلك تشمئز من الشرك والرديلة كما تشمئز من الرائحة الكريهة ومن المنظر الرديء فإن كرهك للشرك قد انتقل من معنى نظري إلى حقيقة عاطفية .

والإسلام عندما شرع مناسك الحج أراد أن يحول — فعلاً — الإيمان من معان نظرية دُرست في الكتب ، وتلقاها الناس حقائق مقررة إلى معان عاطفية تربط الإنسان بنشأة الإسلام ونشأة المكافحين من أجل ظهوره ، تجعل الإنسان يرتبط بالمواطن الأولى للوحي ، وبسير الدعاة والرعاة الذين حملوا هذه الأمانات ، وعاشوا بها ، وعاشوا من أجلها ، حتى قدّموها للناس ناصجة مستوية

هذه هي رحلة الحج ، أو حكمة الحج . وما من أمة من الأمم حتى الأمم المادية التي تعبد التراب ، ولا ترى وجوداً لغير المادة ، حتى هذه الأمم تحاول أن تستثير مشاعر المؤمنين بها ، فهي تقيم « ضرائح »^(١) لطواغيتها ، وتكلف الزوار الذين يجيئون إلى عواصمهم أن يترددوا على مقابر أولئك الطواغيت صفوفاً مستظمة كي يؤدوا واجباً لميت يعلم الله أنه حطب لحهم ، وأنه كلب من كلاب النار ، ومع ذلك فإن سَدَنَةَ هؤلاء الطواغيت يريدون أن يربطوا الجماهير والأجيال الناشئة بمبادئهم وبأحزابهم ، فهم يجلبونهم ليزوروا هذه الضرائح ، وليتصلوا بها ، ولترتبط علاقات نفسية مع أصحاب المبادئ الذين عاشوا بها ، أو قدّموها لغيرهم ، هذا المعنى إلى جانب الأعياد التي تُصنع مرتبطة بمعاني المبدأ المادي وما إلى ذلك وتسمى ذكريات وأعياداً ، هذه كلها إنما شرعت في الفلسفات المادية ، والبلاد المادية ، كي تجعل الجماهير تثوب إلى شاخص حسي يُحوّل الاتصال بالمبدأ إلى تكريم له ، وإلى هُتاف له ، وما إلى ذلك مما يراد غرسه في القوس .

والله عز وجل أراد أن يجعل المؤمنين — على اختلاف الرمان والمكان — يرتبطون بالدين الذي اعتنقوه — وهو دين التوحيد — ويريد أن يكلف القادرين منهم على أن يحيثوا للأماكن التي بدأت فيها معالم دينه تظهر كي يرتبطوا نفسياً بها .

ولنأخذ المعاني معني معنى .

إن الرسالة الإسلامية ، وإن بعثة محمد — عليه الصلاة والسلام — كانت استجابة لدعوة جده إبراهيم وابنه إسماعيل — عليهما الصلاة والسلام — وهما يرفعان القواعد من البيت ...

فإذا كانت رسالة نبينا ﷺ وإذا كانت دعائم تاريخنا مرتبطة ببناء بيت

(١) الصريح : القبر ، والشق في وسط القبر والجمع ضرائح

لله فهل على أتباع هذا الرسول ﷺ من حرج أو عليهم من بأس يوم يذهبون زُرُفات ووُحدانا إلى المكان الذي بعث فيه نبيهم — ﷺ — إجابة لدعوة قبلت عنده ١١٩ .

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل ما إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة : ١٢٧ - ١٢٩] .

ولقد بعث في رسولنا ما إجابة لدعوة الخد الأكبر إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

أفليس من حق الأبناء والأتباع أن يجيئوا إلى هذا المكان كي يذكروا كيف انبعثت رسالتهم منه ، وكيف كان نبيهم الخليل — ﷺ — استجابة لدعوة قبلت وجدرائه ترتفع وقواعده تُمهّد ؟

ثم هذا البيت هو أول مسجد بُني على ظهر الأرض لتوحيد الله ، بُني على أنقاض الوثنية لتي حارها إبراهيم طول عمره ، بُني ليكون علما للتوحيد وراية للإيمان الخالص المزه .

أليس من حق هذا المسجد الأول أن يتبعه — بعد ذلك — كل مسجد يشأ على ظهر الأرض ؟ وأن يقف الرُكع السُّحود بساحات المساجد التي تنشأ بعد ذلك فيولوا وجوههم شطره ويصلوا ناحيته ؟

إن تكريم المسجد الأول شيء عادي ، وهذا سر قوله جل شأنه : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولا أتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ [البقرة : ١٤٩ ، ١٥٠] .

إن هذه الأسباب هي التي تجعل المسلمين يرسلون وفودهم كل عام ليذهبوا إلى المسجد الأول ، إلى الكعبة المشرفة : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ [المائدة : ٩٧] .

ومن مراسم تحيته أن يطوفوا به سبعة ، هذا الطواف سُنُّ فيه للطائفتين أن يشعّلوا أوقاتهم خلال كل طواف — وكل طواف من سعة أشواط — بتسبيح الله وتحميده وتمجيده وتوقيره ودعائه والطلب منه والتضرع إليه^(١) ، والطواف صلاة^(٢) ، يبدأ من مكان جعل الإسلام بداية هذا المكان الحجر الأسود ، والحجر الأسود حجر عادي ، لفرض جدلاً أنه نزل من أحد « التّيارك »^(٣) الملتية التي سقطت على الأرض ، لتعرض أنه جاء من السماء ، لفرض ما يفرضه ، إنه حجر لا يضر ولا ينفع^(٤) ، ومن ظن أن الكعبة تضر أو تنفع ، أو أن حجراً فيها يضر أو ينفع فهو إنسان جهول ، لأن الله جل شأنه علّمنا أن الضرار النافع ، الخافض الرافع ، المعطى المانع هو جل شأنه .

(١) في الحديث : « من طاف بالبيت سبعاً ولا يتكلم إلا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله بحيث عنه عشر مئآت وكسبت له عشر حسنات ورفع له بها عشر درجات ، ومن طاف لحكلم وهو في تلك الحال خاص في الرحمة برجليه كخائف الماء برجليه » قال في الترغيب والترهيب رواه ابن ماجة عن إسماعيل بن عياش حدثني حميد بن سوية وحسنه بعض مشايخنا ٢ / ١٢١

(٢) في الحديث : « الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير » عراه السيوطي في الجامع الصغير إلى الترمذي والحاكم والبيهقي وروى به بإسناد ، وقال في فيض القدير : قال ابن عبد الهادي هذا حديث لا يثبت مرفوعاً وقد اختلف الرواة في إسناده ومنه ولصحيح وقفه ٤ / ٢٩٣ .

(٣) التّرك : جرم سماوي يسبح في الفضاء فإذا دخل جو الأرض احترق وظهر كأنه شهاب ناقب متساقط

(٤) لحديث عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله ، فقال : « إلى أعظم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أي رأيت النبي ﷺ يقول ما قبلتك » رواه البخاري في الحج — باب ما ذكر في الحجر الأسود ٢ / ١٨٣ ومسلم في الحج — باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ٤ / ٦٦ وكلمة عمر — رضي الله عنه — فيها إشارة إلى أن هذا الأمر تبدي فعمل وعمر عنه لا يسأل .

الطواف صلاة ، لسان المرء فيها يلهم بذكر الله وشكره .

وإذا كان بعض المعقلين يرغم أن تقبل الحجر الأسود نوع من الوثنية فليكن تقبيل المنوك والرؤساء لأعلام دولهم نوعاً أيضاً من الوثنية ومن عبادة الأقمشة !! من قال هذا ؟! إِنْ كان الأمر لا يعدو إلا ترجمة لمشاعر الولاء لله فليس في هذا شيء ، ونحن في هذا ملتزم ما ورد .

ثم بعد الطواف يسعى المسلمون بين الصفا والمروة ، والسعى بين الصفا والمروة رمز لأمر يحتاج المسلمون إليه احتياجاً شديداً ، فإن المعلوم من تاريخ النبوات أن أبا الأنبياء إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — جاء بامرأته هاجر ، وأنه تركها وابنها الرضيع إسماعيل في هذا المكان ، وكان صحراء مُجْدِبَةٌ لا أماراة فيها على عمران ، ولا دلالة فيها على حياة ، وكان التصرف بهذه لمثابة تصرفاً مستغرباً حتى إن المرأة قالت لرجلها وهو يولى تاركاً إياها : أين تذهب ؟ ولكنه ما استطاع أن يجيب ، ليس لديه شيء يقوله ، إن الله أوحى إليه أن يفعل هذا ، وهو ينفذ أمر الله ، ولا يندري الحكمة ، فلما ألحّت عليه ولم يجب قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يُضَيِّعُنَا !!

كانت كرجلها امرأة مؤمنة صادقة ، ولكن مشاعر الأمومة هزتها عندما وجدت ابنها يتلوى ، يحتاج إلى الماء ، فذهبت تحرى يمينا ويساراً سبعة أشواط في هذا المكان بين الصفا والمروة حتى شاء الله أن يُفجر لها الملك نبع زمزم لتشرب منه (١) !!

ماذا نفهم من هذا ؟

نفهم من هذا أن الإنسان عندما يعتمد على ربه فإنه يعتمد على مصدر القوى ومميع الخير وسائق الفضل ، وأن الإنسان إذا صدق إيمانه ربّاً توكله ، وازدادت بالله ثقته ، وضعفت علاقاته بالماديات ، وليس معنى ضعف علاقاته بالماديات أن يستكين أو يتواكل ، لا . إن المرأة قامت تحرى

(١) قصة مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة وتفجر زمزم رواها البخاري في الأنبياء — باب يزعمون السَّلاَمَ في المشي ٤ / ١٧٢ ، ١٧٣

هنا وهناك حتى يسر الله لها آخر الأمر ما تحتاج إليه ، لا بد من حركة ، ولكن التوكل حتم ، وقد سمي الله بيه محمداً — ﷺ — المتوكل (١) .
ماذا ؟ لمعنى نحن المسلمين الآن فقراء إلى إدراكه ...

لقد بدأ وحيداً يدعو إلى الله ، ليس في الدنيا أصعب منه ، رجل يتيم مستوحش معزول عن قوى الخلق في دنيا اسودت فحاجها ، وامتلأت بالظلمات وشروخ الجاهلية آفاقها ، كُلف أن يعرض عُود التوحيد وبرعاه حتى يشمر في بيئة لا تدري شيئاً عن التوحيد ، وتضيق به ، وتألف الشرك وتعتر به ، وتقاتل دونه ، ومن وراء جزيرة العرب حضارات تفسحت من الطغيان والهوى وسيادة الشهوات !!

ورجل واحد هو الذي كُلف أن يقاتل كل هذا الطلام حتى يبدده ويمزق أسدافه ويقدم بلدنيا فجرها بالناسم الباقي إلى الأبد !!

إنه ما جزع لأنه ضعيف القوة أو دليل الخائب هو وأصحابه ، لا لكنه توكل على الله فنصره وجعل قوى الشر تتدحرج تحت أقدامه واستطاع أن يقيم دعوة التوحيد ويشر الرسالة الكبرى ويرعى رجاله الذين رباهم على يديه ولقهم دروس الحق من فمه استطاع أن يقصى على الباطل في الدنيا

التوكل على الله شيء خطير ، ولو أن العرب أهل إيمان ، ولو أنهم — فعلاً — يفسوا من الخلق واعتمدوا على الخالق لنصرهم كما نصر نبهم — ﷺ — ولسقاهم كما سقى امرأة في صحراء لا تحد هي ولا رضيعها شيئاً !!

إن التوكل شيء خطير ، وعندما تساق الأمة إلى مكان نبع الماء فيه من صحراء لا ماء فيها ولا ررع ولا ضرع يعرف الناس أن الانقطاع عن الله جريمة ، وأن الانقطاع إليه هو الاتصال كله وهو الخير كله !!

(١) عن عطاء بن يسار قال . لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله إنه موصوف في التوراة ببعض صمته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وجزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل . « رواه البخاري في البيوع — باب كراهية السحب في الأسواق ٣ / ٨٧ وتصبر سورة الفتح ٦ / ١٦٩ — ١٧٠ .

ثم يغالب الناس الهوى ، محو نغالب الهوى عندما يوسوس الشيطان
إليها بتذكر الله ، وتذكر الله جل شأنه يحجىء إلى أفئدتنا همسا ، ويتحرك في
قلوب المؤمنين باعث حير طيب ، لكن الله يريد في سفره الحج أن يتحول
الهمس إلى صوت جهير ، وأن يتحول الذكر الخافت في القلوب إلى هتاف
عال ، وبذلك فإن مناسك الحج تتحول كلها إلى مظاهرة ضخمة ، الهتاف
فيها لله وحده ، والصياح باسمه .

هذا هو المقصود من الحج ، وترى أن هذا هو القصد عندما تستقرىء
الآيات التي تتحدث عن الحج ، ولبدأ من قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر
معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج
وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون
يا أولى الألباب ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

لله واسع الغنى ، ما يكلفه العطاء جهدا ، إنها كلمة من حرفين
« كر » ، فلو أراد أن يحمل لدينا تحت أقدامك ذهبا وقصة فعل ، إن ذلك
لا يعنيه ولا ينعه ، ولذلك يقول للبشر : أنتم فقراء وبخلاء ، لكن أنا غنى
وسمح وكريم : ﴿ ليس عليكم جناح أن تنبغوا فضلا من ربكم فإذا
أفصتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن
كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

لاحظوا أن التعبير عن مناسك الحج أحد كلمة « الذكر » دائما :
﴿ فإذا أفصتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما
هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس
واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله
كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا
وماله في الآخرة من حلاق . ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك هم نصيب مما كسبوا والله سريع
الحساب ﴾ [البقرة : ١٩٨ - ٢٠٢] .

ثم إن القرآن لم يسم رمى الجمرات رمى الجمرات وإنما سماه ذكرا

عمال : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات لمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

يقصد أيام التشريق ورمي الجمرة — حمرة العقبة — في العيد . ثم يقول ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ [الحج : ٣٦٠] .

ويقول : ﴿ ولكل أمة جعلنا مسكاً لذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المحبتين ﴾ [الحج : ٣٤] .

ذكر الله هو الأساس في هذه الماسك كلها ، يتحول المعنى الصامت المستكن في الضمير إلى هتاف عال ، ولذلك يُسرُّ أن الحجاج يصيحون بالتلبية : « ليك^(١) اللهم ليك ، ليك لا شريك لك ليك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »^(٢) .

وفي الحديث : « ما من علب يلي إلا لي ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو ملك حتى تقطع الأرض من ها هنا وها هنا عن يمينه وشماله »^(٣) كأن كل شيء يتحول إلى كون يسبح بحمد الله ويذكره . يقف الناس قبل الطواف — طواف الفريضة — وقبل رمي الجمرات .. يقف الناس في ساحة واسعة ، يحتشد فيها مئات الألوف من الناس ، ساحة واسعة يتوسطها جبل يسمى جبل الرحمة ، والمفروض أن الناس طول هذا اليوم وجزءاً من الليل لا عمل لهم إلا الذكر والاستغفار ماسك الحج لا تعقيد فيها ولا صعوبة ، والمقصود منها هذا المعنى العاطفي الروحي الذي شرحته لكم ، لكن هل هذا محسوب هو ما يطلبه الإسلام من الحج ؟ .

(١) معنى ليك : إجابة لك بعد إجابة

(٢) لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن نثية رسول الله ﷺ « ليك اللهم ليك ، ليك لا شريك لك ليك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » رواه البخاري في الحج — باب التلبية ١٧٠/٢ ومسلم في الحج — باب التلبية وصفتها ووقتها ٧/٤ .

(٣) قال في الجامع الصغير . رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم ورمز له بالتحسين وقال في ميسر القدير : وفيه إسماعيل بن عياش وبقيّة رجاله موثقون ٤٩٩/٥

الواقع أن التجمع العظيم في الحج لم يدعه النبي ﷺ سدى ، ولم يترك المسمون يحتشدون مئات ألوف في هذا المكان ليؤدوا العبادات فرادى ويرجعوا فرادى ، لا .. لقد تمت حجتان أيام النبي ﷺ حجة أولى في السنة التاسعة ، كان أميرها أبا بكر — رضى الله عنه — وفي هذا الحجة لم ينقض موسمها سدى ، ولم يترك التجمع الذي حدث فيها ينقص دون استغلال ديني لقضايا الإسلام ..

كان المشركون ، كان أعداء الله من عبدة الأصنام ، ومن جحده أهل الكتب كانوا يتنمرون حول الإسلام الباهر ، كانوا يبيتون له نيات العدر ، كانوا قد سالموه عن غش ، وعقدوا معه معاهدات على دخن ، والإسلام دين شريف ، دين صريح ، يكره النفاق والغش ، ويكره المداهة والمراعاة ، ولذلك يقول الله ﷻ وقد وصاه بالنصراحة ، وعرفه كيف يدعو إليه ، يقول له : ﴿ وادوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [لقم . ١٩٠] .

لا مداهة في دين الله ، ولذلك في السنة التاسعة رُوى أن يمزق الستار عن القلوب العشاشة ، وأن يقال لمن يريدون الشر بالإسلام : ويحكم ، إن من يحاول العلوان علينا قلن تركه ، وقد تركناكم ثنتين وعشرين سنة ، ونحن نعطيكم حق الحياة ونرجو إلى جواركم حق الحياة ، ولكنكم تريدون الحياة لأنفسكم فقط ولجاهليتكم وشرككم !! .

الآن أنتم بين أمرين . أمامكم أربعة شهور ، من أراد أن يبقى على شركه فليترك هذه البلاد إلى حيث ألفت ، ومن بقى وفياً للعهد قبلناه ، وإلا فالسيف بيسا وبسه .. برلت في السنة التاسعة سورة براءة : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ [التوبة : ١ - ٣] .

قرأها علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — على الدس ، وكان قد

أُرسل بالسورة في حجة أميرها أبو بكر — رضى الله عنه — أُرسل بصدر سورة التوبة ليقرأها على الناس وانطلق المادون وسط مصارب الحيام ومحامع الحجيج وملتقيات الناس يقربون : « ألا لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان »^(١) .

انتهى هذا الضلال واستقرت كلمة التوحيد في هذه الأرض .

كانت هذه هي الحجة الأولى ، وكان أبو بكر — رضى الله عنه — أمير الحج يومئذ .

ثم كانت الحجة الأخيرة ، وكانت حجة الوداع ، وكان أميرها النبي ﷺ وقد خاطب في الناس خطبته المشهورة ، أَمَس فيها الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم^(٢) .

إن كل صيحة بنت حلال القرون ، الأخيرة ، سواء كانت صيحات حمراء أو بيضاء كانت تدور كلها حول المحافظة على حقوق الإنسان ، على مال الإنسان ، ودمه وعرضه .

وليت المسلمين حفظوا وصايا سهم ﷺ في حجة الوداع ، ليتهم حفظوها .

ماذا يطلب الإنسان في الدنيا إلا أن يعيش آمناً على دمه وماله وعرضه .

لقد نظر النبي ﷺ إلى الكعبة ثم قال :

« ما أطيبك ، وما أطيب ربحك ، ما أعظمك ، وما أعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم حرمة

(١) رواه البخاري في الحج — باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك ١٨٨/٢ ، ومسلم في الحج باب لا يحج البيت مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ويأبى يوم الحج الأكبر ١٠٦/٤ — ١٠٧ .

(٢) رواها مسلم في الحج — باب حجة النبي ﷺ ٣٨/٤ — ٤١ .

منك ماله ودمه» (١) . ومع ذلك فقد قامت في بلاد الإسلام حكومات استباححت الدماء والأموال والأعراض .

أى ترجمة لخطبة النبي ﷺ في هذا المسلك الخسيس ؟ .

أى وفاء لتعاليم الإسلام ، وأى عرض له في ديار الناس يوم تُرى بلاد الإسلام بلاداً متحلّمة ، الحكم فيها لمن يملك القوة والسطوة ، ولمن يستطيع أن يضع نفسه حيث وصعته العصابات وغير العصابات !!؟ .

وفي حجة الوداع يحرص النبي ﷺ على حقوق النساء وينوه بها ويبين ما للنساء من حقوق . ومع ذلك فإن المسلمين في كثير من القرى وبلدو الصحراء بل وفي كثير من المدن أكلوا تراث النساء فما ورثن كما يرث الرجال الصيب المكتوب لهم في كتاب الله أعرف ناساً كثيرين اجتاحوه ، أهدرت لهم أشياء كثيرة .

رسول الله ﷺ لما بنى المسجد نظر إلى أحد أبوابه وقال : « لو تركنا هذا الباب للنساء » (٢) فسمى باب النساء ، تُخصَّصُ منهن ، وكان ينبغي أن تكون هندسة المساجد في بلاد الإسلام على ما فعل النبي ﷺ باب للنساء يُختصُّ به ، منه يدخلن ومنه يخرجن ، وصهوفهن قائمة بذاتهن ، يشهدن الصلوات الجامعة ، ويتصلن بالأمة في جسّهن وعقلهن ، وقضاياها القرية والبعيدة ، لكن المسمين حولوا النساء إلى قواعد في البيوت ، ليست لهم رسالة إلا المتعة والشهوة فقط وكانت التبيحة أن تحكم اليهود الآن امرأة (٣) تذيق الرجال الكال !! .

رواه ابن ماجه في الفتن — باب حرمة دم نفوس وماله . ١٢٩٧/٢ وفي الزوائد . في إسناده مقال وبصر بن محمد شيخ ابن ماجة صعه أبو حاتم وذكره ابن حبان في الثقات وصعه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته : (٥٠٠٨ ... ٨١٠)

(٢) رواه أبو داود في الصلاة — باب في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال . وصححه وقفه على عمر بن الخطاب . لكن هذا الترجيح غير مستم فإن روية الرمع فيها عبد الله بن عمرو وعبد الوارث وكلاهما قتان ثبتان فلا رجح رواية الوقف عليه (المهمل العذب المورود شرح سنن أبي داود ٧١/٤ ، ٧٢)

(٣) هي جرند مائير رئيسة وزراء العدو الإسرائيلي

امسلمون يجب أن يعرفوا دينهم ، وأن يتفهموا معالم الإسلام ، وأن يدركوا الحقائق التي كُتبت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وأن لا يتجرؤا عليها . نشأ عن هذا أن ناساً من الغُهار والدُّعار رجالاً ونساء أخذوا يقودون الحركة النسائية عبداً ..

ونشأ عن هذا أن إحدى الصحف هاجمت ملابس الحشمة ، وفي الأسبوع الماضي تبعت مجلة « المصور » رميلتها لتحارب ملابس الحشمة ، لأن رسالة أولئك الصحفيين مُوعرٌ بها من خارج البلاد لنشر جرائم الانحلال الخلقي في بلدنا لحساب الصهيونية لراحفة واليهودية الحاقدة ..

هؤلاء عملاء ، ولكن ما كان لأولئك من صوت لو أن أهل الحق عرفوا الحق وقاموا به ونخدموه .

إن الحج ليس رحمة ميتة ، إن ناساً يذهبون إلى الحج الآن ثم يعودون مكثفين بأن حملوا لقباً !! .

هل درست قصاياهم ؟ لا . هل عادوا من موسم الحج بتحالف على محاربة الفساد الداخلي والغزو الخارجي ؟ لا . إن الحج ليس عبادة فردية لا في ديننا ولا في تاريخنا . فيجب أن نعلم ديننا وكفانا جهلاً حتى لا نستبقي على الويل والثبور وعظائم الأمور !! .

أقول قولي هذا وأستعفر الله لي ولكم ..

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [شورى . ٢٥ . ٢٦]
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين . وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وصيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن « مصر » الإسلامية مد بدأت عاش فيها أهل الدمة معيشة كريمة محترمة ، وتمكن الأقباط فيها من أن تكون لهم حقوق مكافئة للمسلمين مادياً وأديباً .

وليس ينتظر من المسلمين أن يَغْدِرُوا ، وليس ينتظر من المسلمين أن يعتلوا ، وما يُتوقع من المسلمين في زمان ولا مكان أن يحجى عنهم عدوان أو غدر أو طغيان . ولكني أوجه النظر إلى أن الاستعمار العالمي ، وهو استعمار يرتكز على أحقاد دبية وصغائن تاريخية يريد محو الطابع الإسلامي عن « مصر » ، لا يريد أن تكون « مصر » إسلامية ، وكل ما أطلبه من المسلمين :

أولاً : أن يُوفوا بعهودهم لمن لا يدين دينهم !! .

ثانياً : أن يتشثوا إلى آخر رفق بكل شُعبة من شعب الإيمان ، وكل حد من حدود الإسلام ، وكل حكم من أحكام الله ، وكل معلم من معالم الشريعة ، فإن العالم المتسمر ضدياً يتهاوس فيما بينه يقول : لقد عاش الإسلام أربعة عشر قرناً حسنه هذا يجب أن نجهز عليه !!

إني أندر حتى يعلم المسلمون أن معيشتهم في يوم الناس هذا وفي البعد القريب والبعيد ستكون معيشة كدح وكفاح ودفاع عن تعاليم الإسلام أمام

مؤامرات لا يقصها الدكاء ولا المهارة !! .

إنا نحن المسلمين نعيش أحياناً تستبد بنا الأوهام والأحلام والسذاجة
التي تبعد حد الغفلة !! وإذا كان القانون المحلى لا يحمى المعقلين فإن القانون
العالمى لا يحمى المغففين أيضاً !! .

ألا فتستيقظ أمماً ولتؤد واجبها نحو كتاب ربها وسنة نبها ﷺ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى
فينا معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا فى
كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ويئتأ ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعطكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ..

رواه مسلم فى الذكر - باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١ .

قِصَّةُ الْقِتَالِ فِي الْإِسْلَامِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ،
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

إذا كان هناك دين يحتاج إلى العنف كي يفرض تعاليمه على الناس
فليس هذا الدين هو الإسلام .

وإذا كان هناك مذهب يسعل النعوق المادى ، أو القدرة العسكرية
على فرض مبادئه ونشرها في المشارق والمغارب فإن هذا المذهب لن يكون
الإسلام .

إن الإسلام دين أساسه عقلى فطرى ، يجد طريقه ميسراً إلى القلوب ،
ممهداً إلى أولى الأبواب .

التوحيد لا يحتاج إلى عصاً تلهب الجلود كي يقتنع الناس به ..
العبادات السمحة ، والأخلاق الراقية ، ولعاملات العادة ، والشرائع
الضابطة لأفضل المثل ، وأشرف التقديرات ذلك كله ما يحتاج إلا إلى دعوة
هادئة وإقناع مجرد .

ربما يحتاج التفكير الذى يرفضه العقل ، أو المذهب الذى يأباه الطبع ،
وتكرمه الفطرة ، ربما احتاج هذا وذاك إلى العنف لينتشر .

لكن الإسلام لا يحتاج إلى العف ، إنما يحتاج إلى فاهم له ، وإلى سامع لا عش في قلبه ، ولا هوى في ضميره ، فإذا تيسر هذا وذاك فما يحتاج الإسلام بثته — إلى العف .

بل نقول أكثر من ذلك ، نقول : إن رسالات السماء التي بدأت مسيرتها على الأرض ما لحأت إلى العف في إقرار العبودية لله الواحد ، وفي حشد الناس على صراطه المستقيم .

مند الرسالة الكبيرة — رسالة نوح عليه الصلاة والسلام — استُبعد الإكراه طريقاً إلى تعليم الناس أو إدخالهم في دين الله .

وفي ذلك يقول الله عز وجل — على لسان نوح — ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتَ عَلَىٰ يَمَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَنَّنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] .

هذا التساؤل الذي جاء على لسان نوح — عليه السلام — ظل يتقَلَّب بين القرون حياً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، حتى وصل إلى الرسالة خاتمة ، فهي سورة يونس يقول الله لسه ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

اعتمد الدين في شرح مفهومه وبلوغ غايته على دعاة لهم لبٌ ناضج ، وقلب سليم ، واحتاحت البيئة إلى أن تحلو من السدود العائقة ، والطواعيت المستبعدة . عندما يكون صوت العقل لا حجاب أمامه ولا عائق فإن الإسلام ينتشر وينتصر .

وعندما تتدبر آيات الدعوة التي شرحت وطيفة الرسالة نجد هذا المعنى هو القائم ، يقول الله تعالى لسيه ﷺ : ﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور : ٢٩] .

يقول له ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدَ ﴾ [ق : ٤٥] .

يقول له : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ [العنكبوت : ٢١ - ٢٤] « إلا »
هنا — كما يقول علماء اللغة — استثناء مقطوع ، أو استدراك واستشاف
لكلام جديد بمعنى « لكن » .. لكن ﴿ من تولى وكفر . فيعذبه الله
العذاب الأكبر ﴾ .

يقول الله ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى
فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

يقول الله : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء
فليكفر ﴾ [الكهف : ٢٩] .

يقول الله : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عمل ولكم عملكم أنتم بريئون
مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ [يونس : ٤١] .

هذه الآيات كلها من القرآن الكريم الذى نزل بمكة المكرمة . وقد
قلنا : إن ما يطلبه الإسلام دعوية يحس فهم ما يقول وعرضه على الناس
العرض اللبق الواعى اللطيف ، ثم دس قلوبهم سيمة ، وبيئة خالية من
الطواعيت التى تعترض سير الحق كما تعترض الجادل^(١) مسيرة الأنهار ..

بهل وجد الحق السبيل ميسرة أمامه ليتشر ؟ .

هذا تساؤل يُنظر إليه من حلال الواقع ، لا من خلال الخيال .

إن الذى حدث — فعلاً — أن ناساً كثيرين ضاقوا بكلام المرسلين :
﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنحرجنكم من أرضنا أو لنعودن فى
مملتنا ﴾ [إبراهيم : ١٣] .

هذا وضع غريب ، أنت تنير الطريق فيحىء من يريد كسر المصباح
ويقول لك : ابق معنا فى الظلام !! عندما مشى الإسلام فى طريقه يعرض

(١) الجدل مكان فى مجرى النهر به حجارة تشد حوافها سرعة التيار وتعلم الملاحة والجمع

نفسه على الناس وُجد في هذا الطريق من يقول له : اسكت ،
لا تتكلم !! .

حُطّتنا في العرض كانت واضحة ، نحن نقول لغيرنا : عندما دين
صحيح لا ريف فيه ، صادق لا كذب فيه ، واضح لا عموض فيه ، خير
لا شر فيه ، تعرضه عليك فإن قبته قلبته ، فإن قال : قبت ، فهو أحونا ، وإن
قال : رفضت ، قلنا له : من حقتك ، لكن لنا معك موقف ، ما هو ؟
تدعنا نشرح الحق لغيرك ، فإذا قال : ادعوا من تريدون ، فأنا لا أصدكم ،
قلنا له : لا صلة لنا بك ، أما إذا قال لنا : لن أَدْعَكم
تشرحون الحق لغيركم ، ولن أَدْعَ غيركم يستمع إليكم ، وإذا استمع وقيل
فنته وبكلت به .

هنا مأبُذ من أن أشتبك معه ، وأن أصفى حسابى معه بالدم ،
وما يلومنى أحد ..

هذا هو خط سير الإسلام ، والأساس الأول للقتال الذى دار بعد
ذلك .

شرح مرة أخرى ، أكان موقف أعداء الإسلام منه موقفاً محايداً أو
سببياً ؟

نظر فوجد أن أعداء الإسلام وصفهم القرآن فكشف خباياهم بطريقة
كان فيها واصفاً للواقع وحده .

يقول جل شأنه : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْعَ
مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة . ١٢٠] .

لكن أنا لن أبيع لا ملة اليهود ولا ملة النصارى ، إداً لن نرضى عنك
أبداً ، ليكن ما احتاج إلى رضاكم ، ولا أسعى إلى طلبه ، ولكنى أطلب
العدالة فى المعاملة ، يبنى ويبسكم العدالة ، أنا إذا عاملتكم فعلى أساس
ما علمنى الله . ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل
آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بيسكم الله ربنا وربكم لنا

أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿ [الشورى ١٥] فإذا قالوا : لا : ومشي الأمر في طريق آخر يصفه القرآن فيقول : ﴿ ولا يرالون يقاتلونكم حتى يردركم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

ما الحل إذا كنت سأسير في طريق انتشر فيها لصوص العقيدة ليقولوا : لن ندعك تمر بالتوحيد أبداً ، لن ندعك تثر بهذا القرآن أبداً ؟ .
مابد إذاً من أن أتسلح ، وأن أصح كل ما أمكن من أسباب المقاومة في يدي ويد من معي ، وأن أورث أولادى هذه المقاومة إلى آخر الدهر .

هل أوصف بأننى عنيف ؟ .

أنا مالحات للعنف أبداً ، إنما ألتأني الآخرون إليه ، من سألنى فأنا معه كما قال الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [المنحة ٩]

هذا هو الإسلام ، فأنا أريد أن أمشي في طريقي وأبقى مستجعماً
أمرين :

الأمر الأول : الجهار العاقل الواعى الذى يعرض الدعوة بقدرة عقلية على أولى الأبواب في كل زمان ومكان . هذا الجهار لا بد منه لأنه أساسى الذى أقوم عليه ، هذا الجهار — جهار الدعوة — الذى يدرس العالم كله وما يسوده من فلسفات ، وما ينتشر فيه من أفكار ، ويكون الجهار قديراً على قياس مسافات القرب والبعد من العقيدة التى أدعو إليها والشرعية التى أحكم بها . هذا جهار لا بد من استبقائه وتسميته وتعذيبه علمياً بما يعينه على أداء رسالته .

الأمر الثانى : لا بد من جهاز آخر يقوم على المقاومة المسلحة لعوامل الفتنة التى تأمرت قوى العلم الشريرة على أن تعترضنى بها .

أحب وأنا أنظر إلى التاريخ أن أكون واقعياً — وأنا أواجه الآخرين
لآن .

إن من أسباب فرحة النبي ﷺ بمعاملة « الحديدية » مع أن في
نصوص المعاهدة ما يشير بظاهرة إلى أن فيها خيفاً على المسلمين ، لكن النبي
ﷺ كان فرحاً بالمعاهدة ، مستريحاً إليها ، لماذا ؟ .

لأنه انتزع من أعدائه الاعتراف به ، كان الدين معتبراً خارجاً على
القانون ، وكان أتباعه معتبرين ضد السطة القائمة والأوضاع القائمة ، فلما
ظفر بهذا الاعتراف قيل المعاهدة على ما بها .

فماذا يصنع المسلمون إذا كانت قوى العالم الكثيرة لا تريد الاعتراف
بهم ؟ .

قد يقول بعض الناس : ومن قال لك : إن العالم لا يريد أن يعترف
بك ؟ .

والجواب : التاريخ قال لي هذا ، ويشاء الله — وأنا رجل مسلم ،
وعالم من علماء الدين — كنت أداكر في « الأزهر » دار الحرب ، ودار
الإسلام ، فكان بعض الناس يتساءل : لماذا تسمى بقية العالم دار حرب ؟
قلت له : أطل المعاملة جاءت بالمثل ، قال : كيف ؟ قلت له . هناك أمور
لا يمكن أن تحل داخياً ، إنما تحل دولياً ، قال . مرة أخرى : كيف ؟ قلت
له : ديسا يتشوف إلى الحرية — كما يقول علماء الفقه — وله في هذا كلام
لا يقال الآن ، لكن هل يستطيع أن يصدر أمراً داخلياً في أرض الإسلام :
أن كل أسير يحرر ؟ كيف ؟ إذا كان أسراى سباعون في أسواق الرقيق فهل
تبلغ في العملة أن أحرر — أنا — الأسرى تحت يدي وأترك أهبأى يباعون في
العالم كله ؟ .

المعاملة بالمثل — هنا — أساس ، ومعنى هذا أن أقول لهم : إن شئتم
حررنا الأسرى جميعاً ، أما أن أحرر أنا وحدي فلا ..

فإذا قرر العالم منع الاسترقاق فأنا أول من يمضي !! كذلك الاعتراف

نى ، إذا أبوا أن يعترفوا نى فكيف أعترف بهم ؟

قلت : هذا من باب الاجتهاد وأنا طالب صغير ، لكن قرأت فيما بعد ما أثبتته فى كتاب صدر لى من خمس وعشرين سنة^(١) ، وما أثبتته يعطى فكرة عن الوضع العالمى للمسلمين ، القول التى أقرؤها عليكم الآن من كتاب^(٢) أُلهمه الدكتور « محمد حفظ عام » وقد كان — فيما أعلم — وزيراً للتعليم العالى ، وكان أيضاً رئيساً — يوماً ما — لمجلس الأمة ، والكتاب مقرر على طلاب « معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية » .

يقول المؤلف تحت عنوان : « العائلة الدولية كانت تستعد دار الإسلام من حظيرتها » . ومد نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التى يقررها هذا القانون .

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راعين فى اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية ..

ف « جروسيوس » أب القانون الدولى قال بوجود عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية ومع أنه يرى القانون الطبيعى يحير عقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى إلا أنه نادى بتكثيل الأمراء ضد أعداء العقيدة .

و « جنتيلس » هاجم « فرسو » الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان العثمانى فى سنة ١٥٣٥ .

مع أن هذه المعاهدات أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين . وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا فى دار الإسلام ، ومحتهم امتيازات دينية وقضائية .

(١) هو كتاب « كفاح دين » ص ١١٢ وما بعدها ط در الكتب الحديثة ، الطبعة الثالثة سنة

١٩٦٥ م

(٢) الكتاب « المجتمعات الدولية لإفليمب » .

وذلك على أساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاوناً بين ملك مسيحي وبين
غير المؤمنين .

بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم في
أوروبا على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين

أنا نقلت من هذا الكتاب نحو ثلاث صفحات من موقف القانون
الدولي ضد الإسلام ، واعتبار الإسلام حارجاً على القانون واعتبار المسلمين
لا يعاملون بالقانون الدولي .

هذا في القرن التاسع عشر ، ثم جاء القرن العشرون وأُسِّست هيئة
الأمم ، ولم تر هيئة الأمم حرجاً من أن تطرد عرب فلسطين المسلمين من
أرضهم لتعطى هذه الأرض عصابات اليهود التي استقدمت من هنا ومن
هناك ويبدو — إلى الآن — أن المسلمين يعاملون معاملة الخس الأسود في
جنوب أفريقيا ، فهم يعتبرون المسلمين من الدرجة الثانية ، أو إن سمح لهم
ببقاء مساوئهم في حدود معينة !! .

بداية ما نرضى لأنفسنا ، وما يرضى عاقل لنفسه أن يحيا على هذا
النحو ، بل لابد أن نترك الحقائق كاملة ، وأن نتعاون في رد العدوان
وكسر حدته ، والسجاة بديس من عبث هذه المؤامرات قانونية كانت أو غير
قانونية .

لذلك كان الإسلام في تعاليمه جامعاً بين الأمرين : إن أعطينا حق الحياة
والكرامة والحديث إلى غيرنا أعطينا غيرنا هذا الحق ، وإن ضُنَّ علينا بحق الحياة
والكرامة والعيش وفق ديننا فإننا نُضِرُّ على الآخرين بهذا الحق .. وما يلومنا
أحد على هذا ، أما الأساس الأول الذي يقوم عليه الدين فهو أن ينشر بغير
إكراه .

بعض المستشرقين أو المبشرين قل : إن الآيات التي تضمنت حرية
المعتقد والتي قالت للآخرين : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦]
كانت في مكة ، فلما شعر المسلمون بقوتهم ، وتماسك السيف

مخطب الغزالي - المجلد الثاني

بأيديهم ، وأسسوا بالهجرة دوة هم قرروا أن يعاملوا الآخرين معاملة فيها غش ، وأن ينسوا ما كان من حرية المعتقد ، ويلجأوا للقتال 11 .

هل هذا الكلام حق ؟ هل القرآن الذى نزل فى المدينة يخالف القرآن الذى نزل فى مكة من هذه الناحية ؟ .

الجواب : لا . لأن أول سورة نزلت فى المدينة سورة البقرة ، وسورة البقرة تضمنت ثلاثة مواضع وهى تتحدث عن أتباع الأديان الأخرى .

مها الآية العظيمة التى لا يُعرف لها نظير فى مكان آخر من أوص الله ، وهى قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة ٢٥٦] .

ومنها قوله تعالى لأهل الكتاب : ﴿ قل أتتاجروننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ [البقرة ١٣٩] .

ومنها قوله تعالى وهو يتناول موقف اليهود منا : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة ١٠٩] بل إن آخر ما نزل فى القتال وشرائعه ما حثت به سورة التوبة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [التوبة ١٢٨] . [١٢٩] .

قصة الجهاد فى الإسلام قصة مشرفة للمسلمين ، وقصة القتال فى الإسلام قصة مشرفة للتاريخ الإسلامى .

والقضية ليس فيها ما يريب ، ولا ما يحضج إلى تدخل التافهين ليعبثوا بتعاليم الإسلام .

وقع فى يدى كتاب عليه أسماء بعض الدكاترة الذين يشتغلون بالطب ،

مكتوب في هذا الكتاب : « حتمية تأويل آيات القتال في القرآن » .

سبحان الله !! قلت في نفسي : كيف تؤول آيات القتال ؟ وبدأت أقرأ فإذا بالدكاترة العاقرة ذكروا بصير كمداح هذا التأويل الذي لا بد منه في القرآن الكريم .

النص الأول : قوله تعالى : ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ [محمد : ٤٠] .

قال الدكاترة العاقرة . إن المقصود بالقتل هنا قتل الشهوات والأهواء .

هذه الكلمة ليست مستقلة وإنما هي جزء من الآية الرابعة في سورة محمد ﷺ أو سورة القتال كما يسمى في كثير من المصاحف ، هذا الجزء من الآية الرابعة يفهم بداهة مرتبطاً بها ، م هي هذه الآية الرابعة ؟ الآية الرابعة هي ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فاصربوا الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ [محمد : ٤] .

يقول الدكاترة الذين كتبوا الكتاب : إن الآية لا صلة لها من قرب ولا من بعد باقتال الذي تُسفك فيه الدماء !! ألا شأنت الوجوه .

الآية تقول : عندما تلاقون المعتدين الصادين عن سبيل الله ، الضائين عليكم بحق الحياة اضربوا أعناقهم ، وقيدوا أسرارهم ، وأثخنوا في الأرض حتى ترهبوا عدو الله وعدوكم ، هذا كله يُهدر ويقال : إن الآية في حرب الشهوات ؟ !

أي شهوات ؟ حرب الشهوات والأهواء لها آيات أخرى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ [صر : ٢٦] ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ [الروم : ٢٩] .

أما أن تحيء لكلمة هي جزء من آية قتال ساخن دموى أساسه أنك تريد إنقاذ عقيدتك ممن يعي سرقته ، وإنقاذ كرامتك ممن يبغى استباحتها ،

وإنقاذ يومك وعدك ممن يريد التطويج هما في مهاوى انصاء محيى
لتقول : هذا القتال في حرب الأهواء ؟!

النص الثانى الذى نقله الدكاترة العباقره في كتابهم هو قوله جل
شأنه . ﴿ وَإِنْ نَكُنْثَا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
أُتْمَةَ الْكَفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة ١٢]

قال الدكاترة العباقره : إن المقصود بالقتال هنا الحدل والمحاورات
العقلية ونقد الأدلة ؟!

أى كلام هذا ؟ الآية من سورة التوبة ، وسورة التوبة بدأت بإلغاء
المعاهدات التى عثت بها أعداء الله ، وقالت للمسلمين : ارفضوا هؤلاء :
﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكُنْثَا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُتْمَةَ الْكَفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تَفْقَهُونَ
قَوْمًا نَكُنْثَا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوا بِكُمُ الْفِتْنَةَ أَنْتُمْ خَشِيتُمُ
اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُغْزِمَهُمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة ١١ - ١٥] .
هل هذا القتال قتال أداة خطائية أو إقناع عقلى ؟ أم القتال هنا حياء
لأناس انتصروا أسلحتهم لصربا ، ومنذ من أن تكسر السلاح في أيديهم ،
وأن نذيقهم وبال ما قدموا هم لأنفسهم ؟!

الكلام الذى فاه هؤلاء الدكاتره حصر ، فبعد صفحات قرأت تفسيراً
لحديث سوى معروف وهو حديث : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده
فإن لم يستطع فليسانه ، فإن لم يستطع فليقلبه وذلك أضعف
الإيمان » (١) .

يقول الدكاترة العباقره : معنى الحديث : من رأى منكم منكراً في
نفسه هو فليغيره بيده !! وفى المجتمع ؟ لا سبحان الله !! أدركت أن هذا
الكلام ليس وراءه عقل علمى ولا فقه إسلامى ولا شرف نفسى ، بل هو
كلام لحراسة الفساد في بعض المجتمعات ، أو لخدمة الاستعمار العلمى الذى

(١) روه مسلم في الإيمان — باب بيان كون الدين عن مسكر من الإيمان وأن الإيمان يريد

ويقص وأن الأمر المعروف والنهى عن المنكر وحان . . .

استباح الدم الإسلامى فى كل مكان

وقد حدث أن الاستعمار الإنكليزى لما وحد الجهاد الإسلامى يعكر صفوه ، ويعترض طريقه استعان برجل اسمه « ميرزا علام أحمد » — زعيم القاديانية — فأبطل الجهاد ، وأبطل الحج ، حتى لا يتجمع المسلمون لا تجمعاً مدنياً ، ولا تجمعاً عسكرياً ، وحتى ينتشر الضلال فى الأرض دون أن ينتصب له مؤمنون أشداء يقفون صلابه وينكسون رايته . ولكن القاديانية فصيح الله صاحبها ، وفصح أتباعه ، وعرفوا بأنهم أعداء للإسلام ، وعوملوا — فى حكومة باكستان الحالية — على أنهم أئدية دينية مقطوعة الصلة بالإسلام .

فهل ينتهى التحريف القاديانى فى الهد لبدأ بعض الدكاترة — ومهم أناس فى كلية الطب فى جامعة القاهرة — التحريف فى « مصر » ولا فقه لهم فى دين الله ، ويتحدثون فى شرح الإسلام وقضايه على نحو طائش أحق لا يمكن أن يُعترف به ، ولا يمكن أن يتحدث عنه بهذا الأسلوب إلا حصوم لذين الله .

والواقع أن هذا الكلام يجب أن توضع أمامه علامات استفهام كثيرة ليعرف حساب من يقال ؟ من وراء هذه الأراجيف ؟

بقى شئ وحيد يمكن أن شرجه لأنه بحاجة — فعلاً — إلى شرح ، ورعا كان ظاهر الحديث المروى سبباً فى أن يحدث تساؤل يسعى أن يحجب عنه .

روى البخارى ومسلم عن النبى ﷺ قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله » (١) .

ظاهر هذا الحديث يحدع ، يحدع من ؟ يحدع من لا ثقافة إسلامية له ، لأنه سيفهم من هذا الحديث أن صاحب الرسالة ﷺ مأمور بشئ عار على العالم كله حتى يقول الناس . لا إله إلا الله ، وتنتهى العارة عندما يقولون : لا إله إلا الله !! .

هل هذا هو معنى الحديث ؟ هذا كذب لا أصل له ، والسبب فى

(١) رواه البخارى فى الجهاد باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة ٥١٤٤ ومسلم فى الإيمان

باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ٣٩/١

هذه الخُدعة التي فهمت من ظاهر الحديث كلمة « الناس » في قوله :
« أمرت أن أقاتل الناس » — فقد فهمها كثيرون على أن المقصود
بالناس الشر عموماً ، وهذا غير صحيح

أول ما نذكره في تكذيب هذا المذهب أن العلماء أجمعوا على أن كلمة
« الناس » في الحديث لا تشمل أهل الكتاب ، لماذا ؟ قالوا : لأن سورة
التوبة تحدث عن المعتدين من أهل الكتاب الذين لا يعرفون حلالاً
ولا حراماً في معامتهم للمسلمين ، تحدثت عن قتالهم وجعلت العاية منه
محددة : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى
يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [توبة : ٢٩] .

فكانت العاية من قتالهم — لا أن يقولوا لا إله إلا الله وإعما : ﴿ حَتَّى
يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .
فلا صلة للحديث المروي لا باليهود ولا بالنصارى .
هل يتناول المشركين كلهم ؟ .

لا : « فإن عمر بن الخطاب ذكر المحوس ، فقال : ما أدرى كيف
أصع في أمرهم — فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعت رسول الله
ﷺ يقول : « سَتُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ » (١) .

إذا هؤلاء أيضاً ليسوا في الحديث .

ما المقصود من الحديث إذا ؟ .

كلمة « الناس » هنا ، قال العلماء : إنها عام مخصوص ، وقد وردت
كلمة « الناس » في القرآن عموماً يراد به خصوص في مواضع كثيرة ،
مما قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ الناس هنا : بعض المنافقين ﴿ إِنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ الناس هنا : بعض المشركين ، إذا فالناس في
الآية ليس المقصود بها عموم البشر ، آية أخرى هي قوله تعالى : ﴿ إِذَا

(١) رواه مالك في الموطأ كتاب البركة — باب جرية أهل الكتاب والمحوس ٢٧٨/١ قال
الثوكاني في بيل الأوطار وهذا منقطع ورجاله ثقات ورواه الدارقطني وابن المنذر في الغرائب من
طريق أبي علي الحنفي عن مالك فزاد فيه عن جده أبي جعفر بن محمد وهو أيضاً منقطع لأن جده =

حاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴿
[الصر : ١ ، ٢] ما الناس الذين دخلوا ؟ أهل القارات ؟ لا . عرب
الجزيرة .

كلمة « الناس » في الحديث تفسير لكلمة « الناس » في قوله تعالى :
﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من
المشركين ورسوله ﴾ [التوبة : ٣] .

الناس هنا : هم الذين حابوا الأمانات ، ولعبوا بالمعاهدات ، وعشوا
بالمواثيق التي أحدثت عليهم ، أما الذين يساويهم ميثاق فقد استثنوا من
هذا القتال كله :

﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا
عليكم أحداً فأتقوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾
[التوبة : ٤] .

المهم أن الحديث ليس على طاهره ، والحديث صحيح السند ، ولكن
يحتاج المعنى إلى فقه الفقهاء .

يحيى واحد صعلوك فيقول : الحديث كذب لأنه عدوان على
الناس !! .

كيف كذبت الحديث ؟ الحديث صحيح لكن له معنى ، لكنها قلة
الفقه وسوء الأدب .
نسأل الله العافية .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

= علي بن الحسين لم يدحق عبد الرحمن بن عوف ولا عمر ، فإن كان لصغير في جده يعود إلى محمد
ابن علي فيكون متصلاً لأن جده الحسين بن علي سمع من عمر بن الخطاب ومن عبد الرحمن بن
عوف ، وله شاهد من حديث مسلم بن العلاء الخصرمي أخرجه الطبراني في آخر حديث يعط
« سو بخرس ستة أهل الكتاب » (بين الأوطار ٥٧/٨)

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [نورى ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأسياء وسيد المصالحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : فى الحقيقة ألسنا نحسح فى هءا اعصر إلى شىء من التأمّل والتؤدة ونحن نواجه المكابء والمؤامرات التى تؤح للإسلام وأهله .

ءلك أن هناك جهة متءببى نكن فىهم بلاهة ، وهناك أعداء وفىهم حُب وءهاء ..
والإسلام بىن بارى من هؤلاء وأولئك ..

ورء ءءبث فىول : « إنا أمة أمة لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » فىنى مرة تسعة وعشرىن ومرة ثلاثىن^(١) .

ما معنى الءءبث ؟ اعرب فى ءاهلىنهم كانوا أمة أمة ، ما يعرفون الءساب الفلكى ، ولا تشىع الكتابى بىهم ، كانوا كالإبل اءائمة فى الصءراء ، ءتى ءاء الإسلام فىقلهم بثقافته .

﴿ هو الذى ءعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقءره مارل لتعلموا عءء السنى والءساب ما ءلق الله ءلك إلا بالءق نفصل الآيات لقوم فىعلمون ﴾ [بوس ٥٠] .

فانتقل العرب — بءاهة — إلى أمة مثقفة ، ءامعارف ءصبة، ولها ءصارة رائعة .

(١) رواء البخارى فى الصوم باب قول اسى ﷺ لا نكتب ولا نحسب ٣٥/٣ ومسلم فى الصىام باب وءوب صوم رمصال لرؤىة الءلال ، ونعطر لرؤىة الءلال ١٢٤/٣

فأدى بهم من حديث . « إنا أمة أمية » أن الأمية شرف ، وأنا
سحب الطلبة من الكليات ، وصر بهم إلى الخصال فهذه عداوة ما يمكن أن
يقول بها عاقل ، ولا يصعها إلا البه .

يحيى آخر فيقول : الحديث كذب ، لا . الحديث صحيح ،
كن فهمكم أنتم له هو الكذب ، فيهم الحديث كذباً ثم يكذب الحديث ،
وتفتح ثرة في جدار الثقافة الإسلامية ، لأنه عندما يحيى العيال والصعاليك
ويكذبون البحارى ومسلماً وكتب السنة فمادا يقى في الإسلام ؟ .

انقرآن ؟ سَيُؤَوَّلُ على هذا النحو لدى شرحته لكم ، ويصيع الدين
كه

إن الله عز وجل لم يخلق الناس متساوين لا في كفايتهم ولا في مواهبهم ،
وم يقل جل شأنه للناس إذا جهلوا : أسألوا الخهلة أمثابكم ، ولكنه قال :
﴿ فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء ٧] وأمتنا محتاجة إلى
جماعات كثيرة ، كثيرة جداً من أهل الذكر يشرحون للناس دينهم ، ويعرفونهم
معاشهم ومعادهم .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا
في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

عهد المظالم والهزائم

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/٦/٨ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، به الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيد محمد ، وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الناس يستقبلون في الأيام الأولى من هذا الشهر — بالتقويم الميلادي — ذكرى كئيبة ، تشوُّدُها وجوه ، وتُكسُّ بها رؤوس ، ويشيع معها جو من الأسى والعجب !! وذلك أن العرب لحقت بهم هزائم شنعاء في هذه الأيام لأولى من هذا الشهر .

وهي هزائم يريد العدو أن يسي عليها أشياء خطيرة ، يريد العدو بها أن يصف نفسه بأنه عدو ذو بأس شديد ، وعزم حديد ، وقلعة خارقة .. ويصف بعد ذلك العرب والمسلمين بأنهم شعوب في طريق التلاشي ، وأنهم أمم قد أخذت تمقد حصائص الحياة ، وأن ما نزل بها من هزائم إنما كان تسجيلا لما تستحق من إدبار أمرها ، وسقوط ألويتها .

والأمر على هذا النحو لا يمكن أن نسكت عليه ، ولا أن نستطيع أمام ربنا أن ندع الأكاذيب تربر وتنمو مع صمت من يعرفون الحقائق .
أريد أن أقول — معتصما بالله — :

إن الهرائم التي وقعت لم تكن هزائم للأمة الإسلامية ، ولم تكن هزائم للجيوش العربية ، لكنها كانت هزائم لطرار معين من الحكم ، ولون معين من الرجال ، ونوع معين من الخطط !!

أما بالنسبة لنا نحن المصريين فإن خير بالشعب المصري والجيش المصري ، ويسعى أن أقول : إن أعداءنا يريدون أن يفقد ثقتنا بأنفسنا ، وأن تشيع الأكاذيب التي روجوها ، وسوا عليها ، وما يسعى نحن أن نستسلم هذه الحطة .

إن ما وقع من هرائم لا يمكن إنكاره ، ولكنه لم يكن هزيمة للجيش ولا للشعب ، إنما كان هزيمة لعصابة من الناس وقعت أرمة احكم في أيديها ودت الله ورسوله ، وأهانت المؤمنين ، وتركت وراءها هذا الدمار المادي والأدبي ينال من كرامتنا ، ومن حقيقتنا !!

الجيش المصري سبقت له مواقف في التاريخ ما تُذكر ، فهو الذي هزم الصليبيين في « حطين » وغير حطين ، وهو الذي هزم التتار في « عين جالوت » وغير عين جالوت ..

وامتطاع فلاح تركي اسمه « محمد علي » هذا الجيش من المصريين أن يمد حدود « مصر » حتى « الحرائر » عربا ، وحتى « مابيع النيل » جنوبا ، وحتى « الخليج العربي » شرق ، وحتى « القسطنطينية » وداحل « جزر اليونان » و « شبه جزيرة الموره » شمالا .

الجيش جيش محترم يوم يُررق قيادة محترمة ، لكن يوم تقع أرُمته في يد عيبة فإنه سيهار يقينا .

الشعب المصري ليس تافها ، ولست أقول هذا لأني مصري ..

إن هذا الشعب له حصائص أصيلة ، هذا الشعب في آخر قضاياه — ولا أذهب إلى الماضي البعيد — يوم استطاع الإنكليز أن يدخلوا « رشيد » في أول حملة من حملات الاحتلال ، وفُرت الجيوش « الآساية » من أمامهم ، قرر الشعب المصري أن يقاوم ..

الشعب أعزل ، ومع ذلك فإن اثنين من المؤرخين كتبوا وثيقة —
موضوعة الآن في وثائق وزارة الخارجية الانكليزية ، ومترجمة في بعض كتبنا
العربية والإسلامية — تقول : إن أهل « رشيد » قاوموا بحرّوت ،
وتقول : إن الحملة التي نزلت سرعان ما بدأ الأهالي في الحارات ، وفي
الشوارع ، ومن أسطّح البيوت ، ومن نوافذ البيوت ، أخذوا يُحولون
المدينة إلى بركان ثائر .

كانوا يُغلّون الريت ويسكبونه على الحود ، وكانوا يضربون بالرصاص
والبلط والعصى ..

ووجد القائد الانكليزي نفسه أمام محنة ، إذ فقد نصف الحملة —
تقريباً — في شوارع « رشيد » وحاراتها مع الشعب بعد أن قرّ الجيش
الألباني ...

وكانت إشارة الهجوم على المحتلين من مسجد « المحلى » —
« رشيد » !!

هذا ما وقع في « رشيد » مع الانكليز ، وما وقع مع الفرنسيين أن
ربع السكان في « مصر » — تقريباً « قُتلوا أو جرحوا وهم يقاومون
الجيش الفرنسي بعد أن هُزم المماليك !!

وتاريخ المقاومة لا يُدرّس ولا يُكتب ، كأن هناك مؤامرة لإشعار هذه
الأمة بأنها لا تحسن المقاومة ...

إن الجيش المصري أصيل ، وتاريخه مشرف ، والشعب المصري
أصيل ، وتاريخه مشرف ، ومفتاح شخصيته الإسلام ...

يوم ينادى هذه الصيحة ، ويوم تُدار في أقاليم هذه المماليك المؤمّة فإنه
يتحرك فلا يقف أمامه شيء في الأولين والآخرين !!

إن الهزيمة التي وقعت كانت هزيمة عصابة من الناس يستمتع بقدر كبير
من العباء والجهالة وكبرياء الصلال ...

هؤلاء كانوا في واد والشعب في واد آخر ، لأن القانون مُحَن ، ولأن كل إنسان كان مُروَّعاً ، لم يكن هناك وجود لقانون عقوبات أو قانون أخلاق ...

كان من الممكن لأي حاكم من هؤلاء إذا أعجته عِمارة من العمائر أن يعلن حراسة عليها ثم يسكنها أو يسكنها أتباعه !!

كان التدبير شبة ، وصلاة الفجر في بعض المساجد مشكلة ، ولبعد عن الحمر والديثة يُعَرَّض صاحبه للهوان والصياع وخراب المستقبل بعد الحاضر !!

فلما وقعت المعركة كان الناس يتفرجون !! وكيف وُضعت الحطة ؟ .

يقول لي طيب : صدر في أربع وعشرين ساعة نحو عشرين أمراً متصاربة متناقضة ؟ .

فما استطاع الجيش أن يصنع شيئاً أكثر من أن يحمل سلاحاً ربما لم يُجَرَّب ، أو ربما لم تُفتح أغلفته ليعطيه اليهود !! .

كانت خطة لا تظهر لها في الغباء ، الجيش معدور ، والشعب معنور ، والأمر محتاج إلى أن يدرك الناس الحقائق .

كان الجيش يستطيع أن يفعل الكثير ولكنه عجز ، وكانت الأمة تستطيع أن تفعل الكثير ولكنها عجزت .

في الحرب الأولى مع اليهود في سنة ١٩٥٦ م كنت يقظان مدركاً لما هالك ، كانت في شعبا بقايا من الإيمان والوطنية ، وعندما وُزَّع السلاح على الشعب ليقوم ككت موقفاً أن هذا السلاح لن يُستغل إلا في ضرب العدو ، وعندما أكره سكان القاة على أن يهجروها كان الناس يصلوهم ويوتهم وعواطفهم وتقاليدهم يرحبون بالمهاجرين لأن بقايا الإيمان موحودة ..

كنت موقناً أن شيئاً حدث عبر كريم وهو هزيمة جيشنا على الحدود

الشرقية بسرعة غير متوقعة ، وقيل يومئذ : السبب في صدور أوامر الانسحاب أن الانكليز والفرنسيين نزلوا في « نور سعيد » .. والواقع أن هذا التعليل خادع ، وأن المقاومة كان يسعى أن تطول أكثر لو كانت القيادة أعقل وأحكم وأحزم

ولكن الخطأ وقع ، وشاء الله أن تحرر البلاد ، وأن يسحب أولئك الدين جاعوا .. وقت : بأي قدرة حرقوا ؟ بأي قدرة غسّلت الأرض منهم ؟

وكان الجواب : قدرة من غير قدرة الله جل شأنه !!؟ .

وقت يومئذ . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسلطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [المائدة : ١١٠] .

هو وحده الذي كف الأيدي عنا ، ولكن الدين استمعوا هذا الكلام دكروني بقصة الأقرع والأبرص والأعمى التي روتها كتب السنة ، وكتب السنة تروى أحاديث موجهة وأخباراً نافعة ..

إن الإنسان في طبيعته أن يسي ، وفي طبيعته — أحياناً — أن يغتر ، بالنعمة وأن يجحد صاحبها .

ضربت السنة مثلاً لهذا ثلاثة نفر ابتوا بالفقر والعلل ، هذا أبرص وفقير ، وهذا أقرع وفقير ، وهذا أعمى وفقير : « إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بذا لله أن يتليهم^(١) فعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجند حسن ، قد قُتِرتي الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه فأعطى لوناً حسناً وجنداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل - فأعطى ناقةً وعشراً ، فقال : يُبَارَكَ لك فيها .

(١) بذا لله : أي سبق في علم الله فأراد إظهاره ، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً ، لأن ذلك محال في حق الله تعالى يتليهم : أي يختبرهم

وأنى الأقرع فقال . أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حس وذهب
عنى هذا قد قدرنى الناس . قال فمسحه فذهب وأعطى شعراً حساً ،
قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : بقر ، قال : فأعطاه بقرة حاملاً ،
وقال : يُبَارَكَ لَكَ فِيهَا

وأنى الأعمى فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : يرد الله إلى بصرى
فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب
إليك ؟ قال : العسم ، فأعطاه شاه والدأ ، فأصبح هداً وولّد هذا .

فكان لهذا واد من إبل ، ولهذا واد من بقر ، وهذا واد من العسم .

ثم إنه — أى الملك — أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل
مسكين تقطعت بى الحبال فى سمرى فلا بلاع اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك
بالذى أعطاك لبون الحس وأحمد الحس والمال بغيراً أتبلغ عنيه فى
سمرى . فقال له : إن الحقوق كثيرة ، فقال له : كفى أعرفك ألم تكن
أبرص يفدرك الناس فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن
كابر (١) فقال : إن كنت كادياً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأنى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل
ما رد عليه هذا ، فقال إن كنت كادياً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأنى الأعمى فى صورته فقال : رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بى
الحبال فى سمرى فلا بلاع اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك
بصرك شاة أتبلغ بها فى سمرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله بصرى
وفقيراً فقد أعاننى فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله .
فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسحط على
صاحبينك (٢) .

(١) أى ورثته عن أبائى وأجدادى

(٢) رواه البخارى فى الأنبياء — باب حديث أبرص وأعمى وأقرع وبنى إسرائيل ٢٠٨/٤

، مسهم فى الرهد — كتاب الرهد والرفائق ٢١٣/٨

النفس البشرية — أحياناً — تسي ماصيها ، تسي فقرها ، تسي دها ،
ثم تزعم أن ما هي فيه من حير وعز ونصر وغنى هو جهدها ، كما قال
قارون — لما قيل له : ﴿ أحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في
الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴿
[القصص : ٢٧ ، ٢٨] عبقريتي هي التي جاءت بالمال .

وهذا ما حدث ، فإن الحكم السابق في بلدنا قال — ببساطة —
انتصرنا !! .

وأحسن صناعة أجدناها كانت الكذب !! .

فانتشر الكذب ، انتشر أما بقدرتنا وحولنا وحُططنا وذكائنا وعمقريتنا
انتصرنا !! .

والله وحده يعلم أنه هو وحده صاحب اليد الطُولى علينا ، وهو وحده
الذي أخرج العدو من بلدنا !! .

كانت بقايا الإيمان — فعلاً — ترشح الأمة لأن تنجو من كبوتها ..

لكن البى حدث في سنة ١٩٦٧ م كان شيئاً لا بد منه ، كان لا بد أن
يتمضح العرور ، وأن ينكشف الجهل ، وأن تتضح أمام أنفس الناس
الهاالات التي رُوت ، والقامات التي تطاولت !! وما يعطى في الدنيا شيء
كهذا اللون من الادعاء ، وكثيراً ما أردد قول المسمى^(١) :

أفي كل يوم تحت ضيبي شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول
إلى أن يقول :

وما التيه طي فيهم غير أسي عيصر إلى الخاهل المتعاقل
وعندما تقع أرمّة البلاد في أيدي الخاهل المتعاقل فلا تنتظر إلا
الضباع .

(١) ديوانه : ١٩١/٢ والصبي : ما بين الإبط والكشح — وهو ما بين السرة ووسط الظهر
ومعى اليب أفي كل يوم أرى بين صغار الشعراء من بياوي وبهاوسي وهو حيث لو أردت أن
أحمه تحت ضيبي لقدرت على ذلك لصعره وقمائه ، وطى . أي شأى

شعباً طيب ، وفه مواهب أصيلة ، هاجر منه من هاجر فهو الآن يشتغل في عرو الفضاء ، وفي تفحير الدرة ، فهو شعب معدنه ذكي ، ويحتاج إلى حاكم يحمو عليه ، حاكم ولد ، حاكم طيب يحتاج إلى هذا .

وأنا في مكاني من العمل في الدعوة الإسلامية — وأنا رجل خير بديني ودنياي — كتبت مذكرة وقلت فيها — لمن ييدهم الأمر عندنا : إنني بعد أن أذهب الله الأكبر والفرنسيين واليهود أريد أن نعيد النظر في شبه جزيرة سيناء ، وعندى اقتراح سببه أي مسلم قرأت في كتاب الله : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴾ [المؤمنون ٢٠] فقلت . معنى هذا أن شجر الزيتون الذي يسمى في « لبنان » وفي « فلسطين » عابث كان ممتداً إلى « سيناء » ولا بد أن عوائق حالت دون انتشاره . أو أن ظروفًا زمانية أو مكانية منعت أن ينمو شجر الزيتون في هذه البقاع ، لكى موقر وأكلت بقمى فاكهة نبتت في سيناء أحلى وأشهى مما نبتت في « وادي اسيل » وقد عشت في سيناء أمداً غير قليل من الزمن وأنا بها خير .

قلت : أريد أن بنى مستعمرات في سيناء ، أسسها ثلاثة نفر ، عالم ديني ، مهندس زراعي ، ضابط عسكري ، الثلاثة تُختار لهم بقاع معينة ، وفي كل بقعة بوطن البدو ، للبدو حقوق في رفايتنا ، إنهم جهلة ، يشتغلون برعى العنم ، وإذا كان هذا الاحتراف لا يعطى الكثير اشتعلوا بهريب المحدثات ، أو اشتغلوا بمعاونة الأعداء ، فلم لا نمنع هذا البلاء ونبدأ في توطئتهم ، ويكون التوطين على الأساس الديني العسكري الاقتصادي ؟ .

وقلت : يبدأ بمحطات السكة الحديد بين « القسرة » و « العريش » و « رمانة » إلى « رفح » إلى « غزة » وتنتشر بعد ذلك المستعمرات .

ووقع بعد ذلك التقرير الذي قدمته في يد مسئول بدأ يقرأ ، وبدأ ينظر إليّ في شيء من العجب أو من الازدراء ، وقال : ليست هناك مياه يا أستاذ في هذا المكان . قلت له : أنا أعرف أن اليهود ملأوا الماء من شمال « غزة » إلى « رفح » وزرعوا الأرض « بطاطس » !! .

ونحن مددنا المياه إلى « مرسى مطروح » للمصيفين ، فإذا مددناها

للهو يستطيع أن نمدّها للجد ، لكن هيهات ، من نحدث ؟!

من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره !! .

وكان الرجل يقول : ما لرجل مُعمم يتحدث في هذه الأمور ؟ .

وشعرت بهذا وقلت وأنا أنتفض من العزة والكبرياء ، قلت : إننى معمم فعلاً ولكى أضع خصة تمنح حاحامات اليهود من أن يهرموكم هزيمة ترفعون فيها أيديكم وأرجلكم وتضحكون العالم عليكم !! .

إن حاحامات اليهود يفعلون الكثير من أحل دينهم ، وأنا رجل مسلم أريد أن نخدم ديننا .

لكن هيهات ، ذهب الاقتراح إلى القمامة !! وبعد الاقتراح بو إسرائيل ، نفذوه هناك بعد أن احتلوا أرضنا ، الحاحام اليهودى مع الصابط الإسرائيلى مع المهندس الزراعى .

إن ناساً تريد أن تصف ما حدث فتقول : بكسة . كلمة « بكسة » معناها أن رجلاً كان يصعد فانزلق فسقط ، فيقال : شيء باعته عن طريقه فما تم له ما أراد .

والحقيقة أن بلادنا كانت تنحدر ، الحقيقة أن الحكم السابق كان هذه الطريقة التى يعيش بها يرشح الأمة لهزيمة نكراء ؟!

ونحن لا نبكى على الماضى ، فإن البكاء على الماضى شأن الانهزاميين ، ولكنى أقول : فى المعركة القادمة — ولابد من وقوع معارك أردنا أم لم نرد — يجب أن لا تكون بين الشعب والحاكم فجوة ، الحاكم الأمين الصدوق النزيه هو الذى يعرف أنه حادم للأمة لا سيد لها ، الحاكم الأمين الصدوق السريه هو الذى يرعى الدماء والأموال والأعراض ويفدسها ، ليس ذنباً يطلق فى أحشائها كي يُشبع همته من الحرام ، إنه يومئذ لن يكون حاكماً لها إنما يكون عدواً لها وعميلاً لأعدائها !! .

وقال بعض الناس : إن بكسة « يوبو » كبكسة « أحد » !! ولم أر أغرب ولا أعجب من هذا التعليق ، إن هذا الكلام خطورته بعيدة المدى ،

وهو اجترأ على حقائق التاريخ ، فإن معركة « أحد » أرّخ بعض كُتّاب السيرة لها ورفضوا رفضاً باتاً اعتبار ما حدث نصراً لقريش وعبة للوثنية . قالوا : ربما لم يبلغ المسمون مرادهم ، ولكن ما حدث لا يمكن أن يوصف بأنه هزيمة .

ونحن نريد أن نبرز خمس نقاط :

النقطة الأولى : أن المسلمين في « أحد » أحرزوا النصر ، وانكشف العدو ، وولى الأدبار في المرحلة الأولى من المعركة ، وهذه الهزيمة التي لحقت بالعدو هي التي أعرت طلاب الدنيا أن يتركوا مواقعهم ليحصنوا على العنائم فكان ما كان .

لكن في « يونيو ١٩٦٧ م » ما حصلنا على شيء ما من النصر إلا ما كانت الإذاعات تكذب به وتقول : أسقطنا عشرات الطائرات ومئات الطائرات وهو كلام من نسج المخابرات !! .

النقطة الثانية : أن المشركين في معركة « أحد » ما استولوا على شبر من المدينة ، ولا فكروا في دحوها ، أما في « يونيو » فإن مساحة إسرائيل تصاعفت كثيراً من أرضنا وبلادنا وحيرتنا .

النقطة الثالثة : أنه بعد ما حدث في « أحد » لم تمر عشية أو صباحها حتى أصبى السي الكريم ﷺ — أمره بمطاردة قريش والحقاقيحيشمها ، ما صبروا على ما نزل بهم أربع وعشرين ساعة !! .

النقطة الرابعة : أنه بعد ما يوصف بأنه هزيمة ما فقد المسمون تديهم ولا تقواهم ، بل جمع السي ﷺ الناس وراءه وقال : « استروا حتى أثنى على رب عز وجل »^(١) وأخذ يشي على الله ويؤمن به ويدعوه ويستعفره

(١) رواه أحمد ٤٢٤/٣ وإمام ٥٠٧/١ ، ٢٣/٢ — ٢٤ وقال الحاكم : صحيح عن شرط الشيخين . وقال الألبان : إنما هو صحيح فقط فإن فيه عيبين رفاعة ولم يخرج له الشيخان ، ومن أخطاء الدهي أنه في أحد الموضعين وافق الحاكم على تصحيحه وفي الموضع الآخر قال « والحديث مع نظافة إسناده منكرو » كذا قال . ولم أعرف لقوله وجهاً والله أعلم (هامش فقد السيرة للشيخ العراقي : ٢٨٣) وقال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والبرار واقتصر على =

شيء آخر : تطعيم الناس في مواقعهم في الحياة أو في الممات أمانة ،
كان زعيم الأمة ونبيها ﷺ يرعاه حتى في القبر ، كان يجمع بين الرجلين من
قتل « أحد » في ثوب واحد ، ثم يقول . « أيهم أكثر أحدا للقرآن ؟ فإذا
أشير به إلى أحد قدمه في اللحد وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة
وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُصلّ عليهم ولم يُغسلوا » (١) .

حتى في الموت يقدم الأعظم تقوى ودينياً ، وإذا كان هذا في الموت
فكيف الشأن في الحياة نفسها ؟ .

كانت الأمة يقدم فيها أصحاب الكفايات ، ويؤخر فيها من لا كفاية
له .

القطعة الخامسة : أن سب الهرمة في « أحد » مخالفة الجيش للخطة ،
أما في « يوبو » فإن سب الهرمة أن الجيش لم توضع له حطة ، كانت
الخطة الموضوعة هي التي هزمت ، كأنما وضعها عدو لهذه الأمة !! .

الفروق كثيرة جداً ، قلت : لا أنكى على ماص ، إن شهر يوبو يحىء
وتحىء معه الآلام ، ويريد اليهود أن يفتحوا أفواههم في كل مكان ليقولوا :
نحن أولو بأس شديد !! .

كذبتم والله ، والله لو أن أعدادكم من الناس كانوا كلاباً أو ذئاباً
لا انتصروا على العرب !! لأن العرب كانوا محنولين بقادتهم ، كانوا مهزومين
من يحكمهم ، لو اصطدم هؤلاء العرب بجيش من الكلاب لاهرموا !! لأنه
ما كانت لديهم لا قوة ولا حطة ولا تراحم ولا تعاون !! .

إن اليهود امتدوا في فراع ، ويوم ترحع هذه الأمة إلى دينها وإلى القليل
من السلاح الذي بأيديها فإن اليهود سوف تسود وجوههم ، وسوف
يصحك أهل الأرض من دعاواهم !! .

= عيد من رفاة عن أبيه وهو الصحيح ، وقال : انهم قاتل كفرة أهل الكتاب ، ورجال أحمد
رجال الصحيح ١٢٢/٦

(١) رواه البخاري في المعاري — باب من قتل من مسلمين يوم أحد ١٣١/٥

إننى أريد بهذا الكلام كله شيئاً واحداً أن أكشف الحقائق ، أن أرد الاعتبار لألوف من الشباب انتظموا في الجيش وهم ليسوا حبياء ، وما فكروا أن يبيعوا دينهم ، ولكم ضاعوا بالخطط الرديئة ، شعوب مؤمنة طيبة ، ولكنها دلت في مدنها وقراها ، كانت تتفرح بهذه المأساة التي وقعت في « يونيو » ربما مات من مات ، ربما سجن من سجن ، ربما ذهبت مراكز القوة المسئولة عن هذا إلى حيث ذهبت ، لكن تبقى العبرة التي أريد أن يستفيد منها كل حاكم .

لا يجوز أن تكون بين الدولة والأمة فجوة ، لا يجوز أن يشعر رجل الشارع بأن حاكماً ما ديان له ، مسيطر عليه ، رب له في الأرض ، لا . لا .

يوم أراد أحد الملوك في « فرنسا » أن يجعل من نفسه إلهاً على الناس ، جاء الفرنسيون به وقتلوه ١١ .

إن هذا الحكم الذي أجراه الثوار الفرنسيون كان حصانة لهم فيما بعد من حكام يريدون أن يصنعوا هذا الصنيع بشعوبهم .

والأمة الإسلامية محتاجة إلى هذا كله . لقد ضاع المسلمون في « باكستان » بسبب هذا الذي قلته لكم .

جماعة من الجمرالات كانوا يسكرون ويهرفون بما لا يعرفون دواخوا مستقبل الإسلام في الهند ١٢ .

هذا ما حدث في « يونيو » أرجو أن نأخذ منه عبرة : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [٢٧ . ٥] .
أقول قولي هذا وأستعمر الله لي ولكم ..

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الثورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فلغاية في نفسي أحب أن أحكى شيئاً حدث .

من عدة شهور جاعلى في مكتبي رجل وأعطاني مبلغاً من المال أحصيته فإذا هو ستمائة جنيه ، قال لى : وزّعها على المساجد التى ترى أنها بحاجة إلى المعونة . قلت له . لا بأس ، ما اسمك ؟ فإذا هو يولى ويتركنى فما أعرف اسمه !! .

الجمعة الماضية وُضع فى يدى « طرف » ما أعرف من صاحبه ، وعندما احتوتى السارة التى أعود فيها وحدث المبلغ ثلاثمائة جنيه ، ومعه خطاب فيه : صاع هذا المبلغ فى مساجد معينة بأوصاف معينة .

أنا أقصد هذا ثلاثة أمور : الأمر الأول : أنه لاشك أن أمتنا — كما قلت — أمة تقية طيبة ، معدنها سليم ، والخير فيها كثير .

الأمر الثانى : لا أريد أن يتكرر هذا معى ففيه شيء من التعب أو الحرج لى .

الأمر الثالث : أن هذه البيات لطيفة فردية ، معسى أنها لا تزال فى أماكنها كمساجم الذهب لا تُكتشف إلا بالبحث .

المهجوم على الإسلام محرم حمقى منظم ولا بد أن يكون الدفاع دفاعاً
جماعياً ومنظماً .

وألفت النظر إلى أن أمتنا لها مفتاح واحد هو : الإيمان ، هو الإسلام ،
وأما هذا المفتاح تعطى الماء ، تعطى الدم ، لأنها تريد وجه الله تعطى كل
شيء وتصنع كل شيء .

أما من يحاول إدلالها فمادا سيحى ؟ سيدل نفسه ويقهرها ويقهر
الامة معه ويذلها !! .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى
فينا معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا
فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [البقر ٩٠] •

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

١- تأملات في سورة آل عمران مفتاح هذه السورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٩٧٤/٢/٨ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ،
وهو على كل شيء قدير

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المير .

بهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

• أن بعد :

فسعود اليوم بمشيئة الله تعالى إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

كما قد ألقينا نظرات عجل على سورة البقرة ، ثم اعترضتنا مناسبة
الحجرة ففصصا معها ثلاثة أسابيع ، والآن نعود إلى سورة آل عمران — بعد
سورة البقرة — ليلقي عليها نظرات عجل نستبين فيها هدايات التي أودعها
الله في تصاعيف الوحي المبارك ، ونستفيع هذا الخير الذي حصصا الله به نحن
المسلمين ، ولعلنا نقدره وبرتفع إلى مستواه ونكون أهلاً لعقده وتلقيه .

قلنا في نظرة سريعة إلى هذه السورة : إنها يمكن أن تنقسم قسمين .
قسم يتضمن مناقشات لأهل الكتاب ، وهذا القسم يستظم تقريباً نصف
السورة الأول

أما القسم الثاني الذي يشيع في نصفها الأخير : فهو التعليق على هزيمة

« أحد » واستخلص العبر مما أصاب المسلمين فيها من مأس ونبكات ونحس يستعين الله عز وجل لسطر في هذه السورة على نحو آخر يقترب من عرضنا الأول لها ، وبكته قد يصيف حديداً إلى هذا العرض .

بدأت السورة — بعد حروف الهجاء المقطعة — بقول الله جل شأنه .
﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وصف رب العالمين نفسه ثلاث صفات : أنه لا إله إلا هو : أي لا شريك له ، فما عداه عبد خاضع لحلاله ، مخاضع إليه .

الصفة الثانية : الحي : حياته من ذاته ، يفيض الحياة على غيره وعيظه لا حياة له من ذاته ، وإنما يكسب حياته من الله جل جلاله .

الصفة الثالثة : القيوم : ومعنى القيوم : أن العام علوه وسفله ، عرشه وفرشه ، ما نراه وما لا نراه ، إنما يقوم لأن الله يُمده بتيار الوجود ، فإذا انقطع هذا التيار — لأن الله قطعه — فإن وجود العالم يتلاشى ندقائياً ويستحفى ويتحول إلى صغر وعدم مطلق !! .

الأوصاف الثلاثة لبدات الأقدس ترد على أهل الكتاب من يهود ونصارى وأيضاً ترد على المشركين أنفسهم ولكي تُلقى بطرنا ونحس نعرف ما يشيع في السورة من أولها لآخرها ، ولكي نستكشف المحور الذي تدور عليه السورة توجه النظر إلى كلمة تكررت سبع أو ثمانى أو تسع مرات^(١) في هذه السورة هي معانها ، هذه الكلمة هي : « آيات الله » .

تكررت — فيما أذكر — على النحو الآتي :

﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ [آل عمران : ٤]

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : ٢١] .

(١) تكررت عشر مرات في الآيات : ٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٧٠ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ،

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .
[آل عمران ٧٠] .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ [آل عمران ٩٨] .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾
[آل عمران ١٠٨] .

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ [آل عمران ١١٣] .

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران ١٦٦] .

فكلمة « آيات الله » تكررت في هذه السورة فيما قرأت من آيات وفيما لم أقرأ — لأني لم أستوعب إلا على عجل — على هذا النحو^(١) .
يريد أن نتعرف على معنى كل آية من الآيات التي قرأناها ، وما المقصود أولاً بـ « آيات الله » ؟ .

إن الظاهر من كلمة « آيات الله » مع استعراضها في سورة آل عمران أنها تعني القرآن الكريم على أنه الوحي الإلهي المصون المبر الذي كتب الله له الخلود ، فما تستطيع بثبة أن تقول الآن : إن الله في القارات الخمس وحياً حالصاً مأموراً يُطمان إلى صدقه وصمائه وخلوصه ونقاته إلا في هذا المصحف المصون !! .

وكلمة « آيات الله » ترددت في هذه السورة ترد على أنواع من الخلق وأنواع من الشئ ..

ولكي نعرف — بالصسط — كيف فُتحت السورة بالكلام عن الله ،

(١) قرأ شيخنا حفظه الله سبع آيات فقط ولم يقرأ الآيات رقم ١٩ ، ١٠١ ، ١١٢ .

وكيف أن النقاش بدأ مع أهل الكتب في وصف الأول من السورة ،
وكيف حتمت السورة بالكلام عن آيات الله ، لكي نعرف هذا يعود
بالنظر مرة أخرى إلى أول السورة .

ذكر رب العالمين أنه تعهد الأمم السالفة بوحى لا شك فيه : ﴿ نزل
عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل
هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد
والله عزيز ذو انتقام ﴾ [آل عمران ٤٠٢] .

الفرقان . الفارق بين الحق والباطل ، وهو هذا الكتاب الذى استرعى
ما في الصحف الأولى التى برست على إبراهيم وموسى وعيسى ، وفي الوقت
نفسه حدد هدية الإنسانية بما أورد الله به محمداً ﷺ من وحي خاص ، راد
به على غيره ، وكمل به معاش الناس ومعادهم ما بقى على ظهر الأرض
بشر يحتاج إلى هدى !! .

الناس تتصور كلمة « الكفر » على نحو يحتاج إلى شيء من الإيضاح .
الوثنيون سُموا بكفاراً ، هل معنى أن الوثنيين كفار أنهم كانوا يذكرون
الله ؟ .

لا . كان الوثنيون يؤمنون بالله ، ولكم كما حدث القرآن عنهم :
﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف ١٠٦] .
نحن نتصور أن الكفر هو إنكار الألوهية ، إن إنكار الألوهية من أصعبها
كفر لا شك فيه ، لكنه كان قليلاً في الدنيا قديماً وإن كثر في عصرنا هذا
كثرة شنيعة ..

أما الاعتراف بالألوهية فكان موجوداً في الديانات القديمة أرضية
كانت أو سماوية ، فالمشركون يؤمنون بأن الله موجود ، وبأنه الخالق ، وبأنه
الرازق ، وبأنه مدبر الأمر ، وبأنه مالك السمع والبصر ، وما فكر أحدهم
في أن حجراً خلق أو رزق ، تلمح هذا في قوله تعالى :

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار
ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر

فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق
إلا الضلال فأني تصرفون ﴿ [يوسر ٣١٠ ، ٣٢] .

كان هؤلاء يؤمنون بأن الله هو الخالق الرارق المدير لكنهم اعتقلوا أن
هذا إله لا يتوصل إليه مباشرة ، لاند من شععاء ، ولاند من وسطاء
وهؤلاء الشععاء الوسطاء هم الآلهة لصعري التي تعتبر في نظرهم مفتاحاً
للإله الكبير !! وقد كذب القرآن الكريم هذا كله : ﴿ ما لهم من دونه من
ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ [الكهف ١٠٢]

﴿ أفحس الدين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا
أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ [الكهف ١٠٢] .

هذا كفر الوثنيين من عبيد الأصنام ، وهناك كفر من نوع آخر ، هو
كفر أهل الكتاب ، وكفر أهل الكتاب من يهود وبصاري جاء من ناحية
أخرى ، فتصور اليهود — مثلاً — للألوهية كان تصوراً شائناً فيه غصص من
عظمة الله ، وفيه تشبيه له بالشر ، وفيه جراءة عليه ، وفيه افتيات على
حقه ..

هؤلاء يرون أن الله صارع إسرائيل ، وطئت المصارعة طول الليل ،
وكاد الإله يُهرم بولا أن شيئاً من الاحتيال في اللعب جعله يكسر حق
إسرائيل ويتعب عليه (١) !!

وهؤلاء يرون أيضاً أن الله كان يتمشي في الحية ، وما كان يدرى
ما وقع من آدم عندما أكل من الشجرة حتى أحبره آدم (٢)

وذكر « سفر التكوين » أبصاً الذي ذكر القصتين السابقتين : أن الله
بدم بعد خلق آدم لأنه ما كان يدرى أنه سيكون على هذه القساوة أو
القساوة (٣) !! فهؤلاء كان جهلهم بالله عليط بحيث جعلهم بتصورونه على
نحو لا يليق .

(١) سفر التكوين ، الإصحاح الثاني و الثلاثون

(٢) سفر التكوين الإصحاح الثالث

(٣) سفر التكوين الإصحاح السادس

وتعبر القرآن في سورة آل عمران : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ فيه تكذيب لهذه الصور كلها .

وعندما قال الله في سورة آل عمران : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران ١٠٥ ، ١٠٦] إنما كان يرد على هذه التصورات التي شاعت فيما يوصف الآن بأنه « تورا » ، وما يعطى عنوان « الكتاب المقدس » ١٦ .

والواقع أن هذا الكلام ما جاء على لسان موسى ، ولا أنزل الله على قلب أحد من خلقه ، لأن هذا الكلام باطل في وصف الألوهية تماماً .

إذن الآية الأولى ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ تتناول أصحاب الديانات الأرضية والسموية كلهم ، لماذا ؟ .

لأنهم إما أشركوا بالله ، وإما وحدوه على نحو طائش ، والإسلام يرفض هذا كله .

الديانة الأخيرة قبل الإسلام ، وهي النصرانية جعلت الله أجزاء ، وجعلت جزءاً منه يوصف بأنه ولد له ، وهذا الولد هو كذلك إله معه . ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ [الزمر ١٥]

كل هذا رقصته الآية الأولى^(١) في السورة عندما قالت : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾

هذا المعنى انضم إليه شيء يسعى أن يُعرف ، وهو أن الباطل في عصور كثيرة قد يضم إليه ما يقويه وما يريه وما يجعل له في القلوب رهبة ، وما يجعل له في أحياء المجتمع سطوة ، وربما رداً الباطل بأشياء تجعل له

(١) الأولى من حيث الآيات التي ذكرت فيها كلمة « آيات الله » لا من حيث الترتيب الطبيعي في السورة

أُبْهَةٌ^(١) وفخامة ، في أحيان كثيرة يستعين المبطلون على فراغهم المقلى بالمظاهر الحسية الصحمة فتكوب بيوت العبادة أشبه بالحصون الشامخة ، والقلاع الصحمة تعريضاً عن فراع العقيدة مما يجعلها مقبولة عقلاً ، لكن القرآن الكريم ناقش هذا الاتحاه عندما قال المشركون في الرد على رجال الإسلام وحمله دعونه : بحر حير مسكم مسكناً وأعظم وأفحم نادياً : ﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيَّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ ^(٢) [مريم . ٧٤] .

عندما قابوا هذا كان اخواب الإلهي : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِثِيّاً ﴾ ^(٣) [مريم . ٧٤] .

أى أن المنظر احسن ، والأثاث الفخم ، والقلاع الشامخة لا قيمة لها إذا كانت تخدم خرافة ، أو كان ما تحتها شيئاً لا ورن له في ميدان العقل ، وهذا لا قيمة للمال ، ولا قيمة للجمال ، ولا قيمة للمنظر ، لأنه لا حير فيه .

وهنا نجد سورة آل عمران تحدثت عن هذا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ . كَذَّابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [آل عمران . ١٠ ، ١١] . كان آل فرعون أصحاب أموال طائلة ، وقصور شامخة ، ومظاهر فارهة ، فمادا حدث ؟ دعا موسى عليهم فقال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَصِيرُوا الْعَذَابُ الْأَلِيمَ ﴾ [يوسف . ٨٨] .

فصاع كل هدا ، وقيل في تراثهم الذي حُرِّموا منه وصاع منهم : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ حُنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكُهَيْنَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا يَكْتُمُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مِنْظَرِينَ ﴾ [النحل . ٢٥ - ٢٩] .

(١) الأبهة : العظمة والرواء

(٢) الندى : مجلس القوم ومجتمعهم

(٣) الأثاث : متاع البيت من فراش وخوخة الأرض حسن المنظر في البهاء والجمال

إن مصلى على شاطئ نرعه يوحد الله فيه أفصل من مسمى يطاول
السحب يشرك بالله فيه !! .

الأمر ليس أمر فحامة في المظهر : ﴿ فلا تعجبك أمراهم
ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم
كافرون ﴾ [التوبة : ٥٥] .

آية أخرى في سورة آل عمران ذكرت فيها كلمة « آيات الله » وهي :
﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون السيئين بغير حق ويقتلون الذين
يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم . أولئك حبطت أعمالهم
في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ [آل عمران ٦١ ، ٦٢] .

آيات الله هنا رد على اليهود وحدهم ، ولكن كما قال العلماء : العبرة
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الكلام هنا — فعلاً — عن اليهود ، لماذا ؟ لأهم هم الدين قتلوا
الأنبياء ، قتلوا ركريا ويحيى وهما بقتل عيسى ومحمد ، ولكن الله يحيى نبيه
كليهما عيسى ومحمد ، فما قُتل أحدهما برعم المؤامرة التي دبرها اليهود
وأحكموا حطتها ، والآية هنا تقول : إلهم ضموا إلى محاولتهم قتل الأنبياء
بذل اليهود لقتل كل من يأمر بالعدل . ﴿ ويقتلون الذين يأمرون
بالقسط من الناس ﴾ والذين يقتلون من يأمر بالقسط من الناس إنما يمثلون
أنظمة إجرامية ، والأنظمة الإجرامية قد يكون اليهود قد بدأوا بها أو
اخترعوها أو شجعوا عليها ، لكنها بغير شك انتشرت في انقارات الخمس ،
ووجد حكام كثيرون استطاعوا — من إملاء القدر لهم — أن يصلحوا
الأوامر بقتل الأبرياء ، وأن يستحلوا دماءهم ، وأن يملأوا بالترويع والقلق
والرهبة والخزع نفوس من حوهم ، وهؤلاء يطبق عليهم ما انطبق على
اليهود في هذه الآية عندما يس رب العالمين أن ما يطببه هؤلاء من عرة
لهم — بهذا القتل — ومن كبرياء وجبروت — هذا الإرهاب — لابد أن
ينتهي إلى فشل ، قال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في
الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ [آل عمران ٦٢] .

أى أن الناصرين يحجرون عن أن يدفعوا عنهم ، أو أن يردوا قدر الله إذا دهمهم ، فإن قدر الله عدماً يمحاً الحبايرة يحيئهم من حيث لا يحتسبون ، فقد يُحصون السقف ، وقد يحصون الحدران لأهم يظنون أنه من ها قد يحيى لمزع الذى يحافونه ، وكسر عدماً يريد الله فإيه يزلزل الأرض نفسه : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ [النحل ٢٦] .

ونمضى مع كلمة « آيات الله » فى سورة آل عمران فجد هذه الآية : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ [آل عمران ٧٠] .

والظاهر من النظر فى هذه الآية وما سقها أنها تنحى إلى اليهود والنصارى معاً ، دلل لأنه قبل هذه الآية تنحى القرآن إلى اليهود والنصارى فقال لهم . ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحتاجون فى إبراهيم وما أنزلت لتوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاححتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران ٦٤ - ٦٧] .

ونمضى بنا الآيات إلى أن تحيى هذه الآية : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ [آل عمران ١٠٨] كلمة « آيات الله » ها جاءت بعد توجيه شديد للمسلمين أن يكونوا مهم أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وبعد أن تضمن هذا التوجيه السديد للمسلمين أمراً أن يعتصموا بحبل الله وألا يتركوا أسباب المرفقة تفرقهم ، فإن الفرقه هنا رما ردتهم إلى الكفر ، وكثير من أسباب الفرقه قد يعود إلى أسباب خلقية ، وقد يعود إلى أسباب دينية .

فأما العرقه لأسباب ديبية فقد هى الإسلام عنها فى أول السورة عندما قال : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم ريغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [آ عمران ٦] .

أى أن القرآن تـضمن جملة من الآيات المحكمة ، هذه الجملة هى أساس القرآن كله ، لماذا ؟ .

لأنها هى التى تصممت العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وجميع الشرائع المتصلة بالخلق والسلوك ، وتنظيم الدولة ، وتنظيم المجتمع ، فليس فى هذا كله آية متشابهة .

إذن أين تقع الآيات المتشابهة ؟

تقع عند وصف الله جل شأنه ، وهذا طبعى ، فإن وصف الله أكبر من أن تكون عقولنا المحدودة أهلاً لإدراك كُنهه ، واستيعاب جوهره ، وهذا فإن الكلام يحىء متشابهاً ، الراسخون فى العلم يدعون بها أن يهديهم الله ، وأن يجمع شملهم وألا يفرق كلمتهم . ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ [آ عمران ٨ ، ٩] .

وقد حاول بعض علماء المسلمين قديماً أن يدخل فى ميدان العقائد بالمكر العقلى المحرد ، وحاول أن يشرح الآيات المتشابهات بطريقة تقرأها للعقل الإنسانى ، فماذا حدث ؟ حدث أن قال قائلهم :

نهاية إقدام العقول عقال

وغاية سعى العالمين صلال !

ولم نستفد من بحثنا طول عمرا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا !

وكم من جبان قد علا شرفها

رجال فبادوا والجبال جبال !

خطب الغزالى - المجلد الثانى

هذا فيما يتصل بالعقائد ، أو الخلاف من أجل العقيدة ، أما الخلافات الأخرى فالذى تكشف لى من استقرار أحوال الناس إما أن ترجع إلى بلاءه فكرية ، وإما أن ترجع إلى رديلة خلقية ، وهذا ما يقع بين كثير من المسلمين ، فإن بعضهم يعقل أبه يريد أن يصخم أحكاماً صغيرة في الإسلام ليجعلها عقائد ، وبالتالي يحمل على غيره إدام يفعلها . شيء آخر ، بعض الناس — فعلاً — يسعل الخلاف ليفرض نفسه ، لعله محبون محب الطهور ، لعله محبون بانتقاص الآخرين والتهكم عليهم ، وكثير من الذين يتاجرون بالخلافات من هذا النوع ، وكلهم تطبق عليه الآية الكريمة من سورة آل عمران : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [آل عمران : ١٠٨ ، ١٠٩] .

ولما إن شاء الله عودة أخرى إلى سورة آل عمران أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [انشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعد

عباد الله أوصيكم ونفسي يتقوى الله عز وجل . واعلموا أن الأمة الإسلامية أصيبت منذ قرن من الزمن بهزائم عسكرية وسياسية وحضارية جعلتها في مكانة رديئة ، وأعرت بها غيرها .

وأسوأ ما تمخضت عنه هذه الازمات أنها أفقدت كثيراً من المسلمين ثقتهم بأنفسهم ، واعتصامهم بديهم ، واحترامهم لثرائهم ، فطن كثير منهم أن ما عد الآخرين خير مما عنده ، وجعلت الكثير من المسلمين يرنو بصره إلى دول العالم التي قويت ، وشعوبها التي ارتقت واعتنت ، ينظر إليها وكأنها مثل أعلى ، أو كأنها الشيء الذي يُستحلب ويتأسى به ، ويُنقل خير ما فيه — أو ما فيه كله — إلى بلادنا ! .

وبداهة هذه النظرة قواها المستعمرون من شرق وعرب لأن أحب شيء إليهم أن يتعاملوا مع أناس لا يحترمون أنفسهم ولا ثرائهم ، ولا يكرمون ما لديهم من تعاليم ، ولا يرتبطون بما ورثوا من تراث .

كان هذا المعنى موجوداً منذ قرن في بلادنا ، وقد عذاه — كما قلت لكم — رجال الاستعمار على اختلاف صوفهم . وقد وجدت — وأنا أشتيع هذا العزو الثقافي — أن حطط العُراة في منتهى الذهء ، وأن مكرهم

عميق ، وأن الأشخاص الذين يعمسون لهم من فئات شتى ، فيهم ملوك ، وفيهم أدباء ، وفيهم يساريون ، وفيهم صحافيون .

المهم أن يأخذ الغزو الثقافي طريقه ، ويصل إلى هدفه ، فمثلاً : من عشرات السنين حكى التاريخ : أن الحديو إسماعيل^(١) — وهو ملك — قال : أريد أن أجعل « مصر » قطعة من أوربا !! و أنه يقصد بالكلمة أن يقلل المصانع ، أو أن يقلل العلم ، لكان هذا الاتجاه محموداً له ، مشكوراً عليه ، لكن الرجل جلس^(٢) شهوات ، وصاحب أهواء ، وكانت غرائزه متنزئة متطوعة مفلتة لا صابطة لها ، فكان أول ما جعل « مصر » قطعة من أوربا أنه بنى لها دار « أبر »^(٣) !! .

إن « اليابانيين » أرادوا أن تكون بلادهم أيضاً قطعة من أوربا ، فماذا صنعوا ؟ استقدموا المصانع ، وجمعوا بعماء مُرَّزِينَ في الميدان العلمي فكانت النتيجة أن أخذوا طريقهم الصحيح إلى التقدم !! أما نحن فأخذنا طريقاً إلى الانحراف ، ولا شك أن من وراء هذا الحاكم الذي قال : أريد أن أجعل « مصر » قطعة من أوربا وراءه كثير ممن علموه الهرل ومن قادروه إلى هذا الطريق !! .

جاء أديب مشهور^(٤) وكتب في كتاب له عن « مستقبل الثقافة في مصر » يقول : يريد أن نأخذ حصارة الغرب كلها ، حيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُذم منها وما يمدح ، ما يحمد منها وما يعاب !! .

هذا معناه إفاء الشخصية الإسلامية ، وجعل « مصر » قطعة من أوربا ، ولكن كان المسحر قل مَبِكْ ، ثم جاء المسحر بعد ذلك أديباً ، والآن يحىء — فعلاً — من يكتب في الغزو الثقافي ممن يصططعون

(١) إسماعيل باشا (١٨٣٠) ولي مصر (١٨٦٣) وحديوها (١٨٦٧) الابن الأكبر

لإبراهيم باشا

(٢) المجلس ما يسعد في بيت من حصير ، حود حب كرم مدح ، ويقال هو حسن به

لا يبرحه ، وهو من أحلام بلد لا يفارها ، وهو من أحلام الشهوات ملاءمة

(٣) الأبر : مسرحية معربة غنائية تقوم على التوسيقى

(٤) هو الدكتور طه حسين

اليساريه ، ماذا يقصد ؟ لا يقصد إلا تمجيد الشخصية الإسلامية ، وجعل
أمتنا دسماً لغيرها في كل مجال .

لقد وجدت أن العرو اشتق في حطته واحدة ، ولكنه يعبر
الأشخاص ، مرة ملك ، مرة رئيس جمهورية ، مرة عميد كلية ، مرة
صحفي ، مرة شيخ طوائف من هذا النوع تكثر وتنتشر ، والقاسم المشترك
بيهم جميعاً أنهم يزهّدوننا في قوانين الله ، يزهّدوننا في أحكام الشريعة ،
يرزهّدوننا في أصول العقيدة ، يرهّدوننا في قيم الإيمان ، يزهّدوننا في مكارم
الأخلاق ، يزهّدوننا في أصول العبادة وشعائر الإسلام !! .

هذا هو الخط الذي يجمع أولئك كلهم ، أريد أن أوجه النظر إلى أن
العرو الثقافى يستألف طريقه بألف حيلة ، ولكنا كما علمنا نبينا ﷺ :
« لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين » (١) .

لقد لدعنا من هذا الجحر فيحب أن يصحوا ، وألا يلدغ مرة أخرى ،
افتحوا عيونكم ، ستحدون كلاماً عامصاً ، وكلاماً غريباً ، وكلاماً
لا هدف له ، ونوعاً من التشبث المقصود منه جعل الأجيال المتعلمة في
بلادنا تدور في دوامة لا آخر لها . والمهم إبعاد الإسلام عن الطريق ، عن
الهضة ، عن التشريع ، عن العلم ، عن المعرفة ، عن التقاليد !!

ونحن مستمسكون بدينا ، ولا نريد — خصوصاً بعد معركة
رمصان — أن ندع الرمام تتحرك به أبداً عميلة للعرو الثقافى ، افتحوا
عيونكم فإن مستقبل الإسلام مرهون بالسوات انقادمة التى تقع بعد
« معركة رمصان » .

هاك من سيحاول إبعاد الإسلام عن كل شيء ، ولكنا سنصرب على
بديه ونعرض دين الله استجابة لحمهير هذه الأمة التى ترفض الإلحاد ، وترفض
الانحراف ، وترفض الاتجاهات المادية ، وترفض أن يُهمل دينها في تشريع أو
في قانون !! .

(١) روى البخارى في الأدب باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٣٨/٨ ومسلم في الزهد والرفائق

باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٢٢٧ ٨

« اللهم أصلح لنا دينا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دينا
الذى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا
للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عبد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [نحل ٩٠] .

أقم الصلاة ..

(١) رواه مسلم فى الذكر باب تتعبد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل : ٨١/٨

٢- نظرات في سورة آل عمران

أهل الكتاب كما تحدث عنهم السورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه

١٩٧٤/٢/١٥ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله
الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والبعثة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين

أما بعد :

فقد استعرضنا — بسرعة — بعض هدايات الله في سورة آل عمران ،
وأبنا أن النصف الأول من السورة ناقش عقائد أهل الكتاب ومسالكتهم ..
واليوم نبدأ بتفصيلات لهذا الموضوع تُلقى عليه أصواء كاشفة ولنلحظ
بين يدي هذا الكشف أن الله حل شأنه أفهم اسمين كما أفهم غيرهم أن
التدين الصحيح يقوم على عقيدة واضحة في الله الواحد جل شأنه .

ومع هذه العقيدة الواضحة لا بد من تخلق صابط وثيق يحكم العرائر
ابشرية ، ويكبح جماحها ، ويقيم سدوداً قوية أمام تياراتها ، فإن هذه النفس
ابشرية قد تميل فيها أهواء جامحة ، إذا لم تكن السدود أمامها قوية
امهارة ، ومضت هذه الأهواء إلى عايتها دون صابط أو رادع أو وارع ..

بلمح هذا في قوه جل شأنه : ﴿ رين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ [آل عمران ١٤] .

هذا حق ، إن النفس البشرية تهوى النساء ، وتهوى الأموال ، وتهوى الربة والمتعة ، لكن هذا الذي يهواه إن عدته من دون الله قتلها ، وإن تناولته باسم الله أحيها !! إن لحج الماء قد تغرق الررع فلا يبت ، وقد تغرق الإنسان فيهلك ، لكنه إذا تناول هذا الماء بقدر مطم فإنه يحيا به ، كما أن هذا الماء إذا أرسل إلى الأرض بمقادير معقولة ببت عليه الررع والضرع ، وبذلك قال الله — بعد أن وصّح حقيقة النفس البشرية ، وأن هذه الميول مضمورة عليه نفوسا — : ﴿ والله عنده حسن الماب . قل أوئبئكم بخير من ذلكم لذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إنا آما فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران ١٤٠ — ١٧]

إذا لم يكن التدين صاعاً لحق يحكم الهوى ، وإذا لم يكن التدين صاعاً لعاطفة رقيقة تجعل المرء يحى رأسه وصله لربه ، ويشعر بضعفه فيستغفر ذنبه ، ويهض في المدهعات الساكنة كي يُرقق روحه بمساجاة الله وطلب حيره ، إذا لم يكن التدين صاعاً هذه المعاني فهو تدين شكلي لا خير فيه !! .

كما نلحظ معنى آخر — بدأت السورة تنبه إليه — وهو أن التوحيد عقيدة عقلية ، فإن الإيمان بأن رب هذا الكون واحد — هذا المعنى — هو حكم العقل الصائب ، ومنتهى العلم السديد ، وأن الشرك خرافة ، وأن التثليث جهالة ، وأن كل ما يعكر رونق العقيدة الصحيحة في إله واحد فهو ضلال مبين ، ولذلك تقول السورة : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ [آل عمران ٢٠]

وأكدت السورة المعنى مرة أخرى فقالت : ﴿ شهد الله أنه لا إله

إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴿آل عمران : ١٨﴾ .

لكن أهل الكتاب شردوا عن هذه المعاني ، وأهل الكتاب — من يهود وبصاري — لما شردوا سحل القرآن — هنا في هذه السورة — شرودهم ، وهو بذلك كأنما يقول للمسلمين : إياك أعنى واسمعى يا جارة !!

الكلام تأنيب وتوبيخ لمن صل وشرد ، وهو في الوقت نفسه تحذير وتعليم هذه الأمة ألا تسلك ما سلك غيرها من أسباب الانحراف والعيوج

أول ما ذكرته السورة هنا — بعد الملاحظتين اللتين قررناهما الآن — هو أن اليهود تركوا العدالة ، ورفضوا أن يقوم الناس بالقسط ، ولم يتركوا العدل والقسطاس فقط بل اتجهوا إلى دعاة العدل ، وإلى الأمرين بالقسط فطوّحوا بهم ، وبألوا بهم ، وأعدموهم ، يقول الله حل شأنه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران : ٢١] .

إن المجتمع الذي يرفض العدالة ، ويحيف على دعايتها لا بد أن يستباح ، ولا بد أن يؤخر عن مكان الصدرة ، وهو معنى يصوغه النبي — ﷺ — في حكمة بالغة ، وكلمة موجزة ، يقول : «إِنَّهُ لَا قُدُسَ أُمَّةٍ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفَ فِيهَا حَقُّهُ غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ» (١) .

(١) رواه ابن ماجه في الصدقات — باب لصاحب الحق سلطان ٨١٠/٢ قال في الروائد : هذا إسناد صحيح ، رجاءه ثقات . لأن إبراهيم بن عبد الله قال فيه أبو حاتم صدوق . وهو الحديث . عن أبي سعيد الخدري قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه ، فاشتد عليه حتى قال له : أخرجْ عليك إلا قضيتني ، فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك تدرى من تُكلم ؟ قال : إني أطلب حقى ، فقال النبي ﷺ : فَلَاحَ مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل إلى غفلة بنت قيس فقال لها : إن كان صدك ثَمَرٌ فأقرضينا حتى يأتينا ثَمَرًا فنصيبك ، فقالت : نعم . يأتي أنت يا رسول الله قل فأقرضته قصي الأعرابي وأطعمته . فقال : أوفيت أول الله لك . فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لا قُدُسَ أُمَّةٍ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفَ فِيهَا حَقُّهُ غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ « أى من غير أن يصيبه أدى بقلقه ويرععه

معنى لا تقدس أمه : أنها أصبحت مستباحة ، إذا غدت عليها العوادي
وبانت منها شر بيل فإن ذلك عقوبتها التي تستحقها ، وهذا ما صنعه اليهود
بأنفسهم ، وما تصنعه كل جماعة ظلمت نفسها بنفسها .

بعد ذلك — مباشرة — بين القرآن الكريم أن هؤلاء اليهود رفضوا
الحكم بما أمر الله ، وتركوا آيات الوحي خلف ظهورهم ، ما يحبون أن
يعملوا بها ، وليتهم لما تركوا العمل بها شعروا بحرى التقصير ، لا . إنهم مع
تركهم الحكم بما أمر الله تبححوا ، وضوا أنفسهم مع تركهم للحق البار من
السماء أن لهم عند الله مكانة ، وأهم يستحقون منه الخواثر !! علام ؟!
علام تنالون الخواثر أو تنتظرون التمكين ؟ على تفريطكم ؟ ﴿ ألم تر إلى
الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى
فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن نقسنا النار إلا أياماً
معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ [آل عمران ٢٣ ، ٢٤] .

والأمم — ومن بينها الأمة الإسلامية — أحياناً ترتكب الدواهي ثم تظن
أن لديها ضمناً يجمع عقوبة الدنيا والآخرة عنها ، وكثير من المسلمين يفعلون
بدينهم الأفاعيل ثم يقولون متحجين : أمة محمد خير !! وأمة محمد ﷺ إنما
تكون بخير يوم تكون وقفة محمد ﷺ ويوم تكون موقرة للكتاب الذي نزل
عليه ، ويوم تكون معزة للتعالم التي جاء بها ، أما أن تنتسب إليه شكلاً ثم
ترفض مقتضيات هذا النسب موضوعاً فهذا لعبٌ بالدين سبقت إليه الأمم
التي يحكى القرآن — الآن — قصتها ، فهاها ما نالها . ماذا نالها ؟ نالها أن
الله صرف عنها نعمته ، فإن اليهود كانوا يملكون القيادة لروحية للبشر ،
وكانوا يحتكرون رسالات أسماء على امتداد القرون ، ولكن لما فعلوا هذا
الذي ذكرنا صرف النظر عنهم ، وأتى بغيرهم ليقود البشر ، وهذا المعنى —
فيما تلونا من آيات — هو التمهيد لقوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك
تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء
بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران ٢٦] .

بعض قصار النظر يتصورون أن المشيئة الإلهية تحبط في الوجود خبط
عشواء !! وهذا التصور جهل فاصح ، فإن المشيئة الإلهية — هنا — قبل أن

نحيء بهذه العبارات في هذه الصيغة ذكرت الحثبات التي من أوجبها برع الله الملك من اليهود وأعطاه الأمة العربية . وفي سورة أخرى يقول الله عن اليهود : ﴿ أم هم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ [الباء : ١٥٢] .

والملك — هنا — ليس وراثته العروش ، ولكن الملك — هنا — هو السلطة التي يمسحها الله من يقومون باسمه ، ومن يصنعون الخير لعباده ، ولهذا وجدنا الآيات — هنا — تحدثت عن السر في أن الله حول النبوة من نسل يعقوب — أي من بني إسرائيل — إلى نسل إسماعيل إلى محمد حاتم النبيين ﷺ ، واختار الأمة العربية لتصبح هذا السى في مسيرته وفي هدايته فقال : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

والخير بيد الله يقيناً ، ولكن الله ما يمسح حيره إلا عبداً رفع يديه ضارعاً يطلب من الله بدل العبيد أن يمسحه !! إن الله عز وجل لا يعطي حيره عبداً أدار الله ظهره ، ولم يُسلم إليه وجهه !! .

إن الله عز وجل بيده الخير ، ولكنه يعطي الخير من يرشح نفسه للعطاء بأن يعرف الله ألوهيته ولبشر عبوديتهم !! .

أما ما عدا ذلك من مسالك فلا خير فيها .

واستطرد الكلام عن اليهود في مواضع شتى من السورة ، نكتفى بها بقوله تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بديار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

هؤلاء اليهود ظنوا أن الفضيلة تنقسم ، وأنه يمكن أن يكون الإنسان عفيفاً عامراً ، أميناً خائفاً ، صادقاً كادياً !! وهذا يستحيل ، فإن الفضيلة لا تنقسم ، الرجل العادل يعدل في كل شيء ، الصادق يصدق في كل شيء ، الأمين أمين في كل شيء ، والله عز وجل عاب على اليهود فقدانهم

خلق الأمانة ورغبتهم في اجتياح حقوق الآخرين . إن الذي وقر في نفس اليهودي أنه شخص ممتاز^(١) ، وأن هذا الامتياز المردى ، أو هذا الاختيار الشعبي يبيح له أن يأكل حقوق الآخرين^(٢) !! .

والإسلام أو الدين الحق يأتي هذا السوء ، إذا كنت معاهداً أحداً ، أو معاملاً شراً فكى مؤمناً تقياً ، ارع عهدك ، واحترم حق كل إنسان : ﴿ بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ [آل عمران ٧٦] .

وفي هذا يقول النبي ﷺ : « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »^(٣) ولماذا يكون النبي — ﷺ حجيجه ؟ .

لأن أسبى ﷺ يريد أن يعرض دينه على الناس نظرياً بحجة مقنعة ، وعملياً بسيرة مشرفة ، فإذا جاء مسلم وعامل الناس معاملة شائنة واتصل بغير المسلمين اتصالاً يكون معرة للإسلام فهذا صائد عن سبيل الله ، وهذا عدو لمحمد ، محمد يدعو أساس إلى دينه ، وهذا يصد الناس عن دينه !! .
نكتفي بهذا القدر من استعراض الآيات المتعلقة باليهود لننظر إلى الآيات المتعلقة بالصاري في اللفظ الأول من هذه السورة .

إن عقيدة التوحيد — بكل ما في التوحيد من رشد وصواب — هي لبُّ الرسالة الإسلامية ، وكما بيَّنا هي الثمرة لأي بحث علمي في آفاق السماء أو فجاح الأرض ، كل شيء في الأرض أو في السماء يشير إلى أن الرب واحد : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً للذهب كل

(١) ففي سفر التثنية الإصحاح الرابع عشر : « أنتم أولاد الرب إلهكم . لا تخمشوا أجسامكم ولا تعملوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت . لأملك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون به شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » !!

(٢) ففي سفر التثنية الإصحاح الثالث والعشرون : « لا تُقرض أخاك برئاً برئاً بصئة أو برئاً طعاماً أو برئاً شيئاً مما مما يُقرض برئاً . للأجنبي تُقرض برئاً ولكن لأحيث لا تقرض برئاً لكى يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها » !!

(٣) رواه أبو داود في الإمارة ٣٠٤/٨ باب في عشر أهل الدمة ونال المردى فيه مجهولون (عون المعبود ٣٠٤/٨)

إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴿ [مؤمنون ٩١ ، ٩٢] .
 لكن النصارى ضلوا ، وقالوا : إياهاك ثلاثة ، كل واحد منها يسمى إلهاً (١) ، وكان الخطأ الذى وقعوا فيه عربياً ما يطيقه عقل ، ولا يرتضيه علم ، ولا تنتحه مقدمات منتظمة ، لكن القوم استقروا على هذا !! .
 وقد تحدث القرآن الكريم فى سورة آل عمران فوجدنا أنه ناقش هذه العقيدة بنمودحين . بنمودح مختصر — نذكره على عجل — وهو إذا كان وجود عيسى من غير أب شبهة تجعل بعض الناس يطعون الله أباه ، إذا كان وجود عيسى بهذا الأسلوب سبباً لأن يتصور بعض الناس أن رب العالمين والده ، إذا كان الأمر كذلك فآدم أولى بالعبادة منه . فليس له أب ولا أم ، وهما يقول القرآن الكريم فى إنحاز . ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ [آل عمران ٥٩ ، ٦٠] .

أى فلا تكن من الشاكين ، هل شكّ نبياً ﷺ ؟ هذا مستحيل ، وإنما يقول العلماء : إن الصنيع البلاغى فى النعة العربية — أحياناً — تحىء بالمعل أمرأ أو توكيداً أو بأى صيغة كى تجعل من على أمر من الأمور يبقى فيه ، ويظل عليه . تقول للمجتهد الذى يحج فى حصى ثمرات اجتهاده اجتهد ، هو ليس كسولاً ، ولكث بكلمة « اجتهد » تعريه أن يبقى على نشاطه ، وأن يظل على مثابرته ، وأن يقاوم أسباب الكسل التى قد تحيط به ، كذلك ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ هذا نوع من استيقاء الرسول ﷺ على الحق الذى شرفه الله تعالى به ، وتأنيب للآخرين الذين ضلوا عنه ، فهو يقول له : لا تكن مثل هؤلاء . ثم قال له : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ [آل عمران ٦١] .

فمن حاجك فيه : جادلوك . من بعد ما جاءك من العلم : لأن غير هذا جهل .

(١) انظر التجيل مثنى الإصحاح ٢٨ ودراسة يوحنا الرسول الأول الإصحاح الخامس

ماذا نعمل ؟ نحن مخلصون ، أصحاب حقيقة ، تزعمون أنكم على حقيقة ؟ تعالو ندعو الله أن يهلك الكاذب ، وكان ذلك في مناظرة بين النبي ﷺ وبين بعض أساقفة الصربية الذين جاعوا يجادلونه في عقيدة التوحيد ، ولقد رفض القوم أن يدخروا في هذه المباهلة ، وأن يقفوا في ساحة يتجهون فيها إلى الله أن يهلك من يفترى عليه الكذب .

قل هذا بقليل تحدثت السورة عن حوارق للعادات تقع غالباً في جَوِّ السموات ، فإن الله عز وجل يريد أن يقول للناس . إن ميلاد عيسى مخالفاً للنسب الطبيعية ، أو للقوانين المعتادة لم يكن بدعاً في البيئة التي عاش فيها ، فإن مريم أمه كفلها ركريا ، فكانت هذه الأسرة مسرحاً لبعض العجائب التي وقعت ، كان ركريا يدخل فيجد طعاماً لم يأت به عند مريم : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم ألي لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [آل عمران

[٣٦]

لما شعر ركريا بأن حوارق العادات تقع حوله طمع في فضل الله ، وكان رجلاً شاح ، وهن عظمه ، وتعصر حلده ، وتأخرت سنه ، وكانت امرأته عقيماً ، لو كان مع شيخوخته يتروح امرأة محصنة لكان هناك أمل ، لكنه قد شاح ، والمرأة عقيم — محبة — ﴿ هالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فتنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ [آل عمران ٣٨ -

[٤٠] .

هذا المعنى في جو السموات من حوارق للعادات هو الذي حدث ، وكون امرأة عقيم طول حياتها نحب ، وكون رجل انقطع من الناحية الجنسية يسحب فهذا حوارق للعادة كولادة عيسى من أم بغير أب ، وكما خلق آدم هكذا بدون أب وأم يستطيع أن يخلق ما يريد ، هذه هي القصة ، تختم القصة بخلاصة هي . ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين

بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن
تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أياؤمكم بالكفر بعد أن كنتم
مسلمون ﴿[آل عمران . ٧٩ ، ٨٠] .

على هذا المعنى ، أو في هذا الطاق ذكرنا بعض المناقشات التي
تضمنتها الآيات الأولى من سورة آل عمران .

وقد ورد عن نبينا ﷺ أنه قال : « إن العصبوب عليهم اليهود
وإن الضالين النصارى » (١) .

هؤلاء غصب عليهم ، هؤلاء ضلوا سواء السبيل .

إذا انتهينا علمياً من هذا البحث فلنقل : إن الصداقة شيء والمروق
العلمية المؤكدة شيء آخر ، فأنا مكلف ديناً أن أكون برّاً وعبدى شرف
وخلق وذمة مع من لا يدين بديني ما دام لا يكيد لي ولا يتآمر عني
ولا ينتصب عدواً أمامي ، ما دام سليماً معي فيجب أن أكون أكثر منه
برّاً ، وخيراً منه عدالة ، وأشرف منه سلوكاً ، فحسن أولى بالبر والحق
والصدق من أي إنسان على طهر الأرض ، لكن الخلق الفاصل ، واحكم
العادل ، والصلة الطيبة شيء والمروق القائمة بين العقائد شيء آخر ، فإذا
صادقت أو صالحت أي إنسان من أهل الكتاب ، وعامته بالبر والعدل
فهذا لا يحدش أو لا يقرب بين العقائد المتناقضة ..

نحن أصحاب توحيد نحرض عليه ورفض أن يُمس ، وعيرنا صاحب
خرافة لا يمكن مهما كانت هناك صداقات أن تقترب منها أو يرحب بها أو
نصطلح معها .

العقائد شيء ولسلوك الواجب على مقنصي الشرف والأمانة شيء
آخر .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

(١) جزء من حديث صويل رواه أحمد ٣٧٨/٤ ، ٣٧٩ ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن
عريب لا يعرفه إلا من حديث ميمالك بن حرب ١٨٦/٥ ، ١٨٧ .

الخطبة الثانية

الحمد لله : ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون هم عذاب شديد﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .

أيها الإحوة : ينبغي ألا نسي أن الله سترنا في المعركة الأخيرة ، وأنه طوّل أسلحنا القصيرة ، وأنه أعاننا بحمد من عنده ، ينبغي ألا نسي هذا .. لكن يبدو أن بعض الناس يريد أن يسي رمصان ، ومعركة رمصان وفضل الله الذى أدرك هذه الأمة فى رمصان وإلا فما معنى أن تذهب إلى « الريتة » — فى « السويس » — جماعة من الممثلين ليعرضوا رواية مسرحية ؟ .

هذه واحدة ، شئ آخر ، ما معنى أن يذهب طلاب من الجامعات مابقى إلا أن يَضْفَرُوا شعورهم ليكوبوا نساء — إلى الجنود وينظر الجنود إليهم ثم يتساءلون : ما هذه اشعور ؟ وما هذه السطلونات^(١) الحمراء ؟ وما هذه المطاهر السمحة ؟ .

(١) البطلون : اسم إيطالى الأصل ، وهو فى اللغة العربية السُرَّيَال .

وثالثة الأثافي (١) وفصيحة المضائق : جامعة الأزهر !! .

أرادت جامعة الأزهر أن تحتفل بـ « العبور » فقررت إقامة ليلة ساهرة بعدد من الرقصات والمعيات والممثلات !! ما هذا !!؟ إيسى أستعرب أن يقع هذا في أى جامعة من الجامعات المدية ، فكيف تفكر جامعة الأزهر في هذا !!؟

لكن هذا الذى حدث هو في الحقيقة فرض لكى يعلم المسلمون الواقع في الأزهر ..

أنا رجل أهرى ، وأعلم علم البقين أن الأزهر وُضعت له حطة جعلت الحيوانات العلمية — الآن — نملؤه !! وأنا أبه المستمين إلى أن الأزهر إذا بقى على وضعه الخالى — عدة مسين — مسيحرح عماء لا يحسنون أن يقرأوا القرآن في المصاحف !! .

إذا بقى الأزهر على وضعه الخالى فإنه سيحرح منه ناس يكرهون أن يصلُّوا بالناس في المساحد !! .
إذا بقى الأزهر، على وضعه الخالى ولم تتداركه عناية الله فإن أمر الإسلام إلى شر !! .

ذلك أن الأزهر — في حقيقته — مصع الأدوية لعل الأمة ، فإذا عُشَّت الأدوية لتي يصدرها اصصع فإن العلل ستقى مصاعمة !! .
إن الأزهر يعانى ، وقد وُضعت له حطة محكمة كى يدمر ، وأنا أوجه نظر المسلمين لهذا ..

إن كل أهل الأرض الذين يتبعون ديانات أرضية أو سماوية اختاروا العمالقة في أبنائهم وأشخاصهم ، اختاروا أعتى الرجال وأقواهم كى يقودوا هذه الديانات !! .

أما الأزهر فقد وُضعت الحطة ليقوده الخبايل ، وليقوده المرصى بعقولهم والمرصى بأحلاقهم .

(١) الأثافي . هي الحجارة الثلاثة التى يوضع عليها القمر عند الطلوع ، وثالثة الأثافي : هي أكبرها ، ويقال : رمة بثالثة الأثافي . بدامية كالجليل .

إب الوضع عريب في الأهر ، وإن جامعة الأهر عندما تفكر في أن تحيى بعض النساء المعينات للاحتفال بليلة العبور تكون هذا قد سجلت الجريمة المسكرة على ما وصل إليه الأهر من الخطط وانتهيار 11 .

كما يريد أن يحتفل الأهر فيعرض فصلاً ثقافياً من حصوبة التشريع الإسلامى وسعته لمصالح الأمة ، كنا نريد أن يعرض تفسيراً موضوعياً لسورة القتال وكيف أن الاعتماد على الله يحيى باخير ، كنا نريد أن يتحدث الأهر عن اللغة العربية ويذكر نماذج من أدب لقتال من الشعر المجل الذى قيل أيام الحروب الصليبية وأيام الحروب الأولى كى يعرض على الناس ألواناً من أدب الصوة لا يعرفها الأدب المائع المحدث الذى يتبناه الآن بعض محترى الأدب .

إسى ألفت الطر إلى هذا اوضع إن بقى فإن الإسلام يهدد ، إسا بحاجة إلى أن يعود إلى العلم الدينى والثقافة الدينية وحصوبة الإسلامية والمعارف التى تتفجر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتحيى موت هذه الأمة

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١)

﴿ ربنا اعقر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [الحل ٩٠]

وأقم الصلاة ...

(١) رواه مسلم فى الذكر - باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

٣- نظرات في سورة آل عمران

النكبة الكبرى

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

في ٢٢/٢/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ،
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة والسراج
المبر .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعد :

فإن المسلمين يعلمون أن القرآن الكريم لم يزل حملة واحدة ، وإعما نزل
مجرأ ، وقد أفادت تحرته — هذه — في معالجة قصايا متجددة ، ورد شبهات
مُثارة ، ومواجهة أحداث تكثرت لها الأمة .

ولعل سورة آل عمران مثّل لمرول القرآن مجرأً ياسب ما تواجهه الأمة من
أحداث ، وما يلابسها من حرب أو سلام .

وقد قلنا : إن النصف الأول من السورة تعرّض لأهل الكتاب ، أو واجه
الحرب الباردة التي شُوها على الإسلام والتي نَمَا تتحول بعد إلى حرب
دائمة ...

أما النصف الأخير من السورة فإنه واجه المشركين الذين لم يَكْفِهِمْ أَنْ
أُحْرِحُوا للإسلام من وطنه الأول — في مكة — حتى أرادوا متابعته حيث استقر
كي يبالوا به ، ويجهروا عليه ، فتحوّل حرمهم الباردة الأولى إلى حرب ساحقة
مدمرة ...

كان المسلمون يواجهون هذه القوى المعتدية الساعية التي اشترت على جهات عريضة تريد أن تنال من الإسلام ، وأن تصنع العقبات في طريقه ، بل تريد أن تحت جذوره ، وأن تظمئ نوره . .

فكانت العلاقة بين أول السورة وآخرها هي أن المسلمين ينبغي أن يواجهوا تلك القوى كلها في خطوات واحدة ، ومفتاح هذا من قوله تعالى : ﴿ لَتَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

كان الأمر بالنسبة لأهل الكتاب أمر مناقشات عقلية كان للإسلام فيها بصور وله ثقل ، لأن دينا يعتمد في حوارهِ على المنطق السديد ، والصكر الدضخ ، والعدم الصادق ، وما يبرى في هذه المحالات جمعاء ، إلا أنه فيما يتصل بأهل الكتاب فقد أمرنا الله أن نعامل أهل الكتاب معاملة معتدلة ، وألا نجادلهم في شئون الدين إلا إذا بدأوا ذلك فليكن جدالنا لهم حسنا (١) ، وقد راد النبي ﷺ إلى هذا أنه أوصى المسلمين ألا يفصلوه على موسى أو عيسى أو أحد من الأنبياء السابقين ، ومع أنه — يقياً — أعلى الرسل قدراً — لأنه أوسعهم رسالة ، ولأنه أعلاهم درجة — إلا أنه أبى أن يُذكر بهذا الفضل ، وقال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس ابن قتي » (٢) .

ويونس هو السبي الذي ترك بلده صائفاً عواقف الكفار فيها ، سامان من المواقف الرديئة التي شعر بها ، فكان أن انتقمه الخوت وهو مؤل عن بلده ما يؤدي واجبه ، قال تعالى لسيما محمد ﷺ : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الخوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ [الفرق : ٤٨ - ٥٠] .

(١) من معنى ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن لا الدين ظلموا منهم وقولوا إنما بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلنا وإلهم واحد ونحن له مسلمون ﴾ [المائدة : ٤٦]

(٢) رواه البخاري في الأنبياء — باب قول الله تعالى ﴿ وإن يونس لم يرسلنا ﴾ ١٩٤ / ٤ ومسلم في الفضائل — باب في ذكر يونس عليه السلام وقول نبي ﷺ « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن قتي » ١٠٢ / ٧

إب السبي — ﷺ — كره أن يفصل على يوس بن متى ، وهذا
تواضع منه لله أولاً .. وثانياً . رعية في إطعام الفس ومنع المسلمين أن
يخرجوا اليهود أو الصاري بتفصيله على أسياهم .. فهل ارعوى أهل
الكتاب لهذا المسلك ، وتآدبوا مع المسلمين ، وقدروا هذه المواقف
السيلة ١٩ .

لم يقع هذا ١١ .

ولسب أن المسلمين يؤمنون بأسيائهم ، ويصدقون برسالتهم ،
وهؤلاء لا يؤمنون بسيا ، ولا يصدقون برسالتهم ، والمسلمون لا يرون
حرجاً في أن يبقى أهل الكتاب على عقائدهم ، وأن يجمع الكل وطى
مشترك ، أما أهل الكتاب فكانوا يرون حرجاً في أن يبقى المسلمون على
توحيدهم وقرآنهم ونبوتهم ورسالتهم الجديدة ١١ .

هذا المعنى جعل موقف المسلمين — لا بد أن يكون — دقيقاً ، ولذلك
أمرهم الله بأن يكونوا — من أهل الكتاب — على حذر ، فيحسنوا إليهم ،
ولكن لا ينبغي أن يستعينوا بهم في شئون سياسة الإسلامية ، أو أن
يطلعوهم على حياياها ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا
بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من
أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون .
ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا
آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله
عليم بذات الصدور ﴾ [آل عمران . ١١٨ ، ١١٩] .

هذه التعاليم قصد بها أن تستطيع الأمة الإسلامية السير دون عائق
ودون مؤامرات داخلية ودون أن تشعر بغش يتخلل كياها ويسىء إليها .

وبدأ المسلمون — فعلاً — يتجمعون على هذا الأساس ، وينون
وحدثهم على ذلك الهدف الواضح ، يَدُّ أن أهل الكتاب يَتَّروا أمراً هو أن
يدلوا الجهود مستميتة لحل الفرقة تَدب بين المسلمين ، فهم يشعرون بأن
المسلمين إذا قامت لهم وحدة فإن وحدتهم ستُجج رسالتهم ، وتوصل

مبادتهم ، وتعلمهم يداً واحدة على من سواهم فلا يمكن أن يُغلبوا .

حاول اليهود ذلك في « المدينة » عندما نظروا فوجدوا أن المهاجرين من « مكة » وأن رجال « الأوس » ورجال « الخزرج » الذين أكلت العدوات قلوبهم قديماً قد أصبحوا أنصار الله ، ثم أصبح الأنصار والمهاجرون جميعاً إخوة . كان اليهود يشتعلون بالربا بينهم وبيع السلاح لهم ، كانوا يستمعون بالعدوات المهتاجة التي تثير هؤلاء على أولئك ، وتجعل الدم لا يجف من بيوتهم !! .

إذن لا بد من تمزيق هذه الوحدة ، وحاولوها — فعلاً — وكادوا ينجحون لولا أن تدخل النبي ﷺ وأطماً الفتنة في مهدها ، وبرل قوله تعالى — في سورة آل عمران — ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ [آل عمران ١٠٠ ، ١٠١] .

عرف المسلمون أنها برغبة شيطان كادت تُحطِم كيانهم ، وتُضيع يومهم وعدهم ، وتُغضب عليهم ربهم ، وتردهم إلى الجاهلية التي خَلصوا من شرورها ، وعرفوا أن الله شَرَّفهم بهذا الدين ليكونوا به أمة خير ، وليكونوا حُرَّاساً على تعاليمه ، وليكونوا أساتذة للإنسانية كلها بما أودع الله في هذه التعاليم من حق وبر .

ولذلك حُدِدت وظيفة هذه الأمة في سورة آل عمران بقول الله جلَّ شأنه : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران ١٠٤] .

وأشار إلى أن أهل الكتاب الأوس قد فسدت تعاليم السماء بين أيديهم فأصبح القبيح لديهم حسناً ، والحس لديهم قبيحاً ، والتوحيد شركاً ، وفهم الألوهية غلطاً ، فبهم إلى أنه ما يجوز للأمة الإسلامية أن تقع في ما وقع فيه أهل الكتاب ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليّنات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران ١٠٥] .

وأكد رسالة الأمة الإسلامية فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

لكن أهل الكتاب ما سوا أن كياهم أو يحاحهم صد الإسلام ، بما يتم بمزيق الوحدة الإسلامية فدأبوا على ذلك ، واستطاعوا على مَرَّ الرمن أن يحدثوا فتوقاً يساً ، لكن هذه الفتوق سرعان ما تندمل حراحاتها ، وتعود الأمة إلى وعيها ، وتستأنف باسم الله مسيرتها ، إلا أن النكبة الكبرى التي أصابت الأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة كانت فوق الطول . كانت نكبة جائحة تركت آثاراً سوداً إلى يوم الناس هذا في مستقبل الأمة الإسلامية . ذلك أن الدسائس الصليبية واليهودية تلاقى — في هذا القرن الحزير الجريح — على أمتنا

كانت الأمة موحدة في ظل خلافة مريضة معتلة ، لكنها خلافة شبح ، والشبح — أحياناً — في الحقول رعا مع الصير المتلصص !! كانت الخلافة شبحاً ، ولكن هذه الخلافة وقعت دهرأ صد لاستعمار العالمى ، وبوسائلها الضعيفة قدرت على أن تصنع شيئاً ، فكان هدف الصليبية والصهيوية معاً صرب دولة الخلافة ضرباً يحىء إلى صميمها فيبال منه شر مال .. واتصل الانكليز — فعلاً — بالعرب عن طريق « الشريف حسين (١) » والانكليز ما كانوا محلصين للقرآن أو السنة ، ما كانوا ولن يكونوا محلصين لأهل البيت ، ما كانوا ولن يكونوا رحماء بالإسلام وأمته .

لكن الرجل الطامع الأدنى اتفق مع الانكليز على ضرب الأتراك

كان الأتراك ظلمة — فعلاً — وكان العرب نخوة — فعلاً — وكانت النتيجة أن ذبح العرب الأتراك في الحرمين !! وهُرم الأتراك هزيمة مسكرة بسبب حيانة العرب لهم ، والعرب يقولون : حُناهم لأهم ظلمونا !! على كل حال الذى كسب المعركة الكفر والإلحاد !! .

(١) هو الحسين بن على (١٢٧٠ — ١٣٥٠ هـ = ١٨٥٤ — ١٩٣١ م) أول من قام في

المحجاز باستقلال العرب عن الترك وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين

وكانت الشيعة أن الأمة العربية سقطت خلافتها الشيعية ، وانقسم بعضها — بعد ذلك — كما ينقطع جبل السُّبْحَة^(١) فتتشر السُّبْحَة مائة حبة أو ثلاثين حبة حسب ما فيها من حبات !! .

انتشرت — فعلاً — الخيوط التي تجمع الأمة الإسلامية ، وأصبحت هذه الأمة لا يعرف بعضها الآخر !! .

ولو سألت أي مثقف في الجامعة — الآن — : أتعرف أن في « توجو »^(٢) مسلمين يمثلون أكثر ادولة ؟ .

لقال لك : ما « توجو » ؟ ما « ملاوي »^(٣) ؟
دول إسلامية ، لكنه لا يدري ، ما يدري أحد عن الإسلام في « أفريقيا » شيئاً ، ما يدري أحد عن الإسلام في « آسيا » شيئاً ، ما يدري أحد أن المسلمين — الآن — يبدعون ثمانمائة مليون في العالم^(٤) ، وحرث الإحصاءات — وهي حرب حيثة — جعلت المسلمين أنفسهم ما يعرفون عددهم !! .

وقد قلت — بناءً عن إحصاءات دقيقة من مصادر أمريكية — إن المسلمين — الآن — في « الحشنة »^(٥) نحو ٧٠٪ ولكن الكثرة المسلمة مسحوقة ، والمسجد في « أديس أبابا » تحيط به بيوت البعايا !! .
هذا التفرق جعل الأمة مُعْهَنَةً في كيانها ، ولكن على رأس من يقع ورر هذا الجهل ؟ .

الحق يقال : إنه يقع على الأمة العربية !! لماذا ؟ لأن « العرب هم دماغ الإسلام وقلبه » احمظوا هذا التعبير .

(١) السُّبْحَة والسُّبْحَة غمرات مظلومة لسيح

(٢) جمهورية أفريقية حديثة تقع في غرب القارة لها شريط ساحلي يصل على خليج غينيا لمسافة ٣٢ كم تجاورها من الشرق داهومي وفي الغرب غانا وتتصل حدودها الشمالية بجمهورية فولتا العليا ، وعاصمتها لومي

(٣) جمهورية أفريقية تقع شرق وسط أفريقيا ، وعاصمتها روبا

(٤) وقد وصلت النسبة الآن إلى ألف مليون أي ربع سكان العالم .

(٥) الاسم العربي الذي كانت وما زالت تُعرف به دولة أثيوبيا في الوقت الحاضر ، وتقع شرق أفريقيا والعاصمة أديس أبابا

ما دام القرآن عربياً ، وما دامت السنة عربية ، وما دامت الثقافة الإسلامية عربية ، وما دامت الكعبة — قبة المسلمين — في بلاد عربية فمعنى ذلك أن الجنس العربي — بعنه ودينه — هو المستول على العالم الإسلامي كله !!

وعرف الاستعمار هذا ، وأدرك أن العرب إذا استيقظوا باسم الإسلام تجمع الثمانمائة مليون مسلم في وحدة كبرى !! فماداً يصنع ؟

حتهد في أن يعد العرب عن الإسلام ، ويحبب جهوده ، وأذكر بكم مثلاً وحيداً — من عشرات الأمثلة التي أعرفها ، وربما كتبها يوماً — « قبرص »^(١) بلد إسلامي ، فتحه المسلمون بعد أن فتحوا « مصر » ، فعمر الإسلام في « قبرص » يقل عشر سنين عن عمر الإسلام في « مصر » لأن « مصر » تحررت من الاستعمار الروماني في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وتحررت « قبرص » من الاستعمار الروماني في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان — رضي الله عنه .

ولرواة السنة الشريفة قصة لـ « قبرص » هذه ، أحب أن تُعرف .. عن أسس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فطعمته ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فطعمته وجعلت تقي رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يصحك — قالت : فقلت وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمتي عُرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبح هذا البحر ملوكاً على الأسيرة — أو مثل الملوك على الأسيرة — قالت : فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . فدعاها رسول الله ﷺ ثم وضع رأسه ، ثم استيقظ وهو يصحك . فقلت : وما يضحكك يا رسول الله ، قال ناس من أمتي عُرضوا علي غزاة في سبيل الله كما قال في الأول . قالت : فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال : أب من الأويين . فركبت البحر في رمان معاوية

(١) تقع في شرق البحر الأبيض المتوسط وهي جزيرة قبالة سواحل سوريا من ناحية لغرب

وسواحل تركيا الجبلية وهي ضمن المجموعة الأسيوية وتبلغ مساحتها ٣٥٧٢ ميلاً مربعاً

ابن أبي سفيان ، فصُرِّعت عن دانتها حين خرجت من البحر
فهلكت» (١) .

فلسطر كيف حققت الأيام رؤيا نبي ﷺ ؟ ومن الملوك لذين
يركبون أمواج البحر ؟ وماذا صنعوا ؟ قال التاريخ : كان المسلمون في
حرب مع دولة الرومان ، ودولة الرومان هي السبب في هذه المعارك لأنها
قتلت رسل النبي ﷺ ، واشتبكت مع المسلمين — على عهد النبي —
ﷺ — نفسه في حروب كانت تريد بها القضاء على الإسلام .

دولة الرومان دولة استعمارية عحوز هُرمّت المسلمين في « مُوتة »
وانسحبت دون قتال في « ثوك » ، فكان على المسلمين أن يواجهوا
الموقف ، وواجهوه واحتلوا « الشام » بعد أن حرروها من الرومان ،
واحتلوا « مصر » بعد أن حرروها وكانت مستعمرة دليّة وضعيفة داخل
الطاق الرومان اندي أكلها مادياً ومعنوياً ، فكان دخول الإسلام في
« مصر » إحياء لها ، ومضى القتال في طريقه بعد وفاة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه ، وشرع عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه يؤدي دوره ،
وكان يعلم أن رأس الأفعى في « القسطنطينية » (٢) .

يقول التاريخ : ذهب عبادة بن الصامت — رضي الله عنه — وذهبت
معه زوجته — أم حرام بنت ملحان — وقتلوا في « قبرص » إلا أن المرأة
أدركتها الوفاة في « قبرص » فماتت فيها ، ويُعرف قبرها — إلى الآن —
بقبر المرأة الصالحة (٣) !!

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير — باب الدعاء بالجهاد والشهادة لرجال والنساء
٤ / ١٩ ومسلم في الإمارة — باب فصل العزو في البحر ٦ / ٤٩

وأم حرام بنت ملحان : هي أحب أم سليم وخالة أنس بن مالك ، تحت عبادة بن الصامت : أي
روحاً له تعني يعني تفتش شعر رأسه لتسحرح هوائه ، وإنما كانت تغطي رأسه لأنها كانت منه
دات محرم من قبل خالاته لأن أم عبد المطلب كانت من بني النخار ثبج هذا لبحر أي وسطه أو
معظمه أو هؤلاء ملوكاً برع الخافض أي مثل ملوك

(٢) عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، بناها الإمبراطور قسطنطين (٣٣٠ م) في يريطة القديمة
وسميت باسمه

(٣) انظر البداية والنهاية ٧ / ١٥٣ فتح قبرص

فماذا حدث لقبرص بعد ثلاثة عشر قرناً من امتلاكها بالإسلام ؟
عندما هاجم الإنكليز « مصر » واحتلوها احتلوا « قبرص » ،
كيف ؟

كانت « تركيا » موجودة ، ودولة الخلافة قائمة ، لكنها دولة
ضعيفة ، فاتفق الإنكليز مع الأتراك الذين يحكمون « قبرص » — وكانوا
يحكمون « قبرص » لأن « قبرص » كانت تتبع « الشام » ، و
« المحافظ » في « الاسكندرية » أو « أطاكية » — وكانت هذه ولاية
شامية — هو الذي يتولى شؤون « قبرص » لأنها قريبة من الساحل
السوري ، فعرض الإنكليز على الدولة العثمانية أن يقيموا قاعدة لهم في
« قبرص » وأقاموا القاعدة ، ورفض السكان المسلمون أن يعاونوا
الإنكليز ، فمادا صنع الإنكليز ؟.

بدأوا يستأجرون عمالاً يونانيين ، فكان محيى العمال اليونانيين أول
الوجود اليوناني في « قبرص » وبدأوا يكثرون ، فماذا حدث ؟

قرر اليونانيون أن يأخذوا « قبرص » من الإسلام ودولته !! أكانت
« قبرص » في تاريخها الماضي السحيق تتبع اليونان يوماً ؟ لا . يقول
التاريخ : ما كانت « قبرص » تتبع اليونان يوماً من الأيام ، فمادا حدث ؟

المؤتمرات العالمية التي أرادت أن تضرب الإسلام جعلت العرب
يؤيدون « قبرص » اليونانية ضد « قبرص » الإسلامية !!

هذا ما حدث ، أنا مضمياً هنا في محاربة الأتراك المسلمين قررنا أن ننضم
إلى « مكاريوس » (١) .. واليونان ضد الأتراك المسلمين !! ما هذا ؟!

بلغت الوقاحة بالسياسة الاستعمارية العالمية أن أوعزت لمفليها أن
يستقدموا « مكاريوس » إلى « القاهرة » وأن يرور إدارة « الأزهر »
ليقال : إن الأزهر مع اليونانيين القبارصة ضد المسلمين القبارصة !!

(١) اسقف يوناني أرثوذكسي قبرصي ، رعيم حركة الوحدة مع اليونان منذ ١٩٥٠ ، انتخب
رئيساً لجمهورية قبرص الحديثة في ديسمبر ١٩٥٩

العرب إذا قررو محاربة الإسلام فإن الله عز وجل لا بد أن يذلهم ،
وأن يخرجهم ، وأن يُسَوِّدَ بأهوائهم وحواسهم ، وأن يجعل الدنيا تسحر منهم !!
نقد قلت : إن العداوات التي تعمل ضد الإسلام كثيرة ...

العالم الإسلامي يمتد على رقعة بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي ،
أكبر رقعة في تجمعات البشرية ، ثمانمائة مليون مسلم يملكون أحشاء العالم
بين أصابعهم ، يملكون ممراته الكبرى ، يملكون طاقاته الموجهة ، ما يشكو
العرب أو المسلمون فقراً !!

لكن الذي حدث أن المحكوم على الإسلام بدأ بعد تدويع الفكر العربي
فيذا المسلمون في آسيا يؤحنون أحداً في ظل « روسيا القيصرية » ثم في
ظل « روسيا الشيوعية » !!

البلاد التي أُنِجَت الإمام « البخاري » والإمام « مسلم » وأُنِجَت
« فخر الدين الرازي » وأُنِجَت « جابر الله الرخشي » وأُنِجَت خدم
القرآن في باب الإعجاز واللغة : « سيبريه » و « الجرجاني » و
« السكاكي » وغيرهم وغيرهم من علماء الدين واللغة !!

للبلاد التي أُنِجَت أولئك العمالقة ليست عليها — الآن — راية تقول :
لا إله إلا الله !!

الراية التي عليها راية كافرة ملحدة تنكر الألوهية أصلاً !!

أما المسلمون في « الهند » فيعلم الله كم يعانون ، المسلمون في
« باكستان » ، المسلمون في بقية الأرض الإفريقية والآسيوية ممزقون !!
أتدرون من يجمع شملهم ؟ العرب ، العرب إذا رجعوا إلى الإسلام ،
أتدرون من يجمع شمل العرب ؟ « مصر » إذا تمسكت بالإسلام !!

نحن بين قراءتنا لسورة آل عمران عندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ ولتكن
منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك
هم المفلحون ﴾ [آل عمران ١٠٤] . وعندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ كنتم
خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتؤمنون

بِاللَّهِ ﴿ل عَرَبِ ١١﴾ . مَرَكْ أَنْ مَكَلَّفَ هَذَا الْكَلَامَ اسْتِثَاءَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ
السَّانَ الْعَرَبِيَّ ...

المسلم الهندي مسكين ما يعرف العربية ، المسلم الرجحي مسكين
ما يعرف لعربية ، المسلم التركي مسكين ما يعرف العربية ، فإذا جاء حكم
عربي وقرر أن يجازب التجمعات الإسلامية ، أو يقف ها بالمرصاد ، أو أن
يطعن في بيات أصحابها فإن هذا إما يخدم الدين يريدون الإحهار على الإسلام
والنيل منه !!
إن أشياء كثيرة يجب أن تُعرف ، وأن تُنقد .

من أسوأ ما أصاب الأمة الإسلامية في القاهرة — والقاهرة هي العاصمة
الثقافية لعالم الإسلامى — أن الحهار الذى كُلِّفَ برعاية العقيدة واللغة
وحراسة الآداب العربية أصابه غُطَب !! إنه لم يحرر أن أعلم أنه في يوم
الأربعاء الماضي أقامت كلية اللغة العربية — في الأزهر — حملاً مُثَلَّت فيه رواية
« الصُّدُيقَيْن » — والرواية فيلم هندي !!

ولا أدري ما لدى يجعل كلية من كليات الأزهر تُشعل نفسها بتمثيل
فيلم هندي ؟ لا أدري السبب ، ولكن الذى أدريه أن اللغة العربية مكوبة ،
وأها مهددة في يومها ومستقبلها ، وأن من عجائب الزمن أن كلية دار العلوم
أرسلت مبعوثاً لها إلى « لندن » كي يدرس فقه اللغة في « لندن » !!
في هذه السنة يقع هذا ، سبحان الله .

أين كلية اللغة العربية ؟ مشعرة بتمثيل فيلم هندي !! أين فقه اللغة ؟
لا تدري عنه شيئاً . لو كان لفقه اللغة أساتذة ما أرسلت « دار العلوم » إلى
« لندن » مبعوثاً يتعلم فقه اللغة هالك ، وهل « لندن » تُعَلِّم فقه اللغة ؟
هذا عجب !! والأعجب من هذا أن « الأزهر » — في كلية البات —
أرسل فتاة لتعلم الفلسفة الإسلامية في « لندن » !!

إسا ورثنا مجتمعاً ظل جباناً في نقد الحكومات وأجهزة الحكومة ، ظل
حياتاً لأن الناقد كان يُعتقل أو يُسجن أو يُضرب أو يُهان !!
وجنت الأمة العربية — في مصر — ثمرات هذا الخس أن أدلها الله ، ومكر
اعلوا منها ، ثم بدأنا نتوب ونراجع ونأخذ طريقاً إلى رضا صحيحاً .

فلنعم أن العقلية الخربة التي ظلت عشرين مئة تبحث لا تزال
موجودة ، وأن هذه التصرفات يجب أن تطارد وإلا فلسنا أمة تأمر بالمعروف
وتنهى عن المنكر .

ما معي أن يرسل « الأهرر » فتاة تتعلم الفلسفة الإسلامية في
« لندن » ؟ أو ترسل « دار العلوم » شخصا يتعلم فقه اللغة في
« لندن » ؟

إننا بدل أن نجس العار والخرى جئنا برواية فيلم هدى نمثله في كية
اللغة العربية !!

هؤلاء الناس يظنون أن التقدم في محاصمة الإسلام ، وأن المدنية في
محاصمة اللغة العربية والقرآن الكريم والسنة النبوية .

إننى أعلم أن بعض الدين حملوا لدكتوراه من العواصم الأجنبية
لا يسأوون شيئا !! وأن الورق الذى يؤخذ من « لندن » أو « باريس »
ورق مزور !!

إننى أقول هذا لأدأوى عقدة الوصاعة في نفوس المثقفين عندما .
لتعُد في « مصر » إلى كتاب ربنا وسنة نبينا — ﷺ — ومناصرة
الإسلام ، وتصحيح الأجهزة المسئولة عنه .
أقول قولى هنا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون هم عذاب شديد ﴿ [اشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ومن باب إحقاق الحق وتقدير الناس أذكر لكم أن الأح الحليل مدير مكتب الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر اتصل بي وقال لي : إن الإمام الأكبر^(١) اعترض الرواية أو الحلقة الماخنة التي بددت بها في الأسبوع الماضي ، وأنه طلب معافاة المسؤولين عن وضع برامجها !!

إسى أريد أن أقرر هذا ، وأقرر معه — أيضاً — أن الإمام الأكبر رجل فيه حير كثير لأنه هو الذى أوقفنى هذا الموقف ، وهو الذى حاءنى إلى هذا المسجد ، وهو الذى رأى أن يُعمر بعد حراب ، وهو الذى تفاءل حيراً في أن المسلمين سوف يحتشدون هنا — لا حول شخص ولكن — حول فكرة أن الإسلام يجب أن تعلقوا رايته ، وأن تنتصر جهته ، وأن يثوب إليه الذين انتعلوا عنه وخافوا من الانتساب إليه .

جزاه الله خيراً على هذا كله .

هذه واحدة ، وواحدة أخرى أرى نسي مُلزماً بها ، إن هذا المسجد

(١) الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود — رحمه الله عليه .

بدل من أحله وعانى في تعميره السيد الكريم / محافظ القاهرة ، والرجل
الآن — مريض ، نُقل من مكتبه مريضاً ، أطر واجب الوفاء يفرص على
المسلمين في هذا المسجد أن يسألوا الله له العافية ، نحن نسأل الله من قلوبنا
أن يصحح له بده وروحه وأن يُسع عليه ثوب العافية ، وأن يرده إلى عمله
في خدمة هذا المسجد وخدمة الإسلام وأن يجعله مثلاً صالحاً لإخوانه
المحافظين كي يؤدوا واجبهم لخدمة هذا الدين العزيز .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
ريادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١)

﴿ ربنا اعصر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويهى عن
المحشأ والمسكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [الحل ٩٠] .
أقم الصلاة

★ ★ ★

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨٠ / ٨١

٤- تأملات في سورة آل عمران غزوة أحد كما تحدثت عنها السورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

في ١ / ٣ / ١٩٧٤

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين
وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله
الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والعمة المسداة ،
والسراج المنير

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فمن لصف الله بعباده المؤمنين أنه إذا وقع منهم خطأ طمأن قلوبهم
بتقديم العفو عنهم قبل أن يذكر الدب الذي فرط منهم ، وذلك على نحو
ما قال لبيبة — عليه الصلاة والسلام — لما قبل الأعداء المختلفة التي تقدم بها
لما فتون — : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا
وتعلم الكاذبين ﴾ [التوبة : ٤٣] .

وفي أواخر سورة آل عمران — في الصف الأخير منها ، النصف
الذي تضمن معركة « أحد » — نجد أن رب العالمين فتح أبواب المتاب ،
ويسر للمسلمين الدين وقعت منهم أخطاء أن يرجعوا إلى ربهم ، وأن
يتخلصوا من أخطائهم ، وأن يجدوا الطريق أمامهم مفتوحاً لإحراز الثواب
الكثير ، وذلك في قول الله جل شأنه : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم
وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

إن هذه الآية وما بعدها برلت في أثناء الكلام عن معركة « أحد »
وما وقع فيها من أحداث .

خطب الغزالي - المجلد الثاني

والحديث عن معركة «أحد» بدأ من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٢١] . غدت من أهلك : أى خرجت في الصباح تُرْصُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصُّفُوفِ الَّتِي يَقِفُونَ فِيهَا كَيْ يُؤَدُّوا حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الدِّفَاعِ عَنْ عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَنْ حِمَى الْعَقِيدَةِ ، وَرَدُّ الْمُهَاجِمِينَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ .

بدأ الكلام من هذا الموضع ، ثم قل أن تُذكر الهزائم التي وقعت ، والآلام التي أحس بها المؤمنون في قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِكُمْ سُنَنٌ فَعِصْرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧ - ١٣٩] .

قبل أن تذكر هذه الهزائم تحد هذه الآيات : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] من هم المتقون ؟ عُرِفُوا بِأَوْصَانِهِمْ : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] من المتقين يقيناً كل من يقع منه خطأ ثم يسارع بالخلاص منه ، والتوبة إلى الله بعده ، والبعد عنه جهد الطاقة .

وهذا من رحمة الله بعباده ، فإنه لم يفترض المؤمنين معصومين ، وإنما فُرِصَ فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تَخْطِئَ ، فَالْخَطَأُ جَرَاءُ مِنْ كَيْاسِهَا ، وَمَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِفْ طَوْلَ حَيَاتِهِ دَسَاءً ، وَلَمْ يَفْرُطْ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَيَقْعَ مِنْهُ التَّقْصِيرُ ، مَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى الْقَوْلِ بِهَذَا ..

ولذلك فإن من عناصر التقوى أن يسارع الإنسان بتطهير نفسه من الخطيئة إذا هو سقط فيها : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥ - ١٣٦] . وبالنسبة إلى الرجال الذين اشتركوا في معركة «أحد» ووقعت الهزيمة — إن صح التعبير — وهم يقاتلون ، فإن الله تعالى أعلن صفحة عما بدر منهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ

الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور
حلیم ﴿ [آل عمران : ١٥٥] .

والكلام عن معركة « أحد » يحتاج إلى شيء من التوضيح
والتفصيل ، فإن الهزائم لا تستوى ، هناك هزائم تقع لأصحابها بعد أن
أعدوا الخطة للمعركة ، وبعد أن بذلوا الجهد في بلوغ النصر الذي يحرصون
عليه ، ولكن عدوهم انتزع النصر منهم لأنه أكثر عدداً ، أو لأنه أشد
سلاحاً ، أو لأنه أحكم حُططاً ، أو لأسباب أخرى قضت بها حكمة الله
جل شأنه .

والمعارك من هذا النوع التي تصاب الأمم فيها هزائم هي معارك تُعتبر
الهزائم فيها عوارض مؤقتة ، فقد انهزم « الألمان » في المعركة الأخيرة لهم في
الحروب العالمية الثانية ، ولكن الهزيمة التي أدركتهم لم تل من عبقريتهم
العسكرية ولا الصناعية ، وإنما عرضت لهم الهزيمة لطروف فوق الطاقة ،
وسرعان ما تغلبوا عليها ، ولم تمض سنون حتى تحاوروا الهزيمة ، ورجعوا إلى
مصاف الدول العظمى ، وكذلك « اليابان » .. والهزيمة التي وقعت في
« أحد » من هذا القيل هلك لقاء بين العمالقة ، ربما قرأ القارئون أبناء
الملايكات والمصارعات التي تقع في حلالب^(١) الرياضة بين ناس يدغوا منتهى
القوة ، فما يهزم أحدهم الآخر إلا بعد عناء وجهد

هذا نوع من الهزيمة — كما قلنا — يستطيع المهروم في عواقبه أن يهص
على عجل ، وأن يداوى جراحاته برجولة ، وأن يستنف السير في الدنيا
بقدره ، لأن كيانه صُلب ، ولأن ما وقع له عارض مؤقت .

وليست كذلك الهزائم التي أصابت المسلمين في أيام أخرى من
تاريخهم ، انهزم المسلمون في « الأندلس » وخرجوا تاركين هذا الفردوس
المفقود ، وبكى القائد الخارج لماً وحده أن ماضياً عريقاً قد صاع ، وأن
ملكاً ضحماً قد تلاشى ، فقالت له أمه :

ابك مثل النساء ملكاً تولى لم تحافظ عليه مثل الرجال
وكانت هزيمة المسلمين في « بغداد » التي أدخعت « التتر »

الخبيء موضع يخصر بملأكمه ومصارعه وخوما والجمع حلالب

عاصمتهم من هذا النوع أيضاً ، فإن الخلافة في « بغداد » كانت صورية ، وكان الخليفة ومن حوله ناساً ما يعرفون إلا الشهوات المطاعة ، والأهواء المتبعة ، والكهانات لباردة ، والانتساب للنبي ﷺ في ورق تُذكر فيه أسماء الآباء ، ولكن ما يتسبون إليه بالخلق العظم ، ولا بالفعل الكبير .

ولذلك لما دخل « التتر » « بغداد » كانوا يقاتلون حكاماً من هذا اللون الهابط لسحيق الوضع ، فكانت الهزيمة شيئاً لا بد منه . فارق بين هزائم العمالقة وهزائم المهاريل .. إن المهزول شخص يمشي وهو ضعيف ، حراثم العلة تُخَر في كيانه ، فهو لم يصربه أحد لسقط بعد قليل من تلقاء نفسه ، لأن العمل تآكل في جسمه ، والمعركة التي وقع فيها لم يهزم فيها لأنه لقي هزيمة عارضة ، إنما هُزم فيها لأنها كشفت ضعفه الحقيقي ، وبينت ما في كيانه من علل .

ومن هذا النوع ما أصاب العرب سنة ١٩٦٧ م فإن هزائم العرب يومئذ كانت شيئاً طبيعياً ، فإن الله تعالى لا يهزم العلم أمام الجهل ، ولا يهرم النظام أمام الفوضى ، ولا يهرم إخلاص القادة لأئمتهم أمام خيانة القادة لشعوبهم !! .

الفارق كبير بين هزيمة وهزيمة ، هناك هزائم تقع لأصحابها فيشعر المنتصر بأن حصمه رحل كبير ، وأن انتصاره عليه انتصار له ثمة ، وهناك هزائم تقع لأصحابها فيشعر المنتصر بأنه إنما كان يقتل من لا وزن لهم ولا قيمة !! .

الدين اشتركوا في معركة « أحد » طراز من الرجال لا نظير له في الدنيا ، ولذلك يرفض بعض المؤرخين القول بأن هزيمة وقعت في « أحد » ويكتب السيرة النبوية على هذا الأساس ، ويقول : لقد وقع قتال فعلاً ، ولكن موقف المسلمين في نهايته يشبه موقف المشركين .

كان يمكن أن يقول : إن المسلمين انهزموا لو أن شبراً من أرض « المدينة » احتل ، ولكن ما احتل شبر من الأرض .. كان يمكن أن يقول : إن المسلمين انهزموا لو أن ما أصابهم أسقطهم في الحلة فلم

يستطيعوا مهوضاً .. لكهم بعد يوم كانوا يشتلون في دروب الصحراء يطاردون العدو ، ويطلبون منه أن يتوقف كي يأزله مرة أخرى .. ثم شيء أخير وهو أنهم دخلوا المعركة بإيمان راسخ ، ويقين باذح ، فانتصروا في أوما انتصاراً كاد يكشف جيش الشرك ، بل إن المشركين رؤوا وهم يشتلون في الأرض هرباً !! ولولا ما حدث من مخالفة لأوامر النبي ﷺ ما كانت الخسائر التي نزلت بالأمة الإسلامية يومئذ .

لكي يدرك من هم الرجال الدين قاتلوا في « أحد » أعرض هذه القصص لتعرف كيف يصنع الإيمان البطولة ، وكيف يُغري بالتصحية ، وكيف يُحبب إلى الناس لقاء الله ، وكأنه ذهاب إلى حفل تكريم يسعى الإنسان إليه ببشاشة ورغبة !! إن الرجال الدين يكتبون التاريخ بدمائهم ، ويوجهون زمامه بعزماهم هم الدين صلوا هذه الحرب في « أحد » وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض .

رُوي أن « خثيمة » قُتل أبوه في معركة « بدر » فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر ، وكنت — والله — عليها حريصاً ، حتى ساءمتُ أبي في الخروج ، فحرح — في القرعة — سهمه ، فَرُزق الشهادة ، وقد رأيت البرحة أبي في اليوم في أحسن صورة ، يَسْرَح في ثمار الجنة وأنهارها ، يقول : الحق بنا ترافقنا في الحجة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً . وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد كبرت سبي ، ورُق عظمي ، وأحببت لقاء ربي . فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الحجة . فدعا به رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيداً^(١) .

وكان « عمرو بن الحموح » أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى « أحد » أراد أن يخرج معه . فقال له بوه : إن الله قد جعل لك رحصة ، فلو قعدت ونحن

(١) زاد المعاد ٢٠٨/٣ ولم أقف عليه الآن وأما قصة الاستهام على الخروج في سر واستشهاد سعد في هذه المعركة فقد رواها الحاكم ١٨٩/٣ ورواها أيضاً ابن المبارك وموسى بن عتبة كما في الإصابة ٢٥/٢ .

بكفيك ، وقد وضع الله عثك الجهاد ، فأنى عمرو رسول الله ﷺ فقال .
 إن نبى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك ، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ
 بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله
 عثك الجهاد ، وقال لىبه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه
 الشهادة . فحرح مع رسول الله ﷺ فقتل يوم « أحد » شهيداً (١) .

وقال « العمان بن مالث » يا نبى الله لا تحرمنا الجنة — وذلك قبل
 نشوب القتال — فوالذى نفسى بيده لأدخلها ، فقال له رسول الله ﷺ
 بم ؟ قال : بأنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الرحف . فقال له رسول الله
 ﷺ : صدقت . واستشهد يومئذ (٢) .

وقال « عبد الله بن ححش » فى ذلك اليوم : اللهم إنى أقسم عليك
 أن ألقى العدو غداً فيقتلونى ثم يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى وأدى ، ثم
 يسألنى : فى ذلك ؟ فأقول : فىك (٣) .

هذه صورة للرجولة الفارعة التى صطدم بها الكفر أول المعركة
 وآخرها عماد أمامها ، واصطربت من تحت أقدامه الأرض ، فما ربح شيئاً
 فى بداية القتال ، ولا انتفع مما ربح آخره .

وهذا النون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامى القائم
 إلى اليوم .

(١) رواه ابن هشام ٣١/٣ عن ابن اسحاق قال : وحديثى أنى إسحاق بن يسار عن أشياخ من
 بى سلمة قال الألبانى . وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة وإلا فهو مرسل . وبعضه
 فى المسند ٢٩٩/٥ من حديث أنى قتادة رضى الله عنه وراد . « فقتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولى
 لهم . فمر عليه رسول الله ﷺ فقال . « كأنى أنظر إليك غشى برجلك هذه صحيفة فى الجنة »
 وسنده صحيح (فقه السيرة لشيخ محمد الغزالى ص ٢٨١) .

(٢) قال الألبانى : أورد هذا الحديث الخطوط فى « الإصابة » من طريق السدى فهو مرسل
 (المرجع السابق)

(٣) رواه الحاكم ١٩٩/٣ — ٢٠٠ وقال : صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه . ووافقه
 الذهبى . قال الألبانى : لكن له شاهد موصول ، وأخرجه البغوى كما فى « الإصابة » من طريق
 إسحاق بن سعد بن أنى وناس : حديثى أنى أن عبد الله بن جحش قال : .. ذكره بهجوه ، وراد فى
 آخره . قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أعوه وأدبه معلقان فى خيط (المرجع الأسبق) .

وما يقوم للإسلام صرح ، ولا يكشف عنه طغيان إلا بهذه القوى المدخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء كنت مع أخى وصديقى الحاح / حافظ سلامة — بطل معركة السويس ، وهو رجل من المؤمنين الخيار — قال لى . إن أحدهم سقط « فكه » في المعركة ، وأحد الطيب بخيط « لسانه » في « حلقه » كى يستطيع أحرار عمية تثبيت الفلك الأسفل ، فكان يصرخ أثناء العملية بكلام لم تفهمه ، ثم طلب ورقة فكتب فيها إنه صائم ولا يريد أن يتناول شيئاً حتى يمطر !! .

وقال لى مثل هذا لى بعض الصباط الذين قاتلوا يجلد ..

وذكر أن روح المسجد هى التى صنعت هذه المقاومة ، قال : إن الإيمان بالله ، وإن الرعية فى مثوبته — حل شأنه — وإن الحرص على مرصاة الله ، وإن مواريث القرآن والسنة فى دمائنا وفى بيئتنا هى التى صنعت هذا اللون من الرجال الذين قاتلوا بقوة ، وحرصوا على مرضاة الله إلى آخر رمق .

وهذا النوع موجود بكثرة ، وينفى أن تُكتب صحائف ناضرة بسيرته وبأخلاقه، ويقال : هذا ما صنعه القرآن وصنعت السنة فى تكوين أبطال استخرجوا النصر من أشد الأيام صتاً به . فإن الواقع يوم يُعرف سيُعرف أن « المصريين » ما أدركوا هذا النصر بسهولة ، ولكن الله امتنَّ به على ناس تطمعوا إليه راجين فضله ، تطلعوا إليه بأبصارهم وبصائرهم : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [البقرة

١٤٣ .

لكن هل سُكنت هذه الوقائع الشاهدة بما يصنع الإسلام فى أيام الحرب وأيام السلام ؟ .

أرجو لأن هناك — كما أشعر — تيارات شاردة زائغة تحاول أن تُخفى عمل الإسلام فى هذه المعركة ، وما ترال هذه تيارات تبدل الجهد لحمل الناس يعودون إلى الأيام الأولى — أيام العكوف على الشهوات ، وأيام الحرى وراء الأهواء ، وأيام الكذب على الله وعلى الناس — ولكنا لن نقبل

هذا ، فحس هم بالمرصاد ، ومعا حماهيم المؤمنين التي أعلنت وفاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ — ونعود إلى سورة آل عمران وهي تتحدث عن المعركة ، لقد تحدثت فذكرت الكثير ، وما يستطيع أن يذكر هذا الكثير ، لكن أول ما ذكرته الآيات أن الهزائم العابرة لا قيمة لها ، وأن الأمم تدرك ما تريد بجندها على تحمل الحراح ومضيق في طريق الكفاح ، ولا بد أن تصل إلى ما تبغى أخيراً ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ثم قال القرآن — في واقعية ينبغي أن تعرفها الأمم — للمهرومين أو لمتنعين : ﴿ إِنْ يَمْسِكْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وهذه الكلمات أو هذه الجمل تحتاج إلى شرح ، إن انتصار المسلمين في « بنر » جعل دائرة الإسلام تزدهم بطلاب العائمه ، وطلاب الشهرة ، وطلاب المنفعة ، وطلاب الحكم ، وهذه طبيعة الدنيا ، إذا كان الإنسان في رعد وفي قوة أقبل عليه الكثيرون ، والله — عر وجل — يريد أن يكشف طائع أولئك الذين اردحموا حول نبيه ﷺ ليقبى منهم الصادقون في إيمانهم المخلصون لرهم ، وليذهب بعيداً أولئك الذين جاءوا حوله انتظار منفعة ، أو ارتقاب معصم : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

إن الله لا يكشف الناس بوحى فيقول : هذا مخلص ، وهذا منافق ، ولكنه يختار المؤمنين ، ومس السراء والضراء في حياتهم هو الذى يبين أحوالهم ، يكشف حباياهم ، فالمنافق إذا اعتنى شعر بالبطر ، وإذا افتقر شعر بالقنوط ، أما المؤمن فهو متماسك العاطمة ، إذا اعتنى حمد الله فلم يبطر ، وإذا تالم حمد الله فلم يفتقر ، وهو بين الصبر والشكر متماسك الخلق ، قوى العقيدة ، رفيع الرأس .

وبينت الآيات أن الاستشهاد ليس نكبة يُعزى فيها . ولكنه رزق

إلهي ، أو مكافأة سماوية يتحير الله لها من أراد من خلقه ، يتخير الله لها من أراد إعلاء رايتهم ، يتحير الله لها من أراد إعلاء مكانتهم ، ولذلك كان التعبير : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ ..

وبديهي أن الشهداء مازل ، وليسوا في مرتبة واحدة ، ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الشهداء أربعة رجل : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قُتل ، فذاك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ، يقول الراوي : فلا أدري قلنسوة عمر أراد أم قلنسوة النبي ﷺ (١) قال : ورجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فكأنما ضُرب جلده بشوك طَلح من الجبن ، أتاه سهم غَرَب فقطعه فهو في الدرجة الثانية (٢) ، ورجل مؤمن خَلَطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قُتل فذاك في الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قُتل فذاك في الدرجة الرابعة (٣) ».

لا نريد أن نتبع ما ذكرته السورة هنا تعليقاً وتعقيباً على القتال الذي دار في « أحد » ، لكن أريد أن أبرر أمرين . الأمر الأول : أن المعركة حرت على هذا النحو خارج المدينة لأن النبي ﷺ استمع إلى كثرة المقترحين عليه أن يخرج ، وكان كثرتهم من الشباب الذي هَزَّه ما سمع من ثواب للمجاهدين ، ومن كرامة للمستشهادين ، فأراد أن يخرج متعجلاً لقتال العدو .

(١) يوضح شيخنا المصنف بقوله : يعني أن مكانته من الرتبة بحيث إذا نظر الإنسان إليه نظرة عالية جداً فإن غطاء رأسه يقع

(٢) الطلح : نوع من الأشجار ذي الشوك . الجبن : الخوف وعدم الإقدام سهم غَرَب : هو الذي لا يدري من راميهِ ولا من أين جاء وسمي — كما يوضحه شيخنا — أن الرجل في طبيعته الخوف ، ولكن الخوف لم يمنعه من أن يتحامل على نفسه ، ويعالِبَ طبيعته ، ويبشَى النداء ، ويقف في الصف ، فجاء سهم عرب . أي جاءه سهم طائش فقتله

(٣) رواه أحمد ٢٢/١ ، ٢٣ والترمذي في الجهاد — باب ما جاء في الشهداء عند الله . وقال في الجامع الصغير : رواه أحمد والترمذي عن عمر ورمز لصحته . قال المنوي : ورواه أبو يعلى ولديلمي وفيه ابن خزيمة (فيص القدير ١٨٠/٤) .

وكاتب هناك قلة ترى أن يُسدرح المشركون إلى داخل المدينة ليُقصى عليهم في ذروبها وأرققتها ، وكان النبي ﷺ على هذا الرأي ، لكنه لما وجد الكثرة تتجه إلى الخروج نزل على رأى الكثرة وحرص ، وانتهى القتال بما انتهى إليه .

هنا يرى أن الله جل شأنه يقول لسيده ﷺ كيف تعامل أصحابك بعد أن حدث ما حدث ، هل تلومهم ؟ هل تعاتبهم ؟ لا .. كس بهم رحيماً ، كس معهم رقيقاً ، طيب حواطرهم ، تطف معهم ، ولا نيرم أمراً إلا بعد أن تعرض الأمر عندهم وأن تشاورهم : ﴿ وفيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

إذا عرمت فتوكل على الله : أى إذا استقر الأمر على شيء سواء كان رأيك أو رأى غيرك فتوكل على الله .

وهذا ما حدث من النبي ﷺ فإن الشباب بعد ما رأوا النبي ﷺ قد حرح عليهم مستعداً للقتال لباساً ملابس الحرب قالوا : نحن استكرها النبي على هذا ، وعرضوا عليه أن يزل على رأيه الأول ، فرفض وقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته — وهى الدرع — أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » (١) .

وهذا هو التوكل على الله .

هنا أوجه النظر إلى أن بعض الكتاب ، وبعض الذين يقررون قضايا خطيرة في فقهننا وتاريخنا يريدون أن يأخذوا من هذه الآية أن للحاكم أن يذهب إلى رأيه هو إذا كانت الشورى قد انتهت برأى يخالفه !!

وهذا كلام فارغ وتضليل ، وهذا الكلام إنما دخل في الثقافة الإسلامية

(١) رواه أحمد ٣٥١/٣ والدارمي ١٢٩/٢ ، ١٣٠ موصولاً من طريق أبي الربيع عن جابر ، ورجاله ثقات ، وله شاهد من حديث ابن عباس عند الحاكم ١٢٨/٢ ، ١٢٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ وصححه ووافقه الذهبي .

أيام الملوك الفجرة ، وأيام الحكام المستبدين ، فإن الحكام المستبدين يحون
أن يصرصوا على الأمة آراءهم ، ويريدون أن يعصوا الله ، وأن يجيئوا بفتوى
من هنا أو من هنا تُسوِّغ لهم هذه المعصية !! .

والديا كلها تعلم أن الشورى خير ، وأن الشورى فضيلة عرفها
المؤمن والكافر ، والصديق ولعدو ، وأن تحريد المسلمين من فضائل
لشورى إنما هو قضاء عليهم ، وإنما هو خدمة لبعض الحكام المستبدين بهم
لدين يرعمون أنهم عباقرة ، وما هم في الحقيقة إلا أشخاص نافهون حلا
لهم الحو فكانوا كالطير الذي قال فيه الشاعر^(١) :

بالك من قُرّة^(٢) بمعمر * خلا لك الحو فيضي واصفري

قد رفع الفخ فلا تحدرى * ونقرى ما شئت أن تُقرى

قد ذهب الصيد عك فابشرى * لا بد يوماً أن تُصادى فاصبرى

إن حكماً كثيراً تجاهلوا الشورى ونظامها ، وهو نظام أساسى فى
الإسلام ، وبلغ من دقة التوجيه الإسلامى أنه فى حراجات « أحد » وفى عمرة
الآلام التى أصابت النبى ﷺ يقول الله له : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ .
وقد حكوا عن الشيخ محمد عبده أنه قال . ما تصلح الأمة إلا بمستبد
عادل !! .

والشيخ محمد عبده أشرف من أن يقول هذه الكلمة ، لا يوجد مستبد
عادل ، كلمة مستبد عادل ككلمة صادق كاذب ، عالم جاهل ، تجمع
المناقضات

(١) هو طرفه من العبد ، يعكى أنه حرج فى سفر مع عمه وهو ابن مبيح سبى هزلوا على ماء
ونصب طرفه فحه لتقابر بمكان هناك اسمه معمر فلم يصد شيئاً ، ولا هوذا بالرحيل رأى الفجر يلفظ
ما كان قد نثر من الحب فاشأ يقول يا لك من قبرة بمعمر
(٢) نُقِرَ والقبرة والنقير والنقيرة والنبيرة : ضرب من الطير

إن المستبد لا يكون عادلاً ، إن لاستبداد وليد الحنا ، ووليد
الفجور ، ووليد المظالم ، وهو سرطان في الأمم يسفى أن تنقيه وأن تتعد
عه !! .

الأمر الثاني الذي يريد أن يبرزه من غروة « أحد » : أن المؤمن
لا يجوز أن يطر إلى الماضي إلا بقدر ما يأخذ منه العبرة ، والنظر إلى الماضي
لأخذ العبرة جزء من الإيمان ، وهو معنى قوله جل شأنه : ﴿ أفلم يسيروا
في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج ١٦] .
إن أخذ العبرة استحبة لأمر الله : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾
[الحشر : ٢] .

لكن إذا كان النظر للماضي نوعاً من التحسر على آلام الحاضر
ونوعاً من الفحيجة التي مبعثها جهل الأقدار الإلهية وعدم فهم الحقيقة
الأرلية الأبدية التي قررها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قل لن يصينا
إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [التوبة
٥١] .

إذا كان ابكاء على الماضي من نوع : « لو أني فعلتُ كان كذا
وكذا »^(١) ف : « لو » هذه تفتح عمل الشيطان^(٢) كما قال عليه
الصلاة والسلام .

وقد كان المشركون يقولون : ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾
[آل عمران ١٥٦] فرقص لقرآن أن يكون هذا منطق المؤمنين : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا صرَبوا في

(١ ، ٢) جزء من حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ونصه : « المؤمن القوي خير
وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واسعن بالله ولا تعجز ،
وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح
عمل الشيطان » رواه مسلم في القدر — باب في الأمر بالقوة ورك العجز والاستعانة بالله وتفويض
المقادير لله ٥٦/٨

الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك
حسرة في قلوبهم ﴿ [آل عمران : ١٥٦] .

المؤمن يقول كما أمر الله : ﴿ لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب
عليهم القتال إلى مضاجعهم ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

إن أحداً لم يموت ناقص أجل أو ناقص عمر ، هو كتاب محدد :
﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾ [آل عمران :
١٤٥] .

إن سورة آل عمران مصت إلى آخرها تُعلق المؤمنين بعبر وهدايات
انتهت بدعاء أولى الألباب ، وانتهت بأن الدعوة المستحابة هي العمل
الصالح ، ثم انتهت بأمر صارم حارم يقول للمؤمنين : ﴿ يأيتها الذين آمنوا
اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾
[آل عمران : ٢٠٠]

اصبروا : فإن إطاعة الشهوات والجرع من التكاليف لا يكون شيمة
مؤمن

وصابروا : أى غيركم سيصبر فليكن صبركم أكثر من صبر عدوكم ،
كأن هناك سباقاً في الصبر .

ورابطوا : أى كونوا دائماً مستعدين للقاء العدو ، فإن سريان المعارك
والعودة إلى حياة المرح هي قرعة عين العدو ، إن هذه العودة هي التي
ستصنع هزيمة أخرى ، وما نريد أن نعود عن رباطنا صد عدونا ، خصوصاً
وأن المعارك بين الإسلام وقوى الشر المتربصة به لا تزال باقية .
أقول قولي هذا وأستعمر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [اشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين ، وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبرك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد : .

في المسجد الآن وفدان ، لكل منهما مطلب ، نرجو أن تتبناه حكومتنا .

الوفد الأول : من « جزيرة الذهب » وهي هنا تعترض « النيل » المبارك ، ويعيش فيها ألوف ممن يقدمون له الخير ، ويصنعون لهذا البلد الكثير من أسباب رفاهيته .

فإن هذه الجزيرة قرأب — وقرأ غبرى — أن بعض الأغنياء عرص أن يشتريها بعشرة ملايين من الجنيهات كي يجعل منها جزيرة سياحية ، ومعنى جعلها جزيرة سياحية أن نصنع بقعة بحسة لاهية عابثة فوق ماء النيل ، وأن نحرم الألوف — الذين يعيشون على الررع والضرع ، ويقدمون للقاهرة الخير — من حياتهم الطبيعية .

نحن لا نريد أحياء سياحية جديدة في بلادنا ، حسبنا الخرى الذى يقع في شارع « الهرم » ، حسبنا هذه الألوف من السياحات الخبيثة التى تعرض فيها الشهوات والملذات !! .

نحن لا نريد أن يبيع هذه الأرض ولا نمائة مليون من الجنيهات ، والمثل العربى يقول : تجوع الحرة ولا تأكل بشديها !! .

يريد أن يفهم هذا المثل الحريصون على السياحة في بلدنا ، إن السياحة
يمكن أن تكون شيئاً آخر غير ما يفهمه اللاهون والعابثون ، يمكن أن
نعرض أخلاق الإيمان وشمائل الرجال ، وتواريخ الأبطال ، وآثار الدين
صنعوا الحضارة .

أما أن نعرض معاني الرافضات ، ونحيب العرائز الدنسة فليست هذه
سياحة ، هذا عبث ، ويجب أن تبقى الجزيرة ملك أصحابها .

الوفد الثاني من : « وادي الطرود » يقول : إن هناك عشرين ألفاً
من المسلمين الفقراء كانوا ينتظرون أن يفلحوا الأرض التي تم استصلاحها ،
ولكنهم هوجتوا بأن هذه الأرض تباع بمراد لمن يستطيعون أن يدفعوا الثمن
الأكبر

هذا لا يجوز ، فإن عشرين ألفاً من الفقراء يحتاجون إلى أن يفلحوا
الأرض يجب ألا يتركوا فقراء .

نرجو أن يكون هذا وذاك موضع النظر ، فإن أمثلاً لا تريد أن تعود
إلى عبث أو ظلم .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا غفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في
قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ..

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

العالم في انتظاره

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه

٦ / ٤ / ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله
الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة
لمهداة ، والنعمة المسداة ، والسرح المنير اللهم صل وسلم وبارك على
سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين
أما بعد .

في شهر ربيع الأول سجدت في جعل خطب الجمع خلاله حديثاً عن
السي عليه الصلاة والسلام .. عن سيرته ، وشماته اراكية ، وأحاده الخاصة
والعامة ، وعن علاقة الأمة به ، واستمدادها منه ، وعن حاجة العام إليه ،
وضرورة تلقّيه الهدى والبر والحق والبركة من السي المبارك العربي المحمّد
عليه الصلاة والسلام .

وتنح هذا الحديث نتعرض لفصل الله .. فإن الحديث عن السي الكبير
عليه الصلاة والسلام يُعش الأئدة ، ويُرقّق المشاعر ، ويرفع المستوى ،
ويصل النفوس بالله عز وجل صلة سَمحة زاكية ، نحن في هذا العالم
مُحتاجون إليها .

وأبدأ الحديث بالإجابة عن سؤال تلقينه من بين الأوراق التي تُرسل
إليّ أحياناً في أعقاب المحاضرات التي ألقها بين صلاب الجمعيات
لقد حاءني سؤال ووحدته فرصة ساحة للإجابة عن الحقيقة بعد ما
قرأته .

هذا السؤال هو ما حاجة العالم إلى محمد عليه الصلاة والسلام بعد
الرسالة التي قام بها عيسى عليه الصلاة والسلام ؟ .

قلتُ في نفسي هذا السؤال جاء في إنبائه ، وكان من الخير أن يُعرض
عليَّ !! .

وأجبت فقلتُ :

إنَّ الناسَ قَبْلَ بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانوا على نوعين : نوع
مَحْرُومٍ مِنْ هدايات اسماء فهو يَتِيه في صحراء الحياة هائماً على وجهه
لا يَعْرِفُ رَبّاً ولا حَدّاً ، ورُبَّما قَدَّسَ الأحجار ، وغَيَّبَ الأبقار ، وعاش على
هذا النحو السقيم الوضيع إلى أن يموت ليتحول تُراباً ، أو يكون حطياً
لجهنم .. الله أعلم بمصائر هؤلاء وفق ما أُتِيحَ لهم من هدايات ، وما عَرَضَ
لهم في حياتهم من عِلْمٍ أو نُورٍ .. هذا النوع لا كتاب له ، لا يدري شيئاً
يُمْكِنُ أَنْ يُسَمَّوا بالأميين .. لتكن تسميتهم ما تكون فقد كانوا جُهالاً
حقيقة .

نوع آخر يَمَلَأُ الأرض .. وهم كِتَابِيُونَ لكنهم ظلموا أنفسهم ،
وَعَشَوْا وَخَيَّهْم ، وَزَوَّروا كتابات الله التي نَزَّلَتْ عليهم .

● ● ما معنى أن نقرأ لأولئك الكتابيين أن الله تَمَشَّى في الجنة ، وهو جِيءُ
بأنَّ آدم عليه اسلام مُحتَيٍّ ، قد أكل من الشجرة ، وربُّه لا يدري ..
فهو يَسْأَلُهُ كيف أَكَلْتُ وكيف حُدِعت !!

● ● ثم يُقال في هذه الكتب : إنَّ الله بعد أن خنق آدم نَدِمَ على خنق
آدم !!

● ● وبعد أن أغرق الأرض بالطوفان ندم على أن أغرق الأرض !!

● ● وأنه ظل مَحَابَة ليلة بأكمها يُصارع واحداً من عبيده هو يعقوب ،
وفي نهاية المصارعة أعطاه لقب إسرائيل !!

● ● وأنه مع اثنين من الملائكة دُعُوا إلى وِثْمة عداء أقامها إبراهيم لهم فأكل
لِإِله !! .

أَيُّ تزوير على صفات الألوهية على هذا النحو !!؟

ثم عند أولئك الكتابيين أَنَّ الألوهية « والد » و « ولد » ،
أو « زوج وصاحبة » !! ، أو كذا وكذا من الترهات التي شاعت
وانتشرت !!

خطب الغزالي - المجلد الثاني

ما كان العالمُ ليعرف الرشد . ولا يُتصَّر الحق ، ولا ليُصَفَّ قَدَمُه
على الصراط المستقيم إلا لما جاءه محمد عليه الصلاة والسلام !! .

لقد كانت حاجة الدنيا إلى محمد عليه الصلاة والسلام حاجة العين
العمياء إلى البصر !! حاجة القَدَم المشلول إلى الحياة والحركة !! حاجة
الجسد السقيم إلى البرء والعافية !! .

إنَّ الذين يسألون : ما كانت حاجة العالم إلى محمد عليه الصلاة
والسلام ؟ يجب أن يعرفوا أنَّ محمداً ﷺ بكتابه وسنته رَدَّ إلى الدين
اعتباره ، وأعطى الإنسانية بصيرتها النيرة ، فكانت هذه البعثة حيراً للناس
أجمعين ، ورحمة لأرجاء العالمين !! ما كان أحوح العالم إلى محمد عليه
الصلاة والسلام .. إنَّ هذا الإنسان الكبير هو أمل الإنسانية لكي تُنقَذ من
خيرتها ، وتأنس من وحشتها ، وتُحسن عودتها إلى ربها ، وتُتخلص من
الجاهلية الطائفة التي وقعت فيها .. ونحن عندما نتحدث عن النبي الكبير
محمد عليه الصلاة والسلام نريد أن نتناول اليوم أطرافاً قليلة من السيرة ؛
لأن حديثنا كما قلتُ لكم ، وكما أستعين الله ، سيكون خلال هذا الشهر
تناولاً للسيرة النبوية ، وحديثاً في الشمائل المحمدية .

النبوة عندنا معشر المسلمين هبةٌ من الله .. وليست جُهد بشر يصل
بعده إلى مرتبة النبوة .. إن النبوة فضل إلهي أعلى يمنحه الله من أراد من
خلقه .. وليست نتيجة كدح في ميدان التربية ، أو الفلسفة ، أو المعاناة
النفسية ، أو الجهاد الخاص .. لا .. هي هبة من الله ، ويست كسباً ..
هذه الهبة العُليا بداهة يتخير الله لها من خلقه من هو لها أهل .. أي أن النبوة
بداهة لا يمكن أن تكون نصيب النافهين ، أو المغموصين ، ولا يصلح لها
شخص مُنطلق الشهرة ، أو بليد الفكر ، أو ضيق الأفق ، أو غِطْن
النفس .. وهذا الذي أقوله هو معنى قول الله جلَّ شأنه : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ
بِمَا يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

إنَّ التماوت بين البشر كبير جداً .. فهناك بشر كقيمم الجبال ..
وهناك بشر كأكوام السبخ !! الفارق بين البشر من الناحية الفردية فارق
واسع جداً .. هناك أصحاب عقول كأنها لَمَح البرق من ذكائها وتألقها ..

وهناك أصحاب عقول يُعَيِّبهم أن يعرفوا البدييات !! والكل من أولاد آدم !!.

وعندما يختار الله نبياً فهو يختار من القيم ولا يختار من السفوح !!
﴿ .. أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا
ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة
ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف : ٢٢]

كان هذا الجواب الإلهي لقوم تساءلوا : لِمَ كانت النبوة في ابن عبد الله
ابن عبد المطلب .. وهو شاب محدود الثروة ، محدود القوة ، محدود
السلطة !!؟ ولِمَ تركت النبوة العُمد في مكة والطائف ، وأصحاب الدولة
والصولة في البلدين العظميين !!؟ .

﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾
فكان الرد الإلهي : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : ٢١ - ٢٢]

إن مقاييس العظمة عند هؤلاء الجاهلين كانت مقدار ما يملك المرء من
بياق ، أو أبقار ، أو مَعَزٍ وَغَنَمٍ !! هذا ميزان العظمة عند بعض الناس ..
وهو ميزان سحيق فإن العظمة مَعْدِنُ نفسي نفيس ، ومن المعادن ..
النفيسة العالية الكريمة يختار الله أنبياءه .. دون نظر إلى مال أو جاه .. وقد
ختار الله محمداً ﷺ بعد أن تحيرَه من نُطْفِ الآباء والأمهات ، وأشرف
على تربيته ، وأدبه ، وبسط عليه رعايته .

اختار الله محمداً على هذا النحو .. ولذلك أوجه النظر إلى أمور لا بد
من توجيه النظر إليها .. إن الرسل بشر .. ولا بد أن يكونوا بشرأ .. لأنَّ
الناس الذين يسكنون الأرض يحتاجون إلى بشر ، يفهمون منهم ، ويتلقون
عهم ، ويُحْسِنون إحساسهم ، ويأْسُون بهم .. وعندما قال بعض
المستعربين المستكبرين : ﴿ أبعث الله بشراً رسولا ﴾ [الإسراء : ٩٣]

كان الجواب : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئن
لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا ﴾ . لكن الناس بشر .. فيجب أن
يتعلموا من مُجَانِسِ لهم ، من مُشَابِهٍ لهم في خلقه .. فبشرية الرسول ﷺ
لا تُكْفَر .. وإنما تُكْر على بعض الذين يتحدثون في بشرية الرسول ﷺ

أشياء يدسونها في هذه البشرية كي يُوهموا أن الرسول ﷺ رجل عبقرى ، أو شخص صاحب مواهب ضخمة ، وأنه بعقريته الفريدة ، ومواهبه الجليلة ، استطاع أن يبلغ ما بيع ، وأن يصل إلى ما وصل إليه . وهذا تدليس .. إنه بشر حقاً ، وذو مواهب حقاً . ولكنه بشر يتنقى عن الله ، ويستقدم الروحى ، بشر لم يبيع ما بلغ بعقريته الخاصة .. وإنما بلغ بتوجيه الله له ، واعتناؤه به .. فالذين يتحدثون عن بشرية الرسول ﷺ يحلطون أو يكذبون عندما يريدون إيهام الناس أنه بشر عادى .. لا .. هو بشر حقاً ولكن يوحى إليه : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ نص ٦ . ثم إن هناك خلافاً واضحاً بين النبوة وبين العبقرية مهما بلغت .. عبقرية فلسفية ، عبقرية عسكرية ، عبقرية سياسية .. أولئك العباقرة فيما درسنا من تاريخهم يرجع تفوقهم غالباً إلى امتداد في موهبة من المواهب .. أما بقية مواهبهم فإما عادية أو هابطة .. ولذلك وجدنا عبقریات سياسية وعسكرية ترتكب الدنایا ١١ .

تُخذ عبقرية عسكرية مثل « نابليون » الرجل في معركة ما وهو يفتح الشام أمم المدافعين ، وأعطاهم وعداً بأنهم إذا أسروا صُممت لهم الحياة .. وما كادوا يقعون في الأسر حتى أمر بقتلهم جميعاً !! .

غَدَرَ القائد في كلمته ، كَذَبَ في وعده ، كان خسيساً في تصرفه .. هو عبقرية عسكرية ولكنه كان ندلاً في معاملاته الأخلاقية ١١ .

الواقع أننا نقفز قفزة عالية جداً عندما ننقل من شخص ك نابليون أو غيره من قادة العالم إلى انقمة السماء في تاريخ الإنسانية كلها إلى محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام . عندما كانت ظلمات الجاهلية تريس على صحراء الجزيرة كان محمد عليه السلام في أحشائها كوكباً متألقاً بفضائله ، وكان معروفاً في الجاهلية بأنه الصادق الأمين ١١ ذاك في الجاهلية .. فكيف بعد أن تمت عليه النعمة ، واحتاره الله نبياً !!؟

إن العبقرية شيء والنبوة شيء آخر .. السراج المنير لا يمكن أن تكون فيه نقط سوداء ، ولا بُع مُعتمه .. لأنه منير من كل ناحية .. وفي الأنبياء وتلاميذ الأنبياء يقول الشاعر :

هُم الرجال المصابيح الذين هُم كَأَهِم من نجوم حية صُنِعُوا
أَحْلَاقُهُمْ نُورُهُمْ مِنْ أَىِّ بَاحِيَةٍ أَقْبَلَتْ تُنْظَرُ فِي أَحْلَاقِهِمْ سَطَعُوا
كَوَاكِبَ .. وهذا معنى وصف لله عز وجل نبيه ﷺ : ﴿ وَسَراجاً
مُنيراً ﴾ [الأحراب ٤٦] والسراج المير مُشرق في حوائيه كلها . مصدر
نور ، وإشعاع من أَرجائه كلها !! .

فحين نرفض وصف النبي ﷺ بالعبقريّة ، أو وصفه بالبشرية
العادية ، ونعلم أنه فعلاً مُعَيَّن ليس هناك ما يُشبهه نفاسة وكرماً .. ولكنّ
السورة اصطفاءً أعلى ، ولكنّ النبوة هبة الله لمن أراد من عباده ، وقد خُصِّمت
السورات كُلُّها برُجُدها لأوحد نبي الأنبياء ، وإنسان الإنسانية محمد بن
عبد الله عليه الصلاة والسلام !! .

في طلائع الوحي على السبى عليه الصلاة والسلام دروس تُحب أن
نقف عندها لتتعرف الفلك الذى دارت السورة المحمدية فيه .

من أوائل ما نزل عليه ﷺ سورة « العلق » .. سورة
« الضحى » .. سورة « الانشراح » .. سورة « المزمل » .. سورة
« المدثر » قلتُ أتدبر الآيات التى نزلت عليه أول ما استقبل إشراقات الوحي
الأعلى ، ودون ترتيب مُراعى في السرد الآن . أبدأ بسورة الضحى :

الشيخ « محمد عبده » يقول : إن الله تعالى أقسم بالضحى والليل
إشارة إلى أن فترات الوحي في حياة نبي ﷺ كانت فترات تألق وسبى
لامع .. وأما فترات الانقطاع للوحي فكانت تشبه وحشة الليل عندما
يُصمت وينقطع كل جراك به !! .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام قد بدأ يستقبل الوحي دون ارتقاب
له .. إنه ما كان يدري أنه سيختار نبياً ، ولا تطلع إلى الرسالة ، ولا عرف
أن مستقبل الإنسانية مرتبط بشخصه الخليل في الأربعين سنة الأولى من
عمره .. وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك
الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ [انفص ٨٦] كأن الله تعالى أرسل إليه

ابوحي ، ثم قطعه قليلاً عنه ليزداد شوقاً إليه ، ويرداد شهواً لاستقباله ، ويرداد
 تشوقاً إلى مطالعته عندما يجيء ، ولكنه أحس شيئاً من الكرب عندما انقطع
 الوحي .. فصمّأته رب العالمين أن لا مكان للحزن وللحزن في حياته من
 هذه الساحة ، قال له لا تظن أبى هجرتك ، أو تركتك ، أو حولت نعمتى
 عنك .. ﴿ ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى .
 ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [سورة الصحى : ٣ - ٥]

ثم بين له كيف أنه رعاه من غير سؤال ، وكيف أنه أشرف على تربيته
 وتوجيهه من غير طلب ، وكيف أنه صمّأه لنفسه ، فقال مفصلاً هذه
 المعانى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ [صحى ٦] آوىك والإيواء هنا ليس لإيواء
 الحسى لتدبير الكفالة له فقط ولكنه الإيواء المعنوى الذى يتضمن
 الإشراف على تربيته وتكوينه : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [الصحى ٧٠]

أقف قليلاً عند هذه الكلمة .. أى وجدك حائراً لا تدرى الحق
 ولا تعرف طريقاً إليه ، والضلال فى اللغة العربية يعنى الحيرة ، ويعنى
 الدهول ، ويعنى السيان .. ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ [طه ٥٢٠] .. أن
 تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ [البقرة ٢٨٢] .

الضلال : الحيرة .. وفعللاً كان السى عليه السلام حائراً .. وآية :
 ﴿ ... ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فصلت فى سورة الانشراح بعد ذلك ..
 إذ قال الله له : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ؟ [الانشراح ١]

من أثر الحيرة ، من أثر النظر فى شئون الناس ، وأحوال الدنيا ،
 والعودة من هذا النظر بغير شيء .. كل هذا ضيق صدرك ، وكأنك تحمل
 على ظهرك حملاً يكاد يقطعه ، يكاد يقصمه .. لأن الرجل الكبير الجليل
 عندما يشعر بالحيرة لأنه عاجز عن أن يصنع شيئاً ، أو أن يخرج من
 الظلمات التى تحيط به ، فإنه يتعب نفسياً جداً تعباً يكاد يرهق أعصابه
 ويُسرق كياه .. فكسمة : ﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك
 وزرك . الذى انقض ظهرك ﴾ ؟ هى التى قبلت فى آية أخرى :
 ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا
 الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [الشورى : ٥٢] ﴿ ولولا

فضل الله عليك ورحته همت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون
إلا أنفسهم وما يضررونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة
وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴿ [نساء ١١٣]

هذا التعيم الجديد هو تفسير لقوله جل شأنه - ﴿ ووجدك ضالاً
فهدى ﴾ وقوله في السورة التي تنبأ : ﴿ ألم نشرح لك صدرك .
ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك ﴾ أي كاد يقصم ظهرك
لثقله ، وشدة وطأته ، وأنت حائر في المجتمع الحاهل عمكة لا ترى بصيص
نور في الوثنية السائدة ، وفي ضلالات أهل الكتاب الذين ما يعرفون
الكتاب إلا أماني ، ولا يدرون من حقيقة الميراث شيئاً .

ثم يرتب الله عمر وحل على هذا الفصل أشياء . يرتب عليه شائع مصلحة
الجماهير .. فإن الذي يمرض ثم يصح أحق الناس برعاية أصحاب الآلام III .

والذي يفتنى بعد فقر أحق الناس برعاية أصحاب الحاجات .
ولدى يعم بعد جهل أحق الناس بأن يطارد الجهالة ويُنقى نيرها عن
كواهل أهلها II ولذلك بعد أن امتن الله عليه وقال له : ﴿ ألم يجدك يتيماً
فأوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الصحي ٨٠٦]
رتب على ذلك هذه النتائج : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما
بنعمة ربك فحدث ﴾ [الصحي ٩٠ - ٩١] .

وكذلك في سورة الانشراح .. رتب النتائج بعد أن قال : كنت مُوقر
الظهر يحتمل أزعجك وأتعبك ، فخفف الله عنك ، وتنفست الصعداء بعد
أن رال هذا الكابوس ، وطلع عليك فجر الوحي ، واتصلت بربك ،
وأصبحت أسوة الناس وإمامهم ، وهاديتهم وراعيهم .. فمادا تصنع ؟
باستمرار أقبل على الله .. إن انتهيت من واجب اتصال بواجب آخر :
﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ [الانشراح ٨٠٧]

هذا جهاد النبوة .. فالنبوة عبء .. ولكي يُعرف عبؤها ننظر إلى
ما نزل في أوائل الوحي المبارك من سور .. في سورة « المرسل » يُعرف
النبي ﷺ أن ملهى خفيف على الأنفس ، وأنه يُتبع لأصحابه أن ياموا
حتى يعقد الكرى « السوم » على أجفاسهم نيالى طوالاً ، ويتشبعوا حتى

يألموا الراحة والخمول .. الهوى حفيف على الأنفس ، حلو المذاق .. لكن الحق ثقيل على الأنفس .. فيه مرارة الدواء ، فيه متاعب الجِد .. ولذلك في أوائل الوحي قيل له : ما مضى مضى . أما الآن فأمامك سَهر طويل : ﴿ يا أيها المرمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المرمل ١ - ٥] هذا القول الثقيل يتضمن الحقائق المُرّة :

- ● عقيدة التوحيد .. كم يضيق بها المُعدّدون والمُشرّكون ؟
- ● مسئولية النفس الإنسانية عن سلوكها وعن عملها . كم يضيق بها عُباد القرايين ، وأصحاب المراعم في أن الله يحتاج إلى كفارات من الدماء البشرية ، أو الدماء الإلهية إن صحَّ التعبير كي يرصى عن خلقه ؟!
- كن هذا الحق الثقيل يحتاج إلى رجال ذوي مساكن أيّدة كي يحملوه بصلابة ، وكى يطوفوا الآفاق به دون إعياء أو انقطاع .

وتقرأ « سورة المدثر » وهى بعد المرمل ومن أوائل ما نزل .. فتجد أمارات الجِدّة في الوحي الخاتم .. لأنه يُبين لى عليه الصلاة والسلام معالم طريقه كى يقود الدس فيها : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ انصب لتعلّم الناس ما لم يعلموا .. إن حمائم كثيفة شردت عن الطريق ، وأنت مكلف أن تعود بها إلى الصراط المستقيم : ﴿ قم فأنذر . وربك فكبر ﴾ . إن الناس عمدوا الأوهام ، وقدسوا الأصنام . ولكن أنت اربط تعطيمك وتقديسك . وعم الناس معك أن خوفهم ورجاءهم وركوعهم وسجودهم وتوكلهم ، وركوبهم إنما يكون على الكبر السُّوحد بالكبرياء ﴿ وثيابك فطهر ﴾ [مدثر ١ - ٤] إن بعض الناس فسّر الآية بأن تطهير الثياب هنا إنما هو تطهير للأخلاق واللكيان المعوى للإنسان .. وهذا تفسير قد يقسه البعض ، أم رأى إن كلمة : ﴿ ثيابك فطهر ﴾ تُعطى المصحح الحديد للإنسان .. كان التدين قنلاً يعتبر التقشف والرهانية ووساحة الأجساد . يعتبر ذلك لوناً من القرى إلى الله .. لكن الدين الحديد يحترم الجسد الإنسان ، واعتبر طيب الحسد ، وطهارة الحسد ، وزينة الجسد ، والرائحة الركية في الحسد .. اعتبر ذلك من أمارات التقوى ، ومن دلائل الإيمان ، ومن حُسْن الصلة بالله !! .

ولعل تشريع الوضوء والعمل ، ولعل تشريع الطيب والسواك .. لعل هذه الشرائع التي جعلت الحسد الإنساني مُكرّماً عند الله . لعلها إشعار بأن الدين الحديد دين الفطرة السليمة ، وأن تقدير هذا الحسد ، وتقدير الإبداع الإلهي في خلقه من معالم التقوى . وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول في سجوده أحياناً : « سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشفق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »^(١) .

هذا الحسد لا يُوسخ . هذا الوجه لا يُلوّث .. هذه الثياب يجب أن تُظهر !! .

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام آية في وصاءة بدنه كله ، وفي بضاعته ثيابه كلها ، وكان الناس إذا شموا رائحة جيدة في مكان ما قالوا : لعل محمداً مرّ من هنا !! هذا هو التدين .. لا الرهبانية القدرة الوسحة التي تمتعت على الحسد وتوسخه ، وتعمل الناس يحقرّون البدن ، ويرون الإححاف به ، واليأس منه قرني إلى الله .

﴿ وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين موطولاً « باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه » عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي وسكوتي وعيمائي ومعماني لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنت عبدك ، ظننت نفسي واعترفت بدنبي ، فعصرني دسوقي جمعاً إنك لا يعمر الدنوب إلا أنت ، وأهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، ليبتك وسعديك ، وأخيراً كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستعيرك وأتوب إليك » وإذا ركع قال : « اللهم لك ركعت ، وبك أمت ، وبك أسلمت ، غشيتك سمعي وبصري ونفسي وعظمي وعصبي » وإذا رفع قال : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » وإذا سجد قال : « اللهم لك سجدت ، وبك أمت ، وبك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوّره ، وشفق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » ، ثم يكون من آخر ما يقول بين التسليم والتسليم . « اللهم غفر لي ما قبلت وما أحربت ، وما أسررت وما أعست ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » ١٨٦ ، ١٨٥/٢ .
والترمذي في الدعوات ثمانية لأحمد ٣٧٤ / ٩ والسائق سجده في التطبيق ٢ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .
وأبو داود في الصلاة . باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء عون المعبود ٢ / ٤٦٣ وما بعدها ومن نأخه في الإقامة ١ / ٣٣٥ وإحكام مختصراً ١ / ٢٢٠ والهيقي مختصراً ٢ / ٣٢٥ .

فاصبر ﴿النشر ٤ - ٧﴾ إلى آخر ما يمكن استعراضه من هذه الآيات التي وجهت النبي ﷺ إلى الحق والخير .. لا لتكوينه شخصياً .. بل لتكوين الأمة معه ، ورسم الرسالة الإسلامية لتُعرف معالمها من ملامحه ، ومشخصاتها من مشخصاته .

إن الله عز وجل ربي محمداً ﷺ يُرى به العرب ، وربي العرب محمد ليرى هم الناس أجمعين .

كيف ربي ؟ كيف صنع الناس ؟

هذا بحث آخر .. موعدنا إن شاء الله تعالى به في عالمية الرسالة ، وفي الآفاق التي تعمل فيها ، وفي الأبعاد التي تتألق خلالها .. موعدنا إن شاء الله تعالى في يوم الجمعة المقبلة ، أقول قولي هذا وأستعقر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥٠ - ٢٦٠] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء ، ومسيد الصالحين .. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .
أما بعد :

فإن أحفاليا التي ألقنا إقامتها في شهر ربيع عاطفة مقدورة البواعث .. ولكنها لا تُقَلُّ ترجمة عن الحب الواجب لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

وعسى لو أن المسلمين غَطَّلُوا هذه الأحفال كلها ، وأقاموا بدلاً منها خدأ من الحدود المعطية ، أو قانوناً من القوانين لإسلامية المهمة لكان ذلك أرضى الله عز وجل وأحب لرسول الله ﷺ !! .

لكن نحن سنتهز فرص هذه الأحفال ، كي نُذكر .. والذكرى تنفع المؤمنين ..

ومن الذكرى التي نؤكد بها ولاءنا لصاحب الرسالة ، وإعزازنا للتراث الذي تنفياها عنه صلوات الله وسلامه عليه ، أن نوجه الأنظار إلى أعداء الله عز وجل ، وأعداء محمد ﷺ .. أنا أعرف باسماء من العرب عندما يقع نزاع بين المسلمين والهندوك ينضمون إلى الهند .

وعندما يقع النزاع بين القارصة المسيحيين وبين الأتراك المسلمين ينضمون إلى اليونان !! .

وعندما يقع النزاع بين الإرتريين والأحباش يهضمون إلى الأحباش .
وعندما يصطدم الإسلام في معاركه الطويلة العريضة بأيِّ عدو .. فهم
مع هذا العدو !!!

وهم عرب يتسمون بأسمائنا ، ويتكلمون بلُغتنا ، ويجلون من ينخدع
هم ، ويستمع إليهم !! .

هؤلاء أملهم أن يجعلوا « مصر » عنماية . أى لا يكون الإسلام فيها ،
ولا مصدر التشريع فيها ، ولا أساس الأخلاق والقيم والمثل لأبنائها !! .

هؤلاء يحب أن يكشفهم وأن تعرف آثارهم في مجتمعا لتحوها .

إن الإسلام في هذه الأيام ليس فقط « جواز المرور » إلى الجنة عندما
نلقى الله .. إنه قبل أن نلقى الله هو ضمان البقاء لنا على ظهر
الأرض !!! .

هذا الدين ليس فقط تأمين آخرتنا عند ربنا .. إنه الآن تأمين حياتنا
العاجلة !! فإن المسلمين أعلنت عليهم حرب إفناء ، وأعلنت على محمد
ﷺ حرب اجتياح لكتابه وسنته وتاريخه وآثاره !!! .

فإذا أراد المسلمون أن يعيشوا هملاً فمصيرهم هو الذبح ..
لا غير !!! .

وأنا أسأل نفسي : أى حياة ارتكباها المسلمون جميعاً وهم يعلمون أو
يجهلون في أن نحو سبعة آلاف جزيرة شرق جزائر ألدونيسيا كانت مسلحة
كلها !! ثم هجم عليها الأسبان ، وورصعوا عليها اسم ملكهم « فيليب »
وسموها « الفليبين » ، وبدأوا عملية محو القرآن والسنة ، والمسيحيين إلى
القرآن والسنة .. حتى محوا [٨٧٪] من السكان ونصروهم ، وبقي الآن
نحو [١٠٪] يتعرضون للفناء !!

إذا تحدث الناس عن التجمع الإسلامى ، وعن الروابط الإسلامية ،
وُجد من العرب من يقول : إن التجميع على الإسلام سياسة أمريكية !! ،
يا سبحان الله !! أى بلاء هذا الذى نزل بنا !!؟ إن التجميع على الإسلام

سياسة قرآنية . ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾
[آل عمران ١٠٣] ألا فليستيقظ المسلمون وإلا هوت بهم الرياح في مكان
سحيق !!

اللهم أصلح لنا دين الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديننا الذي فيه
معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل
خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ﴿١﴾ .

﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ [حشر ١٠]

عباد الله :

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
المحشاة والمنكر والبغي يعطكم لعلكم تذكرون﴾ [اسر ٩]

وأقم الصلاة

(١) رواه مسلم والنسائي وأحمد

تأملات في الهجرة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص
رضي الله عنه

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمدا وعلى آله وأصحابه والتابعين .
أما بعد :

فلا تزال بقايا من قصة الهجرة تحتاج الى تجلية ، ولا تزال عبر في هذا
الحادث الضخم ، يسغى أن نقف بإدائها حتى نصلح على ضوئها حاضرنا ،
فنحن مازدكر تاريخنا الماضي — قصصه وأحداثه — إلا لتفتس منه أضواء
تحدد لنا الهدف وتجبس الزلل .

أول ما يوجه النظر إليه في حادث الهجرة قانون السببية الذي تحدثنا عنه
كثيراً ، إن هذا القانون فرص نفسه في الهجرة ، لم يقل النبي عليه الصلاة
والسلام إنني ومن معي أودينا في الله طويلاً ، وقد أخرجنا من ديارنا كرهاً ،
فعناية السماء يجب أن تلاحقنا ، ولا حرج من بعض التفريط أو بعض
التواكل ، فإن الله يحير الكسر ، ويكمل القصر ، لم يقل النبي عليه الصلاة
والسلام شيئاً من هذا ، وإنما وصع الحطة كاملة ، كل ما يمكن أن يصنعه
الإنسان العادي ليتجنب الأخطار ، وليستعد عن مكاييد العدو فعله النبي عليه
الصلاة والسلام .

ما ترك ثغرة ، ولا أبقى في حطته مكاناً يكمله الذكاء ، فعل ما في طوق
البشر .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما سمع بالطاعون في اشام أوى أن يدخل البلد الذى قصد أن يدخل إليه ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : أتفر من قدر الله ؟ فغضب عمر غضبا شديداً ، وقال : يا أبا عبيدة : لو غيرك قالها!! أفر من قدر الله الى قدر الله !! أرأيت لو أن عندك قطيع غنم فتركت المكان المحدث إلى المكان المحصب ألم تتركه بقدر الله إلى قدر الله ؟

هذا المعنى يشرحه حديث آخر ، فقد سئل رسول الله ﷺ : أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورُقَى نسترقى بها ، وثُقَى نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هي من قدر الله » (١)

والرقية : دعاء المريض لنفسه بالشفاء أو تلاوته بعض سور القرآن للاستشفاء ببركتها كما صح من أن النبي عليه الصلاة والسلام « كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نث فيهما فقرأ فيهما » قل هو الله أحد « و » قل أعوذ برب الفلق « و » قل أعوذ برب الناس « ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » (٢)

اتخاذ الأسباب اذن دين ، وهذا هو الذى جعل رسول الله ﷺ يكرر في الاختباء في لعار ، وفي تصيل أعدائه فكان يتجه جنوبا وهو يريد أن يتجه إلى الشمال ، وفي اتخاذ راحلتين قويتين مستريحتين حتى تتمكنكما من السفر وتحمل وعشاء الطريق وطول المدة ، واتخاذ دليل مدرب حتى يعرف ما هنالك من وجوه الطرق والأماكن التى يمكن التعرّيج عليها بعيدا عن الأرصاء المبتوثة هنا وهناك ، وكيف بضلل من يبحثون عنه ؟

قضية السبية قضية فرغ الإسلام منها ، قرر أمها حق . لكن موقف المؤمن والكافر من السبب يختلف بعد ذلك ، فالمؤمن بعد أن يتخذ الأسباب كاملة لا يعول عليها ، ولا يربط نفسه بها ، ولا يظن أنها هى التى تعمل أو

(١) رواه ابن ماجه فى الطب . باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ١١٣٧/٢ وأحمد ٤٢١/٣ والحاكم فى الطب ٤٠٢/٤ .

(٢) رواه البخارى فى فضائل القرآن : باب فصل المعونات ٦٢/٩ والترمذى فى الدعوات باب ما جاء فى من يقرأ من القرآن عند المقام نخمة الأحمدي ٣٤٧/٩ وأحمد ١١٦/٦ .

تترك ، بل يؤمن بأن الأمور بيد الله ، وأن النتائج تتم بقدرته الله ، وأن هناك
أسباب أخرى ليست في يد الإنسان ، الله جل شأنه هو الذى يوفرها
ويكثرها لمن أراد أن ينجح قصده

ولذلك قارن العلماء بين موقفين للنبي عليه الصلاة والسلام قالوا : في
الغار عندما أحس أقدام المطاردين تقترب ، وعندما بدأ أبو بكر رضى الله
عنه يفتق ويشعر بالوجل ، كان النبي عليه الصلاة والسلام يسكن روعه ،
ويبدد قلقه ويقول له : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » (١)

قال العلماء : هذا الموقف يغير الموقف في معركة « بدر » عندما أخذ
السبي عليه الصلاة والسلام يتحج بقلبه وله إلى الله في ضراعة حارة ، ودعاء
مستجاب ، واستغاثة موصولة ، يقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم
إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض »!!
فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه من منكب
فاتاه أبو بكر .. وقال : يابى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك
ما وعدك » (٢) .

قال العلماء : ما السبب في تفاوت الموقفين ههنا وههنا ؟
وكان الجواب : أن السبي عليه الصلاة والسلام في الغار كان قد اتخذ
الأسباب كلها ، وأفرغ ما في صاقله عملاً ، فاطمأن إلى أن الله هو الذى سيكفله
وهو الذى سيحقق ما يصبو إليه من أمل في إخراج الهجرة وبلوغها غايتها .
أما في « بدر » فإن الأسباب لما تكتمل من ناحية ، وربما تعلقت الهمة
بها ، وعولت عليها ، وانتظرت النصر منها ، فأراد السبي صلى الله عليه وسلم
أن يتحرر من هذه الأسباب ، من الجيش الذى خرج إلى القتال ، من العدو أو العدة
اللتين أحاطا به عيه الصلاة والسلام ، فكان دعاؤه ، وكانت استعاثته ،
وكانت صراخته ، وكان استنصاره بالله جل جلاله .

الفارق بين المؤمن والكافر كلاهما يأخذ بالسبب ، أما نحن المؤمنون
فإننا نرى أن الأسباب أدوات للقدر العلي ، ومفاتيح لخزائن الرحمة
الإلهية ، وأن أى شيء انقطع عنه الإمداد الأعلى فإنه لا يصنع شيئاً ،

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين ٨/٧ في فضائل الصحابة - باب
من فضائل أبي بكر الصديق رضى الله عنه وأحمد ٤/١

(٢) رواه الترمذي في التفسير : تفسير سورة الأنفال ٤٦٩/٨ وأحمد ١٠/١ .

ويتوقف في مكانه أتظن الأرض وهي تدور حول نفسها لا تتحلف دقيقة
عن ميعادها في شروق أو غروب ، أليها ساعة تضبط بها الوقت ؟

أترى وهي تدور حول اشمس بديها أحجة تطير بها ، أو مخزون من
البترول أو الكهرباء يعنها على السرعة في جريها ؟ لا شيء ، انها قدرة الله
هي التي تحرك الأسباب علوا وسفلا !! فإذا كان الإنسان يقوم بالسبب ثم
ينتظر من رب العالمين أن يحقق النتيجة فتلك طبيعة علمية ما يسعى أن
يكابر امرؤ فيها .

المؤمن بأكل الخبز ثم يعلم أن استفادة جسمه من هذا الخبز ليس لأن في
درات الدقيق عقلا يحولها إلى عظم وعصب وقوة وطاقة ، لا ، هذا كله
صنع الله !!

أما المادى فيتصور أن هذه الأسباب تتحرك تلقائيا بذكاء في الدقيق أو
بقدره عقلية في الرغبة !!

هذا هو الفارق بين المؤمنين وغير المؤمنين .

أما الأسباب فاتخاذها دين .

مما نذكره في قصة الهجرة أن ما قبل الهجرة وما بعده سواء في قضية
عرض الإسلام ، بعض الناس يقول — وقد أكد هذا مستشرقون ومشرون
وسماسة لهما — كانت الدعوة الإسلامية قبل الهجرة تعتمد على الاقناع
المجرد ، وعلى التفكير الحر ، وعلى رفض الضغط في جعل الناس يعتقدون
ما يشاعون من عقائد ، أما بعد الهجرة ، وبعد أن تماسك السيف في أيديهم
فقد أخذوا يحكمون السيف ، ويتعللون عن مهج العقل !!

هذا كلام يحتاج إلى أن ساقشه ، صحيح أن الدعوة قبل الهجرة كانت
تعتمد على الاقناع الحر ، وعلى المطلق العقلي الواعى ، وعلى ترك المعارضين
يأخذون طريقهم كما استحبوا لانفسهم . في سورة الاعام وهي مكية نقرأ
قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٤]

في سورة الكهف وهي مكية نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ [الكهف : ٢٩]

خطب الغزالي — المجلد الثاني

في سورة يونس وهي مكة نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس

^[١١] هذا منطق الاسلام في مكة فهل تعبر هذا المطلق في المدينة ؟ الجواب على هذا يقتضيه أن سطر في الوحي الذي نزل في المدينة لم يترك المسلك الأول أم بقي إلى هذه الوجهة يسير دون أدنى تعبير ؟

نقرأ سورة البقرة وهي سورة مدنية ييقين ، نجد فيها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [سورة البقرة ١٣٩]

ونقرأ في نفس السورة قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ... ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

ونقرأ في نفس السورة قوله تعالى : ﴿ وَد كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩]

ونقرأ في سورة آل عمران ، وهي مدنية ييقين ، نقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمُوا فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠]

ونقرأ في سورة النساء وهي مدنية ، نقرأ قول تعالى ﴿ مَنْ يَطْعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء : ٨٠]

ونقرأ في السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ اعْتَذَلُواكُمْ فَلَمْ يَغْفِرْ لَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النساء : ٩٠]

ونقرأ في سورة المائدة ، وهي مدنية ، قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : ٩٩]

ونقرأ في السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ

واحدروا فإن توليتم فاعلموا أننا على رسولنا البلاغ المبين ﴿ [المائدة ٩٢]

ولا أريد أن أستعرض القرآن كله لأبين أن مكيه تمهيد لمدينه ، وأن مدينه تصديق لمكيه ، وأن مسلك الإسلام بعد الهجرة هو مسلكه قبل الهجرة ، وأنه الدين الذي اخترع في العالم الحرية الدينية ، وبسط رعايته على من يعارضونه فما أحرحهم ، ولا اضطهدهم ، ولا استبد بهم ، ولا نال منهم قليلاً ولا كثيراً !!

ولكن هناك من على أبصارهم وبصائرهم حجب يريدون أن يكذبوا ، وأن يزوروا التاريخ ، وأن يقولوا لساس كلاماً لا أصل له في تصور الإسلام وتصويره للأمر .

شيء آخر يتصل بالهجرة وهو قصة التشريع .

يشيع بين الناس أن ما بعد الهجرة كان عصر التشريع ، وأن ما قبل الهجرة كان عصر التمهيد ، هذا كلام مدخول ، ويحتاج إلى شيء من التوضيح .

فإن شرائع العقيدة كلها تمت قبل الهجرة ، وشرائع الأخلاق انفاصلة كلها تمت قبل الهجرة ، وأن العبادات من صلاة وزكاة تمت قبل الهجرة والحج معروف من شريعة إبراهيم ، وإذا كان فرض الصوم قد تأخر إلى ما بعد الهجرة فلا يقدح هذا في أن ما قبل الهجرة كان عصر تشريع لأهم ما تحتاج إليه الأمة في عقائدها وعباداتها .

الصلاة شرعت قبل الهجرة ، الزكاة شرعت قبل الهجرة ، أوائل سورة المؤمنون وهي سورة مكية ، تقول : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لقرواحهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ [سورة المؤمنون ١ - ٦]

كل هذا شرع قبل الهجرة ، بل كان تشريع الزكاة من أول ما عرف بعد الإيمان بالله والصلاة مباشرة .

وسورة المدثر وهي من أول ما نزل ، نقرأ فيها قوله تعالى على لسان

المؤمنين وهم في نعيمهم يسألون المجرمين :

﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب يوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ [سورة المدثر ٤٢ — ٤٧]

تشريع الخمر أغلب العلماء يرى أن الأمر الحاسم بترك الخمر كان في المدينة ويرى آخرون أن الخمر من أسماؤها « الإثم » يقول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي * كذاك الإثم تذهب بالعقول
والدليل على تحريم الإثم — الخمر — في مكة قوله تعالى في سورة الأعراف
﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ﴾ [سورة الأعراف ٣٣]

تشريع الربا ، صحيح أن آيات الربا من آخر ما نزل في سورة البقرة ، ومن آخر ما نزل في المدينة ، لكن تحريم الربا أشعر القرآن به في الوحي المكي النازل بمكة ، في سورة الروم نقراً قوله تعالى :

﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ [الروم : ٣٩]

المضعفون .. أى الذين بصاعفون ثوابهم ، ويكثرُونَ عند الله أجرهم .
فالعصر المكي كان عصر تشريع إلى جانب العصر المدني الذى أكمل التشريع ، وبرز في كثير من المسائل بعد استقرار المجتمع الإسلامى وتكون الدولة فيه .

مما ينبغي أن يعرف أيضاً في الهجرة .. أن القرآن الذى نزل في مكة قبل الهجرة أو في المدينة بعد الهجرة سواء في إعجازه ، سواء في بلاغته ، سواء في التحدى به . نعم ، يقول بعض العلماء : إن بعض القرآن ثوابه في التلاوة أو فضله على غيره قد جاءت به نصوص ، مثلاً ، قرأنا أن سورة الإحلاص تعدل ثلث القرآن (١)

(١) قال رسول الله ﷺ يعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ عشق ذلك عبيد ، وقالوا أيها يصيب ربه يا رسول الله ، فقال والله الواحد الصمد ثلث القرآن ، رواه البخارى في فضائل القرآن ، باب فصل قل هو الله أحد ٢٣٣/٤ ومسلم في المسامير . باب فصل قراءة قل هو الله أحد ١٩٩/٢ .

قال العلماء : إنما تتفاضل السور بموضوعاتها ، فإذا كانت سورة تتحدث عن العقائد وأصول الدين فهي أكثر مثوبة عند الله ، وأكثر مكانة من آية تتحدث عن لمواريث ، أو عن الزواج ، أو عن الطلاق ، فآية الكرسي تفصل غيرها ، لأن موضوع الحديث في الآية عن الله جل جلاله أما السور كلها مكيا ومدنيها والآيات جميعاً التي تناولت العقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات فهي كلها في طبقة رفيعة من البلاغة ، وفي أوج من الإعجاز تحدى الله به الإنس والجن لا فارق بين قرآن مكى أو قرآن مدني .

وقد قال المستشرقون — ومن بينهم مستشرق محرى اسمه « جولد ريهير » قال : إن القرآن المدني أقل بلاغة من القرآن المكى !! وتعه في هذا اسغو بعض الدين كانوا يدرسون في كنية الآداب ، وبقوا في أماكنهم ينشرون هذا الإلحاد ، بل حفظت هم مناصبهم إلى أن ماتوا .

و نحن نريد أن نوجه النظر إلى أن العرو الثقافي له تسلسل وله مداخل ، وله سورات. ويجب أن محتاط لدينا وعقائدا من عدوان المستشرقين والمبشرين ومماسرهم في هذا البلد .

و حديثنا المهم فيما يتصل بهذا العرو في حطتنا الثابتة إن شاء الله أقول قولي هنا وأستعفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ انشورى ٢٥ ، ٢٦ ﴾

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء ، وسيد المصلحين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل . واعلموا أيها المؤمنون أننا نواجه مستقبلاً يحتاج من إلى اليقظة الكاملة ، والوعى الدقيق ، والبصر النافذ المنقب لكل ما يراد بنا أو يبيت لنا ، والسبب في هذا أن مصر هي طوعاً أو كرهاً دماغ الإسلام وقببه ، وأن نجاح الإسلام فيها يحتاج له في العالم أجمع ، وأن صياح الإسلام فيها صياح له في العالم أجمع ، بل الأمر ليس أمر صياح ، وإنما الأمر أمر المكانة ، يوم يدحرج الإسلام من مكانته كديس أول ، وموجه أول ، وأسس أول لكل بناء خلقى وثقافى وتشريعى واجتماعى ، يوم يدحرج الإسلام من هذه المكانة لتكون له مكانة ثانوية أو ثالثة أو رابعة ، فمعنى هذه الدحرجة أن مستقبل الإسلام سيمضى إلى الغروب إن لم يكن اليوم فغداً وإن لم يكن عدداً فعد غداً !! .

ولهذا فإن المحافظة على مكانة الإسلام كموجه أول في كل شيء له أهمية في بلدنا !! .

إن مكانة مصر ومكانة الإسلام فيها موضع دراسة ذكية لمن يكرهون هذا البلد ويتآمرون على مستقبله ، وقد شاء الله تعالى أن تقع حرب رمضان وأن تكون هذه الحرب نقلة بعيدة المدى ، ودعما سماويا مباغتاً لهذه

الأوضاع في العالم العربي والعالم أجمع ، فإذا الايمان يعلن عن وجهه الصييح ، وحقيقته الحلوة ، وإذا الجيش الذي حمل عبء دعايات مرة ، ومواقف مصنوعة ، إذا هذا الجيش يزار بكلمة التوحيد ويمشي تحت صدى التكبير الذي يملأ الأودية ، ويهز الآفاق ويصل الى غرضه .

اريد أن أقول : لقد أحرزنا نصراً مرحلياً بعد هزيمة سوداء صغت الوجوه بالدل والعار ، أريد أن أسأل ما الذي أكسبنا هذا النصر الآن ؟ وما الذي أكسبنا الخرى والهزيمة من قبل ؟

التحقيق في هذا أن أوضاع الأمة قبل سنة ١٩٦٧ كان يجب أن تنتهي بالهزيمة ١١ وأن أوضاع الأمة قبل معركة العاشر من رمضان كان معها الأمل في جنب الله أن يضع خيراً في الأيدي الممدودة له ، وأن يجعلها ترجع عما يبغض وجهها ويرفع رأسها .

قبل ١٩٦٧ كان هناك إدلال لطوائف كثيرة من هذه الأمة ، كان هناك حرب على الإسلام ، كانت هناك مساوآت لديسا ، كان هناك استنداد أعمى ، كانت هناك معتقلات مفتحة ، كان سحر كبير يعتبر الإسلام جريمة ، أما عندما دخلنا المعركة الأخيرة كانت أبواب الحرية قد بدأت تفتح رويدا رويدا ، صفيت المعتقلات ، عاد الجيش إلى كلمة التكبير في تمريناته ، وكان ذلك لا يعرف له ، بدأت أمتنا ترجع إلى دينها دون قلق أو خوف ، كانت الخيانات التي كانت على مستوى عال بدأت تنزاح عن تاريخنا وعن صدرنا وعن مجتمعنا ، ولكن أيرضى هذا الذين صنعوا هزيمة ٦٧ ؟ لا ، لن يرضيهم هذا ، والذين صنعوا الهزيمة من كتاب خدموا الجيروت ، وتملقوا المستبدين ، وعاشوا يصنعون للأمة الإلحاد الذي يعميها عن الله ، أهؤلاء يرضون أن تنعم الأمة بالإيمان والحرية ، وأن تأخذ طريقاً جديداً يعود بها إلى الله ؟

لا ، إهم لا يريدون هذا ، إهم يريدون استئناف نفس الأوضاع التي كانت قبل سنة ٦٧ ، قد تسأل ما الذي يريدون استنفاه ولأقل بصراحة لقد بهمت أن الأصوات التي يجب أن تحتفى لا تزال عالية وأن الذين صنعوا الهزيمة لا يزالون يريدون أن يصنعوها مرة أخرى لا أدري ، لقد استقدمت بعض

الصحف « بول سارتر » طاعية النجودية وعموداً من أعمدة الكفر في فرنسا ، وجاءت معه بعشيقتيه ١١ واقتحم الرجل الدل وعشيقتيه القصر الجمهوري ، وكان ينبغي أن يحرم على رجل وعشيقتيه ، لكن مراكر القوة وأسباب الشر كانت تريد أن تصرص على أمسا الإلحاد ، والانحلال وأن يحى رجل مع عشيقته أمر عادى .

والآن يستقدم من فرنسا زعيم لتحالف اليسارى الاشتراكى . ما حاجتبا إلى هؤلاء ؟ ما الذى يتفقاه من هؤلاء ؟ لكن الدليس صعدوا هزيمة سنة ٦٧ يريدون أن يصعدوا هزيمة أخرى لبلدا .

إن الدليس قادوا معركة النصر هم المؤمنون ، ومهم الخاح حافظ سلامة زعيم السويس غير مزارع ، الرجل الذى رفض الاستسلام وخرج مع الجنود والمؤمنين من مسجده الشهداء في السويس ، وقتل حتى هزم اليهود وردهم بعد أن أحرق دباباتهم . وردهم خارج لمدينة وجعلها مدينة محترمة صامدة .

هذا الرجل بقى في المعتقل ستة وعشرين شهرا ، ينوق الدل ، حتى حرق أحيوا في أيام الحرية وأدى واجبه ؟ لم يقل هذا الانسان أنا ما أدافع عن بلد دقت فيه الدل ، لا ، ما قال هذا ، عهد الدل انتهى ، ينبغي أن ينتهى إلى الأبد ، إن أعداء الإسلام أصحاب حيلة ، وقد بدعوا الآن إيمكروا كيف يعودون بالأمة إلى الشتات الذى كانت فيه ؟

سنسمع ألف كلمة إلا كلمة الإسلام ، ستقرأ قصايا كثيرة إلا قصايا الإسلام ، سترى أن صيوفا يجيئون حمراً أو صفراً ، ولن يجاء برجل يمثل الإسلام !!

لم ؟ هؤلاء لم يرثوا مصر ، إن مصر التى شاء الله أن يكسر قيودها ، وأن يحرر أرضها ، ينبغي أن يعلم الناس الآن أن هذا التراب حرام على الأصوات التى خدمت الحبروت ، وبقيب في كنف الدل تهتف له وتبشر

به ؟

ليس هؤلاء قادتنا ، إن قادتنا هم الذين حملوا راية الإيمان وبكوا من
حشية الله ، وبشروا بالحق ، وبقوا إلى جانب الكتاب والسنة .

إننا نريد أن تصحو هذه الأمة ، إن الأمة التي تنسى ولا تذكر
لا تستحق البقاء .

وقديما قيل في مصر :

نسيت روعته في بلد كل شيء فيه يُنسى بعد حين -
ومن اذا كنا ننسى كل شيء بعد حين فلا نصلح للبقاء .

ينبغي أن نعرف أن الإيمان أساس هضتنا ، وأن الإسلام سياج عرنا ،
وأن راية الحق هي التي ينبغي أن تعرف عينا ، وأن الذين خدموا الإلحاد ،
وحاموا بزعمائهم من أوروبا رجالا أو نساء ، أو الذين يربطون تعكير صفونا
وتوسيع فكرنا ، وجعل حياتنا تعتمد على مصادر من الخارج هذا كله عشاء
ولغو ، نحن ينبغي أن نبنى على قواعدنا ، وأن ننطلق من مبادئنا ، وأن ننجه
إلى غاياتنا وأهدافنا .

نحن أعنياء عن « بول سارتر » ، وعن « ميثرا » وعن بقية أولئك
الذين عاشوا في الغرب يحرمون صلاه .

وأنا أعلم وعيرى يعلم أن سارتر جاء هنا وبعد يوم كان في إسرائيل !
وأنا أعلم وعيرى يعلم أن زائر مصر الحالي صديق لإسرائيل وصديق
لزعيم إسرائيل !

فما الذي يجعل أمتنا تتسول الرجال والثقافات على هذا النحو
الأعمى !

لكن هي طبيعة القوم ، هي طبيعة العصابة التي تأمرت على مستقبل
بلدنا من أمد غير طويل .

إننا بحاجة ملحة إلى أن نعرف الإيمان ورايته ، ولا نمشي إلا تحت هذه
لراية حتى نصلي إلى غايتنا أن شاء الله .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا ديارنا
الذى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة
لنا فى كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١)

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى
قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [عشر ١٠]

عباد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحر ٩٠]

أقم الصلاة



(١) رواه مسلم والنسائى وأحمد

كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، هو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، السراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه التابعين .

أما بعد :

فقد قال ربنا تبارك اسمه وصفاً للكتاب العزيز : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يحشون بهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يصل الله فماله من هاد ﴾ [الزمر : ٢٣]

معنى أن القرآن متشابه في هذه الآية : أن معانيه متماثلة على كثرة أسور ، وأن المحاور التي يدور عليها متقاربة وإن تعددت الآيات وطالت .

وليس معنى التشابه هنا ما يقابل المحكم في قوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ [آل عمران : ٧] .

المقصود بالمتشابه في آية سورة الرمر : أن معاني القرآن الكريم على كثرتها تنور على مبادئ معروفة محدودة ، وأعراض معينة واضحة ، ولذلك فإن في الإمكان القول بأنها متشابهة .

وأظننا في الجمعة السابقة أو صحاح أ القرآن الكريم دارت آياته الكثيرة على أربعة معان :

أولاً : وصف القرآن الكريم للكون ، وحديثه عن المادة وآفاقها وقواها وأسرارها .

ثانياً : تاريخ الماضين وسرد قصصهم .

ثالثاً : اليوم الحاضر وما فيه من تكايف ، وما يقع على الناس من أعباء .

رابعاً : مشاهد القيامة وما إلى ذلك مما يتصل بالحساب من ثواب وعقاب .

معنى المثاني : الإردواح في الجمع بين أمرين ، فالقرآن الكريم في تربيته للنفس وفي توجيهه للأمم يجمع بين مصلحتي الروح والجسد ، بين مطلقى الفكر والعاطفة ، بين مصلحتي المعاش والمعاد ، بين الوعد والوعيد ، بين الرغبة والرغبة .

قلت : إننا في هذا الشهر نتحدث في السيرة الشريفة ، في النبوة الحاتمة وصاحبها عليه الصلاة والسلام ، وقد بدأت بالحديث عن القرآن لأن بيننا عليه الصلاة والسلام كان قرآنا حيا في مسلكه ، في خلقه ، في شمائله ، في عبادته ، في جهاده ، في حربه ، في سلمه ، في سفره ، في إقامته ، في انتصاره ، في انهزامه ، في صحته ، في مرضه ، في خلوته ، في جلوته ، في شتونه كلها .

صَحَّحَ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَأَلَتْ عَنْ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لِلسَّائِلِ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَتْ : فَإِنْ خَلَقَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ (١)

المعنى الذى شاع لهذا الحديث أنه ما من خير جاء في القرآن أو بر أو فضل أو محمداً إلا والسبب عليه الصلاة والسلام قد تخلق بذلك ، وظهر به ، واصطبغت نفسه بحقيقته ، وما من شر أو مردول من السلوك والعمل حذر

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين — باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه ١٦٨/٢ ، ١٦٩

القرآن منه ونهى عنه إلا ابتعد النبي عليه الصلاة والسلام عنه وكان أبعد ما يكون عن اقترافه أو القرب منه .

هذا هو المعنى الشائع للحديث ، كأن الحديث يجعل دائرة القرآن في شمائل النبي وسيرته لا تتعدى الأحلاق .

في تأمل بسيرة وفي تأمل لآفاق النوة وجدت أن الحديث يمكن أن يكون أوسع دائرة وأرحب آفاقا ، يمكن أن يكون المعنى المقصود أن النبي ﷺ كان قرآنيا في حياته كلها .

كيف كان قرآنيا في حياته كلها ؟

ذكرت لكم أن القرآن الكريم — في العصر الأول فيه — عرّف رب العالمين عن طريق آثاره في الكون وإبداعه في الخلق ، فهو يعرف الله جلّ جلاله فيقول :

﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ [الروم : ٤٨] .

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [غافر : ٦١] .

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء، وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين ﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ [غافر : ٧٩ ، ٨٠] .

فهنا نجد أن الوصف لله سبحانه وتعالى هو توجيه الأنظار إلى أسمائه الحسنى وصفاته العليا في كتاب الكون المفتوح وفي هذا العالم الذي يسر لنا كل ما فيه وسخرت لنا سمواته وأرضه .

كان النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الجانب من القرآن شديد الحس

بالوجود الإلهي ، ومعنى « خلقه القرآن.. » في هذه الساجية : أنه ما ينظر إلى شيء إلا يرى الوجود الأعلى مسيطرا عليه ، نافذا فيه ، واضحا من خلاله ، يتضح هذا في ذكره لله واستشعاره بمجده ونعمه ووجوده .

فالله جل شأنه في كل شيء زمانا ومكانا ، وقبل أن نشرح لزمان والمكان أجيء بآية من سورة الأنعام تقول : ﴿ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٢] .

فهذه الآية تتحدث عن المكان ، والآية التي بعدها تتحدث عن الزمان ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام : ١٣] .

ملاحظة هذه المعاني زمانا ومكانا كانت تظهر في حياته عليه الصلاة والسلام نوعا من التسبيح والتحميد وتمجيد والذكر والشكر لم يعرف مثله في حياة بشر آخر ، كان إذا أصبح قال :

« أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور » (١) .

« أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وسنة نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (٢) .

« اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » (٣) .

(١) تنمة الدعاء « وإذا أمسى قال : أمسي وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير » رواه البراز وإسناده جيد . كذا في مجمع الزوائد ١٠/١١٤
(٢) رواه أحمد في المسند ٣/٤٠٦ ، ٥/١٢٣ والدارمي في الاستعانة — باب ما يقول إذا أصبح ٣٧٨/٢ والنسائي في عمل اليوم واليلة — ذكر ما كان النبي ﷺ يقول إذا أصبح ص — ١٣٣ والطبراني في الكبير — في الدعاء . وقال في صحيح الجامع (٤٦٧٤) : صحيح .
(٣) رواه أبو داود في الأدب — باب ما يقول إذا أصبح ١٤/٤١٢ والنسائي في عمل اليوم واليلة ص ١٣٧ وابن حبان وصححه (موارد نظام رقم ٢٣٦١) وابن السني رقم ٤١ والبيهقي في الشعب . وقال النووي في الأذكار : ٧٤ إسناده جيد

وكان يحمد ربه قائلاً :

« يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك » (١) .

إلى آخر هذه التسيبحات والتحميدات التي لُحح بها لسانه ، وعمر بها جسده ، وتحركت بها عواطفه ، وتركها في ترائه نورا يقود الناس إلى رسم ويربطهم به أوثق رباط .

كان في شعوره هيممة الله على الكون ينظر إلى القريب والبعيد فلا يرى إلا قدرة الله وجلاله ، ينظر إلى الهلال وقد بدا فيقول :

« اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله » (٢) .

كان إذا برل المطر حسر (٣) ثوبه حتى أصابه من المطر ، فإذا سئل قال :

« لأنه حديث عهد بربه تعالى » (٤) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، وإذا تمهلت (٥)

(١) رواه ابن ماجه في الأدب — باب فصل الحامئين ١٢٤٩/٢ وفي إسناده قدامة بن إبراهيم ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وصدقة بن بشر ، لم أر من جرحه ولا من وثقه ، وباقى رجال الإسناد ثقات . كما في الزوائد

(٢) رواه الترمذي في الدعوات — باب ما يقول عند رؤيته الهلال . وقال : هذا حديث حسن عريب ٤١٣/٩ ، ٤١٤ وأحمد في المسند ١٦٢/١ والدرمي في الصوم — باب ما يقال عند رؤية هلال ٧٢ وإمام ابن حبان ورواه « التوفيق لما تحب وترضى » . وقال في صحيح الجامع (٤٧٢٦) : حسن

(٣) أي كشف بعض بدنه

(٤) رواه مسلم في صلاة الاستسقاء — باب الدعاء في الاستسقاء ٢٦/٣ ومعنى حديث عهد بربه أي بتكوين ربه إياه ومعناه أب . ينظر رحمه وهي قرية انمهد بخلق الله تعالى لها ميتة بها . (٥) تمهلت السماء : أي تمهلت وتمهلت للمطر .

السماء تغير لونه وجرج ودحل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه
فعرفت ذلك في وجهه قالت عائشة . فسأله ، فقال : لعله يا عائشة كما
قال قوم عاد : فلما رأوه عارضا مستقلا أوديتهم قالوا هذا عارض
مطربنا « (١) .

كان إذا رأى قرية يريد دحوها قال :

« اللهم رب السموات السبع وما أظلل ، ورب الأرضين السبع
وما أقلن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين فإننا
نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها
وشر ما فيها » (٢) .

هذا هو تحاوب النبي مع ما في القرآن من وصف للكون .

النظر العادي يرى الشمس تطلع ويراها تغيب ، يرى الريح تعصف
ويراها تترقد فلا يهتز

أما سينا عليه الصلاة والسلام فقلبه مرتبط عن سحر الشمس والقمر ،
ومن شق الأرض عن النبات ، وعن أدار القمر هلالا ثم عاد كالعرجون
القديم ، إلى آخر ما في ذلك من مظاهر الكون .

كان ارتباطه بالقرآن تطبيقا ، هو يقرأ القرآن وشعوره وهو يقرأ أنه مع
الكون ، يعرف رب الكون من خلال صفحات هذا الكون الكبير .

هذه ناحية ، وهي معرفة الكون وأسراره وآثاره جلّ حلاله في مسكوته
الضخم ، وتحاوب النبي ﷺ معه .

(١) رواه ابن حبان في بدء الخلق — باب ما جاء في قوته ﷺ وهو الذي أرسل الرياح بشراً

بين يدي رحمة ﷺ ١٣٢/٤ ومسلم في صلاة الاستسقاء — باب التعود عند رؤية الريح ونسيم والفرح
ببطر ٢٦/٣ .

(٢) رواه السنن في عمل اليوم والليله ٣٦٨ وابن خزيمة وابن حبان (موارد النظام
٢٣٧٧) والحاكم ١٠٠/٢ وقال . صحيح الإسناد ٤٤٦/١ وابن أبي عمير رقم ٥٢٩ والبيهقي في
السنن ٢٥٢/٥

الناحية الثانية : تريح الماضين وسرد قصصهم ، تريح الحياة ، تريح الناس مد ظهروا على ظهر هذا الكوكب وبدأ نشاطهم يملاً الأرجاء ، إن هذا التاريخ يصور مدنيات ظهرت وبادت ، وقرى عمرت بالإيمان وبالفجور ثم حصدت وعادت إلى ربها ليسأها عما قدمت وأخرت ، هذا التاريخ يحكيه القرآن الكريم ليعيش نينا ﷺ وهو يتلاقى معه .

في سورة الأنعام نقرأ قوله تعالى — وهو يصف عمل المرسلين بين الناس — : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ [الأنعام : ٤٨ ، ٤٩] ثم يجرى رب العالمين على لسان نبيه ﷺ هذا الكلام ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يسرى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون . وأندر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ [الأنعام : ٥٠ ، ٥١] ثم يقول الله له بعد جدال مع المشركين : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

هذا كلام يوجه به النبي ﷺ وهو يتعامل مع المشركين في مكة ، لكن لا جديد تحت الشمس ، وما يقع له في مكة وقع مثله لأول المرسلين نوح ، قال تعالى : ﴿ .. وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد حادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن

افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون . وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبس بما كانوا يفعلون ﴿ [هود : ٢٩ — ٣٦] .

القصة واحدة ، والقصة واحدة ، والتلاقى بين الموضوعين ظاهر ، إلا أننا نجد القرآن الكريم وهو يذكر قصة نوح قبل الطوفان يتجاوز العصور الطويلة بعد الطوفان إلى عهد البعثة المحمدية ، ثم فى أثناء سرد قصة نوح تحىء آية : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ وهى كلام عن موقف المشركين فى مكة مع النبى الخاتم ﷺ وهو يؤسس عقيدة التوحيد ويطارد خرافات الوثنية ، تحىء هذه الآية — أثناء الحديث عن نوح — فتتقل الماضى كله إلى حاضر الناس وتنقله إلى يومنا هذا ، وهى تشير إلى أن الإنسان الكبير الذى كان خلقه القرآن كان فعلا يعيش مع ماضى الإنسانية ومع حاضرها ، وأن موقفه من كذبوه وآدوه وتربصوا به هو موقف الأنبياء من قبل ، وأن النتيجة واحدة ، ولذلك قال الله فى آخر السورة : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ [هود : ١٢٠ — ١٢٣] .

كان خلقه القرآن ، كان مع القرآن فى وصفه للكون ، كان مع رب الكون وهو يبدى مظاهر قدرته وحكمته فى العالم الذى نعيش فيه .

كان خلقه القرآن ، كان مع القرآن فى سرده قصص الأولين ، وفى عرضه لما أصاب أولئك الأولين من خير أو شر ، من نصر أو هزيمة ، من عقاب أو عفو ، كان مع هذا التاريخ يعيش فيه ويبقى معه .

فهو قرآن يتحرك ، لأنه مع القرآن فى وصفه لله عن طريق التدبر فى آفاق الملكوت ، ومع القرآن الكريم فى وصفه لفعل الله بخلقهم وهو يحكى التاريخ القديم ، وما تضمن من قصص يجب أن نلتفت إليها وأن نستفيد منها ، فإن قصص الأولين ليست مقطوعة عن حاضر العالم .

من علماء المادة من اعتبر الرمن بعداً رابعاً مع الطول والعرض والعمق ، ونظرية السسية تشير إلى هذا ، وقد كتب أحد الأطباء في كتاب « الإنسان ذلك المجهول » (١) ما يؤكد هذه الحقيقة .

وقد أشار بعض المفسرين عندما إلى أن الرمن بعد رابع في حياتنا ، لأننا نحىء بعد أسلافنا ، ونحن نحمل رسالتهم ، ونسبى قضاياهم ، ونسير إلى أهدافهم ، ونقر ما فعلوا ، ويدافع عنه ، فنحن مسئولون عما قدموا وأحروا .

وهذا صحيح ، وهذا فسر العلماء قوله تعالى لى إسرائيل في المدينة : ﴿ وَإِذْ نَحْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٩ ، ٥٠] .

بعض الناس يقول : ما لليهود في المدينة والنجاة من فرعون وأهله ؟! الصلة مقطوعة .

لا ، الصلة قائمة ، ما داموا يتبنون عقائد آبائهم ، ويسيرون وفقها ، ويدافعون عنها ، وينشرون حضارتها ، فهم مسئولون ومؤاخون .

والواقع أن الإنسانية تشبه رجلا في الخمسين أو الستين من عمره ، إنه يحب أن يتذكر ماضيه ، فهو مسئول عما كان في شبابه وما فرط منه في أيامه الأولى ، وينبغي أن يعتبر بما كان منه .

ولذلك فإن قصص القرآن الكريم — في الحقيقة — إنما يشير إلى هذا السعد الرابع في كيان الأمم وفي شخصيتها عندما يحكى القرآن لنا ما كان ، لأن ما كان ليس غريبا علينا ، إنه يعينا أتم العاية ، فيجب أن نكثر به ، وأن نلتفت إليه ، وأن نستفيد منه ، والرجل العظيم القرآنى النزعة الذى حمل هذا القرآن كان يمثل هذه المعانى .

المعنى الثالث : اليوم الحاضر وما فيه من تكاليف .

(١) الدكتور ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول : ١٨٥ ، ١٨٦ ط مكتبة المعارف —

إن القرآن الكريم يأمر ويهيى ، يعزم ويرى ، يعط ويذكر ، لتسير وفق
مراد الله لنا ، ووفق ما حط لمحيانا على ظهر الأرض ، ورب العالمين
لا يستفيد من طاعات الناس شيئا ، ولا يضره من معاصي الناس شيئا ، إنما
يمل ذلك لمصالح العباد أنفسهم . ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم
قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم
دار المتقين ﴾ [النحل : ٣٠] .

والواقع أن الناس — الآن وقل الآن — قسمان :
قسم يريد أن يحيا وفق هواه ، ما يتجه بتوجيه الله له ، إنما يريد أن
يسبغ من رغباته ومن شهواته ومن أهوائه وآرائه لا يبالي بشيء .
وقسم يستمع إلى هدايات الله ويرى أن فيها مصلحته ورحمته ، وأن
من الحكمة أن يعيش وفق الخط الذي أمره الله أن يستقيم عليه .
حاضر الناس أو ما هم عليه في معتقداتهم وفي أفعالهم وفي أحوالهم
كلها كان سببا عليه الصلاة والسلام صورة جيدة به ، فهو فيما يصيبه من
خير أو شر يرى أصابع القدر في كل شيء ، هناك ناس — كما وصف
الله — : ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه
خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الحج : ١١] .

رأينا نبينا عليه الصلاة والسلام في أشد الساعات تعباً له يستقيم لقدر
الله ، ويرجو من الله الرضا . في هزيمة « أحد » كان المصاب شديداً ،
وكان الحرح عميقاً ، وكان الألم مستولياً على المؤمنين غماً بهم ، ومع ذلك
فإن النبي عليه الصلاة والسلام في أعقاب المعركة قال لأصحابه : « استووا
حتى أثني على ربي » !!

المتنبي لما أغضبه سيف الدولة قال :
فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاني سررن ألوف (٢)

(١) رواه أحمد في المسند ٢٢٤/٣ وإمام ٥٠٧/١ ، ٢٣/٣ ، ٢٤ وقال : صحيح على شرط
شيوخه وقال الألباني إمام هو صحيح فقط فإن فيه عيب من رقاعة ولم يخرج له الشيوخ
(٢) ديوانه ٤٦٧/١

نحن نكبر نبيا عليه الصلاة والسلام عن أن نضرب له مثلا من موقف شاعر مع مملوحيه ، ولكننا نضرب مثلا صغيرا ليعلم الناس أن الموصولين بالله يشغلهم ما يحسون به من رفق الله ومجده ، وما يشغلهم من تسبيحه وحمده ، إن ذلك كله يحفف من آلام الحياة إذا أحاطت بهم ، بل لعل ما يشغلهم أولا وآخرأ هو إرضاء الله .

في غزوة « الخندق » ظل القتال أمدا غربيا حتى ذهبت العصر فكان حزن النبي ﷺ عليها شديدا وقال : « ملأ الله بيرعهم وقبورهم نارا شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » (١) .
المعنى الرابع : اليوم الآخر وما يتصل به .

اليوم الآخر ذكر في القرآن وفي السنة كثيرا ، والموت ذكر في القرآن وفي السنة كثيرا ، ويسعى أن يُعرف شيء في هذه النواحي ، لماذا ؟ لأن الناس تظن أن الدين هدم لنديا ، أو أن الدين يبس الآخرة على أنقاض الأولى ، أو أن المتدينين نظرتهم تشاؤمية استعابية ، هكذا يتصور الناس الدين ، وهذا غير صحيح .

الواقع أن لبس في كثرة كلام الله جل جلاله عن الدار الآخرة هو كسر عرور الناس بالدنيا ، فإن انشغال الناس بحاضرهم واحتباسهم في آلامهم وآمالهم المحاصرة يكاد يذهلهم ذهولا مطلقا عن اليوم الذي ينظرونهم ، فيريد الله أن يبين لأي إنسان ليستطيع في لحظة أن يتقل من صحراء الحرية إلى أنهار العم في لحظة شهادة !! لحظة وحيدة سريعة تنقله من دار ليس فيها إلا الشطط إلى دار أخرى فيها العم المقيم والرحيق المخبوم !!

هذا نوع من المعادلة ، في علم الطبيعة يقولون : إن ذراع المقاومة مع المقاومة يعادل ذراع القوة مع القوة .

(١) ٥٩٥٠هـ ابجاري في الجهاد — باب الدعاء على المشركين بالفرجة والزلزلة ٥٢/٤ . ومسلم في المسحود ومواضع الصلاة — باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ١١١/٢ .

فالتعادل لا بد منه ، لكي يكون هناك توازن ، والناس يفقدون توازنهم عندما يعبدون الأولى وينسون الآخرة ، فلا بد من إعادة التوازن ، ولو أن إنسانا أثر الآخرة ونسى الأولى لكان محطك ، فإنه ما يستطيع أن يكون آخرته إلا من محاحه في ديباه ، وما يستطيع أن يبصر دينه إلا بامتلاكه للدينا وفهمه لقوانينها وتسخير هذا الفهم أو الملك لبصرة الحق وتأنيده ، مبد من هذا ، وعلى ضوء ذلك نفهم قول الرسول ﷺ : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (١) . لماذا يغرسها والآخرة تقوم ؟

لأن العرس طلب للآخرة ، لأن العرس عبادة تصمم الآخرة ، لأن العرس يغني المؤمنين عن مدّ أيديهم إلى طلب معونة الكافرين ، لأن العرس هنا صمان للأولى ، ثم مع الإيمان تسخير هذه الصمانات في إعزاز المؤمنين وإعفافهم .

وكان نينا عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن بقرأ مترسلا إذا مرّ بآية فيها نسيح سبح ، وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوذ بتعوذ (٢) . ورووا أنه كان في الصلاة يوما فتأخر فسئل بعد ذلك فقال : « لقد رأيت في مقامي هذا كل شيء وعِدَّتُهُ ، حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني جعلت أتقدم ، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضها حين رأيتموني تأخرت » (٣) !!

هذا إحساس إنسان الروحانية الفؤارة تغلب على شخصيته أحيانا فتكاد تسليخه عن الإهاب الآدمي ليرى مالا يستطيع الآخرون أن يروه ، وهو نبي ملهم وإنسان يتحدث من السماء !!

(١) رواه أحمد في المسند ١٨٤/٣ ، ١٩١ والبخري في الأدب المفرد — باب اصطناع المال ص ٦٩ وعبد بن حميد . وقال في صحيح الجامع (١٤٢٤) . صحيح . وقال في ميز القدير . ورواه أيضا ابن جرير والطبراني والديلمي . قال الهيثمي : ورجاله ثقات وأثبت .

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم في صلاة المسافرين — باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ١٨٦/٢

(٣) رواه البخري في كتاب العمل في الصلاة — باب إذا اعتنت البداية في الصلاة ٨٢/٢ ، مسلم في صلاة الكسوف — باب صلاة الكسوف ٢٨/٣

هذا في نظري معنى « كان حنقه القرآن » .

معنى كان حنقه القرآن : أنه — في حياته على طهر الأرض وبين آفاقها وأرجائها وتحت السماء الرحمة ، ومع تاريخ الحياة والأحياء على امتداده الطويل ، وفي رحام الأحياء الذي يلهي كمشاعبه ومتاعبه ، وفي هذه الهابت انتهى ستطرها حصاداً لحياتها على طهر الأرض — كان يتحارب مع القرآن الكريم !!

القرآن كتاب مشحون بمنون من الثقافات التي تتصل بالطاهر ، الباطن ، واليوم والغد ، والدينا والآخرة ، والأحلاق والمسالكة ، والنيات ، الطواهر .

إن هذا القرآن إذا تحارب إنسان معه صاعه صياغة جديدة في أحواله كلها ، ثم يمشی المؤمنون بعد ذلك على مهب نبيهم ﷺ وقد أحرى الله على إنسانه : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣]

هذه هي السورة الحاتمة ، وتذك صلتها بالقرآن في معانيه التي تتشابه أو التي تزدهج .

هذا هو كتابنا الذي يجمع بين التربية والتعليم ، بين الرعة والرهنه ، بين الوعد والوعيد ، بين الخوف والرحاء ، بين الدنيا والآخرة ، بين الروح والحدس ، بين العقل والعاطفة ، هذا الكتاب الذي تشابهت معانيه وهو نصف مكشوت لله وحياة الأولين ومستقبل الآخرين .

هذا الكتاب كله تحسد سلوكا وجهادا ، عبادة وقيادة ، تشريعا ومعاملة وسياسة في مسلك النبي الخاتم ﷺ ، فكان هذا قديرا على تعبير الدنيا إلى وضع آخر وإلى وجهة أخرى .

وجدير بأنواعه إذا اعتنقوا القرآن وفهموه وتثقفوا منه وعاشوا في وجوده أن يقوموا بتلك الرسالة وأن يؤدوا ما عليهم الله .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

المخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد .

فهذا تقويم السنة الميلادية اقبله ، وجدت دساً فيه وإهانة لدينت
هـ افئساتنا على سنا ﷺ ، وأنا لا أريد شيئاً أكثر من الدفاع وإلقاء شعاع من
النصوء على ما في هذا من عثم .

هذا التقويم الذي أصدرته مؤسسة الأهرام التجارية — وأظنها تتبع
القطاع العلم — في ٢٨ صفر سنة ١٤٠١ هـ أو في ٤ يناير سنة ١٩٨١ م
كنت في ظهر الورقة الأولى ما يأتي

قال محمد ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » (١) .

وقال المسيح عليه السلام : « أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى
مغضبيكم ، باركوا لأعنيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون
إليكم » (٢) .

هذا كلام يحتاج إلى تعليق هاديء ، فأما حديث : « انصر أخاك

(١) من الحديث : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان
مظلوماً أم رأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجره أو تجمع من الظلم فإن ذلك نصره » رواه
البحري في الإكره — باب يمين رجل بصاحبه إنه أخوه ٢٨/٩ ، ٢٩

(٢) انجيل لوقا الإصحاح السادس

ظالما أو مظلوما « فتتمته ما يأتي . » قال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره ؟ قال تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره .

هذا معنى الحديث فجاء الكاتب وأخذ الجزء الأول ، كما يحىء إسان ويقول : « يا أسها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة !!

وأين « وأنتم سكارى ؟

المهم : لا تقربوا الصلاة !!

وبعد أن بتر الحديث وأفهم الناس أن محمدا ﷺ رجل يقول لأنثاه : انصم إلى أهلك معتديا أو معتدى عليه ، قال عن المسيح إنه قال . « أحبا أعداءكم ، أحسبوا إلى مبغضيتكم ، باركوا لاعبيكم ، وصلوا لأهل الدين سيئون إليكم » .

أما أن المسيح قال هذا فليس بكثير على سبى التسامح والمحبة أن يقول هذا ، ولكنه أيضا قال كلاما آخر ، هي الإصحاح العاشر من إنجيل . « متى » يقول : « لا تظنوا أني جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » !!

وفي الإصحاح الثاني عشر من إنجيل « لوقا » يقول : « جئت لألقى النار على الأرض » !!

صاحب مؤسسة الأهرام التجارية أراد أن يوهم الناس فاختار حديثا وبتره على طريقة :

ما قال ربك ويل للألى سكرؤا بل قال ربك ويل للمصلينا

مطلق السكارى والخشاشين ينقل إلى مؤسسة الأهرام التجارية فتقول . محمد يأمر الناس بأن يصموا إلى إخوانهم ظالمين ومظلومين .

هذه واحدة ، في ٦ يناير و ٧ يناير وهو ميلاد السيد المسيح عند الأقطاط جاء الكاتب بأبيات لأحمد شوقي :

وُلد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء
وازدهى الكون بالوليد وضاءت بساه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما به رى من الفجرى الوحود الصياء (١)

هذا كلام صحيح ، ونحن نؤيده ، فإذا أردت أن تتحدث عن ميلاد
محمد ﷺ بعد أن تحدثت عن ميلاد عيسى ﷺ فماذا تقول ؟
كان يمكن أن تنقل عن شوقي ، نقلت له أبياتا في مدح عيسى عليه
الصلاة والسلام انقل من شوقي البيت الأول — حتى — من الهمزية .
وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء (٢)

لا ، لم يقل هذا ، بل قال ما يأتي :

في يوم الاثنين الموافق ٢٣ إبريل سنة ٥٧١م كان مولده — مولد من ؟
الحقد طمع ، ما قسر أن يقول : مولد محمد — كان مولده في بيت أمه
السيدة آمنه بنت وهب بعد وفاة أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، في هذا اليوم
الثاني عشر من ربيع الأول يحتفل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها
بمولده ﷺ .

هذا هو الذى قيل ، نحن نعمو وندعو للعفو ، لكن نقول للدولة : من
أخطأ يؤدب ، ولا ينبغي أن يترك مبشر يشتغل بمسطق السكرى أو مسطق
الحشاشين ليتناول صاحب الرسالة ودين الأمة بهذه الطريقة .

إننا أهل سماحة ، وقلب : إننى — فقط — أدفع عن بيئنا وعن أمتنا ،
وأوضح أننا نكره العدوان ، ولكننا نرفض من الآخرين أن يستغلوا طيبتنا في
الليل منا وإهانة ديننا ونبينا عليه الصلاة والسلام ، وسنتظر ما يصنعه
المسؤولون مع مؤسسة الأهرام التجارية التى رأت أن تشتعل بالتبشير على
آخر الزمان .

(١) الشوئيات : ٢٧/١ .

(٢) الشوئيات : ٣٢/١ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
لتى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إلك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر باب التوبة من شر ما عمل ومن شر عالم يعمل : ٨١/٨ .

عرض موجز لمسيرة الدعوة الإسلامية خلال أربعة عشر قرناً

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فإن العقل الإنساني يوضح مع طول الدراسة وكثرة التجربة ، والإيمان بالله يعمو ويستوى — أيضاً — مع طول الدراسة ، وكثرة التجربة ، وملاحظة القدر الأعلى فيما يكون من شئون الناس ، وفيما يقع لهم من ضحك أو بكاء ، ومن هزيمة أو نصر ، ومن رفعة أو صعة .

ومن هنا أمرنا رب العالمين أن ندرس التاريخ ، وأن نستخلص العبر منه ، وأن ننتفع بما كان من أحوال الناس وبما كان من سس الله في هذه الأحوال ، وذلك حتى يوضح العقل والإيمان معاً ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

وعندما قرعت مسامعي أبياء الوحدة المرتقبة بين « مصر » و « ليبيا » شعرت بشيء من الرضا ، ولكنني في الوقت نفسه قلت : ينبغي أن نعود إلى ماضى أمنا الطويل نقف بإرائه وجهها لوحه ، نتفرس في

ملاحمه ، وتعمق في معانيه ، وبرجع منه بعضات تصون غدنا ، ونحلو مستقبلنا ، وتسدد خطانا إلى العاية المشودة حتى لا نرتجل تصرفا نندم عليه ، وحتى لا يعيث بنا الأعداء كما عبثوا بنا قديما .

وفي ساعة من طواف العقل بالماضي وجدت أن هذا الدين الذي نعتفه سلخ من عمره — المديد إن شاء الله — أربعة عشر قرنا ، وأن هذه القرون الأربعة عشر يمكن أن تقسم على خمس مراحل متميزة ، وبداية لا يمكن لبشر أن يتحدث عن الإسلام في لحظة ، ولكسى أتابع خطأ بيانيا يمثل الانحدار والارتفاع في هذه المراحل الخمس لكي نعود على عمل بعد سياحة سريعة إلى حاضرها لنواجه يومنا وغدنا ببصيرة مفتوحة وفكر مستير .

إن المراحل الخمس التي مرَّ بها تاريخنا خلال أربعة عشر قرنا يمكن أن توحز في :

أولا : عصر النبوة والخلافة الراشدة .

ثانيا : عصر الدولة الأموية .

ثالثا : عصر الدولة العباسية .

رابعا : عصر الدولة العثمانية .

خامسا : عصر الانحلال والتمزق والفرقة والتقسيم الذي بدأ مد المحوم الاستعماري على الدولة التركية وإسقاط الخلافة العثمانية ، وتحويل المسلمين في أرجاء العالم إلى أمة ممزقة لا يحوز أن تحتمع على دينها ولا أن يرتفع لإسلامها علم واحد .

هذه هي المراحل الخمس في تاريخنا الطويل .

فإذا نظرت إلى عصر النبوة وجدت أن محمداً عليه الصلاة والسلام — كما قلت بإيجاز — رباه الله جلَّ جلاله ليرى العرب به ، ويرى العرب به ليرى هم الناس أجمعين !!

فامستطاع خلال حياة الرسالة — التي لا تتجاوز ثلاثا وعشرين سنة — أن يوحد الأمة لعربية وكانت قبائل نافرة وطبعا شرسة غليظة وقوى مبعثرة هنا وهناك .

استطاع هذا النبي الكريم — بوحي الله ، وإشراف النبوة ، وبصفاء الرسالة — أن يجمع العرب قبل أن يموت فما تركهم إلا وهم أمة : الحق روحها ، والإخلاص هو الذي يدور في جهازها العصبى ، والانطلاق لله هو الذي يحدوها تتحرك به أو تسكن ، فجاءت دولة الخلافة ، وكانت دولة التكوين للنواة الإسلامية ، دولة الصراع مع الباطل ، دولة التطبيق لمبادئ الإسلام وتعاليمه .

ويلاحظ أن دولة الخلافة منحت المسلمين حقوقا رحمة ، وفهم المسلمون — لأول مرة في تاريخ الدنيا — أن الحاكم — بلعة عصرها — موظف عمومي ، أجير لباس ، يكدرح هم ، ويأخذ مرتبه بطير عرق جبيه الذي يتصبب وهو يخدم الأمة ويسعى في مصالحها ، وليس له حق مقدس ، وليس له حق السمع والطاعة إلا فيما يرضى الله .

وعرف عن دولة الخلافة الراشدة أنها وفرت للعرد امتداده المطلق ، وعزته الموفرة ، فكان الأمير يقول للناس : « أيها الناس : إلى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » (١) .

وعُرف في تاريخ الدولة الراشدة أن المال كان لمصلحة الأمة جمعاء ، فما توافر في بيت ليحتكر أو يستبد به أحد ، وما ضاعت أسرة أو قبيلة من الناس وفي الأمة مال موفور .

كانت الأمة الإسلامية تمثل الرشد السياسى في العالم يومئذ ، ولم يعرف في تاريخ الأولين والآخرين عدل سياسى أو اجتماعى كالعدل الذى توافر للأفراد يومئذ !!

إلا أن شيئا حدث يعتبره المؤرخون الفقة عيبا للجماهير ، إن الجماهير — أحيانا — تخطيء في استغلال الحريات الكثيرة التى تمنحها ، وربما أسرفت في استعمال هذه الحرية إلى حد يسئ إليها ، وبعض الملاحظين

(١) جزء من خطبة لأبي بكر رضى الله عنه رواها ابن اسحاق بإسناد صحيح . كنا في البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٢٠١ .

يقول : إن العمال في « اكلترا » يستعبدون السعة والمرح والعدالة والأمانة ووفرة الكرامة البشرية هناك لإملاء مطالب شخصية .

قد يكون ذلك صحيحاً أو خطأ ، ليس هذا شأنى ولا هو موضوعى ، إنما الذى أوجه النظر إليه أن جماهير المسلمين فى عهد الخلافة الراشدة غُتت من الحرية حتى بطرت ، وبلغ من حريتها أنها رحفت على المدينة المنورة يريد أن تناقش الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه بعض تصرفات نسبت إليه ، وأنها كانت هذه التصرفات فما كانت تبيح فتنة ولا تسبب ثورة ، ولكن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة راشداً ، ما فكر فى أن يستغل عصبته ولا أن يستثير أحبابه وأنصاره وأقاربه لضرب الثورة — أو بتعبير العصر الحديث لإطلاق الرصاص على المتظاهرين — لا ، كان الرجل أعف نفساً ، وأشرف طعماً ، وأشدّ تقديرًا لحرريات الجماهير مما يتصور الناس ، فقتل بهذه السياسة (١) .

وحاء بعده على بن أبى طالب رضى الله عنه فشغب عليه بعض المنتطعين من أتباع الإسلام أو هم يدعون التقوى والتوغل فى العبادة من الخوارج وشباههم ، فكانت فترة حكمه التى قضاها فى الخلافة — وهى خمس سنوات — فترة إعياء نفسى ، وإرهاق عصبى ، وتعبد موصول ، وكان أصداق ما قيل فى على بن أبى طالب وهو يذهب إلى ربه بعد أن قُتل غدرا البيت الذى تمثلت به السيدة عائشة رضى الله عنها عندما بلغها مقتل على :

فألفت عصاها واستقر بها الثوى كما قرَّ غيباً بالإياب المسافر (٢)

(١) فقد رووا أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال للنسبى عنه فى الدار من المهاجرين والأنصار — وكانوا قريباً من سبعمائة ، منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومرران وأبو هريرة ومخلف من مواليه ، ونو تركهم لنعوه فقتل لهم : أقسم على من لى عليه حق أن يكف يده وأن ينطلق إلى منزله ، وقال لرفيقه : من أعمد سيفه فهو حر !! (النهاية والنهاية لابن كثير ٠ ج ٧ ص ١٨١)

(٢) قال ابن برب : هذا البيت لعبد ربه السلمى ، ويقال لسليم بن ثمامة الحمصى (لسان العرب ج ١٥ ص ٦٥)

استراح الرجل كما يستريح اسافر المتعب عندما يصل إلى بيته ويلقى
رحاله ويريد أن يطمئن إلى يومه قبل غده .

المهم أن الدولة انتهت وجاء بعدها حكم سياسي استبدادي ، وهو
ما يقع عالما في أعقاب الحريات الكثيرة التي لا تحسن الجماهير استغلالها ،
فجاء الحكم الأموي ، وتميز هذا الحكم بأمور نحسب له وأمر نحسب
عليه .

فأما ما يحسب له : فقد مضى في طريق التحرير والفتح ، واستطاع أن
يمد رقعة الإسلام شرقا وغربا إلى أبعد ما وصلت إليه تقريبا ، وصل إلى
« الصين » شرق ، وإلى « فرنسا » غربا ، وتوغل في « فرنسا » وفي
جنوب « سويسرا » ، وتميزت الدولة الأموية أيضا بأن الطابع العربي كان
واحتها وصيغتها .

وأما ما يحسب عليه : فقد وقع نوع من الاستبداد السياسي ، ومع
الاستبداد السياسي حدثت أخطاء أطاحت بالحكم الأموي ، ذلك أن طبيعة
الاستبداد السياسي حصر الحكم في أسرة ، وحصر الملك في أفراد معينين ،
وبناء طبقات أو بيوتات تعيش على هامش هذا الملك العضوض ، ثم
الافتيات على الناس في الأموال وفي الحريات ، ثم التكرار للكفايات الكبيرة
عندما تظهر هنا وهناك ، ثم انضم إلى هذا أن الواجهة العربية تجهمت
للأحساس الأخرى ، وهذا خطأ ، فإن العروبة في الإسلام ليست قرينة
جس ، ولا عرقا دمويا يصل بين جماعة من الخلق ، إن العروبة في الإسلام
لساناً أو لغة مهي وعاء الوحي ، فمن أجاد اللغة ودخل في الدين فهو عربي
مسلم ولو كان أبوه أمريكيا .

هذه التصرفات أنشأت حالة من البلبلة ، فإن كبار القادة لم يجدوا
التكريم الذي ينبغي أن يوفر لهم ، ف « محمد بن القاسم » (١) — شاب في

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي : فاتح « السند » ووالده من كبار القادة ، ومن رجال
الدهر في العصر المرواني ، ويعتبر حمزة بن يحيى الحمصي بقوله :
« قداد الحيوث لسبع عشرة حجة »

العشرين من عمره — قاد جيشا فتح به « السد » — لو أن هذا القائد في بلد كفرنسا لجعلته مثل « نابليون » ، لو أنه في إنجلترا لجعلته مثل « ولسن » ولكنه في بلد تأكل الكماليات أو في جو يحتقر العقريات ، فقال الرجل متمثلا وهو يعذب :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريبه وسداد ثغرا !!
وفاتح الأندلس رجع مهانا (١) !!

لم ؟ لأن الحكم الاستبدادي يعطى منافع من حوله ، ويرمى بالمعارم على الآخرين ، ولا يكرم إلا من يخضع له أو يجعل دمه أجرة للتافهين الذين يحكمون .

المهم أن الدولة الأموية امتازت بخيرها وشرها ، وجاءت الدولة العباسية ، وهذه هي المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة تحتاج إلى شيء من الدراسة ، لماذا ؟ لأن هذه الدولة فتحت أبواب الترجمة من أقطار الدنيا ، واصلاح المسلمين على ثقافات الأجانب وعلى أنواع المعرفة التي تشيع بين الناس.. شيء مطلوب ولكن في حدود وإلى نطاق معين لا يعدوه .

إن الإسلام دين الفطرة السليمة ، ودين العقل الراشد ، وهو بهذه الطبيعة الفطرية المكربة مفتوح لجميع الثقافات ومفتوح أمام جميع الحضارات والأجناس ، ولكن على أساس التمييز والنقد وميز الصواب

= كان أبوه وإلى البصرة للحجاج ، وولى الحجاج عمداً لفر السد في أيام الوليد بن عبد الملك ، واسطت يده في البلاد فتحاً وتنظيماً إلى أن كان في « ملتان » وجاءته الأنباء بوقعة الحجاج ثم الوليد بن عبد الملك ، وولاية سليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان شديد التقمة على الحجاج وعماله ، مما ولى بعد موت الحجاج صمد إلى أقربائه وكتابه وعماله فكهم ، وعزل محمد بن القاسم ، وأمر بحمله من السد مقبلاً ، فحمل إلى « واسط » وعذب بها ، فقال شعراً يعاتب به بني مروان ، فأمر سليمان بإطلاقه فأطلق ، ثم قتله معاوية بن يزيد بن المهلب ، وقيل : مات في العذاب (الأعلام : ٣٣٣/٦)

(١) موسى بن نصير ، عزله سليمان بن الوليد ، فاصرف إلى وادي القرى بالحجاز وأقام في حالة غير مرضية إلى أن توفي في سنة ٩٧ هـ وكان شجاعاً عاقلاً كريماً تقياً ، لم يهرم له جيش قط ، أما سياسته في البلاد التي تم له فتحها فكانت قائمة على إطلاق الحرية الدينية لأهلها وإبقاء أملاكهم وقصائهم في أيديهم (الأعلام : ٣٣٠/٧)

خطب الغرالي — المجلد الثامن

من الخطأ ، على أساس ألا تطرح ما عندك وتعجب بما عند غيرك وإن كان حرافة .

والذى حدث أن فلسفة اليونان والشرىان وسخافات الرومان ومن إليهم من أهل الأرض دخلت بلادنا واحتلطت مع الثقافة الإسلامية اختلاطا أساء إليها .

ثم وقعت الحصارا الإسلامية فريسة بين نوعين من التصرفات : نوع المنحليين الدين يبحثون عن الشهوات واللدات .

ونوع المتزمتين المعزولين ممن تركوا الدنيا تسير وفق هواها وهم المتصوفون الذين أحزنوا جانبا فى صوامعهم أو بيوتهم وأخذوا يعبدون الله جانبا !!

وانتهزت الصليبية العالمية المتربصة هذه الميوعة العسكرية وهذا الاضطراب النفسى ، وهجمت على بلاد الإسلام هجوما اكتسبت أوروبا كلها فى فرقه وأسهمت جميعها فى إمداده بالقوى المالية والعسكرية التى تعين عليه ، فكان الإنكلير إلى جانب الفرنسيين إلى جانب الإسبان والطلليان إلى جانب النمساويين ، كان هؤلاء جميعا فى صف واحد ، وانطلق هذا السيل المحنون يولى وجهه شطر بلادنا ، ويحاول — خلال مائتى سنة — أن يدمر ما أمامه وأن يسقط أعلام التوحيد تحت منابك حيله !! وانتهت الحروب بعد كركر وفر وهرايم وانتصارات بأن خسرت أوروبا هذه الجولة وعادت كسيرة النفس مقهورة لا تلوى على شيء .

وكان ينبغى أن يفكر المسلمون يومئذ ، وأن يقفوا على أعتاب الماضى ليدرخوا ما الذى حدث ، ما الذى سبب لهم تلك النكبات ، ما الذى أنقذهم أخيرا من هذه الورطات ، إلا أن العرب كانوا فى حال من البلبلة والهران جعلهم لا يحسنون التصرف ، فتهض الجنس التركى بالخلافة الإسلامية ، وأشرف على مستقبل المسلمين فى القارات الثلاث المعمورة يومئذ : آسيا وإفريقيا وأوروبا .

وهنا نجد أنفسنا أمام المرحلة الرابعة من التاريخ الإسلامى ، هذه

المرحلة تميزت بأمور خطيرة ، فإن الحس الحاكم جس تركى نعصب لتركيبته لغة ودما ، وبذلك وقعت فحوة غائرة عميقة بين الأتراك وبين الإسلام والحس العربى والأجناس الأخرى . لم ؟ لأن الإسلام عربى فى مصادره التربوية والتوجيهية والاجتماعية والسياسية ، القرآن عربى ولا يمكن أن يترك ، والسنة عربية لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عربى ، ومصادر الثقافة الإسلامية عربية ، وأحد أمرين : إما أن ينسلخ القائد الذى يقود المسلمين من تركيبته ليكون عربيا ويقود العرب ويقود الإسلام والمسلمين ، وإما أن يتحلى عن القيادة للقادرين عليها من العرب ، وهذا ما لم يفعله الترك ، ولذلك حدث ما يأتى :

بدأ المسلمون فى أنحاء الأرض يضعفون ماديا وأديبا ، وبدأت مصاييح الثقافة تطعمى فى مدائر الإسلام وقراه ، وفى الوقت الذى أخذ فيه عصر الإحياء يصعد بالأوربيين فى سُلْم الترقى كان الحكم التركى يهبط بالمسلمين فى سُلْم التردى ، وبعدت مسافة الحصار بين المسلمين من ناحية وبين الأوربيين من ناحية .

صحيح أن الأتراك كانوا مسلمين متعصين للدين ، يحبونه ويسفكون دمهم من أجله ، ولكن العاطفة وحدها لا تكفى فى بصرة عقيدة ولا فى إقامة دولة ولا فى بناء حضارة ..

لقد رووا أن جنديا تركيا كان ينام يوماء فصحا فى جوف الليل فوجد قدميه تتجهان إلى نافذة فيها مصحف ، ففزع الرجل ووقف طول الليل على قدميه شاهراً سيفه يقول : مصحف شريف !

الرجل خاف على نفسه من الله أو ظن أن اتجاه أقدامه إلى المصحف كهر !

فكانت النتيجة أن استيقظ طول الليل وترجم عن حبه أو عن إكرامه للمصحف بهذا الأسلوب ، كان الأتراك متدينين ، وعندما أعيد الأذان إلى بلادهم من بضع سين كانوا ييكون فى الشوارع ! لكن العاطفة الدينية لا تكفى ، بل يجب مع العاطفة أن يكون هناك عقل نير وعلم واسع ونخربة

حصيفة وتمكن من الدنيا راسح ، يحب أن يكون مع العاطفة ما يمين على محاحها .

وما يستطيع الترك — وهم منعصون لحسهم ولغتهم — أن يكونوا القادة الحقيقيين للعالم الإسلامى ، وكان الأوربيون يدرسون هزائمهم ، فلما هجموا على الأتراك وعلى العالم الإسلامى كله كانت الكفة فى جانب الهاجرين .

حقاً استمات الأتراك وغير الأتراك من الأجاس المحكومة فى الدفاع وقتل كثيرون ..

من مائة وأربعين سنة قرر الحاكم الفرنسى فى « الجزائر » أن يستولى على أحمل مسجد فى العاصمة — مسجد « كيشاوة » (١) — وأن يحوله إلى كنيسة ، وفعلوا تحرك سلاح المدفعية الفرنسى ومعه سلاح المهدمين وهجما على المسجد ، وقتل وراء الأبواب نحو أربعة آلاف عربى (٢) وهم يقاومون هذا الجنون من التعصب والحقد !! ولكن تمت الهزيمة وتحول المسجد إلى كنيسة ، ولم يستطيع الأتراك أن يصنعوا شيئا ، وكل ما حدث أنه بعد استقلال الجزائر حول المسلمون الكنيسة مرة أخرى إلى مسجد ، هذا كل ما أمكن صنعه .

لكن لذى حدث أن المهجوم الاستعمارى فى هذه المرحلة الخامسة والأخيرة استطاع أن ينتهى إلى رمى الخلافة فى البحر وإسقاط علم الإسلام فى المجال السياسى العالمى ، وتحويل المسلمين إلى أمة يتيمة ليست لها أبوة ثقافية ولا عسكرية ولا حكومية تحمل آلام الإسلام أو تترجم عن مآربه ورعائيه .

(١) يقوم هذا المسجد المشهور فى كيشاوة من أحياء مدينة الجزائر ويرجع تأسيسه إلى سنة ١٦١٢/١٠٢١ ثم أعاد ترميمه وأكمله النابى حسن سنة ١٧٩٤/١٢٠٩ (المسجد لحسين مؤسس ص ٢٤٣)

(٢) عند هذه العبارة لم يتألمك الشيخ الجليل أن يكى ، وحق لإنسان مشغول القلب بالإسلام وقصياه أن يكى ، والعجيب أن المسلمين الذين قتل هم هذا العدد — وهو قليل من كثير — يبعثون لطلب ابدات والملاهى .

أمسور يصحك اسفهاء مها ويكى عندها اخير البيب

جاء عصر المرحلة الخامسة — عصر التمزيق — وهذا العصر كتب فيه على المسلمين أن يعيشوا في بلادهم حيث كانوا لكن على أساس أن لا يكون الرباط الإسلامي منظورا إليه في تأسيس قرابة مشتركة بينهم وبين غيرهم !! المسلم في « الفلين » إذا دُبح يُدبح ، من ييكي له ؟ لا أحد إلا بعض الأفراد الذين في نفوسهم عاطفة وفي قلوبهم بقايا من الشعور بالأخوة الإسلامية ومن الإحساس بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » (١) .

المرحلة الخامسة تتمير بأن المسلم حيث كان يدرس تاريخ بلده دون أن يصل هذا التاريخ بالتاريخ الإسلامي ، فالمسلمون في « نيجيريا » — وفي بيجيريا أربعون مليوناً من المسلمين — قد يدرسون شئون بلدهم ، فإذا درسوا الجزيرة العربية — إذا حدث أن درسوها — فإنهم يدرسونها كما يدرسون الحرائر البريطانية ، أما أنها مست محمد عليه الصلاة والسلام ومصلر الإسلام وأساس الرباط الذي يجمع مسلمي نيجيريا بمسلمي مصر مسلمي السعودية بمسلمي الهند فلا !!

في هذا العصر — عصر التمزيق — يسمح للفلسفات والمبادئ الفكرية أن تنتعش وأن تنتشر وأن تحد من يدعو لها ، ولكن لا يسمح للكيان الإسلامي أن يتلاقى .

أشبه المسلمون رجلا صرب بالارم وشئت أولاده في بلاد كثيرة وقيل لكل منهم : احذر أن تلتقي بأحيك ، بل قيل لكل منهم : إذا خلوت — حيث كنت — أن تشير إلى الماضي قتلتك !! هذه سياسة أوربا الاستعمارية نحو العالم العربي والإسلامي .

بعد هذه المراحل الخمس أحب أن أذكر حقيقة دينية : إن الأمة الإسلامية قد تمرص ولكنها لا تموت ، إن الأمة الإسلامية قد تبلى ولكنها

(١) رواه البخاري في الأدب — باب رحمة الناس واليهام ١٢/٨ ومسلم في البر — باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٠/٨ .

مُحَمَّد ، وفعلًا مع أودية الموت التي وجد المسلمون أنفسهم داخلها ، ومع أسباب التلف التي أحاطت بهم من كل ناحية كان هناك من يقاوم مجبروت هذا الرحم: بالقدم ، باللسان بالترية بالتوجيه ، بالحكم ، بكل ما لديه من طاقة ، ولم يمت العملاق ، لم يمت الإسلام ، بل الذين يرقبون الأحداث من الأوربيين — على اختلاف ألوانهم — يعلمون أن العالم الإسلامي يوشك أن يتمخض عن هزيمة كبيرة ، وأن المسلمين يشهون جنوة نار تحت تراب ، لا بد أن يمسح هذا التراب ثم تكشف الحدوة عن دهها وحرارتها وتألقها .

الأمة الإسلامية بدأت تتعش ، ومظاهر الوحدة التي تبدأ ، ومرحلة الوحدة التي لمحا بشائرها الآن نستقلها بحفاوة لأنه لا معنى لبقاء الخطوط التي وصعها المستعمرون من إنكليز وفرنسيين وطبيان وغيرهم ، لا معنى لبقاء هذه لفرقة .

لكن يسعى أن نعلم أنفسنا أن نبض الوحدة بين العرب وبين المسلمين كلهم هو الدير ، وأن أعداءنا سوف يستमितون ليصلوا إلى أحد أمرين : إما أن يقتلوا هذه الوحدة فلا توجد أبدا ، وإما أن يجعلوها وحدة بلا دين فتتوشت تنقائيا كما ماتت الوحدة بين مصر وسوريا ، لأن بعض السوريين حرص أن يكون الإسلام بعيدا عن الوحدة ، فلما وضع دستور الوحدة لم يحىء في نصوصه ما يشير إلى أن الإسلام دين الدولة !!

أما الآن فنحن في مصر قررنا أن الإسلام دين الدولة ، وقررنا إلى جانب ذلك أن الإسلام المصدر الرئيسي للتشريع ، وإخواننا في ليبيا قرروا كذلك أن يكون الإسلام دينا للدولة ، وتعاونوا مع بعض الفقهاء والمفكرين الإسلاميين أن يجعلوا الشريعة قانونا ، وبدأ العمل العلمي في هذا .

إذن نحن نستبشر أن توجد وحدة في إطار الإسلام ، تتبع من روحه ، وتتدفق إلى غايته ، وتلف الجماهير حول راية التوحيد وهي مطمئنة إلى وفائها وبذها وتضحيتها .

يجب أن نرقب بدهاء وبصيرة ويقظه دسائس أعداء الإسلام — وما أكثرهم — إنهم سيمتيتون إما لمنع الوحدة أو لجعلها تولد سقطا أو

جنينا ميتا بأن تكون بعيدة عن الإسلام .

يجب أن نفرد هؤلاء الوحوش عن وحدتنا ، عن تراثنا ، عن ماضينا ومحاضرنا ، عن شرفنا في الدنيا ووجهتنا عند الله .

إن الإسلام هو ديننا الذي نبيصُ به وجوها يوم أن نلقى ربنا ، وهو أيضا مصدر قوتنا عندما نلقى أعداءنا في هذه الأرض ، والعصر عصر العقائد المتناحرة ، يخدعكم ويكذب عليكم من يقول : إن النصرانية تركت نفسها ، إن اليهودية تركت ذاتها ، إن الهلوكية تحردت أو ثمرت على تعاليمها .

إن هذا العصر هو عصر العقائد ، استيقظت اليهودية بكل ما لديها من أحقاد تريخية وخرافات دينية ، واستيقظت كذلك جميع النزعات والديانات الأخرى .

فالقول بأن الإسلام يضعف في وقت يقوى فيه غيره ، أو يحى جانبها فلا يتولى الزمام بينما تولت الزمام في أجاس الأرض الأخرى عقائدها وأديانها ، فهذا مالا يسمع ومالا يقبل ، واحذروا على ديسكم الخطافين من حملة الأقلام والدسامين من رجال السياسة الذين يحاولون أن يجعلوا من وحدتنا وحدة ميتة بإبعادها عن الإسلام وعقائده وشرائعه .

ديننا إيمان ونظام ، عبادة ومعاملة ، عقيدة وشرعة ، بتعبير العصر الحديث : دين ودولة ، وعلى هذا سرنا ، ونحن ندعو الله أن يبارك الخطى الطيبة التي بدأت .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى . ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : وأنا جالس هنا استمعت إلى القرآن المداع ، وأظنه مذاعا
من الاسكندرية لأنني أظن الخطبة هناك ، استغرقت موقف المسلمين من
كتابهم ، القارئ صوته جيد وله استعراضات فنية واضحة ، المستمعون ما
أظن أن المعالي حطرت بياهم ، لأنني عندما استمعت إلى قوله تعالى : ﴿ كل
من عليها فإن . ويقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن :
٢٦ ، ٢٧] .

جرى خاطري في هذه الدني كيف أن خصرتها ستجف ، وأن
حركتها ستهدم ، وأن عمرها سيخرب ، وأن ستارة ستنهى الرواية لطويلة
العريضة بكل ما فيها من ضحك وبكاء ، وفرح وحر ، ويحتكم بعد ذلك
النشر إلى رهم ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : ٧]

لكن هذا الخاطر الذي مر في طارده وطواه صوت الناس الذين
يستمعون لأنه صوت محنون ، كانوا يحيون القارئ طبعاً ، أما المعنى فلا .

لو أن إنساناً عبّر عن المعنى بصوت لتأوه من الألم ، لأن كون الموت
يعلو على الحياة ويمض أعراسها ويحوها إلى مآتم مسألة محزنة . لكن
لا تأوه .

يجب على أمتنا أن تغير موقفها من القرآن ، القرآن ليس كتاب أعان
يتلوى القارئ به ويطرب المستمع إلى نغماته وترايمه ، القرآن لغز هذا

نزل ، القرآن كتاب حياة ، الكتاب الذى نقرؤه على الموتى يقول الله فيه ﴿ لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ [يس : ٧٠] .
وأخير ، أيها الإخوة ، فإن لى رجاء أبسطه إلى كل إنسان منكم ، إن
الحب فى الله عاطفة يباركها رب العالمين ، وفى الحديث الشريف :
« ما تحب اثنان فى الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حبا
لصاحبه » (١) .

وأنا أعرف أن الله سترى فحعل ناسا كثيرين يحبوننى ، لكننى أرجو أن
يخففى تقبيل اليد من هذا المسجد ، أرجو بإلحاح ألا تقبل يد ، أرجو أن
شعل بحم الصلاة ، أرجو أن يمتنع تقبيل اليد ، لأننى أتقدم بهذا الرجاء ولى
مُل أن ينصده كل مسلم فى هذا المسجد ، فإن تقبيل اليد تحوّل إلى دلالة
أكرهها ويكرهها المسلمون ، ليس فى ديننا كهانة ولا تسلط على الناس
بأى معنى من المعانى ، ثم ما يعرف أحد منا ما مصيره عند ربه ولا
ما مكانه عنده ، فنرجو أن ينتهى هذا التقليد

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دليانا
الذى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (٢) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه كذا فى الجامع
الصغير وروى له بالصحة . وقال فى صحيح الجامع الصغير (٥٥٩٤) : صحيح . ورواه أيضا
الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى والبرار بسحوه ورجال أبى يعلى والبرار رجال الصحيح غير مبارك بن
فضالة وقد وثقه غير واحد على ضعف فيه كذا فى المجمع ٢٧٦/١٠ .

(٢) رواه مسلم فى الذكر . باب التوعد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

حركة الأرنداد بين الماضي والحاضر

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٢/١٢/٨ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين

أما بعد .

ففي بدء الدعوة إلى الإسلام كان الدين يدخلون في هذا الدين يعتنقونه
مخلصين ، وتشرح صدورهم به ، فيتحملون من أجله الأذى والتعب ،
ولذلك لم يكن في مكة نفاق .

عندما بدأت الدعوة إلى الإسلام كان الناس أحد رجلين : إما رجل
آمن بالله فهو يتحمل في سبيل إيمانه عربة الروح ونعب الذين تنكروا له
وضاقوا به ، أو رجل كافر يحارب الإسلام في صراحة ويضع العوائق في
طريقه علانية ، ومن هنا يقول التاريخ : لم يكن في مكة نفاق .

كان الناس إما مؤمن صريح أو كافر صريح ، فلما انتقل الإسلام من
مكة إلى المدينة دخل في مرحلة أخرى ، ربما وجد ذوو الأطماع الذين
يصبون المال أو الوجاهة أو المظاهر ، ربما وجدوا أنفسهم مسوقين إلى أن
يلتحقوا بهذا المركب المتحرك ، وربما رينت لهم مآربهم أن مغنم الدنيا في
الحاق به .

هؤلاء الدين التحقوا — وإيمانهم مرعوم أو واهس — أخرجتهم تعاليم الإسلام ، ذلك لأنهم تظاهروا بالإيمان وقلوبهم منه خاوية ، لكن الإيمان لا يدع أصحابه يتسبون بأفواههم ويتمردون عليه بأعمالهم ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت : ٢ ، ٣] .

وكان الاختبار الذي منحص الفوس وسبر غورها ، وكشف المعادل وبين زيفها ، كان ذلك ما تضمنه الإسلام من تعاليم كثيرة ، فإن شعب الإيمان شتى ، والمؤمن عندما ينسب إلى الدين فإنه يُكلف بين الحين والحين أن يتردد على المسجد للصلاة ، يُكلف بين الحين والحين أن يدفع مالا يطلب منه زكاة أو نفقة ..

هذه التكاليف كانت بلاءً شديداً على ضعاف الإيمان ، فالمافقون الذين صووا قلوبهم على الكفر — وإن أظهروا الإسلام — كان يضايقهم أن يتفقدوا بين صفوف المصلين فلا يوجدوا ، كانوا يتكاسلون عن الذهاب إلى المسجد للصلاة الجامعة ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وإذا كلفوا بشفقة فدفعوها اعتبروا ما دفعوه عرامة موحجة ، ورأوا أنفسهم مضطرين إلى دفعها فما ينتظرون عليها ثوابا ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بما يدخر عنده ، إنهم مكرهون ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرها ويترهبس بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ [التوبة : ٩٨] .

هذا النوع من الناس — من المفاقين — كان يحرحهم أمران شديداً جدنا : الأمر الأول : الجهاد في سبيل الله ، والأمر الثاني : الحكم بما أمر الله .

فأما الأمر الأول : فإن الجهاد فريضة لتأمين الدعوة ، وحماية المجتمع ، وكسر عدوان الطاعين ، ورفع رايه التوحيد ، هذا الجهاد — وفيه مشقات

كثيرة ، وتعريض النفس وادل لصبيح — ما يرضى به أو يسرع إليه إلا مؤمن واثق من ربه مُلقٍ قواده إليه ، ولذلك يقول جل شأنه في وصف المؤمنين والمنافقين : ﴿ لا يستثنى منكم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستثنى منكم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : ٤٤ ، ٤٥] .

وكما كشف الجهاد عن طوائف المنافقين فإن إلزام الناس بشرائع الله كان يجرح القلوب الخادعة والأفئدة المسافقة ، ويكشف ضعف صلتها بالإسلام ، ولذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

انكشفت ملامح الففاق عن طريق الوحي تارة ، وعن طريق التكاييف التي حددت مواقف المؤمنين والكافرين تارة أخرى ، وانتهى أمر المنافقين على عهد النبي ﷺ إلى واحد من أمرين : إما أن يؤمنوا إيماناً صريحاً ، وإما أن يتواروا فيما هم فيه فلا يشعر بهم أحد .

لكن بعد أن لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى انفجر الضلال انفجاراً رهيباً في المجتمع الإسلامي ، وكشف الكبر عن وجهه صراحة إذ ارتد عدد كثير من الناس ، وأحد لارتداد صورة من صورتين : إما الرفض الصريح للإسلام ، وإما القبول الخفي للإسلام ، والرفض للصيغة العملية التي تربط بين الناس وبين الدولة المسلمة وهي الزكاة مثلاً .

تعرض الإسلام بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام لمحنة قاسية ، غير أن الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين والكتائب المؤمنة برهائم والرجال الذين أحلصوا قلوبهم لله وأسلموا وحوهم إليه هؤلاء جميعاً اتفموا حول أي بكر الصديق وقاتلوا المرتدين سواء كان الارتداد دعوة إلى الشرك أو رفضاً لدفع الزكاة .

أريد أن أشرح هنا شيئاً يعرف منه الارتداد ، لأن موضوعاً الذي

تدور عيه اليوم ، ونريد أن نشرحه ، ونحدد دائرته ، وبين مواقف الناس
مه ، ونحاكم المسلمين وغير المسلمين إليه هو الارتداد .

ما هو الارتداد ؟

إن أحدا يبخل بالزكاة ، لأنه بخيل ، لأن في نفسه كزازة (١) ، ولكنه
إذا أكره على دفعها دفعها ويده ترتعش أو ونفسه مضطربة ، ولكنه يدفعها
ويعزى نفسه بشتى الأمور يمكن أن يقبل إسلامه ، ولو أنه لم يدفعها وفر
مها وتظاهر بالإسلام يمكن أن يوصف بأنه مسلم مريض القلب أو مسلم
مصحف السلوك ..

أما أن يقول أحد الناس : لا أدفع الزكاة ، ولن أدفعها ، ولن أسمع
لأحد أن يطالبها مني ، وسأوعز إلى الآخرين ألا يدفعوها . فمعنى ذلك أن
هذا الرفض تحول إلى عداوة مكشوفة حاسمة للوحى الإلهى والأمر الإلهى ،
وأن هذا الإنسان احتار في وضع النهار موقفه وأراد أن يجعل هذا الموقف
وصفا اجتماعيا مقررًا ..

ومن هنا فلا كلام في أنه مرتد ، ارتد عن الإسلام ولو قال إنه
موحد ، ما دام قد أعلن خدعه لريقة الإسلام في ركن من أركانه أو في
ما هو معلوم من الدين بالضرورة فمعنى هذا أنه كفر كفرا تاما .

ولأصرب المثل من عالمنا الخالى : لو أن امرأة كاتبة قالت : أنا أرفض أن
يكون الرجل أكثر حظا من المرأة في الميراث، إن هذا ظلم ، إن هذا تحقير
للمرأة ، إن هذا نوع من الرجعية في رسم أوضاع الأسرة 11

هذا كلام لا يقبل بته أن يكون معه إيمان ، ولا يمكن أبدا أن نعد
صاحبه مسلمة ، هي هنا مرتدة ييقين .

لو أن رجلا من الناس رسم موقفه في الحياة على أنه لا يمكن أن نحرّم
الخمر ، ولا يمكن أن يحرم الزنا ، ولا يمكن أن تقطع يد السارق ،
ولا يمكن أن يجلد القاذف ، ولا يمكن كذا وكذا ..

(١) رجل كثر اليدين - بخيل

هذا النوع من الناس — بموقفه هذا — أعلر ييقن أنه أسلح عن الإسلام ، ورمى ربقته من عنقه ، وأصبح لا دين له ولو قال فى مجاحة : أنا مسلم . إنه كاذب كاذب ، هو مرند ييقن ، اتفق العلماء على أن إنكار معلوم من الدين بالضرورة كفر بالله واليوم الآخر .

قصة الارتداد ترجع بنا إلى الورا فى التاريخ الإسلامى كى نعرف موقف الإسلام من المرتدين ، فإن بعض الناس — فى عصرنا هذا — يريد أن يجعل من الارتداد لونا من حرية الرأى ، يريد أن يجعل من الارتداد نوعا من التفكير الذى يسفى أن يأحد حماة من القانون أو حماة من المجتمع ، وبالتلى يريد أن يمرض نفسه على أنه شىء لا ينبغى أن يستغرب ولا أن يعترض !!

قلت : إن مكة ما كان فيها نفاق ، وقلت : إن المسافقن فى المدينة كشف أمرهم ، وفضحت أحوالهم وبرى الله ورسوله منهم ، وأقيم المجتمع الإسلامى إقامة سبت على الخُلص من المؤمن وعلى الواصح المستقر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

فى أثناء تكوين الدولة وبناء المجتمع حدثت حركات ردة جرئية أو موضعية ، فمثلا أراد اليهود أن يعثوا بالإسلام وأن يصلوا الناس عنه وأن يمسوا تهمة التعصب عن أنفسهم ، فقال بعضهم للبعض الآخر : ما علينا من حرج لو أننا أعلننا الدخول فى الإسلام بعض الوقت ، وحتى ينتشر هذا الإعلان ويعرف الناس أننا دخلنا فى الإسلام ولسا متعصبين ثم نرتد عنه ونقول : بنا لنا أنه دين غير صحيح ، وبنا لنا أن هذا الدين يسعى أن يترك ، وإذن فالناس سيمركونه جميعا ويقولون : إن أهل الكتاب أعرف ما بطائع الأديان وحقائقها ، وما كان لديهم تعصب ، فقد أسلموا ولكهم وجدوا أن الإسلام لا يجدى فارتدوا !!

فى هذا الموقف يقول رب العالمين : ﴿ وَقَالَتْ طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الدين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوقى أحد مثل ما أوتيم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من

يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿
[آل عمران : ٧٢ — ٧٤] .

حركات الارتداد المفتعلة من هذا النوع كان يجب أن تقاوم ولذلك
جاء حديث : « من بدل دينه فاقتلوه » (١) .

لقد كان اليهود آمين على أنفسهم ما داموا يهودا ، أما أن يفتعلوا
مؤامرة ليدخلوا الإسلام ثم ليخرجوا منه حتى يرلزلوا قواعده بهذا الأسلوب
فلا بد أن يعاقبوا .

هذه واحدة ، شيء آخر لا بد أن يعرف ، وهو أن معاهدة الحديبية
عندما عقدت أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يتخلص من كل مهزور
الضمير ضعيف الإيمان في المدينة ، فأباح لمن يرتد أن يخرج إلى مكة دون
حرج ، وما ارتد أحد ، لقد تكشفت الأمور وعرف الناس الحق من
لساطل .

لكن الارتداد على أنه نوع من حرية الرأي مسألة يجب أن تناقش ،
و نحن ساقش عنها ، لو أن امرءا كفر بالله وحده وبى حياته الشخصية على
ذلك ، وزوى غنا جاسه ، وطوى على الصلال قلبه ، ما استطعنا أن نصنع
له شيئا ، فإن القلوب إلى الله وهو علام الغيوب ، وهو الذى يحاسب الناس
على إحلاصهم أو عشهم ، على إيمانهم أو كفرهم ، لكن الإيمان في المجتمع
لإسلامى هو وقود الدولة عندما تتحرك ، وأساس المجتمع عندما ينهض ،
والرباط الذى يشد التعاليم ويصون الأمن ويقيم الحدود ويجمع الشمل ..
بمعنى أن الإيمان عندنا ليس رأيا شخصيا ، لا ، لقد عرف القاصى والدانى
أن لإسلام عقيدة وشريعة ، أن لإسلام إيمان ونظام ، أن لإسلام عبادة
ومعاملة ، وليس فى الدنيا مجتمع يسمح للمعتسين إليه أن يعملوا المعاول فى
حدرايه لينقضوها ويهدوها .. ليس فى الدنيا دولة تقول للناس : من حق
أى إنسان أن يسقطنى أو أن ينمرد على ، أو أن لا ينفذ تعاليمى ، أو أن
يهدم قوانينى ، أو ما إلى ذلك ، ليس فى الدنيا دولة تصنع هذا .

(١) رواه لبحرى فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم — باب حكم المرتد والمرتلة ١٩/٩ .

وعندما يقيم الإسلام دولته فهو يقيم حدودا ، ويضع قواعد ، وبالتالي فإن الارتداد لن يكون حركة قلب رائغ ، ولو اكتفى بهذا فإن الله يعلمه ، وهو الذى يتولاه ، ولكن الارتداد هنا سيكون محاولة لقلب نظام الدولة وهدم تعاليمها ، وهو ما يرفضه الإسلام ، وبالتالي فإن الإسلام جعل الارتداد يعاقب بالقتل .

الارتداد جريمة تسمى فى العصر الحديث الخيانة العظمى ، هل تسمح دولة من الدول أن تبيع لفرد من أفرادها تسليم أسرارها لأعدائها ؟ هل تسمح دولة من الدول لواحد منها أن يعين أعداءها عليها أو يقض نظامها ؟ هذا مالا يمكن ، وذاك السر فى أن الإسلام رفض الارتداد .

الارتداد عُرف فرديا ، ولكنه فى العالم العربى والإسلامى الآن يشكك تيارات جماعية !! كيف ؟

إن الاستعمار العالمى عندما هجم على البلاد الإسلامية منذ قرون — أيا كان مصدره شرقيا كان أو غربيا — استهدف أن يقضى على الإسلام ، والقضاء على الإسلام لا يندجأ إليه أصحابه بوسائل صبيانية أو طفوية ، لا ، إنهم لن يقولوا للناس : كفرنا بالله لأننا لم نجده ، لن يقولوا للناس : كفرنا محمد لأنه بدا لنا أنه كذاب ، لن يقولوا للناس : تركنا الإسلام لأنه رجعية ..

إن هذه المشاقة الصريحة تكشف جانبهم ، وتعرى نياتهم ، وتعرضهم للفشل ، ولكهم يريدون أن يكفروا بالناس بالله وبسببه ويتعاليم الإسلام بأساليب ملتوية وبطرق مختلفة .

عندما دخل الاستعمار العالم الإسلامى استمات فى أن يلغى فى العالم الإسلامى شرائعه التى يقوم عليها ، وأن يبيع فيه الخمر والخنا ، وذلك حتى ينشر فى كيان الأمم الإسلامية جرائم العفن والضياع ، وقد فعل ووصل فى أغرب البقع إلى ما يريد ، لولا المقاومة الباسلة التى تبديها جماهير المؤمنين فى أرجاء العالم الإسلامى ، أولئك الذين أبوا أن يحسوا رؤوسهم لضلال ، ورفضوا أن ينقادوا للتيار الآثم العاسق الذى يتمرد على كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ ، والذين جمعوا ولاءهم ومحبتهم لديه وحرصهم على تعاليمه صبعة ثابتة في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، بقى هؤلاء — إلى الآن — يقاومون التيارات الآتمة المماحة التي تريد أن تصيع الإسلام وسط بلاده .

ثم هجم على المسلمين — وذلك قبل الله — اليهود في العصر الحديث ، وبدأ الهجوم سياسياً أولاً ثم عسكرياً أخيراً ، وتمكن اليهود من أن يقسموا الأرض الإسلامية قسمين ، رموا بأحدهما شرقاً وبالثاني غرباً ، واستطاعوا أن يفصلوا بين شرق العالم الإسلامي وغربه برأ إسرائيل التي أنشأوها ، وهم يريدون توسيع رقعتها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .

وظاهر أن اليهود لما هجموا لم يضعوا نقاباً على وجوههم ، ولم يصعوا ستاراً على نياتهم ، لقد جاعوا معلنين بأنهم يهود ، وبأنهم يريدون إقامة مملكة إسرائيل ، لقد عالتوا هذا في وقت كان قادة الفكر العربي والإسلامي في بلادنا يحاولون إبعاد الدين عن المجتمع ، ويصفون الدين يتمسكون بالدين بالتأخر والرجعية . ولأضرب مثلاً يتكشف منه الناس بدقة ما وصلوا إليه وما يمكن أن يصلوا إليه إن لم يستيقظوا ، إن الصريبات المتتابعة تنزل بالعالم الإسلامي والعربي بوصفه دماغ الإسلام وقلبه ، وهذا العالم العربي يوشك أن يدخل في صراع دام مع اليهود ، وهذا الصراع الدامي إذا بقيت الأمور تمشي على النحو الذي كانت تمشي عليه قديماً فإن الشيعة ستتكرر ، ونحن ما انتصرنا على اليهود في حرب إلى الآن ، لأساً ما كما يقاومهم بدين ، بينما كانوا يهجمون علينا بدين ، وما يُقْلُ الحديد إلا الحديد .

في بعض القرى أو في بعض الحارات يوجد ناس محرمون أو غلوا في الحرمة ، ما يعرفون غيرها ، يجيئهم المحرم الصغير أو الغر يقول لهم : أنا آكل من اللصوصية — أشل الركاب — ولكي سجننت ، فيقولون له : دع أشل ، وجرب السطو على البيوت ليلاً ، ويعود بعد أن يأخذ عقوبة في السجن ، فيقولون له : جُرب تزوير النقد ، ويجرب تزوير النقد ثم يعاقب ويحجى ، فيقولون له : جُرب القمار ، إهم يقولون له كل شيء إلا أن يقولوا له : جُرب المشي على الصراط المستقيم ، جُرب أن تكسب رزقك من

حلال ، جُرب أن تؤمن بالله وتكذح وتأكل من عرق جبينك !! لماذا ؟
لأنهم محرمون موعولون في الإثم ، مالايمان في قلوبهم أثر ولا لله في أفئدتهم
من وقار ولا من خشية ، فكيف ينصحون ؟

ويوجد الآن من يقول للعالم العربي : اعتمد على روسيا ، اعتمد على
أمريكا ، اعتمد على فرنسا ، اعتمد على إنجلترا ، إنهم يكتبون كثيراً في
تضليل العالم العربي وفي إتهامه عن طريق الله ، وما يقول أحدهم أبداً للأمة
المشردة الحريج المسكوبة : حرى الصراط المستقيم ، جرى العمل بالإسلام
والتجميع عليه ، جرى أن نحاربي تحت رايه التوحيد ، جرى أن يكون
القرآن المحور الذي تدور عليه حركة المقاومة وتطلق منه جيوش التحرير ،
هؤلاء يقولون : أرسلوا للحنود صور الغانيات المومسات ، لعل الجندي
يموت وفي أحضانه صورة مومس ..

إذا كان العرب دليل قوم * يمر بهم على جيف الكلاب
إن هؤلاء الدين يقودون حركة الفكر أو يمسون بزمام القلم في العالم
العربي إذا لم يكونوا مرتدين — وأنا أعلم أنهم مرتدون عن الإسلام — فهم
طابور خامس (١) يعمل لحساب الاستعمار العالمي أيما كان نوعه أحمر أو
أصفر ، هؤلاء خطيرون على مستقبل أمتنا ، ويبغى أن يكذبوا ويجهوا
عندما يرسمون وسائل الكفاح لبلدنا .

إن الناس تمسكوا بأديانهم ، وليس الإسلام عارا حتى يكون القسك به
مسة ، إن المرتدين من حملة القلم يريدون أن نهزم في حرب رابعة وفي
حرب خامسة لأنهم لا يعرفون إلا طريق الهرايم ، إن الكتاب الذين يكرهون
كل تجمع إسلامي ويضيقون به هؤلاء لابد أن يعرف أنهم ارتدوا من قديم
عن الإسلام ، ليس لهم بالله إيمان ، ما شرفت أجسادهم بسجدة لله في
محراب للعبادة ، هؤلاء يجب أن يعرفوا .

(١) يطبق هذا اللقب على الخواصيس ، وقد ابتكر هذا الاسم (الطابور الخامس) الجنرال
فرايكو الذي تمكن عام ١٩٣٦ من الاستيلاء على الحكم في اسبانيا رغم أن قواته كانت مؤلفة من
أربعة طوابير فقط ، وعندما سئل عن سبب عناجه هذه الطوابير الأربعة قل : كان هناك طابور
خامس ، وعنى به مؤيديه وأعوانه من النديين

إن العودة إلى الإسلام لا تعنى فقط نقل قصيدة فلسطين من الميدان العربى إلى ميدان أكبر منه ، ولكنها تعنى ما هو أخطر من ذلك ، تعنى أننا نحارب الحمول والبرود وعدم المبالاة وقلة الاكتراث والاستهانة بالقيم ، إننا نحارب اللادة الشائعة ، والفتور المنتشر ، والاختلاسات والسرفات ، والاستهانة بالمال العام .

أنا لو كنت عربيا مسيحيا ومخلصا لبلدى لقلت للعرب : يا أهل البلد إنكم فى تاريخكم الماضى ما تكونتم أمة إلا بالإسلام ، وما ارتفعت لكم أية ، ولا نظرت وجوهكم كرامة إلا بالإسلام ، وأنتم تواجهون ديننا يريد أن يقص أجحتكم بل أن يخلع قلكم من بين أضلاعكم ، ولا بد أن تحاربوه بعقيدة ، إن القوميات إن الآن جربت نفسها وفشلت فلم لا يترك للإيمان أن يجمع وللإسلام أن يتحرك وأن ترتفع رايته ؟

ما قال أحد من العقلاء أو دارسى التاريخ قديما وحديثا : إن حرب فلسطين حرب سياسية أو حرب تجارية ، لقد قيل قديما وحديثا : إنها حرب دينية ، حتى جاء التافهون ممن لا علم لهم ولا عقل يريدون تغيير التاريخ وتشويه الحقائق ، فسموا الحروب الصليبية القديمة حروبا تجارية أو سياسية ، أصحابها قالوا : إنها صليبية ، وآباؤنا قالوا : إنها صليبية ، والإثارات كلها كانت دينية ، حتى جاء التافهون فى هذا العصر يقولون : إنها ما كانت حربا دينية !!

هذا الكذب على التاريخ إلى متى ؟

حتى تضيع العواصم كلها وتسقط المدينة المورة فى يد اليهود ؟ لابد أن يصحو الأمة ، لابد أن يكون التحميع على لإسلام ، ما دامت الحرب يهودية غلية فببكر الدفاع إسلاميا عسبا ، نرى على الإسلام ، نجمع على الإسلام ، نستثير الشعوب الإسلامية فى الشرق والعرب ، إن الحرب عندما فى فلسطين لاستنقاذ المسجد الأقصى حرب دينية ، والمسجد الأقصى ليس ملك بعض القبائل فى (الدلتا) أو فى (الصعيد) أو فى (الأردن) أو فى (سوريا) إنه بيت الله وملك المسلمين قاطبة .

الحرب دينية ، ويجب أن تأخذ طابعها ، وأن يكون التجميع باسم الإسلام وعليه ، والمسيحيون العرب بين أمرين : إن شاءوا الوفاء لذمتهم وأرضهم وكانوا إلى جوارنا في هذه الحرب فيها ونعمت ، وإلا فليتركونا وليصمتوا وما يلومهم ، وإذا كنا نحن المسلمين معجزة عن القتال لا بهذا العون فبطن الأرض خير من ظهرها ، إما أن نحيا — كما نريد — باسم الإسلام أولمت كما نريد . أمّا أن نسمع للكذابين يكتبون في الصحف الكثير عن الحرب وأطوارها وأوهامها وما ينتظر منها وما يرجى لها ، وما يفكر أحد من هؤلاء في ذكر الله ولا العودة بالأمة إلى كتابة ولا ستشارة المشاعر الدينية الراية النامية من أربعة عشر قرناً في أرضنا .. فهذا ما لا ينبغي أن يكون .

هؤلاء قادونا إلى العار قديماً ، ولا تزال دور هذه الصحف كمشعشع اليوم ما ينشق فيها إلا طلاب الخراب لهذه الأمة فلنحذرهم على ديننا وعلى بلدنا .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم (١) .

(١) للأسف البالغ لم تسجل الخطبة الثانية

أَحْوالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْفِيلِينَ (١)

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن موضوع الخطبة اليوم فرصة على واقع لا يمكن تجاهله ، وملازمات لا يستطيع أن تتعاضى عنها ، موضوع هو في ظاهره تاريخي أو سياسي ، ولكنه في حقيقته يتصل بعقيدتنا وحاضرها ومستقبلها .

الموضوع هو أن (بابا روما) ذهب في سفرة شاقة طويلة إلى البلاد التي يطلق عليها اسم (الفيلين) وهو اسم مرور مستعار ، وضعه الغزاة الأسبانيون على جزر كانت إسلامية مائة في المائة ، وبدأوا حركة تنصيرها من بضعة قرون ، ومضوا في طريقهم حتى استطاعوا أن يحققوا جرعا كبيرا من نياتهم وأن يبلغوا شوطا بعيدا من أهدافهم .

(١) الفيلين من الجزر الكثيرة والتي تقع في جنوب الصين وشمال شرق أندونيسيا وحلدها البحرية بحر الصين الجنوبي وبحر سولو غربا وبحر سيلير جنوبا والمحيط الهادئ (بحر الفيلين) شرقا ومضيق بيشو شمالا . ولها حدود إقليمية مع تاوان والصين وماليزيا وأندونيسيا ، وتبلغ مساحتها ١١٥٦٠٠ ميل مربع . يقطن الفيلين نحو ٥٠ مليون نسمة يعمل غالبيتهم في الزراعة والغابات والمؤسسات ويعتبر شعبا فقيرا بوجه عام . والديانات مختلفة أهمها النصراني والوثنيون والمسلمون (١٥ / من المجموع العام) وقد وصلها الإسلام في القرن الثامن الهجري عن طريق التجار المسلمين من الهند والجزيرة العربية وشرق آسيا وقد كان للمسلمين كيانات كبيرة في البلاد وخاصة في جنوبها إذ أسسوا ممالك مستقلة قبل الحكم الأسباني في البلاد بعده . وعرفت البلاد بهذا الاسم نسبة لعلياب ملكوس أحد ملوك آسيايا السابقين .

الجزر ما كانت تسمى الفيبين ، ولكن (فيليب الثاني) ملك أسبانيا كان رجلا معروفا بتعصبه لكثيكة وقتله لأعدائها ، فأخذ الاسم ووضع على مجموعة من جرر الهند الشرقية ، الجزر كانت إسلامية كلها ، وكان المذهب السائد هناك مذهب الإمام الشافعي ، وكان العلماء من أهل البلاد أو ممن جاورها من جزيرتي (جاوة) (١) و (سومطرة) (٢) .

ثم جاء مبشر يعرف في تاريخنا الذي ندرسه بأنه مستكشف جغرافي ، وهو مبشر بالنصرانية اسمه (ماجلان) (٣) انتمع ماجلان بخبرة بعض التجارة العرب ووصلوا به أو وصل بهم إلى المضيق الذي يعرف في الجغرافيا الآن بأنه مضيق ماجلان ، ولما كانت الأرض التي بلغها إسلامية ، وكان الرجل مبشرا بالنصرانية فقد حاول أن يرفع الصليب على الأرض التي بلغها فقتل هنالك وانتهى أمره .

لكن أمر الحر لم ينته ، فقد شرع الأسبان بوجهون إليها حملاتهم ويبدلون الجهود لمحو التوحيد وإقامة التثليث مكانه ، وبدأ صراع فيه مرارة وفيه حرقة ، لأن المسلمين الذين دافعوا عن دينهم لم يجلوا الكثير من العون ، ولم يسعفهم إخوانهم من أماكن كثيرة ، فقاتلوا في معركة تشبه أن تكون معركة انسحاب ، وكان ما نزل بهم فادحا مخوفا !!

ومأبذ من أن أذكر التاريخ ، ولما كنت معتل الجسم لا أستطيع أن أولف ، ولما كانت الحقائق التي أريد نشرها وثائق ، فمن الخير أن أقرأ ما ورد أو ما نشر ، وما نشر لمؤلف انكيزي ترجمه مهندس مسلم مصري هو الدكتور مصطفى مؤمن ، وقد نشرت هذه الوثائق مجلة سعودية تصدرها رابطة العالم الإسلامي .

(١) تقع هذه الجزيرة في أندونيسيا وهي جزيرة متوسطة يفصلها عن سومطرة مضيق سننا .

(٢) تقع هذه الجزيرة أيضا في أندونيسيا وهي أكبر جزيرة في البلاد .

(٣) ماجلان (ت ١٥٢١) : ملاح برتغالي ، لقي تأييدا من أسبانيا لاقتراحه الخفاص بمحاولة الوصول إلى منقة عن طريق العرب ، فأقلع (١٥١٩) ومع ٢٧٠ رجلا على خمسة مراكب وخرج من الأطلنطي إلى إلهادي عن طريق المضيق الذي حمل اسمه . واتجه صوب (ش غ) ووصل الفلبين حيث قتل .

وقد بدأ عرو هذه البلاد في القرن السادس عشر — أى من أربعة قرون — وإبرازاً للغاية المنشودة منه فقد رصت جنث المقاومين الشجعان على نحو هيئة صليب وذلك سنة ١٥٧٦ ويقول المؤلف : إنه أول صليب صنع بأجساد المسلمين ونرجو أن يكون آخرها !!

وينشر المؤلف نص الأمر الصادر من الحاكم العام الأسباني « فرانسيسكو دى ساندى » لقائد الحملة المشنومة التى استهدفت عرو جزيرة « سولو » وهى جزيرة إسلامية مائة فى المائة يقول : اقرأ معى واحبس أنفاسك ولتكن آذاننا وعيوننا لتهمهم ، يقول الحاكم الأسباني للقائد الذى قاد المعركة :

« إننى آمرك بسد أفواه الدعاة إلى دين محمد ، إذ هو دين شرور وآثام ، وليس هناك من بديل عن النصرانية عقيدة ودينا ، ولما كان الدعاة القادمون من « بورنيو » (١) مثلهم فى الدعوة إلى الإسلام فواجبك مصارحتهم بأن غرضنا هو تعميم النصرانية ، ولدى اعتناقهم لها فسنتركهم يعملون فى أرضهم دون أن يصيبهم أذى من جانب سادتهم البصارى الأسبان ، وترصد بقوة من يدعرو لدين محمد ، وألقى القبض عليه ، ثم سقه إلى مكلا محفورا » !!

لكن الحملة فشلت فشلا ذريعا ، وأعاد الحاكم الأسباني الكرة فى السنة الثانية ، وتتابعت الحملات حتى السادس من إبريل سنة ١٦٢٦ حيث استطاع القائد الأسباني « جواندى » أن يقتحم موقعا حلوا من السكان وأن يعتلى — ليلا — ربوة ذات مكان حصين يفاجئهم منه سكان جزيرة « سولو » بضربات مدفعيته ، واستبسل السلطان المسلم « دتونا » فى الدفاع عن الأرض الطاهرة ، ولكنه لقي هو ورجاله شهادة جماعية لإجماعية ، واستطاع الأسبان أن يجعلوا هذه البقعة منطلقا لحملات عزو على بقية معاقل المسلمين فى هذه الجزر .

(١) تقع فى أندونيسيا وهى شبه جزيرة حيث إن قسمها الشمالى يتبع لماليزيا .

يقول المؤلف : وردَّ السلطان « قديرك » حملة عارمة ، ثم وقع اتفاقا سنة ١٦٤٥ مع السلطات الأسبانية لضمان سلامة قوافل الطرفين وتبادل المافع ، وفي مقابل ذلك سمح لهم ببناء كنيسة في جزيرة المسلمين ، ولكمهم نقضوا العهد بعد أعوام قلائل فتصدى لهم السلطان ولاذوا بالفرار تاركين وراءهم هيكل كنيسة خارية ، وفي سنة ١٨٢٥ — أى بعد مائتي سنة — فقد الأسبان مستعمراتهم عدا « عنراء ماليزيا » .

هذا كلام يحتاج إلى شرح ، فإن دوة أسبانيا التي بصّرت نحو أربعين في المائة من السكان المسلمين بطرقها التي أشرنا إليها وقعت في ضائقة مالية ، فماذا تصنع ؟

باعت الحرر بمن فيها وما فيها لأمریکا !! فحلّ الأمريكيون في الفيليبين محل الأسبان ، وبعد خمسة أشهر قرروا شراءها مقابل مائتي مليون دولار دفعوها لأسبانيا .

وهنا أعلن الشعب برمته الحرب ضد الغزاة الجدد ، واستمرت الحرب بين المسلمين والأمريكيين إلى سنة ١٩٠١ وفي تلك السنة تألفت لجنة من « الكونجرس الأمريكي » لوضع تشريعات للفيليبين ، حاولت تحويل المسلمين عن معتقداتهم دون جدوى ، فماذا تصنع ؟

رأى الأمريكيون أن حير علاج للمسلمين هو اجتثاثهم بشن الحرب « البكتيرية » عليهم وعلى ما شينهم ، فاجتاحت أوبعة الكوليرا والجندري ولطاعون البانوي جزيرة « مينداو » ثم جزيرة « سولو » سنة ١٩٠٣ . وبلغ ضحايا حرب الأوبئة حسب تقدير لجنة « نافيت » الأمريكية مائتي ألف أو يزيدون ، ونفقت مئات الألوف من الدواب بأوبئة الحمرة وطاعون الماشية .

وهكذا خسر المسلمون أنفسهم وأموالهم بالخسيس المررى من الغدر ، كما تعرضت للهلاك آلاف مؤلفة من الدواب العجماء التي لا تدري شيئا . وتحولت جزيرة « عنراء ماليزيا » تحت حكم الأمريكيين المباشر ، وفي عهد الأمريكيين تكونت وزارة خاصة بشئون « مينداناو » و « سولو » وفي فترة الانتقال ألحق — في عمله من الرمن — المسلمون باختصاص وزارة الداخلية الفلبينية .

ويقول المؤلف كلاما كثيرا خلاصته . أن الأمريكيين رغبوا شئون
الفبسر على النحو الذى رعاها من قبل الأسس — أى حرب متصلة ضد
الإسلام — وتسلمت ضد الإسلام عصابات مسيحية مكوبة من المتعصبين
الذين يسمون « فتران » .

ويقول المؤلف : إن جماعة « ايحلاس » أو الفتران هي أخطر
الجماعات الكاثوليكية وأشدّها تعصبا ضد المسلمين ، ولها تنظيم سرى هدفه
الأول الاستيلاء على الأرض الإسلامية وإبعاد أهلها عنها ، ويتدرب أفراد
هذا التنظيم فى إسرائيل !!

وحفراً لهم فى إلحاق الأذى بالمسلمين والتكثير بهم وصعدت تسعيرة
بالمكافآت لتي تصرف لمن يصيب مسلماً بإحدى هذه العاهات :

- ١ — أدن المسلم ثمنها ١٠٠ بيزوس .
- ٢ — أنف المسلم ثمنها ١٠٠ بيزوس .
- ٣ — إصبع المسلم ثمنها ٥٠ بيزوس .
- ٤ — كف المسلم أو ذراعه ثمنها ٢٥٠ بيزوس .
- ٥ — عين المسلم ثمنها ألف بيزوس ، أى ما يوازى خمسة وثلاثين
جنيها استراليا ..

ما أرحص المسلمين !!

وتتش هذه العصابة حرب إبادة على المسلمين لإخلاء الأرض منهم
وتوريثها للصليبيين ، وقد أصبحت معسكرات للاجئين المسلمين تصم
ما يربو على خمسمائة ألف لاجئ أو مشردا

وقد كشف المسلمون الأقعة عن وجود تواطؤ حيث بين حكومة
« ماركوس » — الحاكم الحالى — وأولئك الفتران المسلحين .

ويمضى الكاتب فى عرضه لأمر ما نحتاج إلى تفاصيلها ، لكن الذى
قرأته واستمعت إليه فى الإذاعات أن « بابا روما » لقي المسلمين فى جنوب
« مينداناو » وقد استمعت إلى تلخيص ما قاله فوجدت أنه يريد تفاهها
وحقوقا متبادلة وكلاما من هذا النوع ، ولعله قال هم : إن الله محبة ، ولعله

قال لهم كلاما من هذا النوع الذى نعرف قيمته الشكلية ونذكر أن حقيقته
خوفاء لا شيء فيها .

قلت في نفسي : هل يعي المسلمون في شرق العالم العربى وغربه من
الأطلسى إلى الخليج هذه الحقائق ؟

لا . المسلمون لا يدرون شيئا عن تاريخ الإسلام وامتداداته في شرق
آسيا التى انتزع جزء منها وسمى « الفيليبين » .

المسلمون هنا لا يدرون شيئا ، إنما الذى أذكره أن المسلمين هناك
يحبون الإسلام ويدفعون عن أهلهم ، وعندما تورط العرب هنا في حروب
صينية فإن إخوانهم المسلمين من حاوة ، وسومطرة ، وتركستان ،
وأفغانستان ، وبلاد ما وراء النهر لم يتركوا العرب وحدهم ، فالذى قهر
الصلبيين هو صلاح الدين الكردي ، والذى قهر التتار وهزم المغول هزيمة
منكرة هو قطز وهو من تركستان .

لا بأس أن يُعرف الفارق بين ما فعله المسلمون القادمون من هذه
البلاد البعيدة بعد أن انتصروا على الصليبيين وبين ما فعله غيرهم ، وينبغي
أن نُعرف أخلاقنا وأخلاق غيرنا .

معى كتاب مترجم أيضا ، يتحدث الكاتب — وهو رجل
إنكليزى — عما فعله صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس ووقع نحو
مائة ألف صليبي في يده فيقول :

الواقع أن المسلمين الطاعرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فيما كان
الفرنج مد ثمان وثمانين سنة يحوصرون في دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن
دار من الدور الصليبية للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ، إذ
سار رجال الشرطة بناءً على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع بمنعوى
كل اعتداء يقع على المسيحيين !!

وقد دهش المسلمون عندما رأوا البطريق يؤدى عشرة دنابر مقدار
الفدية المطلوبة منه ويغادر المدينة وحده وقد انحنت قامته ثقل ما يحمله من
الذهب ، وقد تعته العربات التى تحمل ما يحوزنه من الطنافس والأواني

المصنوعة من المعادن النفيسة !! وبمصل ما تبقى من محبة الملك « هنرى
الثانى » تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء !!

يقول المؤلف الإنكليزى : من المنظر التى تدعو إلى الأسى والحزن
ما حدث من التفات « العادل » — وهو لقب شقيق صلاح الدين —
التفت إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير على سبيل
المكافأة عن خدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق « العادل » على
انفور سراح ألف أسير مسيحي !!

وإذا اجتهد البطريك هرقل لأن يتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل
الخير لم يسعه إلا أن يطلب أيضا هو الآخر من صلاح الدين أن يهب له
بعض الأرقاء ليعتقهم فأعطاه صلاح الدين سبعمائة أسير !! كما جعل صلاح
الدين له « بليان » خمسمائة أسير !!

ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة
عجور ، ولما أقبل نساء الفرنج اللاتى اعتدين أنفسهن وقد امتلأت عيونهن
بالدموع فسأل صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو
آباؤهن مصرعهن أو وقعوا فى الأسر ؟

أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن ، وبذل
للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته !!

والواقع أن رحمته كانت على نقيض أفعال لغزاة المسيحيين فى الحملة
البصليية الأولى !!

هذا ما كتبه المؤلف الإنكليزى ، وفى الجزء الثالث من كتابه — الذى
شرته دار الثقافة ببيروت — يقول عن أفعال الغزاة المسيحيين : اضطروا
الغزاة إلى أن يمكروا فى ترك البلاد ، لكن صار الأسرى المسلمون مصدر
حيرة لهم ، فماذا يصنعون ؟

أعلن قائداهم فى برود شديد يوم ٣٠ أغسطس سنة ١١٩١ أن صلاح
الدين قد نقض عهده ، وأمر بالإجهاز على ألفين وسبعمائة أسير من
المسلمين كانوا على قيد الحياة ، فاشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة !!

حاول المسلمون أن يبدلوا الجهود لوقف المدبحة ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى إخوانهم ، وعندما وصلوا لم يجدوا إلا بقعة تناثرت عليها الجثث المشوهة المتعفة !!

هذا تاريخ ، الذى أسأل عنه : هل يدرس هذا التاريخ ؟ حقيقة الوضع فى الفيليين أن المسلمين هناك صدرت أوامر بإخراجهم من الأرض الخصبة التى يزرعونها ، وبدأت الحكومة تقاتلهم لإخراجهم من هذه الأرض .
وتصوروا أن المصريين فى « الدلتا » صدر أمر بإخراجهم من « الدلتا » ليعيشوا فى الصحراء ، ماذا يصنعون ؟

لا بد أن يقاتلوا ، وقاتلوا منذ تسع سنين إلى الآن ، الجريمة التى ترتكب فى الفيليين جريمة إبادة جنس مما بنصر على معاقبة مرتكبها قانون الأمم المتحدة ، لكن القانون لا يطبق إذا كان الذين يبادون من المسلمين !!
أين هذه البلاد التى كانت عامرة بالإسلام ؟

لا وجود لها ، كل ما أذكره الآيات التى قالها أحد الشعراء (١) فى الأندلس :

تبكى الحبيبة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس	ما فيها إلا نواقيس وصلبان
حتى المحارب تبكى وهى جامدة	حتى المنابر ترقى وهى عيدان
أعندكم نبأ عن أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركيان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	أسرى وقتلى فما يهتز لإنسان
هاذا التقاطع فى الإسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات ها هم	أما على الخير أنصار وأعوان

هذا كلام أذكره على أنه تاريخ ، ولكن هذا التاريخ يمكن أن يتكرر ،

(١) هو أبو الطيب الرملى

ويمكن أن ينتقل من مكان لمكان ، وفي دراسنى هرائم المسلمين — ابتداء من أحد — ما وجدت هزيمة وقعت بالمسلمين إلا كانوا هم سببها ، حتى إن القرآن الكريم لما حدثت المسلمين أو أجازهم عن تسارلهم « ألى هذا » ؟ كان الجواب ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

الصليبية تطارد الإسلام من قديم ، وهذه حقيقة يجب أن تدرس وأن تعرف ، ومحاولة التعطية عليها محاولة سمجة وفاسقة ، ولذلك رأيت أن أكشف زيارة « بابا روما » للفلين ، لأن الرجل يريد أن يضع طابعه على ما بقى من أرض الإسلام هناك !!

ثم انصم إلى الصليبين فى عدواهم على الإسلام الشيوعيون ، والتحد الشيوعى حظير ، وقد أخذ نصف العالم الإسلامى فى آسيا ، لأنه — كما ذكرت فى كتابى « الإسلام فى وجه الزحف الأحمر » — كانت « سبيريا » مسلمة وقد قتل ملكها وفقت عليه وهو يدافع عنها ، كانت « القرم » مسلمة ، كانت « الأرال » مسلمة ، كانت « أدريجان » مسلمة .

امتد الروس — والروس فى مساحتهم الطبيعية ما بملكون أكثر من أرض تشبه مساحة مصر — فى الشرق ، وأحلوا آسيا حتى بلد « البخارى » فى « أوربكستان » وضعوا يدهم عليها .

الأمة الإسلامية تشبه المغفل الذى لا يحميه القانون ، لأنه لا يعرف مصلحته ، ويحيل إلى أن المسلمين أصيبوا بمرض « فقدان الذاكرة » فهم ما يدرون ما وقع لهم ، وبالتالي لا يعرفون ما سيقع لهم . وبقاء الأمة على هذا النحو خطر تتعرض له عقيدة التوحيد نفسها ، ولذلك وجدت أن الدين يفرض على أن أبغخ التراب عن هذه الحقائق ، وأن أبهى الصورة القبيحة لهذه الأوضاع حتى يراها المسلمون فيخجلوا من تفريطهم ومن سياهم لربهم .

أنا لا أخاف — والله — من الصعط الصليبي أو الضغط الشيوعى ، ولكى أخاف من الغفلة الإسلامية ، وهذه الغفلة تبدو فى مظاهر كثيرة . وقد بدأت نهضة ، ولكن الذين يحاربون النهضة أحبوا يجعلون

المسلمين يفتلون ففداك الأولويات . يعنى لو أن عندك مائة جنيه ويبتك
حبال من كل شىء ، فإن المائة جنيه نصرف ابتداء فى شراء تموين ، فى شراء
الضرورات التى لابد منها للبيت ، فإذا ذهب المعفل واشترى راديو أو
تليفزيون فماذا يصنع بهذا ؟

الأمة الإسلامية فيها أزمة أخلاقى ، فيها أزمة عبادات صحيحة ، فيها
أزمة دفاع عن العقائد الحقيقية ، ومع ذلك فإن أعدادا من المسلمين
يفكرون فى أمور ما يفكر فيها عاقل .

والآن وجدت أن عدوين يشقان طريقهما إلى الأرض الإسلامية :

العدو الأول يقول : الإسلام كتاب من غير سنة !!

وقد رأيت هؤلاء فى باكستان ، ورأيتهم فى السودان ، وامتدت
أحصارهم أخيرا إلى القاهرة ، وقادهم — فيما أعلم — العقيد « معمر
القذافى » .

والواقع أنه عندما تضيع السنة فسيضيع القرآن بعدها ، كأن العدو بلغ
من خبثه أن قال : اقسام المعركة قسمين : اصرب السنة أولا ، فإذا انتهت
منها ، انفردت بالقرآن فأجهزت عليه .

وضرب السنة جنون ، لأن المفسر الأول للقرآن هو محمد عليه الصلاة
والسلام فى قوله وفعله وتقريره ، فإذا ضاع التفسير أو إذا ضاعت المذكرة
التفسيرية للقانون فماذا يبقى ؟

العدو الثانى يقول : الإسلام دين لا دولة !!

وقد استوخر لهذا أناس أصحاب أسماء لامعة كمصطفى كمال
أتاتورك ، وجمال عبد الناصر ، أما مصطفى كمال فقد صنع له الحلفاء زعامة
ليجمعوا منه رجلا ، وما كان رجلا ، كان حاسوسا مرتدا خائفا قنرا ، وأما
جمال عبد الناصر فشخص مشهور ، مقامر لا مغامر ، ما دس يده فى خضراء
إلا يبست ، ولا دخل معركة إلا انهزم فيها ، وقيل : إنه أبو العباقة !!
الإسلام دين ودولة ، كتاب وسنة .

الإسلام له ماضيه وحاضره ومستقبله .
الإسلام له أمة في لمشرق والمغرب لا يمكن قبول تقسيمها .
باسم التثليث يخرج رجل من « روما » ليذهب إلى أقصى المحيط
امادى ليقى إخوان العقيدة !!
أما عقيدة التوحيد فلا رباط لها ، ولا أبوة ثقافية أو روحية تلم
شمها !!

هذه الحقائق لا بد أن تعرف ، وعلى المسلمين إذا كانوا عقلاء أن يعرفوا
الأولويات ، فإذا كان أعداؤنا قد جمعوا شملهم على إذهاب قلبنا ومعتقداتنا
وأخلاقنا وتقاليدها وشرائعنا وكل ماله أثر في حاصرنا ومستقبلنا ، فما يجوز
بنت أن يشتعل المسلمون بالتوافه أو أن يتعاركوا على مالا معنى له .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون . ويستجيب الدين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون هم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .
وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .
أما بعد :

أيها الإخوة : أصرب لكم مثلا لتعرفوا أن قلة الفقه تصع الإسلام في مآرق حرجة ، جاءني ذات يوم رجل من الناس يشكو خطيبا في أحد المساجد — وكنت يومئذ مسئولا عن المساجد — قال : الإمام يتهم الرسول بالمناق !!

قلت له : أعود بالله ، يا رجل ما يفكر في هذا أحد ، ولا يحظر بال امرئ من الناس .

قال : ذكر لنا أن عائشة رضي الله عنها قالت : « استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : ائذنوا له بش أخو العشيرة أو ابن العشيرة ، فلما دخل ألان له الكلام ، قلب يا رسول الله قلت الذي قلت ثم أنت له الكلام ، فقال . أي عائشة : إن شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه » (١) .

قلت له : الحديث صحيح .

قال : أليس هذا نفاقا ؟

قلت له : أنت جهول لا تحسن الفهم ، هذا أدب اسمه مداراة السفهاء ، وهو أدب عالمي ، وكان معي المرحوم كامل كيلاني فقال . في شعر

(١) رواه البخاري في الأدب — باب ما يجور من اغتياب أهل الفساد والرهب ٢٠/٨ ومسلم في البر والصلة والآداب — باب مداراة من يتقى فحشه ٢١/٨ .

« شكبير » كلام عن مداراة السفهاء يشبه ما قاله الشاعر العربي :
لو أن كل كذب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالا بديار
مداراة السفهاء أدب عالمي لا يزال الناس مكلفين به في كل زمان
ومكان .

هذه واحدة ، أمس قرأت ردا على شيء كنت ذكرته وهو حديث :
« بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك
له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف
أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » (١) .

هذا الحديث فهمه أحد الناس على أن الإسلام ينتشر بالسيف ، وجاء
آخر فكذب الحديث !

قلت : كلا الفريقين جاهل ، وقد ذكر النبي ﷺ وطيعته فقال :
« أنا محمد ، وأحمد ، والمقفى ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة ،
ونبي الملحمة » (٢) .

يعنى أنا نبي السلام ، وأنا نبي القتال ، من سلمني سلمته ، ومن قاتني
قاتنته ، فإذا حرض على قتال البعاة والمعتدين فهو نبي الملحمة ، وعندئذ
يقول : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف » ، والسيف هنا محكوم بقول
الله جل جلاله : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن
الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « وجعل رزقي تحت ظل رمحي » إشارة
للمجاهدين ألا يخافوا ، فإن خسائر الحرب قد تكون مرهقة ، ولكن ثمراتها
في النهاية تكون رغدا لمن يصحكون أحيرا لأهم يضحكون كثيرا .

(١) رواه أحمد ٥٠/٢ وأبو يعل في مسنده والطبراني في الكبير كذا في الجامع الصغير ، وقال في
صحيح الجامع الصغير (٢٨٣١) . صحيح وقد علق البخاري في صحيحه بعضه ٤٩/٤ وقال
الحافظ في شرحه : هو طرف من حديث أخرجه أحمد من طريق أبي مسيب ... وله شاهد مرسل بإسناد
حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن النبي ﷺ بنحوه .

(٢) رواه مسلم — بطون « نبي الملحمة » — في الفصائل — باب في أسمائه ﷺ ٩٠/٧
والزهادة عند الطبراني وأحمد ، وقال في صحيح الجامع (١٤٧٣) : صحيح

هذا معنى الحديث ، والحديث ليس من رواية البخارى ومسلم ، ولكنه من رواية أحمد بسند صحيح .

الأمر يحتاج إلى الفقهاء ، من قديم كان هناك بعض الناس معروفين بالنزق ، يهرون وراء كل شيء بدون تثبيت ، فقال الله معاتباً هؤلاء : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَبْطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

لَعَلِمَهُ مَنْ ؟ أى صعبوك ؟ لا ، « لعلمه الذين يستبطنونه منهم » .

للأسف يجيء ولد الآن يقول : الشافعى أفسد مصر !! ثم يقول : هم رجال ونحن رجال !!

والله الشافعى رجل وأنت عبل .

يا مسلمون . الأمة الإسلامية فى مهبط الريح ، وهناك أولويات تتطلب أن تمتص إليها ، أما أن تضيع الفيين ، وتبدأ إضاعة أندونيسيا ، وقد حدد لها خمسون سنة كى تصيح ، أما أن أقرأ أنه قد وضع لأفريقيا أن لا يتهى القرن العشرون إلا وثمانون فى المائة منها قد دخلوا فى المسيحية ، أما أن أقرأ هذا وذاك ثم أجد صعاليك فى ميدان الفكر الدينى تترق الأمة بكلام تافه وقضايا محقورة وأمور لا معنى لها فإن هذا ليجعلنى أحشى على الأمة وعلى مستقبلها بل على يومها القريب لا على غدها البعيد .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا . واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل — ٨١/٨ .

الشَّخْصِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ عَوَامِلُ اضْمِحْلَالِهَا وَعَتَا صِرَازِدِرْهَارَهَا

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية
١٩٨١م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد إن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله
الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، لرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراح المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فقد اهتممت بدراسة الطبيعة العربية وتعرف خصائصها النفسية
والفكرية ، لم ؟ ألا أنسى عربى ؟ ما أظن ذلك السبب الدافع ، لأننى أعلم أن
العروبة لغة لادم ، وأن عربا قد يولدون فى أعماق الجزيرة لا يمشون
خصائص العروبة ولأرسالتها ، بينما يولد رجل فى « بخارى » كأبى عبد الله
محمد بن إسماعيل البخارى صاحب « الجامع الصحيح » أو كصلاح الدين
الكردى ومع ذلك فإن كلا الرجلين — وإن لم يكن من دم عربى — فهو
أقرب إلى العروبة وأخلص لوظيفتها ورسالتها من غيره .

ثم أنا أعلم أننى مصرى ، وهل المصريون عرب ؟ هم يبقين استعربوا
بالإسلام ، أى عرُهم الإسلام ، لكن أهم قبل ذلك عرب ؟

ما يعينى هذا ، ربما تحدث علماء الأجاس فى أن المصريين عرب أو
غير عرب .

أنا ما يعنى أن يكون « رمسيس » عربياً أو بدوياً أو أى كائن ، إنما يعنى أن لمصريين تعربوا بالإسلام ، وأصبحوا بالإسلام عرباً ، لذلك اهتمت بالطبيعة العربية عن رعة في دراسة الشخصية العربية وعوامل اضمحلالها وعناصر ازدهارها ، ووجدت أن الجنس العربى يمكن — بتعبير لا فلسفة فيه ولا تعقيد — أن تذكر له ثلاثة أدوار :

دور قديم هلك فيه هذا الجنس .

ودور وسيط ازدهر فيه هذا الجنس وساد .

ودور معاصر اضطرب فيه هذا الجنس ، وتنازعته أسباب النماء والفساد فهو بينهما عصي طيع ، وهو بينهما مقبل مدبر ، والمعركة بين الصحة والمرص أو بين العافية والسقام لا تزال دائرة في دمه وفي بيئته ، ونحن نرى — ثقة في الله — أن العاقبة ستكون خيراً إن شاء الله .

لكن ما بد من دراسة أدوار هذا التاريخ ، لا بد أن يعرف لم ياد الجنس العربى قديماً ، لأن الخصائص تتوارث أحياناً ، وعندما يقرأ المسلم الفاقة سورة الأعراف أو سورة هود أو سورة الشعراء ، يجد أن الأسياء العرب بذلوا جهوداً حارة في فطام العرب عن رذائلهم واقتيادهم إلى ربهم وتحميلهم رسالة الإسلام ، ولكنهم عجزوا عن الارتفاع إلى هذا المستوى ، وغلبتهم خصائص من جسمهم أو من دمائهم فأهلكتهم ، وقال الله يصف هذه الأجاس البائنة : ﴿ فكلما أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [العنكبوت . ٤٠] .

إن الله لا يظلم جنساً من الأجناس ، وليس ييه وبين فئة من الفئات أو طائفة من الطوائف أو أمة من الأمم عداوة ، ولكن يصلح الناس فتطيب لهم الحياة ويمهلون لأنفسهم عنده ، فإذا أسفوا فإنما تلور الرحى (١) على أكبادهم لتطحنها ، وما يظلمون إلا أنفسهم .

(١) الرحى . الأداة التى يطح بها ، وهى حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار لأعلى على قطب

إسرى أذكر هذه الخصائص التي ظهرت في العرب البائدة لأسى — كما
قنت — أرى التاريخ لا يستجد له جديد على طهر الأرض ، يكاد يكرر
نفسه ، حتى قيل في المثل الرومانى . « لا جديد تحت الشمس » وحتى
قيل في المثل العربى (١) :

كل حليل كنت حالته لا ترك الله له واضحة
كلهم أروع من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة
نجىء إلى « عاد » ، لمهلكوا ؟

كانت لديهم كبرياء غريبة ، كان لديهم جبروت غريب ، يقول الله
حل شأنه ﴿ رَأَىٰ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٥ — ٦٧] .

سبحان الله ! نبي من أنبياء الله يخاطب هذه اللهجة ؟!

إله الكبر والخيروت ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَقَالُوا مِنْ أَشَدِّ مَنَا قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] .

هذا الخيروت انتهى بهم إلى أن برل عليهم من السماء عذاب أودى
بهم ، كانوا عمالقة — وكما نجىء عاصمة فُتَطَّرَحُ برأس النخلة — كان
هؤلاء يأتهم العذاب من عند الله فيحدد بهم الأرض ، وتطير منهم الأعناق ،
ويقفون على الثرى كأنهم أعجاز نخل منقر !!

قال تعالى . ﴿ كَذَبَتْ عَادُ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِير . إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِر . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ
مَنْقَر . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِير ﴾ [القمر : ١٨ — ٢١] .

نجىء إلى « ثمود » لمهلكوا وبادوا ؟

(١) صاحب هذا المثل طرفة بن العبد كما في عيون الأخبار : ٥/٢

كان لديهم جحود عريب ، اقترحوا أن تبيحهم ناقة من الصحر ،
فانشق الصخر عن ناقة — كانت معجزة واضحة — ﴿ وآتينا ثمود الناقة
مبصرة فظلموا بها ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

جحدوا بعدما اتهم البينات ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى
على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾
[فصلت : ١٧] .

ثم إن الكلام يطول في شمال الحريرة حيث كانت الأيكة وقرى مدين
وشعيب الذى يسمى حطيب الأنبياء ، وكيف نصبح قرمه ألا يبحسو
الناس حقوقهم ، وألا يفتاتوا عليهم ، وأن بقية الله خير لهم ، هذا إلى جانب
القرى الشاذة التى استمرأت الفساد ، وارتكبت في ناديها النكر ، واقتربت
الآثام .

فالحنس العربى فى بداية تاريخه فسق عن أمر الله فضرب ضربة أطاحت
به وانتهى أمره ، ويقول القرآن الكريم فى سورة هود — وهى سورة تحدثت
عن الأنبياء العرب — ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون
عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما
أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها
مصلحون ﴾ [هود : ١١٦ ، ١١٧]

هذه مرحلة للحنس العربى ، ثم جاءت مرحلة أخرى ، انتهت العرب
لئلا ، واصطفى رب العالمين إسمانا مطهرا مبرءا مصونا نبيلًا مجيدا ،
احتر محمدًا ، ورباه ليرى العرب به ، ورى العرب به ليرى الناس جميعا
هم ، وكانت المعجزة أن القبائل التى هلكت فى الأولين وباد تاريخها
أصحت بأثر هذا النبي المبارك وبالتربية الراشدة التى وضع أسسها
واتضح معالمها فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تلوم أكفائها القديمة ،
ونرتدى حلة قشبية ، وتخرج على الناس نمدىء جديدة تقول : « إنه لا
قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متع » (١) .

(١) رواه ابن ماجه فى المصنفات — بب لصاحب الحق سلطان ٨١٠/٢ وقال فى صحيح
الجامع (٢٤٢١ — ١١٠٣) : صحيح . متع : أى من غير أن يصببه أى يلقفه أو يزعجه

خرجت مبادئ جديدة يقول فيها رئيس الدولة أبو بكر رضى الله عنه . « أما بعد : أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسست فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عدى حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » (١) .

ولذلك وقف بدوى فى بلاط كسرى — هو ربيعى بن عامر — يقول للفرس ويقول لغير الفرس ممن ورثوا جيروت الملك ، وفساد الحكم ، واستبداد الفرد ، وسيطرة العصبية العمياء ، يقول لهم :

« إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٢) .

إن كلمة التوحيد وصغت أسسا مكبة لما يسمى فى عصرنا : حقوق الإنسان . هذه الحقوق جعلت رجلا — قهر الجباة ، هزم الروم والفرس — كعمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى قاتل أخيه فقال له — بطبيعة الإنسان الذى يرى قاتل أخيه ، وقد أسلم — : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم !!

فيقول له الأعرابي : يا أمير المؤمنين أئمننى هذا حتى ؟ قال : لا (٣) هنى أكرهك لكن حقك يصل إليك كاملا ، لا دخل للكره ولا للحب فى مجابة أو ظلم أو إيثار ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴾ [المائدة : ٨] .

ولذلك كانت الحلفية وراء ربيعى بن عامر مشرفة عندما يقول للناس : جئنا لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام !!

(١) رواء ابن اسحاق بإسناد صحيح كذا فى البداية والنهاية لأبى كثر ٣٠١/٦٠

(٢) انظر البداية والنهاية ٣٩٧ . والكامل فى التاريخ ٣٢٠/٢ .

(٣) انظر البيان والبيان : ٤٣/٣

كانت الخلفية — فعلا — مشرفة ، لأن الناس تسامعوا أن عمر
وأن بكر من قبله وأن الحكام المسلمين كانوا — فعلا — ممدوح لتقوى الله ،
والسبب في هذا الإسلام .

هذا الإسلام جعل سادة الأمصار العربية من الأعاجم (١) ، سأل
الخليفة الأموي الوليد أو سديمان : من سيد البصرة ؟ فلان . من سيد
الكوفة ؟ فلان . من سيد مصر ؟ فلان . من سيد دمشق ؟ فلان ، كلهم
كانوا أعاجم ، ما عدا واحدا فقط كان عربيا !!

ما الذي جعل الأعاجم يسودون ؟

الإسلام الذي ألغى لتفرقة العنصرية ، وجعل الخلفاء يصلون وراء
الحسن البصري ، وما كان عربيا (٢) ، وجعلنا نتعلم كل من البخاري ،
وما كان عربيا ، وجعلنا نحب صلاح الدين الكردي ، وما كان عربيا !!
الحضارة العربية حضارة إنسانية ، شارك في صنعها فقهاء القرآن
والسنة من كل جنس ، حتى الأدب العربي شارك في رفع رايته وتصفيه
ديباخته وإبرار جماله الفني شعراء فيهم الرومي والفارسي والعربي .

ومضت هذه الحصار ، لكن اشتبكت في مسيرتها باعداوات
التقليدية ، هل نحن اشتريبا عداوة اليهود أو البصاري ؟ لا ، يقول التاريخ
لولا ظهور الإسلام لبدا اليهود !! فإن اليهود آووا إلى بلاد الإسلام في وجه
الاضطهاد الذي نزل بهم في كل مكان حلوا فيه .

نحن — بطبيعة ديننا الفكرية — أصحاب مباحة ، وأصحاب نظر
عقل ، وأصحاب احترام للدليل ، لكن عندما يعرض بعض الناس سندا
كاسدة أو مغشوشة فيصرف الناس عنها إلى صاحب سلع جيدة وبضائع
نقية فإن صاحب البضائع المغشوشة يرجع بالحقد ، وقد قال الله لنبيه ﷺ :
﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله
هو الهدى ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

(١) انظر مقدمة ابن خلدون — فصل في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم الأعجم : ٣٣٧

(٢) محيي الحسن من أب « مسالي » يدل على أنه كان ينتمي إلى أسرة غير عربية

لقد مضى المسلمون — في تاريخهم الطويل — يخدمون الإنسانية ، ثم بدأ التاريخ الإسلامي يترنح ، وبدأت الأمة الإسلامية تضطرب ، إنني قرأت رأى ابن خلدون في العرب ، وهو رأى شديد ، لكن يبدو أنه صحيح ، فإن ابن خلدون يقول : « إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دبية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة » (١)

يستحيل أن يهض العرب إلا بسوة ، يستحيل أن تقوم للعرب دولة إلا شريعة سماوية ، يستحيل أن يدعم للعرب كيان إلا بالإسلام ، فإذا فرط العرب في الإسلام فرطوا في محدهم ، وفرطوا في كيانهم ، وفرطوا في حياتهم وشرفهم ، وأصبحوا ألعوبة في أرض الله ، بل أصبحوا أعداء لأنفسهم قبل أن يكون غيرهم عدوا لهم .

ولقد نظرت إلى الأمة العربية في عصرها الحاضر فوجدت أن برنامجا للارتداد العام وضع في أوروبا بشقيها : الشرق الشيوعي ، والغرب الصليبي ، وضع هذا البرنامج لحمل المسلمين يرتلون عن دينهم ، وأخذ هذا البرنامج يطبق بطريقة فيها دهاء ومكر .

وأحب أن أقول : إن تطبيق هذا البرنامج يستدعي أولا : محاربة الأخلاق الإسلامية ، محاربة التقاليد الإسلامية ، نزع لولاء الله ورسوله وجعل الولاء لشيء آخر ، وبدأ هذا التطبيق فعلا .

عندما أنظر للعرب الآن أحد أعراض المرض ظهرت كلها عليهم

• كان في « ليبيا » شعب إسلامي احتلت أرضه « إيطاليا » ولكنه بقيادة « عمر المختار » يقاوم ، ثم جاء استقلال ، في ظل هذا الاستقلال يقاد إمام مسجد إلى السجن إذا قال : قال رسول الله ﷺ كذا !! أهذا استقلال ؟ أم أن أيام عمر المختار وأيام المقاومة الإسلامية للاحتلال الإيطالي كانت أشرف ؟

• كان في « سوريا » شعب إسلامي احتلت أرضه « فرنسا » ومع

(١) انظر مقدمة ابن خلدون : ١٢٦ ط المطبعة الأهرية

ذلك فإن المقاومة الإسلامية استماتت في استيقاء الإسلام ، وجاء بعد ذلك استقلال ، في ظل هذا الاستقلال رفض البعث العربي أن يكون الإسلام دين الدولة !! إذن ما يكون دين الدولة ؟! شيء آخر غير الإسلام !! أهذا استقلال ؟ أم أن المقاومة الإسلامية للاحتلال الفرنسي كانت أفضل ؟

« واستمعنا إلى من يقول : تكون فلسطين علمانية فيها اليهود والنصارى والمسلمون !!

أنا أرى أن فلسطين يوم أن تترد عن الإسلام يكون وجودها تحت الحكم اليهودي أو وجودها ككفرة شئنا بساوى بعضه البعض الآخر !!

لا قيمة لاستقلال بدون إسلام ، لا قيمة لنا إن لم ندخل في الإسلام ونؤدى حق الله علينا .

الذى حدث أن الاستعمار العالمى استماتت في أن يسلب المسلمين عن دينهم ، وأن يتوسل بحكام لا دين لهم كى يبلع أهدافه ، وظهرت الردائل المحبوة في الحس العربى يسفك العرب دم بعضهم البعض الآخر على نحو عريب .

كنت أقرأ من يومين معرة الاحتلال الانجليزى في بلديا : « حادثة ديشواى » (١) وقلت في نفسى وأنا بين الصبح والبكاء : ديشواى ! ديشواى تمثل واحدا من الألف مما وقع في السجن الحرى في ظل جمال عبد الناصر ، ديشواى تمثل واحدا من الألف مما وقع في سجن لقلعة وفي سجن أبى رعل وفي سجن طرة ، ديشواى تمثل واحدا من الألف مما وقع في حلب وحماة وحمص !!

(١) وقع هذا الحادث في ١٣ يويه ١٩٠٦م عندما قدم خمسة من الصباط الانجليز إلى ديشواى بمحافظة المنوفية لصيد الحمام فأصيب برصاصهم بعض الأهلى ، ومن ثم هوجم الصباط ، فأصيب بعضهم ومات أحدهم ، فثار المعتد البريطانى « نورد كرومر » وعقدت محكمة خاصة لمحاكمة المصيرى ، قصت بإعدام أربعة من الأهلى وجند وحبس ثمانية منهم ، ونقد الإعدام والجند في ديشواى عب . وقد أثار هذا الحادث الرأى العام العالمى

إن الله أهلك عاداً قديماً لأهم كانوا كما وصفهم الله ﴿ وإذا بطشتم
بطشتم حبارين ﴾ [الشعراء : ١٣٠]

فهذا البطش بطريق الخبرات ألم يظهر مرة أخرى في دمشق والقاهرة
في ظل حكام لم يتقوا الله ، وكانوا عملاء للاستعمار العالمي ؟ هذا خط
مشي فيه الاستعمار العالمي وأعانه عليه قوم آخرون من جلدتنا .

أيها الإحوة : إن مصر — وأنا أعلم بحقيقة مصر وخطورة وضعها
السياسي والاقتصادي والعالمي — كانت الدعامة في حياة العالم الإسلامي من
الصلبية وحروبها في العصور الوسطى ، وكانت دعامة العالم الإسلامي
عندما اجتاحت ألوية التتر بعداد ومضت جحافلهم تريد أن يُظلم العالم كله
أمام رحمتها حتى اضطدمت بالحيش المصري في فلسطين وانهزم التتار .

إن مصر هي العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي ، هي العاصمة الروحية
للعالم الإسلامي ، ولذلك فإن المؤامرات تخفى وتظهر حياً بعد حين كي
ترند مصر والعرب كلهم عن الإسلام .

وشغل المسلمون بمحاقر الأمور ، وتركوا دهاقين السياسة العالمية
يرسمون خططهم وينفذوها في صمت ، فماذا كانت النتيجة ؟ وجدنا
الجامعة العربية تتفق مع إمبراطور الحبشة على أن يأخذ أرتريا وهي قطعة من
أرض الإسلام ، وأخذها وبدأ تنصيرها ، كما بدأت سياسة تنصير عامة من
آحر وادي النيل إلى القاهرة والاسكندرية .

وكان مما جعده عبد الناصر لصرب الإسلام أن أوهم قوى الأهر
وقوى الجماعات الإسلامية ، ودعم الآخرين وهباً لهم فرص ضخمة
للظهور والسجاح والتفوق .

لعله قدر سابق ، لعلها إرادة الله الرحمن الرحيم ، لعلها مشيئة مالك
القوى والإرادات أن مصر اعتصمت بحبل الله ، وقررت أن تبقى على
الإسلام .

وهذا أقول بشيء من الصراحة والوضوح : إن مصر إسلامية شكلاً
وموضوعاً ، وإن مصر ستبقى أرض الإسلام وموئل تعاليمه ومثابة جنده ،

وستبقى رية الإسلام فيها ، ولن يسمح بته تعبير التربة الإسلامية في مصر ، وكل من سولت له نفسه — في أمريكا أو أوروبا أو من الشيوعيين في موسكو أو بكين — أن يصططع من المؤامرات أو يفتعل من الحركات ما يعير به الطبيعة الإسلامية لمصر فإنه لن يلقي إلا الفشل ، وما دما أحياء ، وما دام أبناؤنا من بعدنا ، وما دام تلامدنا من ورائنا فإن مصر ستبقى بلد الإسلام ، وستكسر أمواج العرو على الشاطئ الصلب ، وستبقى هذا البلد للإسلام بحر عرير أو بذل دليل ، لن نسمح أبدا بأن تتحول مصر عن الإسلام ، ولن تنجح المؤامرات التي تريد تحويل مصر عن الإسلام .

ولذلك فإننا نؤكد هذه الحقيقة لدور مصر الإسلامي ، ثم نقول : إن مصر — كأي بلد إسلامي آخر — احتضنت أقليات دينية ، وستبقى أسعد الأقليات في العالم الإسلامي ما دام الإسلام في مصر ، ولا ضمان للأقليات الدينية في العالم الإسلامي إلا إيماننا بالله واعتصمانا بكتابه واتباعنا لسنة نبيه ﷺ .

وكون الأقليات الدينية تحاول — بالاتصال بأمريكا وأوروبا — أن يكون لها عز أو شأن ، فإن ذلك س يحج قصدها ولن يرفع لها خسيصة ، ويستحيل أن يبقى لها مكانها إلا في وسط مصر المسلمة وكل بلد إسلامي يريد أن يوفى لربه ولتراثه ولدينه .

ولنقلها صريحة . ليس في مصر مكان لـ « سعد حداد » (١) وليس في مصر مكان لـ « يعقوب حنا » (٢) جديد ، إن مصر الإسلامية ستبقى مصر الإسلامية .

(١) الرائد سعد حداد قائد البشيا المسيحية اللبنانية : ضابط بساى مشق ، وعميل إسرائيل وقربتها في التعصب العنصري ، وقد ذهب إلى حيث أُلتمت

(٢) ولد المعلم يعقوب في « موى » حوالى عام ١٧٤٥ من حنا وماريه عزال ، والتحق في عهد « على بك الكبير » بخدمة « سليمان » أعا الألكشدرية أو رئيسها ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر .. تظاهر مع الفرنسيوة ، وجعلوه سرى عسكر القبط فجمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزي مشابه بعسكر الفرنسيوة وصيرهم عسكره وعروته وجمعهم من أقصى الصعيد ، وهلم الأماكن المحورة لخرة البصارى ... التي هو ساكن بها — خدع الجامع الأحمر ،

وللمناسبة الأحداث الأخيرة (١) ذهبت وحملة المسئولين عن الدعوة
لإسلامية من رجال الجماعات الإسلامية واهيئات الإسلامية إلى وزير
الداخلية (٢) وتكلما معه وقدمنا له مطالبنا ، ولأقل : إن المطالب أحييت .
حقيقة الأحداث : هناك ألمان وخمسمائة متر حاول بعض الناس
غنصها لينتوا عليها بنون إدد الدولة والشعب معيدا لعبر المسلمين مع عدم
حاحتهم تماما إلى هذا المعد .

تقرر نهائيا أن يبنى المسجد ومعهد ديني في هذا المقر ، وبقي على
لأرهر أن يؤدي رسالته أو واجهه ، وسؤدى هذا ، وستعين الجماعات
لإسلامية على بقاء المكان للإسلام .

أما الدين قتلوا واعتدوا وأجرموا فسوف يأخذ انقضاء العادل عراه
بهم وعلى محل ، وشيء أحيى وهو أن تحريد المعتدين من السلاح لابد
مه ، ولابد أن يأخذ دوره وامتداده ، وقد انتهت الأمور إلى هذا .

لكى أنظر إلى الوضع بعد ذلك فأرى أن الأمة الإسلامية تحتاج إلى أن
تعيد النظر في الطريقة التي تفكر بها والطريقة التي تحيا بها ، فإننا مذهبون
عن المؤامرات الاستعمارية الكبرى التي تريد الإجهار على ديننا والبليل مه ،
تفكرنا سطحي ، شعلنا بالتوافه ، والأمر يحتاج إلى أن تعرف أمتنا — كما
قلت — المؤامرات العالمية الكبرى لصرب الإسلام في العالم الإسلامي وفي
مصر بالذات ١١ .

— وبني له قلعة ، وسورها بسور عظيم وأبراج ، وباب كبير يحيط به بكنات عظيم ، وكذلك بني
أبرجا في ظاهر الحارة جهة بركة الأربكية ، وفي جميع السور المحيط والأبرج حيطاناً للمدافع وبدون
الرصاص على هيئة سور مصر الذي رماه الفرساوية ، ورتب على باب القلعة — الخارج والداخل —
عنة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا ، وبأبوابهم المادق على طريقة الفرساوية « [تاريخ
الجبرني] وهو توقيع وثيقة استسلام وجلاء جيش الاحتلال الفرنسي بادر يعقوب فخرج مع جيش
الاحتلال ومات في عرص البحر ووصعت جثته في برميل من الخمر حتى لا يتعفن إلى أن وصلوا إلى
مصر ليها ودفعوه ١١ وهكذا كان يعقوب حيا انطاياور الخامس المسلح الذي قاتل ضد مواطنيه الثغرين
ولكنهم يريدون استعمال قصبة له ، واختاروا هذا المسخ بالذات ليجمعنوه رائد القومية المصرية ١١
(١) أحداث الزوية الحمراء بالقاهرة في يوم الأربعاء ١٧/٦/١٩٨١ م .
(٢) محمد نبوي إسماعيل

وهذا لا يقتضى حماسة يوم ولا فصاحة خطيب ، لا ، هذا يقتضى سياسة مدروسة بعيدة المدى ، فإن اليهود لما أرادوا اغتصاب فلسطين وضعوا خطة بعيدة المدى تنفذ على عشرات السنين ، ولا أدري ما الذى يجعل المسلمين يصنعون خططا لأيام أو لأسابيع ؟! السياسات البعيدة المدى لا بد منها ، لا بد أن يكون لنا من نتعلم منه ، ومن يشرف على نواحيها المادية والأدبية ، ويحمو على الإسلام ، ويتألم لألمه ويصكر بمشاعره وقصاياه ، لا بد من هذا كله .

إن أمتنا الإسلامية تعيش فى العالم الآن وفيها عفة غريبة ، جاءت امرأة من الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل الأربعينات ، وراحت إلى أسبوط (١) ، وبدأت عملية تشير ، وحصيلة تشيرها الآن مستعمرة من نحو عشرين فدانا فيها نحو ألفى رطل و امرأة دخلوا المسيحية على المذهب البروتستانتي !!

المرأة — فى صمت — اشتغلت بأخذ اللقضاء وتربيتهم وتعليمهم وتعليمهم ، وهم الآن يمثلون مستعمرة داخل أسبوط ، لماذا يكون الفكر التشيرى طويل الأمد ، طويل البال ، واسع الخيلة ، بينما الفكر الدينى عند المسلمين طائش سريع ملتهب ويخمد على عجل ؟

إن المسلمين يجب أن يكون لهم — فعلا — من يرسم لهم هذه السياسات الطويلة المدى ويصبرهم ويومهم وحاصرهم ومستقبلهم ، يصبرهم بتاريخهم العابر وما يستمد منه من عبر .

إن كل حكم — على أى شبر من أرض الإسلام — بخاصم الإسلام هو عميل مرتد يشتغل لحساب اشيوخ اشيوخ أو الغرب الصليبي ، وكلاهما الآن مسلح وذكى

مخاصمة الإسلام لا تحور ، الولاء كله للإسلام ، والحب كله لله ورسوله ، وما عدا ذلك فهو تبع ، عن يريد أن يعلم القاصى والدانى أن مصر لن تكفر بالله ، لن تهجر الإسلام ، إنما لن نقبل عمالة لشرق أو لعرب .

أقول قولى هذا وأستعمر الله لى ولكم .

(١) محافظة أسبوط إحدى محافظات الصعيد المصرية

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمدا رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين

الهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه

والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله

وأرى أيها الإخوة أن تنتهى المأساة التى يمر بها البلد ، فلا داعى لإشعال الحرائق ، ولا داعى للمضى فى فتر لا يعرف لها أول من آخر ، وليس معنى هذا أن نسلم أعناقنا للحرارين ، بل نكون أدكياء فى الدفاع عن أنفسنا ، حاذرين فى ألا تقع أقدامنا فى حبال العاديين الخونة .

أيها الإخوة : إما إن شاء الله بعد صلاة الجمعة سنصلى صلاة العائى على من مات من المسلمين فى هذه المحنة ، وسنجمع أيضا بعض التبرعات للمكويين الذين نالهم ما نالهم بعدما أحزنوا عدرا .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنائنا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١)

(١) رواه مسلم فى الذكر ... باب التعمود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عماد الله .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

* * *

نَظَرَاتُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (١)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/١١/٣٠

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله
الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المير

الهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أم بعد :

فإن الله جل شأنه سمى خطبة الجمعة ذكراً في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾
[الجمعة . ٩] .

واندین یسعون إلى هذا المسجد إنما يجيئون كي يُكُونُوا من الحشود
المائة فيه بين يدي الله مجلس ذكر كبير لرب العالمين .

ثم إن الوقت الذي يقصونه ها نحاسب عليه أمام الله ، فلا يجوز أن
يضيع إلا فيما هو جدٌ ونافع وجامع ثواب الدنيا والآخرة .

وقد رأيت أن أبدأ تفسير السورة الكبرى في القرآن الكريم وأنا أتمثل
هذين المعنيين — أنا جئنا ها لذكر الله جل جلاله ، وأن أوقات الدين
يجيئون هنا غالية لا يجوز أن تضيع إلا فيما هو خير .

السورة التي أردت أن ألقى بطرات عليها — هذا اليوم وأياماً أخرى إن شاء الله — هي سورة البقرة ، وهي أطول سور لقرآن الكريم ، وأملؤها بالأحكام ، وأحفلها بالعبر والهدايات .

روى عن أس رضي الله عنه : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا يعني عَظُم » (١) أي عَظُمَت مِرْكُهُ وَأَصْبَحَتْ لَهُ مَكَانَةً ، وذلك أن الحفظ قديماً ليس كهئتنا الآن ، نحن أشرطة حيّة تحفظ القرآن الكريم أحرفاً وألفاظاً ، أما الأولون فكانوا يحفظون القرآن الكريم على نحو آخر ، كانوا يستمعون على حفظه بالعمل به ، كانوا يستوعبون ما فيه من نور ، يستبطنونه في سرائرهم فهي به مُشْرِقة ، وهم به على درجة من الإيمان والصلاح والاستقامة يَشْرَكُونَ بِهَا الْمَلَأُ الْأَعْلَى !! .

أحب أن أوجه النظر إلى خطأ شائع بين المسلمين ، إهمهم يظنون أن الآيات تُجمع في السورة من السور ويُرْكَم بعضها فوق بعض ، وكما تنظر إلى دُكَّانٍ جُمِعَتْ فِيهِ السِّلَعُ وَرُمِيَ بِبَعْضِهَا فَوْقَ الْبَعْضِ الْآخِرُ دُونَ تَرْتِيبٍ أَوْ ضَبْطٍ أَوْ تَنْسِيقٍ ، بعض الناس يظن سور القرآن تجمعت الآيات فيها على هذا النحو . رُكَّامٌ مِنَ الْأَحْكَامِ لَيْسَ هُنَاكَ ضَابِطٌ وَلَا رَابِطٌ فِي حَشْدِهِ وَسَوْقِهِ ، وهذا خطأ كبير .

ولذلك اجتهدت أن ألقى بطرات على التفسير الموضوعي للقرآن الكريم من على هذا المسير ، وتفسير سورة البقرة سنأخذ فيه هذا المنهج : أن السورة كتبها وَحْدَةً مَرْتَبُطَةً مَتَّاسِقَةً ، لها محور تدور عليه ، ولها أول يمهد للآخر ، وآخر يصدق الأول ، ومهم طالت السورة فإن المعنى الذي نقرؤه الآن يَطْرُدُ فِي سُورِ الْقُرْآنِ ، ومن أول هذه السور سورة البقرة .

يبي ويبي نفسي — وأنا أشرح القرآن الكريم وأفسره — سميتها — أي سورة البقرة — سورة (الأتقياء) !! .

(١) رواه أحمد ٣ / ١٢ .

وقد تسأل : لم سميت هذه السورة — بيك وبين نفسك — بهذه التسمية ؟ .

والجواب : لأنى لاحظت — فعلاً — أن السورة كلها تدور حول حقيقة التقوى ومعالمها وما يوصل إليها وأقسام الناس بها ومواقف الأولين والآخرين من حقيقة التقوى !! .

لأبد من نظرة محملة سريعة ، ثم نظرة مفصلة قليلة ، ثم نظرات جانبية مختلفة ، فلننظر النظرة السريعة . النظرة السريعة أن السورة بدأت تقول : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ [البقرة : ٢] .

هذا القرآن بعيد عن الشبهات ، لا تتسلل إليه ريبة ، أما الكتب الأخرى فإن الريب تكتنفها ..

إن الله صان هذا الوحي الخاتم ، وجعله مرهاً عن أى شك ، فما فيه حقائق مقطوع بها ، يستحيل أن تكون في هذا الكتاب عقائد أو عبادات أو معاملات أو أخلاق أو أحكام جزئية أو كلية فيها شيء من الخلل ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ .

أوجه الطر إلى كلمة (المتقين) فإن مفتاح السورة إنما تمسك به عندما تقف ها وقفة متدبرة .

أولاً : من هم المتقون ؟ الجواب : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ [البقرة : ٣ ، ٤] لكن ما التقوى بعد هذه الأوصاف المجملية للأتقياء ؟ .

هنا أخذت السورة تُفصّل في شرح التقوى ، وأوجه الطر إلى أن السورة نحو خمسين صفحة ، وأنه ما من صفحة أو صفحتين إلا وكلمة (التقوى) ترد تقريباً ..

ولأضرب الأمثلة : في الصفحة الأولى ﴿ هدى للمتقين ﴾ بعد صفحة واحدة نجد التقوى أساساً في العقيدة ، أن توحد الله وتعبد عبادته مبرأة من كل شرك شاعراً بأنه الذى خلقك وخلق أجدادك من قبلك ويخلق

أولادك من بعدك : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين
من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

ثم بين أن الحجة أعدت للمتقين ، ثم بين أن الأمة التى حملت الوحي
قديما - وهى أمة بنى إسرائيل - سقطت عن مستوى التقوى ، وبين الله
جل شأنه لم سقطت عن هذا المستوى ، وما الذى فعلته حتى فقدت خلق
التقوى وأصبحت أمة فاجرة لا عهد لها ولا شرف ، ثم بين للأمة التى
استُخفيت بعد ذلك وحملت مشعل الوحي كيف تتقى وما معالم التقوى فى
سبوكها ، فوجدنا آية - وسط السورة - جامعة تبين كيف تبلغ الأمة
حقيقة التقوى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب
ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ﴾
وبهذا أكد المعنى الأول وهو الإيمان بالعبس ، فى أول السورة : ﴿ ويقيمون
الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ها يحىء نفس المعنى : ﴿ وآتى المال على
حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب
وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى
البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾
[البقرة : ١٧٧] ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ لأن السورة بدأت : ﴿ هدى
للمتقين ﴾ ١١ ألقوا معى بآلکم فإن سورة من خمسين صفحة غاب عن
كثير من الناس أنها تدور على محور واحد ، وظنوها مجموعة من الآيات
رُكِّم بعضها فوق بعض على غير نظام وإلى غير هدف ، وهذا باطل .

أخذت السورة - بعد ذلك - تبين للأمة التى أنشئت بعد بنى
إسرائيل وأُتممت على رسالات السماء كيف تتقى الله ، وأوجه الطر هنا
إلى أن أغلب آيات الأحكام فى هذه السورة قُرْن بالتقوى ، حذ مثلا قوله
تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من
قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى
الألباب لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ الحج
أشهر معلومات فمن فرض فبين الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى
الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى

واتقون يا أولى الألباب ﴿ [البقرة ١٩٧] ، خذ مثلاً قوله تعالى — وهو ينظم العلاقة في البيت : ﴿ ساء لكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾ [البقرة ٢٢٣] ، حتى عند تطيم الطلاق يقول . ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن معروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ [البقرة ٢٣١] ، ويطل الأمر بالتموى ماشياً في صفحات السورة حتى تصل إلى الصفحة الأخيرة وهو ينظم المعاملات بين الناس فيقول — بعد أكبر آية في القرآن وهي آية الدين . ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله به ﴾ [البقرة ٢٨٣] تكررت كلمة ﴿ التقوى ﴾ في السورة نحو أربعين مرة لأن الدعامة التي نهضت عليها السورة هي : ﴿ هدى للمتقين ﴾ ، وعندما قلت : إننى — بينى وبين نفسى — رمزت للسورة في دماغى بأنها سورة (الاتقياء) إنما قصدت بذلك أن هذه السورة وضعت المواصفات لتقوى الله ، ومعنى التقوى : أن تعرف الله ، لكن أى معرفة ؟ . معرفة نظرية صورية ؟ لا . التقوى أن تعرف الله معرفة تتحول إلى حشية نفسية وحواف عاطفى وإجلال وجدان لله جل شأنه !! .

هل التقوى معرفة وحشية كلاهما داخل النفس البشرية فقط ؟ لا ، لابد أن يظهر ذلك في السلوك : عبادة ، معاملة ، خلقاً ، لأن هذه السورة تناول المجتمع ، ففي ميدان العبادة يقال ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ [البقرة ١٨٣] وفي ميدان التشريع يقال : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ [البقرة ١٧٨] وفي ميدان السياسة والدولة يقال : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ [البقرة ٢١٦] اللفظ واحد ، يشمل تشريعات عبادية واجتماعية وسياسية ، لأن التقوى لا تنقسم ولا تتفك ، فالضمير التقى هو الضمير الذى يكون الإنسان به مؤتمناً على صلاته وصيامه ، على قضائه بين الناس

وحكمه في شئونهم ، على حصومته فهو ما يخاصم إلا الله ، وما يحارب إلا الله ، الكيان الإنساني كله ما يَبْضُج ولا يَعْظُم ولا يَكْرُم إلا بمقدار ما تصقله التقوى !! .

هذه نظرة محملة على السورة ، كأني في طائرة أطوف بمدينة كبيرة فأنأ ألقى نظرة محملة سريعة !! .

لكن عندما أبدأ فأنظر نظرة متفحصة متأنية لكل جانب أجد أن السورة — وهي تتحدث عن الأتقياء — ينت أن الناس ثلاث فرق : مؤمنون أتقياء ، وكفار ملحدون فحرة ، وموافقون هم في باطن أمرهم لا إيمان لهم ، ولكهم في ظاهر أمرهم — ورعاية لمصالحهم — يلتحقون بركب المؤمنين !! آيتان أو ثلاث في المتقين ، آيتان في الكافرين ، ثلاث عشرة آية في الموافقين !! .

أعلل البصر قليلاً — مع أول السورة لأجد هذه الكلمة في وصف المتقين : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ما هو الغيب ؟ الغيب شيء وراء المحسوس ..

من قديم كان ناس يقولون : ما تؤمن إلا بالمادة ، ما تؤمن إلا بالمحسوس ، ينجى رجل إلى النبي ﷺ وفي يده عَظْمٌ وهو يُفْتته ويُذريه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم يبعثك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » (١) يستطيع الذي خلق أولاً أن يخلق أخيراً !! .

لكن ما هو مطلق الجاهلي ؟ هو ما يتردد الآن في بعض الصحف من أن الإيمان بالغيب ليس تفكيراً عقلياً !! .

(١) قال السيوطي في باب القول في أسباب النزول ص ٢٢٧ : أخرجه ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الربير والسدي وسهوا الإنسان أن ين خلف . وقبل أن يسوق السيوطي هذه الرواية لابن أبي حاتم قال : أخرج البخاري وصححه عن ابن عباس قال : جاء العاصي بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته فقال : يا محمد أبعث هذا بعد ما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ثم يبعثك ثم يبعثك ثم يحشرك نار جهنم . فزلت الآيات ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة .. ﴾ إلى آخر السورة ..

إننا نؤمن بأن الله موجود ، ونحن لا نُحسُّ الوجود الإلهي بأصابعنا ، نحن لا نُحسُّ عقولنا بأصابعنا ، نحن لا نُحسُّ أرواحنا بأصابعنا ، فكيف نتصور أن رب المادة والروح يمكن أن يُدرك بالحس العادي ؟ هذا مستحيل ، ولذلك كان الإيمان بالغيب شيئاً مستهجناً عند من عبدوا الحس ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون يوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ [المعجم : ٧ - ١٣] أى حرافات الماصي ، والماضي يجب أن يُترك ، الإيمان بالله ، الإيمان بالوحي أساطير الأولين !!

هذا الكلام تكرر كثيراً . ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : ٢٥٠] الكلام عن الماصي وأن الماضي خرافي وأن ما نرثه عن الأوائل هو الخرافات ليس كلاماً جديداً من اختراع العصر الحاضر ، لا ، هذا كلام قديم ، عندما كان الوحي الأعلى يتلى على الناس كان الملحدون يقولون نفس الكلام الذي يقال الآن في بعض الصحف !! الإيمان بالغيب شيء لا بد منه ، لأننا نحن البشر ما نستطيع أن نرى إلا أجساماً معينة ووفق مسافات معينة فإن طالت المسافة عجزنا عن الرؤية ، وإذا دقت الأجساد أو صغرت عجزنا عن الرؤية ، والله أكبر وأجل من أن يُرى أو يُلمس أو يُحس على هذا النحو الذي يفكر فيه الذين يصفون أنفسهم بالعلم ولا علم لهم .

هذه السورة بدأت تصف المتقين وتبين أن لمتقين الذين يؤمنون بالغيب يضمنون إلى ذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بما نزل أولاً من كتب عن أنبياء الله جميعاً ، وأن هذا الإيمان الشامل لا بد منه لكل من يريد استيعاب الإيمان والتصديق بما عند الله . بدأت السورة بعد ذلك تتحدث عن بنى إسرائيل ، والحديث عن بنى إسرائيل نوحه النظر إليه من وجوه :

أول هذه الوجوه أن القوم كانوا فعلاً — كما ذكرت السورة — قوماً مُفضَّلين : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ [البقرة ١٢٧] ، لكن إسرائيل الذي فُضِّل وفُضِّل أبائوه على العالمين هم فُضِّل وفُضِّل أولاده ؟ تقول السورة نفسها : إن إسرائيل — وهو يعقوب — كان نبياً يدعو إلى توحيد الله ، وكانت دعوته امتداداً لدعوة جده إبراهيم ، وكان هذا البدء بتوحيد الله ، والحرص على هداية الناس به كان ذلك المثل الأعلى الذي يتوارثون تليغته والتجمع عليه : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة ١٣٣] فهل أولاد إسرائيل الآن على مستوى الرسالة التي بلعها إسرائيل ؟ لا ليسوا على المستوى ، من لناحية الطيرية الكتاب الذي بين أيديهم مشوه ، ملئ بالمفاسد الخفية ، إن الذي يقرأ سفر (نشيد الإشاد) الذي لسليمان — وهو موجود في العهد القديم — يقرأ جُملاً عاهرة ، وعبارات سيئة رديئة مبيئة بالانحلال ، مليئة بالدعوة إلى الفسق والإثم ، وما يتصور في كتاب مقدس أن يَطْوَى على هذه المآسي والمحاري .

وسفر (التكوين) — وهو حجر الروية في العهد القديم — سفر ملئ بوصف الله بالجهل والدم والتجسد والأكل مع البشر والمصارعة لبعض الخلق وما إلى ذلك مما لا يمكن أن يكون كلاماً مقبولاً ولا معقولاً !! .

ثم إن فكرة إسرائيل التي قامت على أساسها الدولة فكرة مليئة بالشرور والعطرسية ، وعندما كنت في (المغرب) نُقِلَ لي صديق — يعرف الفرنسية — تصريحاً لـ (بن غوريون) — وهو شيخ مشلول الآن بين يدي ربه — يقول : إن الله خلق الكون في ستة أيام ولم يكن لديه وقت لإصلاحه فنحن الذين نتولى إصلاحه بدلاً عن الله !! .

هذا الكلام سجله صديق لي في مجلة سويسرية معروفة الاسم ورقم العدد .

ماذا أثمر هذا الكلام ؟ .

أُثِرَ أن اليهود في العالم كله من وراء اضطرابه النفسى والخلقى والاجتماعى ، ولذلك فإن القرآن عندما خاطب هؤلاء قال لهم : ادعوا ما لديكم واتبعوا السبى الجديد الذى يعلمكم ، إن كانت لكم مكانة فيستحيل أن تبلغوها إلا إذا تبعتم لصالحين وإمام الصالحين محمد بن عبد الله : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون ﴾ [البقرة : ٤٠ ، ٤١] .

هذه المعانى كما ذكرت لبنى إسرائيل ذكرت كذلك بالنسبة للمسلمين ، ما معنى هذا ؟ .

من إنصاف القرآن أنه عندما يُشرِّح كيان الأمم الهالكة يذكر محامدها ومعاليها على سواء ، وعندما يذكر الأمة التى تحملها وتبليغها — وهى الأمة الإسلامية — يذكرها كذلك بأنها إن لم تؤد ما عليها ضاعت ، وإن لم تلتزم السنن المرسوم زاغت ، ولذلك يقول للمسلمين : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] ومعنى ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ أنكم إذا نسيتمونى فسأنساكم ، إذا لم تؤدوا حتى فلا عهد لكم عندى ، إذا لم تلتزموا بمنح التقوى الذى رسمته — فى هذه السورة — فإنكم سيطبق عليكم ما ينطبق على الأمم قبلكم 11 .

عندما نستعرض السورة تفصيلاً نسجد أن التقوى شملت نظام الأسرة ، نظام البيع والشراء ، نظام الزواج والطلاق ، نظام الرضاعة ، نظام اليمين ، نظام الإيلاء — وهو الحلف على شيء معين بالنسبة للمرأة .

السورة هنا شملت أغلب الأحكام التى ورد بها القرآن الكريم ، وينت أن إقامة هذه الأحكام فى حملتها هى التى تجعل المجتمع الإسلامى تقياً ، وتجعل الأمة الإسلامية جديرة برعاية الله .

وكما بدأت السورة بالحديث عن الإيمان والتقوى وعن الإيمان بما ورد من كتب سابقة وبالمُرسلين الذين جاءوا بهذه الكتب نُختمت السورة بما بُدئت به : ﴿ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكَتَبَهُ وَرَسُولُهُ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ثم ختمت بهذه الأدعية : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِنَا وَلَا تَجْعَلْنَا مَسِيحِينَ أَوْ أَصْنَانًا وَلَا تَجْعَلْنَا حِمْلًا عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا حِمْلًا عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة ٢٨٥، ٢٨٦] هذا الختام أغقَبَ تفصيلات اتصلت بأول السورة ، أول السورة تحدث عن الإيمان بالغيب ، ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالبعث ، ولذلك تجد في أواخر أسورة حديثاً عن الإيمان بالغيب وهو يشرح البعث : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا اللَّهُ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي رُسُلًا فَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] لكن الله عز وجل لا يُطلب منه أن يُرى كل إنسان معجزة مادية ، كي يعقل وكي يصدق وكي يؤمن ، إنه يقول للإنسان : منحتك عقلاً وأدلك على ما تعرفني به : إنك عندما تأكل طعاماً ميتاً فاقد الحس — طَبِخَ في النار — فإن هذا الطعام الميت — بعد عدة ساعات — يتحول في جسدك إلى كيان حي !! يتحول الطعام في جسدك إلى خلايا حية ، يتحول إلى عظم ولحم ودم وأعصاب وشعر وأظافر !! .

كيف يتحول ؟ لا ندري ، لكن الذي ندره أن هذا الإنسان يولد وورثه رطلان — تقريباً كيلو — ثم يتحول إلى مائة كيلو تقريباً !! .

كيف تحول الجماد — الطعام — إلى حياة في كياننا ؟ هذا ما تشير إليه السورة عندما تتحدث عن هذا الملكوت الضخم : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها
وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿ [البقرة ١٦٤] .

سورة البقرة ، يمكن أن نقول بإجمال : إنها تحدثت عن التقوى في أول
صفحة منها ثم أدخلت بعد ذلك تصف معالم التقوى ، ووسائل بلوغ
التقوى ، ومن هم الأتقياء ، وغير الأتقياء وأحوال الأمم القديمة ، وأولها أمة نبي
إسرائيل ، كيف سقطت عن مستوى التقوى ، كيف جاءت الأمة
الإسلامية بعد ذلك ، وكيف ورثت الوحي الأعلى ، وكيف تتقى الله ،
كى تؤدي رسالته ، وكى تكون أهلاً للاستحلاف فى الأرض ، وكيف
تعتمد على الله فى إيمانها وعبادتها ، وفى الهوض بالتكاليف التى حُمِّلَتْهَا ..

إن الله جل شأنه عندما أمرنا أن نقوم بما أوجب علينا خلال هذه
السورة المطولة من عادات ومن أعمال ومن تكاليف فإنه كلفنا أن نبذل
وسعنا ، وطلب منا أن نستعفره فيما نخطيء فيه أو نساها وطلب منا كى
نثبت على الدين وكى نتمكن من العيش به أن نستمع منه العون فى الانتصار
على الكافرين الذين يحاربون هذا الدين والمنتسبين إليه .

هذه صورة سريعة لسورة البقرة ، يحتاج الأمر بعد ذلك — كما قلت
لكم — إلى صورة مفصلة لبعض أركان هذه السورة الكبرى .

نرجو أن يوفقنا الله إلى تكوين هذه الصورة فى خطب أخرى .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

★ ★ ★

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ الشورى ٢٥٠ ، ٢٦ ﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء ومسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فأريد أن أوجه النظر إلى شيء يتصل بحياة العرب والمسلمين في عصرنا الحاضر ، عندما اتجه الاستعمار العالمي إلى إقامة دولة لإسرائيل على أنقاض فلسطين كان يريد أن يبلغ هدفه عن طريقين :

أولاً : إرسال اليهود من نحو تسعين دولة إلى المقر الجديد الذي اختاروه لهم .

ثانياً : إشاعة الفوضى العقائدية والأخلاقية في الكيان القريب ، وفي الكيان الإسلامي العام ، حتى لا يستطيع هذا الكيان العربي بعد تمزيق عقائده وأخلاقه أن يقاوم السرطان الذي غرس داخله .

صار الأمران معاً ، عندما أوجد بنى إسرائيل على أنقاض فلسطين كان في الوقت نفسه يوجد داخل أمتنا أشخاصاً وهيئات وحكومات ، وظيفتها أن تحطم عقائد الإيمان ومعاهد الفضيلة وتجعل الأمة لا إيمان لها ولا صلة لها بالله !! .

وبذلك تعجز عن مقاومة اليهود الذين جاءوا متعصبين لدينهم متمسكين بتوراتهم ، لاحظتُ أن الصراع بين الإيمان والكفر أخذ طريقاً

طويلاً ، لكن شاء الله — رحمة بنا وممة علينا — أن يجعل هذه الأمة
ثوب إلى رشدها وترجع إلى ربها وتستمسك بصيحة التوحيد التي أبعثت
خلال صفوفها المقاتلة ، وأدرك أهل الشرق والغرب جميعاً أن العرب في
معركتهم الأخيرة^(١) كانوا جنساً آخر لأن الإيمان عاد إلى قلوبهم ، لأن
تكبير الله طهر أفواههم ، وجمع صفوفهم ، ووجد كلمتهم ، وأزال ما بينهم
من جهوة^(٢) .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »^(٣) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ...

(١) معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ - اسلأم من أكتوبر سنة ١٩٧٣ م

(٢) على تعيق بسيط للأسف لم يُسجل

(٣) رواه مسلم في الذكر — باب لتعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/١٢/٧

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فكتابا العظيم الذي لا ريب فيه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصدر اليقين الراسخ ، والإيمان البالغ ، وسائق للأدلة القوية والبراهين الدامغة !! .

هذا الكتاب ناشر الإيمان في الدنيا على وجهه الصحيح ، ومصور الحقائق التي يحتاج الناس إليها في معاشهم ومعادهم !! والناس بإزاء هذا الكتاب صنفان :

صنف آمن بما جاء فيه ، وصنف صدّ عنه وكفر به .

وفي الصفائف الأولى من سورة البقرة حديث عن الصنفين معاً :
الصنف المؤمن التقى ، الحريص على مرضاة ربه ، الراغب في ادحار شيء عنده يلقاه به يوم القيامة ، هذا الصنف من الناس ندع الكلام فيه قليلاً إلى صنف آخر .

الصنف الآخر هم الذين كفروا ، وقد قسمتهم سورة البقرة قسمين .
القسم الأول : ظهر بكفره ، واستعلن بصلاله ، ولم يجد حرجاً في أن
يكون مواجهاً للناس بما عنده .

القسم الثاني : ظهر بالإيمان ولكنه أسر الكفر ، صهر باهدى ولكنه
أبطن الضلال ، هذا الصنف سرعان ما تكشف الأيام عن خباياه ، وتمضح
سرائره ، ويبدو لساس ما اكتتم من أمره ، وهم المنافقون ، والمنافقون كفار
يقيناً ، إلا أنهم — كما قلت — لمصالح خاصة تظاهروا بغير ما في باطنهم ،
وقد تحدث القرآن عنهم في هذه السورة وفي غيرها ، في هذه السورة تناولهم
هذا الأسلوب : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١١ - ١٣]

ونقف وقفة قصيرة عند هذا التوضيح لموقف المنافقين والكمار ، فقد
تبين لنا من دراسة هؤلاء الكافرين أنهم صنفان : صنف يعرف الحقيقة ،
ويدرك أن رسل الله جاءوا بالبينات ولكنه لشهوة غالبة ، لمال يحتاج إليه ،
لمنصب يحرص عليه ، لطمع من أطماع الحياة العاجلة ، لشيء من هذا أو
ذاك يرفض أن يصدق وأن يستكين لله وأن يلبي مطالب الدين ، هذا النوع
من الناس يعرف الحقيقة ولكنه يرفض أن يصدق بها وأن يخضع لها .

في هذا الصنف يقول الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَ وَاسْتِيقْنَهَا
أَنفُسَهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤٠] و
هذا الصنف يقول الله عز وجل : ﴿ مَأْصُوفٌ عَنِ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] أساس هذا الكفر أن العقل
سليم عرف الحقائق ، ولكن القلب مريض رفض أن يُدْعن وأن يُسلم !!
هناك نوع آخر من الكفر أساسه أن العقل نفسه لا يُحس الطر ، البصيرة
نفسها لا تدرك الحقيقة ، صاحب هذا النوع من الكفر أعمى لا يرى ،
ولكنه يكاثر معتقداً أن ما عليه حق مع أنه صال .

وهذا مسلك المنافقين الذين يقال لهم :

﴿ لا تفسدوا في لأرض ﴾ فيكون جوابهم : ﴿ إنما نحن
مصححون ﴾ !! يقال لهم : ﴿ آمنوا كما آمن الناس ﴾ فيكون جوابهم :
﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ !! .

هذا النوع من الناس — الذي يكمر لأن له وجهة نظر سيطرت عليه
وحجت عنه الحق ، ونسجت على عييه وقديه عشاوة — يقول الله فيه :
﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم
ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً . ذلك جزاؤهم
جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ [الكهف ١٠٣ - ١٠٦] ولن
يخرج الكفر في صورته عن هذين الصنفين :

صنف يعرف الحق ولكنه يكره أن يستحيب لندائه لغلبة الشهوات
عنه ، وصنف آخر طُست عيه وبصيرته فهو لا يرى إلا ضلاله وخياله

وكلا الصنفين ضال لأن الإيمان الحقيقي نصارة في العقل تجعل المؤمن
حسن الرؤية للحقائق وفحوة^(١) في القلب تجعل المؤمن إذا عرف الحق
انشرح له صدره ، وأذعن له ضميره ، واستقام به فعله ، ووصلحت به
سريته وعلايته ، ونحن ندعو الله أن يجعلنا من أولئك الذين يجمعون بين
يقظة العقل ويقظة القلب .

هذا النوع من الناس هو الذي بدأت سورة البقرة تتحدث عنه ، وتبين
أن الإيمان ليس تصوراً نظرياً فقط ، ولكنه إلى جانب حسن التصور
للحقائق استقامة خلقية : ﴿ هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب
ويقومون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة ٢ ، ٣] .

صورت السورة مواقف أهل الحق ومواقف أهل الباطل من كافرين
صرحاء ومن كافرين متوارين مدهيين محادعين . ثم بدأت السورة تعلن

(١) الفحوة : القطعة من العسل ما دام لم يحصر من شحمه

طريق التقوى العام وهو أن الله واحد وأن محمداً نبيه . أما أن الله واحد فدليل ذلك : هذا الملكوت اصححتم ، من الذى خلقنا ؟ من الذى خلق آباءنا ؟ من الذى خلق الأرض التى يحى فوقها وبأكل من ثمراتها ويعيش على خيراتها ؟ .

الجواب : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ [البقرة ٢١٠ - ٢٢] ليس لله ند ، هو واحد أحد فرد صمد ، هذا الإله الواحد له نبي خاتم ، أحيا تراث النبيين من قبل ، ولخصه أحمل تلخيص في الكتاب الذى نزل عليه وهو القرآن الكريم الذى بدأ الحديث عنه في أول السورة بأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ ، هذا الكتاب الذى لا ريب فيه كتب له الخلود ، هل كتب له الخلود على أنه وعاء للهدايا الصحيحة وانتهى الأمر عند هذا الحد ؟ .

إن هذا الكتاب كتاب التحدى ، والرسول الخاتم لا بد أن يكون له إلى قيام الساعة إعمار يدل عليه ، يدل على أنه موفد من عند الله ، مرسل إلى الخلائق كافة ، ولذلك كان التحدى بهذا الكتاب ، هذا الكتاب بين أيديكم من كان يستطيع أن يأتي بسورة منه فليفعل : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة ٢٤] .

بدأت الصفحات الأولى في السورة تعلق حقائق الإيمان بالله الواحد وبالنبي الخاتم عليه الصلاة والسلام ، كان المعروض أن أولى الناس بتصديق هذا النبي والالتفاف به والاحتشاد حوله أهل الكتاب ، لكن أهل الكتاب رفضوا الإيمان ، ورفضوا راية التحدى والظغيان ، وأخذوا يهاجمون النبوة الخاتمة هجوماً أعمى ، ولذلك كان نصف السورة الأول — تقريباً — يدور حول مواقف اليهود من هذا الدين ومن صاحبه ، ولا تزال الأيام تكشف عن عظمة هذا الكتاب كأنما نزل يوم أساس هذا ، لأن حديثه المستفيض عن بنى إسرائيل ، وتقريعه المستمر لهم ، وتنديده بآثامهم وأحلاقهم كل هذا يجعل القرآن الكريم كتاب الساعة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة !! .

خطب الغزلى - المجلد الثانى

إن الكتاب تُفسره الحوادث ، وتكشف الأيام عن أن ما يحتاج الناس إليه في شئونهم كلها قد تعرض له وقضى فيه .

وصفت سورة البقرة بنى إسرائيل فذكرت : أولاً أنهم لا يشكرون النعمة ، وأنهم يحسدون فضل الله ، وأن تمردهم على نعم الله التي نزلت عليهم سيحيط بهم اللعة إلى قيام الساعة ، يقول الله لى إسرائيل : ﴿ وَإِذْ تَأْذِنُ رَبُّكُمْ لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كُفِّرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ويقول موسى عليه السلام لبنى إسرائيل : « إن الله لا يحتاج إلى شكركم ، ولكن هذا الشكر هو الذى يرشحكم للنعمة أن تنزل عليكم وأن تكثر فيكم .. فإنك أيها الإنسان ترفض أن تعطى فضلك من لا يُحسُّ به ، ومن لا يشكره عليه ، ومن لا يهتم بما أسبغت عليه من خير ، فإنك تحرمه لأنك تقول في نفسك : لم أعطى من لا يشكرنى ، ولا ينو بفضلى ، ولا يذكرنى بخير ، ولا يُحسُّ أن لى عليه بدأ ١٩ .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨٠] .

كانت أعراض بنى إسرائيل مستباحة لأن النساء يُتركن لحياة مجهولة المستقبل فطبعة الصورة والعرض ، أما البؤس فتسفلك دماؤهم وتقطع أعناقهم ويستراح منهم : ﴿ وَإِذَا نَحِينَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

بينت السورة أن الله أنقدهم من هذا الدل ، ونجاهم من هذا الهوان ، والانقاذ من الدل شيء عظيم ، يقول أبو الطيب المتنبي (١) :
واحتملُ الأذى ورؤية جانيه . غذاءُ تضوى به الأجسام (٢)

(١) ديوانه : ٣٢٦/١ .

(٢) يقول - إن نصير على الإساءة والإقامة على رؤية المسىء يورثان دوام المشقة والكمد فيكون غذاء للأجسام تهزل به كما تهزل بالأطعمة الخبيثة !! .

ذُلٌّ من يَغِيظُ الذليل بعيش * * رُتَّ عيش أحف منه الحمام (١)

نحى الله بنى إسرائيل من هذا الهوان لكهم جحدوا هذه النعمة وسوا صاحبها ، ولذلك يقول الله جل شأنه : ﴿ مَلِ بنى إسرائيل كَم آتَيْنَاهُم مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة : ٢١١] .

ثانياً : بعد أن بينت السورة أنهم لا يشكرون النعمة بينت أنهم لا يصدقون في التوبة ، فإن الله طلب منهم أن يسمعوا ويطيعوا ، طلب منهم أن يسارعوا إلى مرضاة ربهم وإلى فعل الخيرات وترك المنكرات بكهم وهنت عزائمهم وتبلدت مشاعرهم ، وبلغ الأمر أن احتاجوا كى يأخذوا الدمن بقوة ، بحماس ، برغبة ، بإرادة واعية ، احتاج الأمر إلى أن يرفع عليهم الطور : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٣ ، ٦٤] .

ثالثاً : بعد ذلك بينت السورة أن الفسيسة اليهودية معطوبة من عدة نواح ، أول عطب فيها أنها تعصى الله عن تقصيرها عن قصور ، عن تجاهل لا عن جهل ، وهذا معنى قوله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] أى أن كفرهم بعد معرفة ، أى أن ريعهم بعد إدراك ، والذي يعصيك عن تقصير متعمد لا عن قصور عالب ، الذى يعصيك عن تجاهل بقدرك لا عن جهل سيطر عليه جريمته أكبر !! .

لكن ما السبب في هذا ؟ .

السبب في هذا :

رابعاً : أن غروراً غلبهم وملاً نفوسهم ، رعموا أنهم أولاد الأنبياء ،

(١) يقول . لا يغيظ الذليل على حياته إلا من كان دليلاً لأن الحياة إنما هي في العر ، فإذا فقدته الإنسان كان الموت أحف محملاً عليه خنوه عما في الدل من عصص الشقة والهوان .

وأهم ما داموا أولاد الأسيء فإن مكاتهم لا ترتبط بعمل يتقدمون به ولا بتقوى تصيغ أحلاقهم بالشرف . ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ [البقرة ٨٠] وردّ عليهم جل شأنه فيبين أن الناس جميعاً سواء عنده ، وأن من أصلح العمل بلغ الشأو الرفيع ، وأن من أفسد العمل سقطت مكاته . ﴿ بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [البقرة ٨١ ، ٨٢] تناولت سورة البقرة بني إسرائيل على هذا النحو ، لكن يجيء سؤال لماذا يحكى القرآن الكريم هذه الأحداث الكثيرة علينا نحن المسلمين ؟ .

والجواب : أن القرآن الكريم عندما يُشرح الأمم التي ماتت ، وعندما يصع تحت لمجهر المدينيات التي تفسحت والحضارات التي انهارت إنما يفعل ذلك ليبين ما هي الحرائم التي فتكت بهذه الأمم وأسقطت تلك الحضارات ، وذلك حتى تستفيد الأمة الأخيرة أو الأمة الإسلامية من مصارع الأولين فلا تسلك مسلكاً يشبههم ولا تتخلق بخلق سبق أن وقع منهم ، وقد حذر النبي ﷺ أمته تحديراً بالغا ويّين أن الأمة سيغلبها التقليد الأعمى ورما تبعت مسالك من قبلها ، جاء في الحديث الصحيح : « كَتَبَ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِرْأً بِشِيرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبَعْتَهُمْ . قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : فَمَنْ ؟ » (١) .

في سورة البقرة قصة عن بني إسرائيل ذكرها القرآن الكريم والمقصود بها تعليمنا نحن ، فإن بني إسرائيل — كما استمعتم — أخذ عليهم أنهم لم يشكروا النعمة ، ولم يصدقوا التوبة ، وأنهم اغتروا بحسبهم ، وتعصبوا لما لديهم ، ونسوا حقوق ربهم ، ولم يلتفتوا إلى الصواب الذي عُرض عليهم ،

(١) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة — باب قول النبي ﷺ لَتَبِعَنَّ مَنْ كَانَ

قَبْلَكُمْ ١٢٦/٩ ومسلم في الصلوة — باب اتباع سنن — والنصارى ٥٧/٨ .

هذا كله ربما اصل بالحياة الداحية في المجتمعات ، لكن المجتمعات لا تحيا وحدها بل تحيا وسط عائلة دولية لها أفراد كثيرون ، وكثيراً ما تضطلم الأمم بأثم أخرى فمادام يكون الموقف ؟ وما السبب في أن أئمة تنهزم ثم تنتصر أو تنتصر ثم تنهزم ؟ .

هنا نجد سورة البقرة قد لحصت لنا في حدود صفحة ونصف قصة أمة انهارت لأسباب ثم تراجعت إليها الحياة لأسباب ، فما أسباب انهيار هذه الأمة ؟ وما طريق ازدهارها وانتصارها ؟ .

بدأ الكلام عن هذه الأمة في قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴾ لم يخرجوا ؟
﴿ حذر الموت ﴾ حبسوا ، لم يحسنوا الدفاع عن أرضهم تركوا الأرض دون أن يدافعوا عنها بحراة وحساسة ، تركوها حذر الموت ، العربي قديماً كان يفضل أن تهدم داره وتتحول أنقاضاً دون أن يتركها مهلاً لعدو ، يقول سعد بن ناشب (١) .

سأغسل عني العار بالسيف جاليا
على قضاء الله ما كان جاليا
وأذهل عن داري وأجعل هدمها
لِعَرْضِي من باقي المذمة حاجباً (٢)

لكن هذه الأمة تركت المدد وتركت الأرض دون دفاع حقيقي ، ويبدو أن ذلك كان لأن القادة حبسوا ليسوقادة مقاومة ، ولكهم كانوا أمراء ترف ، وكانوا سياسة هو ولعب ..

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾
خرجوا من ديارهم حذر الموت : ﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ التفسير الصحيح الذي اخترناه أن الله أماتهم أديباً ، أي عاشوا في

(١) شاعر من أهل البصرة تولى نحو ١١٠ هـ انظر ترجمته في الأعلام ٨٨/٣ والبيئات من قصيدة له - انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٨٤/١

(٢) إشارة إلى دار له بالبصرة كان هدمها بلال بن ردة بن أبي موسى الأشعري ، وقيل: هدمها الخوارج وأحرقوها .

الدنيا لا كرامة لهم ، لا شرف لهم ، لا وزن لهم ، وهذا هو الموت : ﴿ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ [نكون ما طريق الحياة ؟] .

الإحياء هنا إحياء أدبي ، وطريق الحياة الأدبية أمران : قتال وبذل ، قتال في سبيل الله ، وبذل للمال في سبيل الله في القتال في سبيل الله تقول الآية التي تلي هذه الآية مباشرة : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ [البقرة : ٢٤٤] في البذل في سبيل الله تقول الآية التي تلي هذه الآية مباشرة :

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

إن طريق الحياة أمام الأمم بذل النفس وبذل المال .

هذه قصة لم يذكر الله فيها أنها لبى إسرائيل ، لكن هذا الإجمال في القصة أخذ عنوانه وحقيقته في الآيات التي تلت هذه الآيات والتي استغرقت نحو صفحة بدأت بقوله تعالى — توضيحاً وتفصيلاً : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيماً إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ [خشى نبيهم أن يحسوا كما حسبوا أولاً فقال لهم : أحشوا إن جاء ما تطلبون أن يفتضح كذبكم ، وأن يكشف جنكم : ﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ هل كانوا صادقين ؟ لا : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ [البقرة : ٢٤٦] هذا أيضاً إجمال ، بدأ تفصيله وتوضيحه : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ فكان تسألهم : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

تحتاج هذه الآية إلى شرح مطول ، لم ؟ لأن المال له فلسفة ، وله في الحياة أثر ، اعتبر اليهود المال أساساً حقيقياً في تقويم الأشخاص ، وفي

كسب الحياة ، وفي تسخير الدنيا ، وهذا الكلام فيه نصف الحق ونصف الباطل ، فهم المسلمون أيام جهالتهم أن المال لا لروم له ، وأن الفقر دلالة التقوى وأحسن طريق إلى الوصول إلى الجنة !! وهذا الكلام فيه باطل كثير وضلال ضخم ، والحق غير هذا وذاك ، المال — لاشك — شديد الأثر في الحياة الفردية والاجتماعية ، وعندما سطر اليهود عليه في عالمنا المعاصر ساقوا مائتي مليون أمريكي كقصيع غم ، لأن المال في أيدي البنوك والشركات التي يهيمن عليها اليهود ، ولما فقد المسلمون المال أو لم يحسوا كسبه عن طريق الاستشارة ودكاء الاستثمار عاشوا في الدنيا غرباء على الحضارة .

ما يجوز أن نطن فقد المال دليل تقوى ، ومن الخيبة أن لا تُحسن استغلاله في هذه الدنيا لرفع دينك ، وتقوية إيمانك ، ومساندة مروءتك ، وإعلاء حَقِّك ، كونك تُكبر العنى لأنه عَنِيَّ جهل ، وكونك تتجرد من المال على أساس أن هذا طريق التقوى جهل ، خذ المال وأحسن تسخيرَه في خدمة دينك .

وقد يُلى المسجون بصنفين من الناس : فقراء لا يحسنون الكسب ، وأغنياء يملكون ويدلون في الترف .

هؤلاء اليهود قالوا لسيهم : كيف تختار علينا ملكاً رجلاً فقيراً ؟ فقال لهم : إنه قد يكون مُقلّاً في ماله ولكنه يَخْصُبُ في مواهبه ، غنى في خصائصه ، سعة علمه ، وسعة طاقته ، وقدرته المادية والأدبية ترشحه لهذا ، وفعلاً أخذ هذا الملك يؤدي واهبه ، فكيف يعالج شعباً سرت فيه اللذة وخطرته وأدهنته عن أمور كثيرة ؟ أحياناً تبتلى الأمم بعبادة الهوى والملذات والمظاهر ، والأثم التي تبتلى بعبادة الملذات والمظاهر لا يصلح لها في الدفاع عن نفسها ولا في تبليغ رسالتها .

أراد طالوت أن يمحس الجيش الذي خرج كى يقاتل به : ﴿ فلما فصل طالوت بالجود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة يده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ .

أتباع الشهوات الذين يسارعون إلى مرصاة أنفسهم رفضوا إطاعة الأمر الذي صادم رعباتهم وقالوا . لا ، لا بد أن نشرب ، نشربون ؟ لا تصلحون في ميدان الحديد ، وإنما يصلح في ميدان الحديد من يتحمل العطش ، ومن يقدر على نفسه إذا تطلعت ويردها إذا تحركت .

﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴾ كان هذا آخر اختبار : ﴿ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ نظروا إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم قلة ، وعرفوا أن عدوهم كثير في عدده وفي تحصنه ، لكن منطق القتال عند حملة الحق لا ينحصر للقلة ولا للكثرة ، لا ينحصر للمظاهر المادية : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ودارت المعركة ﴿ ولما برروا لجالوت وجنوده ﴾ توجهوا إلى الله ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ ثم تقرر الآيات هذا القانون الاجتماعي : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

من الذي نزل عليه هذا الدرس ؟ ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ [البقرة : ٢٥٢]

نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام الذي تلا على الناس خلال صفحة ونصف من سورة مطولة كيف أن الأمم تموت أديباً إذا نكصت على أعقابها ، وبجلت بأموالها ، وكيف أنها تحيا أديباً ومادياً يوم تشجع وتتوكل على الله وتواجه عدوها دون تهيب لقواه أو لقوى من يسانده ، المهم أن تكون لك بالسماة صلة ، ولك من الله ظهير ، هذا هو الأساس : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ .

صفحة من هذه السورة تحمل تاريخاً سياسياً واجتماعياً ملخصاً ، احتضرت فيه العبر ، وعرضت على الناس في هذا القرآن الذي بدأت السورة تتحدى به لأنه من عند الله .

هذا بعض ما في سورة البقرة من هدايات بعرضه ولناعود إن شاء الله . أقول قولي هذا وأستعصر الله لي ولكم ..

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿[الشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد .

فقد قرأت تساؤلاً لبعض لصحفيين عن أسباب تخلف الأمة العربية والإسلامية ، وهو تساؤل ليس جديداً ، فأنا أحد الذين وجهوا هذا السؤال لأنفسهم ولغيرهم من ربع قرن تقريباً ، وكانت كتاباتنا وخطابنا الدينية إجابة عن هذا السؤال ، ولقد كشفت فيما كشفت عنه أن من أهم أسباب تخلف العرب والمسلمين أن نظاماً مستجدة هيمنت عليهم وصرفت أمورهم ، ولقد قررنا أن الحكم العردي لا شرف له ، ولا دين له ، لا حرية حيث يكون هناك استبداد سياسى ، لا دين حيث يكون هناك استبداد سياسى ، لا حصار حيث يكون هناك استبداد سياسى ، إنا معشر العرب والمسلمين أحوج أهل الأرض إلى الحرية التامة .

أقول هذا باسم الإسلام ، لأننى أعم أن ديبى ينشر فى جو الحرية ، وأنه يُحتصر فى جو الاستبداد ، ديبى قائم على العقل ، قائم على الإقناع ، ولذلك فإن أعداءه يستميثون فى جعل الحريات تختنق وتتلاشى ليصلوا إلى تشويه هذا الدين والقضاء على أتباعه محلياً وعالمياً .

إنا نحتاج — فى العالم كله — إلى جو حر ، فإن الإسلام مطلوب ،

الناس لا تعرفه ، الإسلام دين مجهول في المرات الخمس ، لقد جرى استفتاء في إنجلترا وفرنسا وهولندا وفي دول أوروبا فكانت الشعوب — من اليهود — ضدنا .

والسبب أن ديننا غير معروف ، قصاينا غير معروفة ، ما يوجد لنا أولياء أمور يعرضون هذه القضايا الدينية والمدنية وينافعون عنها ويستعملون العلم الكثير كي يصروها .

إن الاستبداد من عدة قرون قام على أفراد جهلة ظنوا أنفسهم علماء أغبياء ظنوا أنفسهم أذكىاء ، قاصرين ظنوا أنفسهم أصحاب باع طويل !! فكانت مصارع الإسلام والمسلمين على أيديهم .

إننا نريد الحرية ، والكتاب ليس يتساءلون الآن ما سبب التخلف ؟ هؤلاء كانوا حذماً للاستبداد ، ولذلك فأنا أنظر إلى تساؤلهم بريية وباحتقار ، إن كانوا حقاً يريدون أن تهص أمتنا فليجتهد في أن تسود أمتنا أحواء الحرية العقلية والدينية والمدنية .

إننا ندرك أن أمتنا الآن في حرب وأنها تواجه عدواً خسيساً غادراً من ورائه أحقاد القرون وتعصبات لا نهاية لسوادها ، وأن الأمر يحتاج إلى أن تتأسك الأمة وراء قادتها ، لكنني أقول : عندما ندرك النصر إن شاء الله أو عندما نصل إلى مرحلة حاسمة مع هذا العدو فلا بد أن نبني مجتمعاً على المعنى الذي أقول .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التوعد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

عباد الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل - ٩٠]
أقم الصلاة ...

★ ★ ★

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٣)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
١٤/١٢/١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ،
وهو على كل شيء قدير

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فحديث الجمعة اليوم بطرات أخيرة في سورة البقرة — السورة التي
وضعت مباح التقوى ، وشرحت حقيقته ، وقسمت الناس بحسب
عقائدهم ومسالكهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين .

وسرى — بإذن الله — كيف أن السطور الأولى في هذه السورة قد
تغلغل معناها ، وأصرد ما فيها من عبرة وحكمة إلى السطور الأخيرة في هذه
السورة المباركة .

نبدأ بالجملة الأولى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة ٢٠، ٣] .

الإيمان بالغيب نوعان : نوع يتصل بالسلوك ، ونوع يتصل
بالعقيدة ..

فالذى يتصل بالسلوك يمسُّ حياً المال ، وحيات الحياة ...

إن الله يأمر بالصدقة ، وصدقة تجعل الإنسان يزل عن المال الذي يملكه ، والمال حبيب إلى الإنسان ، عزيز عليه ، فإذا قيل له : أصدق في سبيل الله وسيحلف الله عليك في المستقبل . فإن نفسه سوف تحدثه : لِمَ أفقد ما بيدي اليوم في انتظار ما قد يجيء حتما في العدم ؟

فإذا قال الإنسان لنفسه : إن الله وعد ويسعى أن أتق في أنه سبحانه سيحلف . ربما حدثته نفسه عصفور في أيدي خير من عشرة على الشجرة !! هما يتدخل الإيمان بالغيب في الصدقة أو في الصدقة فيجعل الإنسان — يصدق إيمانه بربه وبوعده — يعطى ما يده — الآن — موقنا بأن ما عاب لا بد أن يتحقق ، وأن الحلف الذي لا وجود له — الآن — هو موحود حتما ، وسوف يجيء ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ [البقرة ٢٦٨] .

هذا إيمان بالغيب يتصل بالسوء ، هناك أيضاً إيمان بالغيب يتصل بالسلوك في الجهاد أو في الكفاح أساسه أن أصحاب الدعوات — غالب — يبدأون سنوكهم أو سيرتهم أو دعايتهم في وجه حيازة يفرصون سلطانهم ويقذفون بالرهبة في قلوب غيرهم ، وعندما يتحرك أصحاب الحق وهم ضعاف فإن وساوس الشيطان ستتحه إليهم . ما الذي يجعلكم تناوشون الأقوياء وتعرضون لطشهم ؟ وما الذي يجعلكم تفقدون طمأنينتكم — الآن — في انتظار نصر يعدكم الله به في المستقبل ، والمستقبل عيب لا يُدرى متى يجيء أو متى يتحقق ؟ هذا المعنى شُرح في سورة هود في قوله تعالى — وهو يجعل الداعين إليه والمتحدثين باسمه يرقون المستقل بأمل وتماؤل — : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ [هود ١٢١ — ١٢٣] .

هذا الغيب إلى أن يجيء ربما تعرض حملة الحق لمناعب في أموالهم أو أجسادهم أو أعراضهم أو حقوقهم ، لكن يجيء سورة لبقرة فتقول : ليكن ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة ٢١٤] .

إنه قريب لأن كل آية مُحَقَّق قريب مهما تطاول الرمز في انتظاره ،
فما دام لا بد منه فهو قريب ، ومن هنا جاء المثل العربى : « إن غدا
لناظره قريب » .

هذا نوع من الإيمان بالغيب يتصل بالسبوك ، فالإيمان برزق الله ،
والإيمان بصر الله غيب يسعى أن يطمئن إليه المحرومون والمحروبون .

هناك إيمان بالغيب يتصل بالعقيدة ، فإن الله عز وجل إنما يُعرف
بأوصافه ، وأوصافه إنما تُعرف بآثارها فيما يبسا ، فإن الله ليس مادة تُحسُّ
بالأيدي ، ولكن الذات الأقدس يُعرف بآثاره يبسا ، وقد صورت سورة
البقرة الغيب من هذه الناحية فيما وقع من حوار بين نبي الله إبراهيم وبين
أحد الخائبة الذى كهر بالله لأنه ملئ السلطة الواسعة والسطوة البالغة ،
وروت السورة القصة : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله
الملك إذ قال إبراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال
إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى
كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة ٢٥٨] .

فإبراهيم عرّف ربه بصفاته ، نحن الذين نؤمن بالله نعلم أن الله حاضر
فى قلوب اعارفين ، وأن أنوار وجوده تتزاحم بها آفاق السموات
والأرض ، ولكن هناك ناسا تُسحّت على بصائرهم غشاوات سميكة ، وعلى
عيونهم حُجب علاط ، هؤلاء يكفرون بالغيب ، ويكفرون بوجود الله ،
وهؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان ، ولكن لا وزن لهم فى منطق العقل
ولا فى منطق العلم

هذه كلمة الإيمان بالغيب ، معها يتفرق داخل صفحات السورة فى
أماكن كثيرة شرحنا نماذج لها

بعد الإيمان بالغيب : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ [البقرة ٢٠] .
جاء ذكر الصلاة مرات فى هذه السورة ، مرة فى أنها تعين على الخشية
والتحمل . ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع
الصابرين ﴾ [البقرة ١٥٣]

ومرة في أنها من أركان البر والتقوى : ﴿ ليس البر أن تولوا
وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذرى القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة
والموفون بمعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس
أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المقنون ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

ولست الصلاة عبادة فردية يناجى فيها المرء ربه وانتهى الأمر ، لا .
الصلاة في الإسلام تعاون الجماعة في تنظيم صفوفها والاحتشاد لها وبناء
مساجدها وترويج هذه الشعيرة بحيث تشرف على بقية ساعات النهار والليل
وبحيث تكون ظاهرة في الريح العردي والاجتماعي للأمة ، ولذلك وجدنا
هذه السورة تأمر بالصلاة في الحرب والسلم على سواء : ﴿ حافظوا على
الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم ﴾ أى عند
الحرب ﴿ فرجالا أو ركبانا ﴾ أى صلوا مشاة أو راكبين ، فإذا انتهت
الحرب ﴿ فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾
[البقرة : ٢٣٩] .

فالصلاة ركن اجتماعي ، ولذلك — في هذه السورة — بين جل شأنه
أن كل محاولة لجعل لمساجد ثانوية في المجتمع ، أو تدمير هذه المساجد
بالخروب أو تأخير رتبها بالمسوق ، كل هذا ظلم ودح : ﴿ ومن أظلم
من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان
لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ [البقرة : ١١٤] .

هكذا تحدثت سورة البقرة ، ثم أشارت السورة إلى أن بقاء المساجد
عامرة بالمؤمنين هو أثر دفاع المؤمنين عن هذه الشعيرة وعن هذه البيوت
التي رفعت قواعدها في الدنيا بذكر الله ، وهذا معنى قوله جل شأنه :
﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو
فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

هذا المعنى شُرح في سورة أخرى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم

بعض هدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا
ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿ [الحج ٤٠] .

فإقام الصلاة شعيرة اجتماعية إلى جانب أنها شعيرة فردية ، وقد تبين —
فعلا — أن المسلمين لو أنهم أقاموا الصلوات اجتماعيا واهتم بها كياهم العام
لضبطوا الشهوات ، وحسوا الأهواء ، وربوا جيلا يحكم غرائزه لا جيلا
تحكمه غرائزه ، وقد وصف الله لأجيال المنهارة التي تربو إلى الدنيا ،
وتُكس رؤوسها وراء الصلوات ولعوايات فقال : ﴿ فخلف من بعدهم
خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾
[مريم ٥٩] .

بعد هاتين الكلمتين ﴿ يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ تأتي
الصفة الثالثة ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة ٣] .

المفقة عند أغلب العلماء ما دامت مقترنة بالصلاة فهي الزكاة
المفروضة ، لكن التحقيق اعلمى أنها أوسع من الزكاة المفروضة ، فإن الله
يأمر — هنا — بأن كل مسلم ينفق مما رزقه الله ، وحديثا عن الإمام —
الآن — يقتصر على ناحيتين اهتمت هما السورة اهتماماً شديداً .

فقوله تعالى — في أول السورة — : ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ حجة
قصيرة ، لكن استغرق الكلام عن الزكاة — في آخر السورة — نحو ثلاث
صفحات ، بدأ بذكر الأحر العقيم ، والأصعاف المصاعفة التي يكتبها الله
لن أسق .

ومن ناحية مهمة فإن الناس يتصورون — غالبا — أن العطاء حرمان ،
والحقيقة أن العطاء يشبه الشجرة عندما نُقْلَم ، مقطوع عصبها ، وتقل
أوراقها ، ولكنها بعد حين تعود أكثر فروعاً وأعرر أوراقاً ، كذلك العطاء
يقلل ما لديك — الآن — ولكنه بعد قليل يصاعفه ﴿ مثل الذين ينفقون
أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أبتت سبع سنابل في كل سبلة مائة حبة
والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ [بقره ٢٦١] .

باحية أخرى يهتم الإسلام بها جدا جدا وهي : احذر أن تعطى لشئ ، احذر أن تعطى لتكسر النفوس ، احذر أن تمتس بما أعطيت مهما كان كثيراً ، احذر أن تطيب وحوه الناس بما تتصدق به ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

لا تكسر نفوس الناس بما تُسديهِ إليهم من معروف فإن هذا العطاء هو حق الله عبيث إذ مَوَّلَكَ وَكَثَّرَ مَعْدَكَ وقد صرب القرآن مثلاً غريباً لحاجة الإنسان إلى ثواب معروفه حاجة ماسّة : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله درية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون ﴾ [البقرة : ٢٦٦] .

تفسير هذا المثل : تصور نفسك أعددت شيوحتك — من الآن — بستانا كثير الشجر ، كثير الثمر ، مليئا بالخير ، أعددته لعجزك أيام الشيخوخة وضعفك أيام الكبر وحاجة أولادك — في هذه الآونة — إلى هذه الكفالة التي يَسْرُها الله لك ، أيسرُك أن تحيى حائجة سماوية ، أو أن تستعر نار مُحْرِقة في جَنّات السستان فَتَقْوَصَهُ وتحوله إلى رُكام ؟

أى فحيجة تصيب من أدركته الشيخوخة عندما يفقد ماله ؟ فحيجة ضحمة ، إن الله يقول للإنسان : فحيجة هذا المخلوق في ماله الذى ارتبط به ، ماله هى فحيجة المئان والمرأى في صدقاته التى ضاع أحرها بالبن والأذى ، بارياء والمكاثرة !!

حملة رابعة في السورة تتعجل ويطول تعجل م في هذه الحملة من معان : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [البقرة : ٤] .

والحقيقة التى يسعى أن يعلمها الناس أن نبيا محمدا — عليه الصلاة والسلام — عندما جاء وشرَّفه الله بهذا القرآن الكريم لم يحىء بلدين يمكن أن يكون مع الأديان الأخرى فرعاً لها أو فرعاً مسلوياً لها ، يعنى كما تقسم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف يمكن أن تقسم الأديان إلى يهودية ونصرانية وإسلام ، لا . القرآن قال : رسالة محمد بالدين كله ، بالإسلام كله !!

خطب الغزالي — المجلد الثامن

إن هذه الرسالة استوعبت الحقائق التي تلقاها — من قبل — نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجمهور الأنبياء !!

ولذلك — في هذه سورة — يقول الله لليهود والنصارى — عندما يجادلون أهل الإسلام وأبناء القرآن — : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة ١٣٦]

فكان محمداً — عليه الصلاة والسلام — جاء يقول : أنا أكرر وأؤكد وأشرح وأتقّى الوحي الذي برز على الأنبياء من قبلي وأومس بهم واحداً واحداً وأدعو أمتي إلى هذا الإيمان بي وعن سقبي على أننا جميعاً — معشر الأنبياء — نمثل وحدة كاملة .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ فغضب فقال : « أمتي تكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد حثكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو باطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » (١) .

هذه حقيقة هي التي تجعل «سورة — ها — تقول لأهل الكتاب — في بساطة — . لماذا الحدل ؟ ﴿ قل أتتجادلوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ [البقرة ١٣٩] .

فمن يؤمن بالأنبياء جميعاً وبالكتب التي برزت عليهم لا يكتب تُسبِت إليهم وهم أبرياء منها .

(١) رواه أحمد ٣/٢٨٧ وقال في الجمع : رواه أحمد وأبو يعلى والبرار وفيه مجالد بن سعيد صغله أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما ١/١٧٣ ، ١٧٤ والمتهمون . والمتهمون . والمتهمون . والمتهمون . والمتهمون . والمتهمون : الذي يقع في الأمور بلا روية .

هذه الجُمل التي رسمت مهج التقوى انصم إليها شيء لا بد من توجيه
ال نظر إليه وهو أن كل حقيقة ليس لها حارس يمكن أن تصيح ، وإذن لا بد
من حراسة لهذه الحقائق التي جاء بها الإسلام . لكن ما ضرورة الحراسة ؟
ضرورة الحراسة أن ناساً كثيرين لا تطيب خواطرهم ، ولا يهدأ
بالهم ، ولا تستريح أعصابهم إلا إذا أتعوا المسلمين وقسروهم عن دينهم !!

هذا النوع من الناس ما خلا منه عصر من العصور ، فالذين يكفرون
بالله كفراً أصلياً ، وينكرون وجوده بدءاً كالملايين — الآن — والذين
يؤمنون بالله إيماناً رائعاً مروراً على نحو ما قال القرآن : ﴿ وما يؤمن
أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

كلا الفريقين يستमित في أن يقف حركة الإسلام ، وأن يجمع الناس
من أن يدخلوا فيه !! فماداً نصنع ؟ أترك هذه الحقائق للصروح العقائد
ينبونها ويأتون علمها ونعيش ضلّالاً أم ندافع عنها ؟

كان القرآن طبيعياً جداً عندما قال للناس إن القتال صعب ، وإن
فرضه يشق على المكلفين لأنه تعب ، لأنه ترك للأوطان حيث استراح
الإنسان بين أهله وأولاده وعشرائه وأصدقائه ، وتعريضاً للتلف ، وفقدان
أحياة بعضاً أو كلاً !! لكن الله جل شأنه يقول للإنسان : كذب العاطفة
الأولى التي تجعلك تؤثر حياة الهدوء والراحة ، كذب هذه العاطفة في
الدين يؤثرون حياة الهدوء والراحة لا بد أن يفقدوها ويفقدوا شرفهم
معهما ، قال تعالى : ﴿ كتب عليك القتال وهو كره لكم وعسى أن
تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم
وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وسورة البقرة برل أعليها في الستين الأوليين من الهجرة ، وفي الستين
الأوليين من الهجرة كان اشتباك المشركين مع المؤمنين في « بدر » وكان
اشتباك المسلمين مع اليهود في « بني قينقاع » تقريباً ، وسبق قبل ذلك
اشتباك كلامي حول القبله .

على كل حال حدث أن السى ﷺ أمر بسرية من السرايا^(١) أن ترصد الطرق ، وأن تحصي على اعدو حركاته ، وأن توقع به بعض الخسائر إذا كان سيتجه إلى كذا وكذا ...

وفعلاً أدّت السرية واجبها ، لكن شيئاً حدث جعل عملها تكتفه ريب ومحاذلات ، فقد وقع القتل في آخر رجب ، أي في لشهر الحرام !! وهما أحدث المشركون دعايات واسعة ضد محمد ﷺ وصحبه قالوا : إن هؤلاء قد استباحوا الشهر الحرام وقاتلوا فيه وصنعوا كذا وكذا !!

وتصايق المسلمون وحرر السى ﷺ وكثر في ذلك القيل والقال حتى برز الوحي حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله بن جحش تجاه المشركين : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ [البقرة ٢١٧] .

كلمة « الفتنة » يطبها العوام أنها التهمة ، لا . ليس هذا صحيحاً ، المقصود بالفتنة — هنا — الصعظ على المستضعفين ، ومحاولة ردهم عن دينهم ، وتحويلهم بالقوة عن إيمانهم ، والفتنة — هنا — هي ما يصعبه المسبذون بأهل الإيمان عندما يبطرون إليهم نظرة استصعاف ، ويحاولون أن يبطشوا بهم حتى يردوهم عن دينهم ، هذا معنى قوله تعالى : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ أي أكبر من القتال ، وأكبر من قتل الأنفس ، لأنها قتل للمبادئ ، وقتل للأرواح ، وإخراج لأصحاب العقائد ، وخنق للصمائر الحية ، وترويع للمؤمنين ، وذلك كله لا يجوز .

وكشفت السورة أن الجهاد عدا ليس جهاد عدوان ولكنه جهاد لرد العدوان : ﴿ وقاتلوا في سيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة ١٩٠] وفي هذه السورة أيضاً : ﴿ لا إكراه في

(١) هي سرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه وكانت في رجب من السنة الثانية انظر اسيرة النبوة لابن هشام تحقيق عمر عبد السلام ٢ / ٢٤٣

الدين قد تبين الرشد من العي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴿البقرة ٢٥٦﴾
 وفي هذه السورة أيضاً : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة ٢١٧]

وهذه الحرب ضحاياها ، وسوف يموت ناس — بغير شك — في كل صراع بين الهدى والضلال ، في كل كصاح بين الحق والباطل ، لكن يسمى أن يعلم الأحياء جميعاً — والمؤمنون خاصة — أن الذي يُقتل في سبيل الله لا ينتقل إلى موت إنما ينتقل إلى نحرس ، إلى حياة أرقى وأزكى وأبصر وأشرف !! ولذلك رفض الإسلام أن يسمى هؤلاء موتى ، ورفض أن يقال إسم أموات ، هي هذه السورة : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ [البقرة ١٥٤] .

ما أكثر الذي لا نشعر به في ديانا ، إنك في عالم وحدك من إحساسك ، لكن أنت في إحساسك الخاص لا تسمع ديب كل متحرك على طهر الأرض وهم ملايين الملايين ، ولا تُبصر إلا ما أمامك ، لكن وجه الكرة الأرضية — وهي جزء تافه في الوجود كله — مبسوط أمام البصير بكل شيء جل شأنه !!

فحق لا يشعر بالكثير ، وهذا لا نشعر بوجود الشهداء ، لكنهم موجودون ، وسيبقى وجودهم معينا حتى تنقضي فترة الاحتسار في هذه الدنيا قائمة لا عش فيها ، ثم يترك الناس هذه الدنيا ليلحق ميت العد ميت اليوم ، وهل الناس إلا كذلك ؟

هكذا الدنيا ، حقيقة لا بد منها ، وإن كان أغلب الناس لا يعترفون بها !! وصدق الحسن البصري عندما قال : ما رأيت حقاً أشبه بباطل من الموت !! هو حق ، ولكنه شبيه بالباطل ، لماذا ؟ لأن الناس لا تريد أن نعرف به !!

سورة البقرة — التي تحدثنا فيها ثلاث حُجَمع الآن — سورة متماسكة ،

وأنا أريد أن أنهي ما يتصوره البعض من أن سور القرآن رُكمت فيها الآيات بطريقة عشوائية حرافية ، لا . السور كتبها نُطِمت على أساس أن لها محوراً تدور عليه وهدفاً ، ولذلك فإن آحر أدعية هذه السورة صَمَّ لإيمان بالله إلى الإيمان بالعب إلى السوء البشرى إلى الأخطاء التي تحتاج إلى مغفرة الله إلى الجهاد وانتظار المحاهدين أن ينصرهم الله على الكافرين ...

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

[البقرة . ٢٨٥ ، ٢٨٦]

هذا النص هو تحقيق للحراسة على حقائق الدين التي يقوم بها جمهور المحاهدين .

أقول قولي هذا وأستعمر الله لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله : ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [نورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .
وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء ، وسيد المصلحين
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل . وأريد أن أشرح
إشارة ظهرت — على هذا المبر — فى الأسرود الماصى ...

لقد قلت : إن الدين عاشوا سمسرة الاستبداد لا يجوز لهم أن يقترحوا
إصلاحات لأمتنا . وسألى العصر . ماذا تريد هذه الإشارة ؟ وأنا أجيب
بشيء من التوصيح . إن بعض الناس ألقوا — من أنفسهم — جماعة أظنقوا
عليها « التعمير الحضارى » . وعندما بطرت إلى أسماء الدين يشتعلون
بالتعمير الحضارى — كما كُونوا أنفسهم — وجدت جماعة من الماديين
الدين يكفرون بالله وينكرون وجوده ، وجماعة من الصنيسيين الدين لا تنتهى
أحقادهم على الإسلام ولا تُحمد نارهم يوما !!

إن أمتنا لا تدرى — جيداً — كم يحقد الآخرون عليها ، ولو كنتم
أصحاب حس دقيق لشعرتم بهذا الحقد ..

إن « بابا روما » ركب « حنطورا » فى « روما » وسار به كى
يؤيد إجراءات التقشف . لم يا رجل ؟ ما السبب فى هذه الإجراءات ؟ من
أجل اليهود ، إن الحقد فى نفوس هؤلاء يجعلهم — لأنهم يكرهون محمداً
وأمة محمد وأتباع محمد إلى آخر الدهر — يفعلون هذا !!

أما سألتهم أنفسهم : ما الذى يعمل العالم يتحمل البلاء من أجل هؤلاء اليهود ؟ السب أهم يكرهون محمدا والإسلام والمسلمين ، وهذه الكراهية تأخذ طريقها بأساليب ملتوية .

إننا نحن الذين ملأنا الدنيا باحصارة ، وعرفنا الناس حريات العقل والصمير . صحيح أما تأخرنا في انقرون الأخيرة ، لكن من الذى تقدم في القرون الأخيرة ؟ من يكفرون بالله ؟ من يعبدون اطاعوت ؟ من يعيشون أحلاس الشهوات ؟ لا . إن الذى يعمر الحصارة اعاربة هم الذين يؤمنون بمحمد ﷺ . أما الكفرة فلا يقبل منهم هذا ، وقد رأينا هؤلاء كانوا يرسلون « رعايرد لنساء »^(١) عندما كان الإيمان في محنة في بلدنا ، وعندما كانت كلمة التكبير حريمة تنصق أصحابها بالهوان !! الآن يتحدثون عن الحصارة !!؟

هؤلاء آخر من يكلم عن معالم الحصارة وعن التعمير الحضارى . أما رجل مسلم أعرف أن دينا كمل حرية الرأى ، وأنه الدين الوحيد الذى أعطى « الأقليات » في كفه أن تبغ مصاصب كبيرة !! أما غيرنا فهو قاتل « الأقليات » وقاتل العقائد ، وقاتل الحقائق !!

فهل يجيء هؤلاء — وهم مرضى — ليحعلوا أنفسهم أطباء لأمة تنظر إليهم باحتقار !!؟

هؤلاء كانوا سمسرة الاستداد ، وكانوا دعائم الإلحاد ، فلا يقبل منهم أن يعمرُوا حصارة ، وليفعلوا ما يفعلون فحس أيقاط هم ، وسوف يقى الإسلام بدعائه ورحاله وأمنه إلى آخر الدهر يؤدرون حق الله عليهم أداء كاملا إن شاء الله رب العلمين .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »^(٢) .

(١) زعرد النعم : ردّد هلمرة في حلقه والمرأة : رددت صوتها بلسانها في معها عند الفرح .

(٢) رواه مسلم في الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨ / ٨١ .

﴿ ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
علا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويهى عن
الفحشاء والمكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [سجدة ٩] .

أقيم الصلاة

الذِّكْرُ (حَقَائِقُهُ وَوَسَائِدُهُ)

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المستداة ، والسراج المير .

لهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد :

فإن أشرف ما يمر بالخطير ، وأنضر ما يتحرك به اللسان ، وأزكى ما يؤثر في الأخلاق والمسالك هو ذكر الله سبحانه وتعالى .. فإن هذا الذكر يسند خطوات الإنسان على طريق الحياة الصحيحة ، ويبصره بالرسالة التي خلق من أجلها ، ويجمعه عنداً يرتفع في مستواه إلى الملأ الأعلى ..

والذكر ليس حالة عضوية ، ولكنه حالة نفسية ، ومعنى أنه ليس حالة عضوية أن الله يقول للإنسان : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٤] ولم يقل له : واذكر ربك إذا سكنت .

السكوت قد يكون حركة اللسان إذا توقف عن الكلام ، أما حالات العفة والذهول والنسيان فهي حالات نفسية ، والمقصود من الذكر أن يعالج هذه الأحوال ، ويجعل الإنسان في حال من الصحو واليقظة والإحساس بوجود الله سبحانه وتعالى وبرقائه وشهوده الذي لا يخبر منه على كل درة في الكون . وكما قالوا في علم الطبيعة : إنه لا مجال للفراغ ، بمعنى أن الإناء إذا كان ممتلئاً بالماء فهو ممتلئ بالماء ، وإذا خلا من الماء فهو ليس فارغاً ، إنه مملوء بالهواء ، لا فراغ في الطبيعة .

كذلك أوعية القلوب ، إن هذه الأوعية لا تعرف الفراغ ، فإذا لم تملأها بذكر الله امتلأت بوساوس النفس وهواوس الشيطان ، ومغريات الهوى ، إذا لم تكن لديك الطاقة التي تحرك جوارحك في طريق الاستقامة فإن الجوارح ستتحرك ولكن على طريق آخر فإنه لن يترك القلب فارغاً بل سيتحرك بشيء ما ، فإن لم يتحرك بذكر الله تحرك بغيره ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨٠]

من لم يملأ الرحمن قلبه ملاً الشيطان قلبه ، لا فراع ، إذن لا بد من أن نراقب أنفسنا حتى يبقى الذكر دائماً ملء قلوبنا ، ولذلك كُتِّبَ لهذا الذكر : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] تضرعاً : تذلاً ، خيفة : رهبة ، دون الجهر من القول : أى لا ترعق ، فإن الرعيق يضيع العقل .

ولذلك عندما ذكر بعض الناس — وهم سائرون في الصحراء — بصوت عال قال لهم النبي ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ ارْزُقُوا^(١) عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنْ كُمْ لَا تَدْعُونَ أَصْمَ وَلَا غَائِبًا إِنْ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِعَ قَرِيبَ »^(٢) . بالعدو والآصال . العدو : أول أسفار ، والآصال — جمع أصيل — آخر النهار . أى اذكر ربك باستمرار ، وفي سورة أخرى : ﴿ فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تَقُومُونَ وَحِينَ تَصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ ، ١٨] .

ولذلك وسائل أو طرق شرعية ، تبدأ فتعرض لها ونحصى ما أقدرنا الله عليه .

• من هذه الوسائل : القرآن الكريم ..

(١) أى ارققوا .

(٢) رواه البخارى في انهوات — باب الدعاء إذا حلا عفة ١٠١/٨ ، ١٠٢ ، ومسلم في الذكر — باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٧٣/٨ ، ٧٤ .

فإنه يذكر بالله وبعظمته وبحقوقه وما ينبغي له ، ويبنى الصلة به على الرغبة والرغبة والوعد والوعيد ، وقد قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص ٢٩] وقال : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ [إبراهيم ٥٢] .

فالقرآن كتاب تذكير إذا نسي الفكر ، وكتاب إيقاظ إذا نام القلب ، وكتاب تسديد على الطريق إذا اعوجت الخطى وراع الإنسان عن سواء السبيل .

* من هذه الوسائل : الصلاة ..

فالصلاة أساس لتذكير الإنسان بربه ، فهي — أولاً — أفعال تضمنت كل ما يُحْيِي به العظيم ، كان الناس قديماً يحون العظماء تارة باليد ، وتارة بالوقوف ، وتارة بالركوع ، وتارة بالقعود المهدب ، وتارة بالسجود .

منع هذا كله للناس ، وجمع هذا كله لله ، فبين يدي الله يقوم الإنسان قائناً ويركع ويسجد ويجلس ويحيى ربه ، وهو في قيامه يقرأ القرآن ، وفي ركوعه وسجوده يسبح بحمد الله العظيم أو بحمد الله الأعلى .

ومثل هذه الصلوات تشبه أن تكون وجبات روحية دسمة ضخمة توجه الإنسان طول يومه إلى أن يبقى في حضرة ربه وإلى أن يستمد منه وإلى أن يتقيه ويخشاه ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ [المائدة ٤٥] .

يعنى أن ما تُورثه الصلاة من ذكر الله وما تتركه من طابع نقى مشرق على ضمير الإنسان يجعل الإنسان أنقى وأبعد من الإلزام بالدنایا واهبوط إلى الخسيف ، لأن الصلاة وذكر الله أكبر من ذلك .

* من هذه الوسائل : المأثورات ..

وقد ورد أن النبي ﷺ كانت له مأثورات كثيرة : قبل أن يأكل وبعد

أن يأكل ، قبل أن يلبس وبعد أن يلبس ، قبل أن يذهب إلى الخلاء وبعد أن يذهب إلى الخلاء ، قبل أن ينام وبعد أن ينام ، كانت أحواله كلها ذكراً ، فهو يتقلب في أشعة متحدده لا تنتهي أقياسها ، ولا تحمد أنعاسها من شعور مرار يذكر الله لا ينتهي أبداً ، وهي حياة انفرد بها حاتم السبكي عليه الصلاة والسلام ..

كان إذا نام قال : « باسمك رب وصعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين » (١) .

وتارة — إذا نام — يقول : « اللهم إني أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت وببك الذي أرسلت » (٢) .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً قال : « الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقيته من غير حول مني ولا قوة » (٣) .

وكان إذا طعم قال : « الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين » (٤) .

وكان إذا أصبح قال : « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور » وإذا أمسى قال : « أمسينا

(١) رواه البخاري في الدعوات — باب حدثنا أحمد بن يوسف ٨٧/٨ ومسلم في الذكر والدعاء — باب ما يقول عند النوم وأحد الصحيح ٧٩/٨
(٢) رواه البخاري في الوضوء — باب فصل من بات على الوضوء ٧١/١ ومسلم في الذكر والدعاء — باب ما يقول عند النوم وأحد الصحيح ٧٧/٨
(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد وإسحاق والدارمي وابن السكيت وقال في صحيح الجمع الصغير (٦٠٨٦ — ٢٠١٥) : حسن
(٤) رواه أبو داود في الأطعمة — باب ما يقول الرجل إذا طعم ٣٢٩/١٠ والترمذي في الدعوات — باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ٤٢٤/٩ ، ٤٢٥ والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٦٥ وابن ماجه في الأطعمة — باب ما يقال إذا فرغ من الطعام ١٠٩٢/٢ وأحمد ٣٢/٣ ، ٩٨ وقال في ضعيف الجامع (٤٤٤٣) : ضعيف

وَأَمْسَى الْمَلِكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿١﴾ .

وله في ذلك أدكار كُتبت في كتب مطولة ، ولا يُعرف — كما قلت —
نظر لهذا الذكر الموصول .

لكن يحتاج فهم الذكر إلى تأمل في كتاب الله وفي سنة رسول الله
ﷺ ، لماذا ؟ .

لأن الأمم المتدنية عندما ترق صلتها بدينها تأخذ الدين مظهراً لا محيراً
أولفظاً لا معنى أو صورة لا حقيقة ، ولذلك لم يكن هناك بُدٌّ من العودة
بالمسلمين إلى حقيقة الذكر حتى يعرفوا ما يطلب منهم شرعاً .

فمن الذكر — الذي هو ركن في الدين — أن يحب الإنسان ربه
أكثر مما يحب ماله عندما يطالب بإحراج الركن الشرعي وهو الزكاة .

معنى ذكر الله هنا : أولاً : ذكر أمره ، ثانياً : ذكر وعده ، فقد
وعد بأن ما تحرجه من مال سيرتد إليك حتماً لأنه قال : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبا ٣٩] .

وحلف النبي ﷺ فقال : « ما نقص مال عبد من صدقة .. » (٢) .

ومعنى هذا الذكر أنك يوم ترفض إحراج الركن فأنت أولاً :
لا تعترف بحق الله ، وأنت ثانياً : تكذب وعده . ولذلك قال جل شأنه :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقْ وَأَكُن
مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الماقون ٩٠ - ١١] .

(١) رواه البراء وإسلاسه جيد . كذا في مجمع الزوائد ١٠/١١٤ .

(٢) رواه الترمذي في الزهد باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر وقال : حديث حسن

صحيح ٦١٥/٦ — ٦١٧ وأحمد ٢٣١/٤ وقال في صحيح الجامع (٣٠٢٤) : صحيح .

هذا ذكر من وراء إقامة الركن الشرعي الذي تنهص عليه المجتمعات الإسلامية من قديم ، وهل انتشر الإلحاد في الأرض إلا بسبب سريان حق الله واشتعال بيران العداوة والعصاة في نفوس الفقراء والمحتاجين ؟ هذا ذكر لا بد منه ، وطبعاً يمتد هذا الذكر مع ضرورات العطاء ، فعندما يكون هناك جهاد في سبيل الله فإن الجهاد يكون بالنفس والمال ، والمال معادل للروح ، فالبخل به يكون مع عملة عن الله أو مع سريان للحق ، فالذكر هنا حقيقة لا بد من استصحابها شرعاً . ولا يغنى عن الإنسان أن يقول كلمة يذكرها ربه وهو كَرٌّ (١) يمنع حق الله من أن يطلق من ماله أو من خزائنه إلى بيوت المحتجين والفقراء والمساكين .

• هناك ذكر لله في إبان الجهاد ، وهو ذكر لا بد منه لحماية الأمة وللدفاع عن عقيدتها وإعلاء رايها .

ما صاع المسلمون في مراحل هرائهم المختلفة — إلى يومنا هذا — إلا بعد أن عنهم حب الدنيا وكرهية الموت ، فإذا انهزم ذكر الله وأداء حقه والدفاع عن دينه والموت في سبيله أمام حب الدنيا وكرهية الموت فقد صاع الدين ، وما وجدت أمتنا انهزمت قديماً أو حديثاً إلا إذا علا في صميم امره ديه لنفسه عن حبه لربه ، حبه لحياته عن حبه لآخرفته ، ذكره لما يشتهى ونسيانه لما كلف به وطولب .

كان سقوط « غرناطة » — آخر دولة لسي الأحمر في الأندلس — سقوطاً يخزي المسلمين ، لأن بعض الفدائيين من أهل النجدة والوفاء استماتوا في إثارة الحمية الدينية وجعل المسلمين يقاتلون « فرناندو » ، « يرايلا » المسيحيين اللذين قاتلا الأمة الإسلامية ، ولكن الملك الصغير (٢) الذي كان يملك الأمة الإسلامية أمضى معاهدة التسليم ، وكان إمضاء المعاهدة ، صكاً نهائياً بضياغ الإسلام من الأندلس !!

ذكر الله — هنا — يمنع من هذا الصياغ ، يقول الله جل شأنه :

(١) كز الشيء — كزارة وكزورة — يس وانقبض من البرد . ورجل كز الدين : يميل .

(٢) أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة الإسلامية

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا وادكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الأعمال . ٤٥]

قد يكون الذكر ركناً في الدين عندما يهمس الشيطان في قلبك : ارتكب هذه الحماقة ، افعل هذا الشر ، اسقط في هذه الشهوة ..
لكن نداء الإيمان يقول لك : اتق الله ، إن الله قيوم على الناس ، إن الله رقيب على العباد ، احذر لقائم على كل نفس بما كسبت .

هذا المعنى هو قوله جل شأنه : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وحلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى رهم يعودون ﴾ [الأعمال ٢٠]

وهذا هو معنى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » ومن هؤلاء السعة : « ورجل ظلت امرأته ذات مصيب وجمال فقال إني أخاف الله » (١)

« هياك ذكر — أيضاً يكون ركناً في الدين — وهو ما يجعلك تثق في أن الله لن يخذلك وأنت تعمل له ، لن يضيعك وأنت تتوكل عليه ، لن تكت وأنت تستعير به وتنتظر منه .. وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ الدين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [المرعد ٢٨]

الذكر هنا سناد حقيقي للتوكل على الله والاعتماد عليه والاستعداد منه والثقة فيه ، إن الآخرين قد يعتمدون على بشر ، والبشر يموتون أو يضعفون ، لكنك تعتمد على الله ، والله لا يموت : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خيراً ﴾ [مريم ٥٨]

وجدت — وأنا أدرس الذكر في القرآن الكريم — أن أساس الذكر

(١) رواء البخاري في الأذان — باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفصل المساجد ١٩٨/١ ومسلم في الزكاة — باب فصل إعطاء الصدقة ٩١/٣ .

هو معرفة الله بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى معرفة صحيحة ، وقد لاحظت في آيات التشريع وفي آيات وصف الكون حشداً من أسماء الله الحسنى ما ذكر إلا للحكمة ، لأنه — فعلاً — نوع من التذكير محتاج إلى فهمه

مثلاً المهاجر في سبيل الله دفاعاً عن دينه أو طبيباً للوحاة بإيمانه أو سعيًا لكوين دولة للإسلام في مكان آخر ، ماذا يرجو هذا المهاجر ؟
يستظر من الله الخير ، في نفسه اشتياق إلى حالة أحسن وأمل في أن الله يعطى العطاء الأوفى .

نجد هذا المعنى مرتبطاً باسم من أسماء الله الحسنى أو بصفة من صفاته المعنى ، قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لِيَرْزُقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لِيَدْخُلَهُمْ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج ٥٨ ، ٥٩]

الآيات وصفت رب العالمين بأنه خير الرازقين ، وبأنه : عليم حلیم .
ثم مضت الآيات تقول : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرِنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴾ [الحج ٦٠]

قد تناجر — كما حدث للمسلمين — وتقاتل المشركين من موطن الجديده ، فكن عدلاً وأد ما عليك ، العفو من شيم الكرام ، كن مع الآخرين على نحو ما ذكرت الآية من وصف الله . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴾ .

ثم مضت الآيات تقول : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج ٦١] أجراء من النهار تسود بعد أن كانت بيضاء وتتحول إلى ليل في الشتاء ، وأجراء من الليل كانت سوداء تبيض وتتحول إلى نهار في الصيف !! هكذا رب الليل والنهار يصنع بالعالم ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم نغنى الآيات فتقول : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ

من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴿ [الحج ٦٢] .

ثم يُعرفك بالله عن طريق الطر في الكون : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض محضرة إن الله لطيف خبير . له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والهلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [الحج ٦٣ - ٦٥] .

وحدث أنه في سبع آيات متتابعة نحو خمسة عشر اسماً من أسماء الله الحمسى ، تُذكر به وبعظمته وبجلاله وبتعمته وبفضله . هذا عندما يوصف الكون والحياة ، فيما نجد أن تعرف الناس بالله قد يوجد وهو يؤرخ للحياة ، فمثلاً يقول الله : ﴿ سل بني إسرائيل كم ءاتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ [البقرة . ٢١١] .

كلمة . ﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته ﴾ شرط .

ما جواب الشرط ؟

جواب الشرط : يعاقبه الله .

لكن الجواب هنا يحذف ويأتي اسم من أسماء الله أوصفة من صفات الله : ﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ !! .
مثال آخر ..

المسلمون يعترفون بدينهم ، والكافرون يضحكون من هذا الاعتزاز : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾ فيكون الرد الإلهي : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ [الأنعام ١٦٩] .

أصل الجواب ومن يتوكل على الله ينصره الله ، يأخذ بيده ، يعز حاسبه ..

طوى هذا الجواب ، وذكر بعض أسمائه الحسنی : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ !! .

ختم الآيات القرآنية بأسماء الله الحسنى ليس حتماً عشوائياً ، وإنما هو ختم مقصود به ربط الناس برسم .

وهذا يتجده في كثير من الآيات — بل كل آيات القرآن على هذا النحو — فمثلاً في سورة البقرة تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ لِلَّذِينَ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوَلتهنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٢٤ — ٢٢٨]

هنا صيغت الأحكام بطريقة تربط المسلمين برسم ، وتحمل رقابتهم لله مستمرة .

في اعتقادي لو أن أمتنا مشيت مع كتابها في وصفه لرب العزة ، وفي تشريعه للعباد ، وفي حديثه عن الكون وآفاق العالمين ، وفي تذكيره للناس على النحو الذي عرضناه لأمكن عمل منطق علمي أشرف من المنطق الذي يسود العالم الآن .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [النورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام البين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ..

أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل

واعلموا أيها المسلمون أن ديننا هذا دين قيم ، وأنه لا يعرف نفاسته البه والجهال ، وإنما يحتاج إلى علماء راسخين ليسلكوا حقائقه ويبصروا بها الناس .. فإن عبادة شريفة كذكر الله وقعت بين أصابع ملوثة أو أفكار هاربة فجعلت من الذكر ما يسمى — في عرف بعض المغفلين — الرقص الدينى !! .

كيف يكون في الإسلام رقص ديني ؟ .

هذا الدين الذى حرّر العقل الإنسانى من الخرافة ، وحرر القلب الإنسانى من الهوى ، وحرّر السلوك الإنسانى من العوج ، هذا الدين الذى قال للإنسان : لا تصع قدمك إلا حيث تعرف : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

هذا الدين الذى قال هذا الكلام وحدها لأمة التى تنتسب إليه تعمل على أسس أسما لن تحاسب لا على سمع ولا على بصر ولا على فؤاد ، فهى تمشى

تخطط حبط عشواء في كل شيء ، وحولت ذكر الله إلى بعض أوراد ما أرسل الله بها من سلطان أو إلى أحفال رقص يفقد الناس فيها عقولهم ووقارهم وكرامتهم .

طبعاً الإسلام لا يعرف هذا ، لأن الآيات الأولى فيه تقول للإنسان : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق ١ - ٥]

والعجيب أن الدين الذي يبدأ الآيات الأولى فيه بالقراءة والقلم يتحول أتباعه إلى جماهير من الأميين يزعمون العالم الثالث ، لا ثقافة لهم ، ولا ارتقاء ، ولا نضارة في الفكر ، ولا تنظيم لمقدمات ، ولا معرفة لمسطق طبيعي !! .

لماذا ؟ لأنهم جهلوا دينهم .

قلت : كما أن السمك يموت إذا خرج من الماء — لأن حياته في الماء — أو كما أن الإنسان يموت أو يخنق إذا ضاع منه الهواء — لأنه لا يحيا بدون هواء — فكذلك الإسلام ، ما يمكن أن ينتعش وأن يقوى إلا بأدواته التي سمعت أجراء منها .

ذكر الله في الكون وفي الحياة وفي التاريخ وفي التشريع وفي كل شيء كيف : يختفي هذا الذكر ويتحول إلى شطح ونطح وقفز ووثب وعودة إلى الوثنيات التي يمثلها الهنود عبدة القرده وما إلى ذلك ١٩ .

أحب أن أوجه النظر إلى أن النضج المفهومي أساس لفهم الإسلام ولعرضه ، ممكن عندما ينضج العنب أن يحول إلى زبيب ويبقى له قدر من القيمة الغذائية بعد أن يجف ، ممكن بعد أن ينضج البلع أن يتحول إلى تمر وتكون له قيمة غذائية جيدة وهو تمر ، لكن ما الحال إذا جفف البلع وهو أحضر ؟ لا يصلح ..

ما الحال إذا جفف العنب قبل أن ينضج ؟ لا يؤكل .

هناك عقول إسلامية جففت قبل أن تنضج !! .

لا يمكن أن يصلح لشيء هذا النوع من الناس سواء كبر مصيبه أو قل ، لأن الإسلام علم لا ينتهى .

كان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام نموذجاً فريداً عندما قال — كما أمره ربه — : ﴿ رب زدنى علماً ﴾ [ص ١١٥] وموسى عليه السلام — وهو من أولى الحرم — قيل له هاك من يعرف أكثر منك . اجتهد الرجل وذهب وهو يقول : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ﴾ [لكهم ٦٠٠] ما أرهد المسلمين في العلم ، ما أقل عناية المسلمين بالعلم ، ما أشيع الخرافات والأوهام بين المسلمين !! .

الذكر الحقيقى ليس شقشقة لسان ، وليس عمل الفم وهو يعضغ الكلام ، إنما الذكر الحقيقى لله . قلب يبض بمشاعر الرعبة والرهبة ، ويمشى على الأرض وهو يرنو إلى السماء ، يخشى ربه ويرجو منه الوفاء ، ويتنظر عنده الخير ، ويؤمل في الدار الآخرة يوم اللقاء .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]
أقم الصلاة ...

(١) روى مسلم في الذكر — باب التوحد من شر ما حمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

نفحات الرحمة وبُشريات الخير

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد كان سلفنا الأول مرتبطا بالقرآن الكريم على نحو يجلى عليه في الدنيا والآخرة ، كان إذا قرأه أو سمعه تدبره ، فنزلت الآية على عقبيه هدى وضياء ، ونزلت على قلبه بردا وسلاما ، ولا يزال من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين يقرأون القرآن على هذا النحو .

إن الله فاوت بين الناس فيما منحهم من مواهبه ، قد تكون هناك أصوات حسنة ، وقد تكون هناك أصوات معتادة ، اللى هدى إلى ألفاظ الأذان من صحابة النبي عليه الصلاة والسلام رجل وصي القلب ، عظيم الإيمان ، بلغ من صفائه أن نضح قلبه بإلهام من الوحي الأعلى ، ومع ذلك فإن كلمات الأذان — كما عُرِضت على لسانى عليه الصلاة والسلام — تخرجها عليه الصلاة والسلام من يؤدبها بصوت رقيق ، فاختر بلال بن رباح وقال : « فإنه ألدى صوتا » (١)

(١) هذه العبارة وردت ضمن حديث طويل رواه أبو داود في سننه في كتاب الصلاة — باب كيف الأذان ١٦٩/٢ والترمذي في أبواب الصلاة — باب ما جاء في بدء الأذان ، وقال : حديث حسن صحيح ٥٦٣/١ وابن ماجه في كتاب الأذان — باب بدء الأذان ٢٣٢/١ وأحمد ٤٣/١ والدارمي في كتاب الصلاة — باب في بدء الأذان ٢٨٦/١ . والصحاحى الذى هدى إلى ألفاظ الأذان هو عبد الله بن زيد بن عبد ربه بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي أبو محمد الذى صحاحى مشهور مات سنة اثنتين وثلاثين وقبل استشهد بأحد .

والقرآن الكريم يقرؤه الكثيرون ، ولعل البعض أن يكون أندى صوتاً من الآخر ، هذه مواهب ، ولعل البعض يكون بعمق إحلاصه ، وصدق أدائه ، وحلاوة ترتيله أسبق إلى القلوب ، فهو يملؤها خشوعاً لله ، واستجابة لتوجيهاته ، وكما قيل : الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً ، والكتاب المطبوع طعناً حساساً يمكن أن يعرض فيه الحق عرضاً مغرياً بالقبول . هذا شيء نذكره بين يدي كلام عن أثر القرآن في نفوس المستمعين

قرأت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرج يَغْسُ (١) بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ والطور ﴾ حتى بلغ ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع ﴾ قال : قسم — ورب الكعبة — حق . فنزل عن حماره — هكنا يقول ابن الدنيا — واستند إلى حائط ، لمكث ملياً ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه (٢) .

هذا رجل رقيق القلب ، شديد الإحساس بخشية الله ، شديد التكبير لما يقع منه من أخطاء ، فهو يظن أن أخطائه جبل إذا انهد على رأسه أودى به ، فهو لذلك هيب من الوعيد الإلهي .

هذا شيء ينبغي أن يذكره المسلمون عندما يستمعون إلى القرآن ، وتزعمهم آيات كثيرة فيها الوعيد الشديد ومع ذلك فكأن القلوب معلقة بالرصاص أو بالحديد لا يخشع أحد ، ولا يكثر أحد ، كأن القرآن يتلى بين من لا يعي !!

بدع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخشيته لله عز وجل التي جعلته يمرض عندما أحس كأن لفحاً من لوعيد الإلهي قد يصيبه مع أنه رجع من المشرين بالجنة ، بدع هذا لنرى كلاماً آخر فيه بشريات ، فالناس تحب البشريات أكثر مما تحب عناصر الرهبة والتخويف ..

(١) يغس بالمدينة : أي يطوف بالليل يحرس الناس ، ويكشف أهل المدينة .

(٢) روى ابن أبي الدنيا ، قال ابن كثير في تفسيره : ٧ / ١٠٦ .

يروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرى أن لي بها الدنيا وما فيها . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ و ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ و ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جازك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ و ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ (١) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ثمان آيات في سورة النساء من خير هذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ ، ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ ، ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ ، ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ، ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ ، ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ ، ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ ، ﴿ ما يفعل الله بعذابكم ﴾ (٢) .

وعندما كنت أحطب في مسجد عمرو بن العاص كنت قد وصلت إلى هذه الآيات فيما أذكر ، وأطنتي شرحتها أو أحصيتها ، فقلت : يعود الحديث في نفحات الرحمة ، وبشرىات الخير ، وآفاق الأمل التي محتاج إليها ، لعلها تدفعنا إلى أن نقبل على ربنا ، وأن نطيع أوامره ونسير على صراطه المستقيم .

ونحن نشرح بإيجاز هذه الآيات دون ترتيب ، وإنما نريد أن نشع المعنى ، ونريد أن نأخذ الثمرات ما اقترب منها لأيدينا .

آية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ تجعلنا نصحح خطأ شائعا بين الناس وهو أن كل معصية هي دون الشرك .

(١) رواه الحاكم في المستدرک — كتاب الفسور ٣٠٥/٢ . وقال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن صحيح من أبيه ، فقد احتلف في ذلك .
(٢) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٦١/٥ .

وهذا كلام يحتاج إلى تصحيح وتنقيح ، لماذا ؟
لأن هناك معاصي قد تكون مساوية للشرك تماما ، وقد تكون أشد

منه

أولا : ما هو الشرك ؟

أن يؤمن بعض الناس بالله ، ويؤمنوا مع ذلك بآلهة أخرى يستشفع بها
إليه ، يزعمونها أولادا ، يزعمونها آباء ، يزعمونها ملائكة كجبريل ارتفعوا
به — وهو روح القدس — إلى أن يكون إلها .

هذا شرك ، لكن ألا ترون أن هذه المعصية الكبيرة التي لا تغفر هي
دون الإلحاد في الألوهية ؟

واحد شيوعي ، أو واحد من المستنيرين إلى الحضارة المادية في الغرب
يقول : لا إله ، هل هذا مشرك ؟ هذا ليس بمشرك ، هذا معطل ، هذا شر
من المشرك ، ومعصيته وإن كانت شركا أو مساوية للشرك فلا غفران لها
ثانيا .

هناك شيء آخر يساوي الشرك تماما وهو رفض مبدأ السمع والطاعة ،
أو رفض مبدأ الخضوع لله ، إبليس كان يعرف أن الله موجود ، وكان
يعرف أن الله واحد ، ولكنه — مقبوحا مطرودا — قال لله : لا أطيعك ،
لا أسمع أمرك ، لا أنفذ لك طلبا ، فهو يعرف الله ، ويعرف أنه واحد ،
ويكلم الله ، لكن أي كلام ؟ كلام من رفض مبدأ السمع والطاعة .

دينا يسمى الإسلام ، ومعنى الإسلام : التسليم لله ، الاستسلام
لتوجيهات الله ، ليس لي مقترحات أغيرها أمر الله أو نهيه ، معنى الإسلام :
الاستسلام والخضوع ، فليست لي إرادة أمام إرادة الله ، وفي الحديث :
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » (١) .

فمن رفض مبدأ السمع والطاعة فهو مساو للمشركين تماما ، ولذلك
قال عمارؤنا — وصدقوا فيما قالوا — : إن من رفض واجبا ، أو استباح

(١) قال الألباني : إسناده صحيح رجاله ثقات غير يعين بن حماد : صحيح لكتابته عطفه وقد اتهمه

بعضهم انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم : ١٢/١

محرمًا فإنه خرج بهذا عن مبدأ السمع والطاعة ، جحوذه للواجبات ، واستباحته للمحرمات تجعله منسلخاً عن الإسلام .

فمن قال : إن عقوبة الرنا وحشية ، أو إن عقوبة السرقة وحشية فهذا القائل انسلخ عن مبدأ السمع والطاعة ، وأصبح زميلاً لإبليس في رفضه لأوامر الله .

إذاً التدين الحق : إيمان بالله الواحد ، وإقامة العلاقة به على مبدأ السمع والطاعة

هنا شيء ، قد تقوم العلاقة على مبدأ السمع والطاعة ، ولكن يهرم الإنسان أمام شهوة غالبة ، أو أمام عقبة طارئة ، أو تنزل قدمه في طريق لم يحسن السير فيها ، أو ما إلى ذلك من أنواع المخالفات .

ما دام مبدأ السمع والطاعة مقرراً في نفس المسلم فإن أخطئه لا تخرجه عن دين الله ، ولمضرب لذلك مثلاً ..

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً ، وكان يضحك رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب ، فأتى به يوماً فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبي ﷺ : « لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » (١) .

أنا عندما قرأت الحديث ترددت فيه ، وبدأت أعغلل البصر في معناه ولا أدري ، أسأل نفسي : كيف يحب الله ورسوله ثم يشرب الخمر ؟

وبدأت أدرس ، وأتبع التجارب ، وأذكر أحوال الناس قديماً وحديثاً ، ثم انتهيت إلى ما أذكره لكم ، وهو أن بعض الناس قد يتعطل من إرادته شيء خطير يسبب الإدمان ، يقول الطبيب لمن يشرب الدخان : ضررك وموتك في هذا ، ومع ذلك يشرب ، وقد رأيت أحد الشيوخ

(١) أخرجه البخاري في المختار - باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من

الكار — وهو من بلدنا — أصيب بشلل ، فذهبت إليه ، وسمعته يرجو
الطبيب — وقد حرم عليه التدخين تحريماً باتاً — أن يأذن له في سيجارة أو
في سيجارتين ، والدكتور يأبى ، والشيخ يرجو ويتوسل ويلح !!
فاستعربت ثم علمت أن الإدمان قد يعطل شيئاً أو يصيب جانباً في المخ
بالشلل فما يحسن الإنسان التصرف !! .

وقلت يوماً لرجل يسكر : لم لا تدع السكر ؟ فيكى وقال : ادع الله
لى ! فأدركت أن الرجل مؤمن وأن مشيئته معطلة ، وتذكرت ما روى عن
عيسى عليه السلام « .. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ،
وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعالى ، فارحموا
أهل البلاء ، واحتملوا الله على العافية » (١) .

وتذكرت أن رجلاً (٢) في جند سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أخذ
متهما بسكر — وله شعر يدل على أنه يعشق الخمر (٣) — وحبس في بيت
سعد ، فلما هاجت ريح الجهاد (٤) ، ودارت رحي المعركة ، كاد الرجل
يخن في سجنه ، وتوسل إلى امرأة سعد يقول لها (٥) : هل لك إلى خير ؟
قالت : وما داك ؟

قال : أن تخلين عني وتعيريني البلقاء — وهى فرس سعد — فله على
إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أصبع رحلى في قيدي ، فأبت ، فقال :
كمى حزماً أن ترتدى الخيل بالقاء * وأترك مشدوداً على وثاقها
إذا قمت عنائى الحديد وأعلقت * مصارع دونى قد تصم المناديا
فرقت له امرأة سعد وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها وحمل
على المشركين .

(١) رواه مالك في الموطأ في كتاب الكلام — باب ما يكره من الكلام به غير ذكر الله ٩٨٦/٢

(٢) هو أبو محجن الثقفى .

(٣) ذكره ابن الأثير في الكامل : ٣٣١/٢ وهو :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمه * تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنى بالسلافة فانسى * أخاف إذا ما مت أن لا أدوقها
(٤) أى فى غزوة القادسية سنة أربع عشرة .

(٥) انظر نفس المصدر .

المهم في هذا أن الرجل قال كلاماً من أثر إدمانه لسكر ، وهو قد
باب ، وتاب الله عليه ، والآية تقول : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨]

لكن ما معنى كلمة « لمن يشاء » ؟ هل هي محبة ؟
أولاً : من حق رب العالمين أن يعطي دونه أن يقف بشر ليقول هـ :
لم ؟ هو الملك ، ما دخلك أنت ؟

لكن الحقيقة أن المقصود بكلمة « لمن يشاء » أنه عليم بالناس ، بطوايا
صدورهم ، بخنايا قلوبهم ، عليم بالشخص الذي صدرت عنه المعصية ، هل
كان مغلوباً على أمره ؟ هل كانت هناك ملاهيات تخفف الحكم عليه ؟
الله هو العليم بالناس ، وهو الذي يلزم بدقة من هو أهل مغفرته ،
ومن هو أهل طرده من رحمته ، وعلى هذا نفهم معنى الحديث القدسي :
« يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا
أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك
ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك
ني شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » (١) .

هذا الحديث محكوم بأن هذا عبد يدعو ويرجو ويؤمن ويعرف ربه
معرفة حسنة ، ولكن قد تقع منه أخطاء يسكب الدمع عليها ويتألم لارتكابه
إليها ، فهو مسلم ، ولا شك في إسلامه .

إن الذي يحزم بطرده من رحمة الله هذا الذي يكفر بالله ، ويكره
وجوده ، أو يشرك بالله ، أو يجحد معلوماً من الدين بالضرورة ، أو يستبيح
محرمات الإسلام أن يقع الناس فيه ، أو يسقط واجبات أمر الله العباد أن
يؤدوها ، أو يرفض مبدأ السمع والطاعة .

(١) رواه الترمذي في أبواب الدعوات — باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة
الله لعباده — وقال : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه (تحفة الأسوذي
٥٢٥/٩) وأحمد في المسند ١٦٧/٥ والترمذي في الرقاق — باب إذا تقرب العبد إلى الله ٤١٤/٢ .

هذا أساس للآيات الخمس التي ذكرها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، ثم تحيء الآيات الأخرى بعد ذلك مكملة للمعنى الذى درأ حوله الآن .

الآية الأولى من الآيات الخمس ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [النساء : ٣١]
ما هي الكبيرة ؟ الكبيرة ما ورد في الإسلام مقرونا بلعن ، أو مقرونا بوعيد شديد ، أو مقرونا بعقاب فيه رهبة وفيه تخويف ، هذه هي الكبيرة .
والكبائر كثيرة ، فإذا يرى الإنسان من هذه الكبائر وابتعد عنها ، ثم وقعت منه صغائر — والصغائر كثيرة — فإن الله يعمر لعباده الصغائر فصلا منه ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [النساء : ٣١]

وهذا يجعل أدب الإسلام يسيطر علينا عندما نرى بعض المخطئين ، فما يجوز أن نتهمهم بالفسوق والكفر لأنهم ارتكبوا أشياء هي صغائر ، وهذه الصغائر مغفرة يوم يجتنبون الكبائر

والآية الأخرى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ [النساء : ٤٠]

ما أظن أحدا يخاف من الله ظلما ، فإن الله عدل ، وإذا سألتني قلت : والله نحن نخاف من العدل ، لأننا إذا عوملنا بالعدل ما نتجو من العقاب ، ماذا لو قيل لك : أنت أطعت ، وأنا أطعمت وسقيت وكسوت وآويت ؟

فيقدر ما كسوتك وآويتك وأطعمتك وسقيتك تذهب العبادات التي عدتني بها ، وتبقى عريان بعد ذلك تحتاج إلى الفضل الإلهي !!

إننا لو عوملنا بالعدل هكذا ، لأننا في الحقيقة فقراء إلى فضل الله ، وإلى عفو الله ، وإلى رحمة الله ، وإلى مغفرة الله ، ممكن جدا أن نعامل بالعدل فتطيش كفتنا ويضيع عملنا ، فحن من ناحية العدل موقنون بأن الله عدل ، ولكن الحاجة الملحة هي أن نكون أهلا لفضل الله وعفوه ورحمته ، وهذا العفو ، وهذه الرحمة ما يلقاها متكبر .

وأما أنه المتدين إلى أن يكونوا أصحاب قنوب رقيقة خصوصاً مع من لا يزالون في الظلمات ، فإن رسول الله ﷺ « حدث أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : من ذا يتألى على أن لا أغفر لفلان ، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك » (١) .

هذا منه أن بعض المتعدين عنده قسوة عريية ، أو يظن أنه ببعض العبادات — التي قام بها هو — قد ملك على الله خرائن الرحمة وأبواب الجنة !! وهذا خطأ فاحش ، وإلى هذا يشير ابن عطاء الله السكندري في حكمته : « معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » .

الآية الأخرى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [سورة النساء : ١١٠]

ليس في الإسلام أكثر من أن الإنسان إذا اتسخ أن يعسل نفسه ، وقلب الإنسان كبده ، فكما أن البدن — على طهر الأرض — يتعرض للعباس ولأتربة الجو ، وكما أن هناك أجهزة للعرق وللفضلات تحمل هذا الجسم محتاجاً باستمرار إلى التطهير والتقية وكذلك اقلب الإنسان يحتاج باستمرار إلى التطهير .

وعندما تخطيء لا تذهب إلى بشر لتقول له : أنا أخطأت فاعف لي — كما يوجد في بعض الديانات — لا ، أنت أخطأت أنت الذي ترجع إلى ربك وتصطلح على سيدك ، وتستأنف حياة أبقى وأرق .

الآية الخامسة : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ [النساء : ٦٤]

هذه الآية كشفت عن مكانة النبي ﷺ وأن استغفاره للمخطئين باب عظيم إلى التوبة عليهم ورضوان الله الذي ينتظر لهم ، كان المنافقون — كما

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب — باب النهي عن نقيض الإنسان من رحمة الله تعالى

قال الله — : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيهم يصمدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : ٥ — ٦] .

لكى المفروض أن المؤمن يحىء إلى الله وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام — وكان ذلك في حياته ﷺ — فيسأل ربه الرضا ، ويطلب من نبيه ﷺ أن يعفر الله له .

وقد كان النبی علیه الصلاة والسلام يدعو لأهل الطاعات ، فإذا جاءه رجل زكاة دعا له تنفيذاً لأمر الله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

كلمة « وصل عليهم » أى ادع لهم ، فمن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما قال : « كان النبی ﷺ إذا أتاه رجل بصدقة قال : اللهم صل على آل فلان ، فأتاه أبى فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى » (١) . ومعنى الصلاة : المعفرة والبركة والثناء ورفعة الدرجة .

هذه هى الآيات الخمس التى اتفق ابن مسعود رضى الله عنه مع ابن عباس رضى الله عنهما على أنها من مفاتيح الرجاء ومن أبواب الرحمة ، وزاد ابن عباس رضى الله عنهما ثلاث آيات متتابعات هى : ﴿ يريد الله لينزلكم ويهديكم سنن الدين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ [النساء : ٢٦] .

القرآن الكريم نزل ليحعل الأمة الإسلامية امتداداً لسبوات القديمة — لنوح وموسى وعيسى — فى العقائد وأصول الإيمان ومكارم الأخلاق ، أما الفروع الفقهية ، والشرائع العمية فقد قال الله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

(١) رواه البخارى فى الدعوات — باب قول الله تعالى وصل عليهم ٩٠/٨ ومسلم فى الزكاة — باب الدعاء لمن أتى بصدقة ١٢١/٣ .

قد تختلف الأديان من ناحية الفروع ، أما الأديان من ناحية الأصول فهي متفقة ، فأتباع موسى غير يهود العصر الحاضر ، وأتباع عيسى غير نصارى العصر الحاضر ، يهود ونصارى العصر الحاضر صلتهم بموسى وعيسى صفر ، أما نحن فأتباع موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام .

والآية الثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تقبلوا ميلا عظيما ﴾ [النساء : ١٧] .

الله حل حلاله في دينه ومراده من حلقه وهديه وأمره ونهيه إنما يريد أن يرفع مستوانا ، وأن يركب سرائرنا ، وأن يبيص صحائفنا ، أما غيره فيريد أن يزيغ بنا ، وأن يعوج عن الحق ، وأن يلوث بالأقذاء بواطسا ، وأن يبعدنا عن ربنا وولي نعمتنا .

الآية الثالثة : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ [النساء : ٢٨] .

رعاية للضعف البشري ، رعاية لأسا خلقنا من طينة هذه الأرض ، رعاية لما يغلب غرائزنا من نروات السوء ، رعاية لذلك كله عاملا رب العالمين بهذه السماحة ، يصاعف الحسرات ، ويغفر السيئات ، ويعمر ما دون الشرك ، ويعمل الكثير رحمة منه بعاده : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاعفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ [غافر : ٧] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله موفق العاملين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي المؤمنين ،
وأشهد أن محمدا رسول الله سيد الأنبياء والمرسلين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .
أيها الإخوة : نريد وقد تحدثنا عن الذنب ومعصيته ، والعصيان والتوبة
منه ، نريد أن يعرف المسممون شيئا عن طبيعة الطاعة وطبيعة المعصية في
دينا كما فسر ذلك المشتعلون بالتربية .

لماذا أشرح هذا ؟

لأن المحادعة بالدين أو بأداء الشعائر الشكلية أصبح شيئا في أخلاق
المسلمين الآن ، لضرب مثلا :

الشح رذيلة ، البخل معصية ، وفي الحديث : « اتقوا الظلم فإن
الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم
حملا على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١) .

وهل انتشرت الشيوعية وانتشر ضلال كثير في الأرض إلا لأن المبتلين
بالفقر لم يجنوا عونا مسعفا من المبتلين بالغنى ، لم يجنوا معاملة عادلة إن
عملوا ولا إعانة سخية إن تعطلوا .

البخل رذيلة ، فكيف نتخل عن هذه الرذيلة ؟

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب — باب تحريم الظلم ١٨/٨ .

بالكرم ، لا توبة منها إلا بالكرم ، كيف ؟ بتدريب النفس على العطاء ، لأن الرسول ﷺ قال « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم .. » (١)

تكلف العطاء تكن يوماً ما كريماً ، قاوم شح نفسك تكن يوماً ما كريماً ، فإذا حدث أن رجلاً قال . الشح رذيلة والبخل معصية ، والعلاج أن أصوم غداً وبعد غد وأصوم ثلاثة أيام من كل شهر .

لا يصلح هذا ، فإن هذا تعطية للمرض ويس إرادة للمرض ، الكبر مرض والعناد مرض ، كيف يروان ؟ أن تكون سمحاً ، وأن ترفض العناد ، وأن ترهد في الحدل ، لكن إذا بقيت عبداً ومجادلاً فهل يعنى عنك أنك تصلى كثيراً أو تصوم كثيراً ؟ لا ، المرض كما هو ، كل ما حدث أن الوساحة النفسية غطيت ببعض الأوراق حتى لا تراها العين ، ولكن الذى يعلم السر وأخفى يعرف نفسك .

من هنا يجب أن نتعمق كيف ترى أنفسنا ، وكيف نبتعد عن كثير من أخطايها والهنات التى لا تليق بالمؤمنين ، والتى لا يغطيها — عند الله — أن تكثر الصلاة أو تكثر الصيام ، إنما تقبل الصلاة يوم تكون ممحاة (٢) ، تمحو سوء القول وسوء العمل ، وفحش القول وفحش العمل ، وردىء الخلق وردىء السلوك ، عندئذ تكون الصلاة تطهيراً ومغفرة ، أما انحاء الجسد وقيامه فإن هذا ما يصنع شيئاً لتطهير الإنسان .

نحن نريد أن نعرض الإسلام بأخلاقنا وأحوالنا عرضاً حسناً ، لأن التدين الشكلى أساء إلى ديننا وأساء إلى سمعنا ، إن أسلافنا أتقنوا لغة لم يعرفوا غيرها : الخلق !! الخلق لغة عملية ، اتقنوا هذه اللغة فافتحت لهم البلاد ودان لهم الناس ، صاحب الخلق يملك الكثير ، لكن يوم يتحول الدين إلى شكليات فإن أصحابه لن يبالوا شيئاً به ، ولن يكسبوا حيراً من ورائه ، ولن يسئلوا إليه يداً حسنة في شرح الصلوة به ودك حصون الضلال باسمه .

(١) نبيه الحديث « . ومن يبحر الخير يعصه ، ومن يسر يرفقه » رواه ابن ماجة في الأفراد .
خصب الجددى في التاريخ وإسناد صعب كذا في الجامع الصغير للسيوطى (ينظر القدير ٥٦٩٢) .
صحيح الجامع الصغير (٢٣٢٨) حسن

(٢) الممحذ حرقه يزال بها التوسخ ، وقطعه من المصط أو نحوه يستعمل نحو الخط

نريد أن نعرف دينا معرفة صالحة ، وأن تكون أخلاقنا وأعمالنا شرحا
عميقا صالحا لهذا الدين الذي شرفنا الله به .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة
لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠٠] .

عباد الله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى
عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل :
٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

نظرات في سورة النساء (١)

العناصر الخمسة التي
تتكون منها سورة النساء
خطبة الجمعة

بجامع عمرو بن العاص
١٩٧٤/٣/١٥ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عذاب إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإننا نقف اليوم وقفة استهداء وتدبر أمام سورة النساء ، وسورة النساء سورة مدنية ، وهي السورة الثالثة في المصحف الشريف . وعلى عادتنا في التفسير الموضوعي نحاول أن نلنقط صورة سريعة لهذه السورة المباركة ، ونحاول أن نجمع ملاحظاتها ونقرب معانيها في هذه اللحظات القصيرة التي تؤدي فيها الخطبة .

بدأت السورة بقول الله جل شأنه — ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم :
 يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها
 وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن
 الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء : ١] تفيد هذه الآية أن الازدواج طبيعة
 الأحياء ، ففى عالم النبات يوجد الذكر والأنثى ، وفى عالم الحيوان يوجد
 الذكر والأنثى ، بل إن القرآن الكريم وجه البطر إلى أن المادة نفسها تقوم
 على الازدواج ، قال تعالى : ﴿ ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم
 تذكرون ﴾ [الداريات : ٤٩] وظاهر من هذا الازدواج أن بقاء الإنسانية
 والحيوانية وامتداد العمران بهذا التكامل بين الذكورة والأنوثة ، كأن
 الأجناس المختلفة ما تمتد جيلاً بعد جيل إلا عن هذا الطريق — طريق التلاق
 والازدواج : ﴿ سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن
 أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يس : ٣٦] .

ولا يبقى متفرداً بوجوده ، غير محتاج إلى آخر — لأن ذاته نفردت
 بوجود أرقى من كل ما تفكر فيه — إلا الله جل شأنه الذى ﴿ لم يلد ولم
 يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص : ٤ ، ٣] .

أما بقية الخلائق فإنها تقوم على هذا الازدواج ، فإن الإنسان يألف
 جنسه ، ويعيش معه ، وعن هذه المعاشة بين جنسين أو بين فردين من
 جنس واحد يتم امتداد الوجود .

والنظرة العامة لهذه السورة تجعلنا نلتقط عدة معان شاملة ، يمكن أن
 نقول : إن الصفحات الخمس أو الست الأولى فى هذه السورة تتحدث
 جميعاً عن قضايا الأسرة .

ثم بعد حديث عن العقيدة والأخلاق ، وبعد تنبيه إلى ضرورة تخلص
 النفس من الفس والرياء يبدأ فى السورة حديث آخر عن أهل الكتاب ، يبدأ
 هذا الحديث من قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب
 يشعرون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل . والله أعلم بأعدائكم
 وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾ [النساء : ٤٤ ، ٤٥] وأهل الكتاب
 الذين تحدثت عنهم هذه السورة : يهود وبصارى ، ولكلا الجنسين
 خصائص برزت عندما تحدث القرآن عن كلا الفريقين على حدة .

ثم نحدد حديثاً — بعد ذلك — عن المنافقين ، وحديثاً آخر عن ضعاف الإيمان ..

وما الذى يبرز النفاق ويكشف نخبائا المحادعين ؟ .

وما الذى يَعْجِمُ (١) أعواد المؤمنين ويبين الصُّلبَ منها والهَشَّ ؟ .

أمران : الجهاد فى سبيل الله ، والحكم بما أنزل الله .

وقد دارت السورة بعد ذلك على هذين الأمرين اللذين يكشفان نفاق المنافقين وضعف الضعفاء .

هذه سورة النساء بإجمال ..

يمكن أن نُجمل العناصر التى تكوت منها سورة النساء فى هذه العناصر الخمسة :

١ — حديث عن الأسيرة وقصاياتها ، أخذ الجزء الأول من السورة فى نحو ست صفحات .

٢ — حديث عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أخذ ما يلى الحديث عن الأسيرة ، وخُتمت به السورة فى حديث عن النصرانية ومزاعمها .

٣ — حديث عن المنافقين وعن ضعفاء الإيمان

٤ — حديث عن الجهاد فى سبيل الله .

٥ — حديث عن الحكم بما أنزل الله .

قلنا : إن الفائدة من الدراسة الموضوعية لسور القرآن الكريم أنها تعطيك فكرة عَجَلَى عن السورة بحيث إذا رجعت إلى نفسك وأخذت تتلو كتاب ربك وتتدبر ما أودع الله فيه من هدايات تعرف أين تسير وما الذى يواجهك ، فإن من العجز الذى وقع فيه بعض المفسرين والقراء أنهم ظنوا

(١) عَجِمَ الشيءَ عَجْماً وعَجْماً : غَشَّه لِعَدَمِ صَلَابَتِهِ مِنْ رَخَاوَتِهِ . ويقال : عَجِمَ فلاناً ، وعَجِمَ عوده : امتحنه واختبره .

آيات القرآن الكريم رُكِّم بعضها فوق البعض الآخر دون رباط واضح ودون
خُطة يسهل !! .

وهذا من العجز في تدبر القرآن والقصور في إدراك معانيه ومعانيه .
إننا بحاجة إلى تدبر سورة النساء خصوصاً هذه الأيام لم ؟ لأن أوائل
السورة تحدثت عن قوانين الأسرة وقضاياها وعلاقة المرأة بالرجل .

وطاهر أن الإسلام يرفض الرهبانية ، ظاهر أن الإسلام لا يرى أن
الغريزة الجنسية رجس من عمل الشيطان — كما تحدثت بعض الديانات !!
الإسلام يرى — وهو دين الفطرة — أن الزواج عادة ، وأن علاقة
الرجل بامرأته علاقة طبيعية ينبغي أن تُصان في إطار من تعاليم لشرعة
ونطاق من حدود الله .

تصوّر بعض أساس أن العريّة الجنسيّة يجب أن تُكبح إلى الأبد وأن
تقهر داخل تعميمات مشددة من رهبانية قاسية ، هذا التصور ينكره
الإسلام ، والأساس في هذا أن طبيعة الفضيلة العموم والنفع .

معنى أنك تقول : الصدق فضيلة ، فإذا عمّ الصدق ارتقى الناس
وانتفعوا .

الأمانة فضيلة ، فإذا عمّت الأمانة ارتقى الناس وانتفعوا .. فإذا قلت
مع لفاصرين : الرهبانية فضيلة ، فإذا عمّت الرهبانية باد الجنس الشرى
وتلاشى .

فلا فضيلة إذن في هذه الرهبانية لأن نهايتها أن تقهر البشر في حرب
لا معنى لها .

إنما قام الإسلام على عمل حميل وهو ضبط الغرائز البشرية ، وضبط
الغرائز البشرية مسألة معقولة ومعروفة ، فإن الماء يروى الطمآن ويحفظ
الحياة ، وهو بالنسبة إلى الأرض يروى الأرض ويُحِيل جَدُّها حصياً .

لكن متى يكون الماء كذلك ؟ .

يوم يؤخذ بقدر وتوضع له أنظمة ..

الرائر الحسية كذلك ، إذا أطلقت في ميضان مدمر قتلت البشر ، أما إذا وُصع ها نظام مصبوط معقول كانت مصدر حياة للناس ، وقد نظم الإسلام الغريرة الحسية فلم يطلقها ليتحول البشر إلى حيوانات ، ولم يُقيدها التقييد الذي يبيد البشرية أو يجعل اسحاق الحسى علامة فيها والشنوذ المستقيح شارة لها ، بل أباح الزواج ورُحّب به ، وهشّ له ، وأعان عليه بكل جهده .

وكما أباح الإسلام الزواج أباح التعدد لِم ؟ .

لأنه يرى أن الفائض السائى بين المجتمعات كلها لا يعالج إلا بهذا الأسلوب .

يعنى إذا وجد نسوة زائدات مستعدات للزواج وكان عدد الرجال المستعدين للزواج أقل فما الحل ؟ .

اناس هيا بين أمرين . إما أن يمرضوا رهبانية على المرأة الزائدة فلا تتصل برجل أبداً ، وإما أن تتصل بالرجال عن طريق الزنا والبغاء .

وإما أن تشرك امرأة أخرى في رجل تنتسب إليه وينفق عليها ويكون أولادها منه حاملين لاسمه .

أى الحلول أشرف للمرأة ؟ .

أن تكون محبوسة إلى الأبد في سجن الرهانية ، أو مطلقة العنان في ميدان ابغاء والحيوانية أم تكون شريكة لامرأة أخرى في رجل يرعاها ويوفر لها حياة الشرف والاستقامة ١٤ .

إن الإسلام لما أباح التعدد كان منطقياً في هذه الإباحة ، ثم هو قبل ذلك وبعده ما أباحه إلا لمن يقدر على تعاته ويستطيع العدالة فيمن جمع بين في بيته .

قضايا الأسرة تحتاج إلى كلام طويل نرجعه إلى حديث آخر لأنى أريد أن ألقى نظرة شاملة عاجلة على عناصر السورة الأخرى .

لقد تحدثت السورة عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، بدأ حديثها عن اليهود بقول الله حل شأنه : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من

الكتاب يشتركون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل ﴿ [النساء . ٤٤]
 وقول الله بعد ذلك : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم .. ﴾ [النساء
 ٤٩] وقول الله : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون
 بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين
 آمنوا سبيلاً ﴾ [النساء . ٥١] هذا الكلام عن اليهود لابد أن نلاحظ فيه أن
 الإسلام يعتبر الضمير اليهودي ضميراً مبرئاً ، وأنه يعصى الله عن إدراك
 لمعصيته ، وأنه يعرف الحق ويمجد عنه !! وذلك بعكس كثير من النصارى
 فهم — إن صحَّ التعبير — مخلصون في ضلالهم !! .

تعبير مستغرب ، ولكن أحياناً يخطئ الإنسان ، ويوغل في الخطأ ،
 ويتحمس لخطئه أو خطيئته وهو مغلق الدهن ، حائر الفكر ، مُشتت
 الخُطى لا يعرف له هدفاً سليماً ولا غاية صائبة ، وقد يكون هذا الحائر
 الذي فقد الاستقامة في مسلكه وفكره قد يكون خطراً جداً على الحقيقة
 وعلى الإيمان لأن كثيراً من الناس في هذا المصمار ينطبق عليهم قوله تعالى :
 ﴿ ألمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ [ماطر ٨] وقوله تعالى : ﴿ قل
 هل ننشكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم
 يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [الكهف ١٠٣ ، ١٠٤] اليهود مغضوب
 عليهم . لماذا ؟ .

لأن شراسة طباعهم ، وقسوة قلوبهم ، وسماجة أعمالهم ، والكبر
 الذي يصبغ سموتهم وحياتهم يجعلهم جُراء على الله ويجعل ما يصدر عنهم
 من آثام ظاهر الشر يادى القبح ، بهم مثلاً — كما روى سورة النساء —
 يُستلون من قريش — وقريش وثنية — أنتم أهل كتاب خيراء بالوحي
 تتركون طبيعة المنتسبين إلى السماء وإلى الكتب السماوية دُلونا : أنحن على
 الحق أم محمد ؟ فيكون جوابهم اليهود : أنتم على الحق !! عجباً !! .

إذا كنتم أهل كتاب سماوى تؤمنون بالله وبموسى نبيه وما أرسل بعد
 موسى من أنبياء فإن الله الواحد لا يجوز بُتة أن يكون له شريك ، وأن تكون
 هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع والتي عكف عليها القرشيون آلهة مع الله
 أو وسائط وشفعاء إليه .

يذكر القرآن الكريم الشهادة المرورة التي أعطاها ليهود إخوائهم عبدة الأصنام في قوته جلّ شأنه : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴿ [النساء : ٥١ ، ٥٢] ومن علامات التعمق في الصلال أن هؤلاء يتمنون للمسلمين أن يتركوا كتابهم ونبيهم وألا يعرفوا ربهم وألا يشرحوا الوحداية على النحو النضير الجليل الذي ذكره القرآن الكريم !! .

بين مجد أن الصارى في تأليههم للمسيح ورعهم أنه إله أو جزء إله أو شبه إله أو ابن إله أو ما إلى ذلك مما عاشوا به وبشروه وتعصبوا له نجد أن القرآن الكريم يناول هؤلاء ليشرح لهم الحقيقة مبيناً أنهم أهل غلو وأنهم صلوا السبيل : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ [النساء : ١٧١] .

ثم هل يوجد في أهل السموات وأهل الأرض من يشعر بعضاضة حين يسجد لله ؟

كلا ، فإن البشر والملائكة وكل حي له عقل يكون في أشرف أحواله وأركى أوصافه وأطيب أوقاته عندما يحني صلبه راکعاً أو ساجداً ليقول لربه في خشوع وإحلال وإعزاز : سبحان ربّي الأعلى !! وهذا معنى الآية الشريفة : ﴿ لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ [النساء : ١٧٢] .

إن شرف العباد في عبوديتهم لله ، ما من نبي ولا ولي ولا ملك ولا بشر إلا وعظمته في أن يحني رأسه ، وأن يتجه بقلبه ، وأن يُسلم لله وجهه ، وأن يقول في أدب وتواضع لله جل شأن : أنا عبدك وأنت ربّي !! .

هذه حقيقة ، وكان النبي ﷺ يؤكد هذه الحقيقة بقوله : « اللهم

إلى عبدك بن عبدك بن أميتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي» (١) هذه هي العبودية ، من عيسى ؟ ومن غيره ؟ .

عباد الله لا يزدنون ولا ينقصون !! .

هكذا تناولت سورة النساء اليهود والنصارى ، وسفصل ذلك في وقت آخر إن شاء الله .

بين تناول السورة للفريقين بعدها تناولت صفين من الناس : الصنف الأول : منافق ، والصنف الثاني : ضعيف الإيمان .

ما الذي كشف الصنفين معاً ؟ .

كشفهما فرض الجهاد ، وتحكيم الله حل جلاله في قصايا الناس أصحاب القلوب المريضة بكرهون الحكم بما أنزل الله ، وما أكثر هؤلاء الآن ، سنتحدث في حطية أخرى إن شاء الله عن ناس يستमितون الآن كي يُحرموا الحلال وهو رواح الرجل بامرأة ثانية بينما هم حُرْس — سكتوا سكوت القبر — عن اتصال الرجل بامرأة أخرى دون حرج !! .

لقد قرأنا في الصحف منذ أيام كيف أن فتاة حمقاء ركبت سيارة مع رجل — مع دئب ، هو لا يستحق أن يوصف بأنه رجل — فما انتهك عرضها وداس شرفها وذهبت إلى القضاء قيل لها : لقد ذهبت باختيارك ، لا تدخل للقانون في أمرك !! .

لا يستطيع القانون أن يصنع شيئاً ، فإن القانون يبيح الزنا بالتراضي !! .

(١) رواه أحمد ٣٩١/١ ، ٤٥٢ وقال في مجمع الزوائد (١٣٦/١٠ ، ١٨٦) : رواه أحمد وأبو يعلى والبربر إلا أنه قال وذهب غنى مكان هي والطيران ورجال أحمد وأن بعض رجال الصحيح غير أن سلمة الجهني وقد وثقه بن حبان

أنا أعجب ولا يقضى عجبى ، أليس المتحدثات عن قضايا المرأة يقلن : هذا لا يجوز ، عيروا هذا القابون واقطعوا الطريق على هؤلاء الذئاب أو الكلاب ؟ سكوت ، سكوت سكوت القبر !! أما المطلق ، أما الهيجان ، أما الأصوات العاجزة فصد قانون الأسرة وحده !! ستتحدث إن شاء الله عن ذلك .

المهم أن المحكم بما أنزل الله كشف المنافقين ، قال جل شأنه : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴿ [النساء . ٦٠ ، ٦١] .

هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا رَفَضُوا أن يُحْكَمَ الله فيهم ورسوله ، فكان الرد عليهم : هذا كفر ، ما دمت تريدون أن تتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرتم أن تكفروا به فلا بد أنكم كفرتم بالله ، وتمضى السورة تشرح هذا الكفر : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء . ٦٥]

الكلام عن هؤلاء المنافقين يطول .

بحيىء — على عجل — إلى كلام السورة عن ضعفاء الإيمان ، ويبدأ هذا الكلام فيذكر هؤلاء الضعفاء بأمري :

الأمر الأول : حرصهم على الحياة ، خوفهم من الموت ، رغبتهم في المتع ، زهدهم في وعد الله الذى وصف فيه الدار الآخرة .

هذا المعنى تناولته السورة من أول قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قبل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أحرقنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً ﴾ [النساء ٧٧] .

يُسِّى القرآن الكريم هنا أن ناساً من المسلمين أدوا الواجبات الأخرى لأنها سهلة الأداء فلما كُتِّفُوا بالقتال في سبيل الله خَشُوا على حياتهم ،

وأحبوا أن يبقوا على ظهر الأرض أطول عمر ممكن . فكان جواب القرآن لهم : إن الأجل ليس وفق رغبة الإنسان ولا هو يتعرض للأخطار أو ابتعاده عنها ، الآجال عند الله ، لا سلطان لبشر عليها ، وكما قال شوقي .
وقد ذهب الممتلى صحة * وصحَّ السقيم فلم يذهب^(١)
وقال ابن الرومي :

أعمارنا جاءت كآى كتابنا * مها طوال فصلت وقصير
هذه مسألة إلهية ، وعندما يحىء الموت فلا يصده حصن : ﴿ أينما
تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة
يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل
من عند الله فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ [اساء ٧٨]
أعجب الناس يتصور أن الحسنة والسيئة تعنى الطاعة والمعصية ، وهذا
عبط ، فإن الدين يقولون للرسول ﷺ هذا الكلام لا يقصدون إطلاقاً أن
الحسنة الطاعة والسيئة المعصية ، إنما يقصدون — وهذا تعبير القرآن فى
أغلب الآيات — بالحسنة الحال الحسنة من رخاء ومن أفراح ، ويقصدون
بالسيئة الحال السيئة من أزمات ، ومن قحط ، ومن ضيق .

تأمل قول الله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من
الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم
سيئة يطغروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم
لا يعلمون ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ، ١٣١] .

فالحسنة : الحال الحسنة من ربيع خصب وأيام رخيّة .

والسيئة : الحال السيئة من أزمات وقحط .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى نفس السورة : ﴿ وما أرسلنا فى قرية
من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾ ثم بدلنا مكان
السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم
بغنة وهم لا يشعرون ﴾ [الأعراف : ٩٤ ، ٩٥] .

(١) الشوقيات : ١٤٨/٢ .

هذا معنى الحسنه والسيئه فى الآيات هـ .

فهؤلاء الذين ضعف إيمانهم كانوا يفرون من التكليف الشاقه خوفاً على حياتهم .

الأمر الثانى : أنهم ناس فوضويون ، يخافون طائشون .

وهذا عيب لا أزال أراه فى الأمة الإسلامية ، خصيصاً بعدما ضعف إيمانها وقُلَّ يقينها ، وشاع الاضطراب فى أمورها ، يقول الله فى وصف هؤلاء الضعاف من المؤمنين : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَبْطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

والمعنى : أن هؤلاء يطيرون وراء كل رأى ، فى أيام السلام ، أو فى أيام القتال يستخفهم أى كلام يشاع فيحرون وراءه ولو كانوا أهل عقل وتثبت لكان رؤساء من أهل العلم يسألونهم ويستفتونهم ثم يزلون على رأيهم وعلى حكمهم .

والذى لاحظته فى الأمة الإسلامية — وأنا آسف — أن هذه الأمة منذ فقدت الخلافة الصحيحة فقدت الوالد الحائى ، والأب العطوف ، والأسناد المعلم ، والمرضى الصادق ، فكانت النتيجة أن أصحاب الديانات الأخرى يرجعون إلى حكمائهم كاليهود لهم حكماء صهيون تجدد التاجر اليهودى أو المهندس اليهودى يترك الأمر للحكماء ، هؤلاء يسمعون الخطه وعلى الشعب أن يشع ، وكذلك يفعل الصبارى .

أما الأمة الإسلامية فإن أئمتها وعقلاءها إما أضاعتهم الأيام بإضاعة الخلافة الراشدة ، وإما سقط لوائهم فى المجتمع لشيوع الفسق والخيانة وضياع الدين فأصبح أمر الناس بأيدي من لا ينصح ولا يعقل ، والأمة أحوج ما تكون فى سلمها وحررها إلى أن تسأل أولى الذكر كما قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧٠] .

ما أحوج أمتنا إلى أهل الذكر يقودونها فى سلمها وفى حررها . خمسة عناصر تلمحها — على عجل — فى سورة النساء :

١ — قضايا الأسرة أولاً .

٢ — ثم كلام عن أهل الكتاب بشقيهم (اليهود والنصارى) شاع في أول السورة وآخرها .

٣ — ثم كلام عن المنافقين وعن ضعفاء الإيمان ، وسب الكلام عنهم : المحكم بما أنزل الله^(١) ، والقتال في سبيل الله^(٢) وهما قوام السورة بعد ذلك .

هذه نظرة عَجَلِي إلى سورة النساء ، أوصي بعد ذلك من يقرأون السورة أن يقرأوها وهم يدركون كيف يتقلون بين جسامها ، ويغمر الله لها ولكم .

(١) هنا هو العنصر الرابع

(٢) هنا هو العنصر الخامس

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستحيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [النور : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .

أيها المسلمون :

أمتنا بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة . لم ؟ لأن هناك بعض المتدينين لا يعقلون قصايا المرأة ويضطرون فيها بحماقة وقلة فقه ، ولو وُكِّل الأمر إليهم لحبسوا النساء في البيوت فلا عادة ولا علم ولا عقل ولا فكر ولا نشاط ولا شيء !! .

هذا النوع من المتدينين الخهلة ينبغي أن يُحرم من الكلام باسم الله !! .

النهضة النسائية الرشيدة تحتاج إلى أن يُطرد نوع آخر من المتحدثين في قصايا المرأة وهم عبيد أوربا الذين يريدون إشاعة الخلفاء في بلادنا ، والذين لا يعنيه أمر العفة ولا أمر الأسرة ولا يبالون أن يثقفوا ما هنالك بمعنى عريب !! ومع أن الأسر في أوربا أسر على ورق ، ومع أن الفرائز الجنسية جعلت الأعراض كلاً مباحاً ، مع هذا كله فإن من أعمى الله بصائرهم وأبصارهم من النساء والرجال يريدون نقل هذه الحضارة إلى بلادنا !! .

لا أريد لا قدس الحمقى الذين لا فقه هم ، ولا انحلال الكدبة الذين
لا شرف لهم ولا عرض ١١ .

قضية المرأة تحتاج إلى نهضة نسائية راشدة وأقول : أنا أعرف نساء في
السلك الجامعي — أساتذه — يُشرفن الآن على بيوت الطالبات وعلى أعمال
نسائية جلية في خدمة المرأة ، وعندما أرسلن إلى مؤتمرات كتس تقارير
تبكي دماً على حالة الإسلام في البلاد التي ذهبن إليها .. وأعرف نساء في
وزارة التربية والتعليم كن يدعونني إلى خطبة الجمعة في المدرسة بأولياء
الطالبات مع الطالبات أنفسهن .. هؤلاء كن تُنظر مدارس وهن مشاط ديسي
بارز ، وعطف على تعاليم الإسلام وانعطاف إليها واضح .

وأعرف أديبات مسلمات يكتبن كتباً رقيقة في خدمة الدين ورفض
التبرج وهن أقلام رائعة .. أسأل نفسي وأسأل هذه الأمة لم لا يقود هؤلاء
النسوة الحركة النسائية في بلادنا ؟ ١٢ .

أنا أريد أن تقود النسوة امرأة تصلي وتركي وتصوم وتحج البيت ، أما
أن يتصدر قياد النسوة فريق من العجريقل في بحاجة : إن مصر منفتحة مع
الأمزجة — دفاعاً عن شارع الحرم ومبادلته ومحاربه ومعاصيه ، فهذا كلام
غريب .

نحن بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة ، لكن من يقود هذه النهضة ؟
اللائي كتبن ضد الاحتشام واقترين الكذب على الطالبات العفيفات ؟ هؤلاء
يجب طردهن فوراً من ميدان النهضة النسائية ، نريد تسيم النهضة النسائية
إلى نساء عفيفات عاقلات محصات آمراء بالمعروف ناهيات عن المنكر
حافظات لحدود الله .

إننا نعلم أن الإسلام صان المرأة وكفل لها حقوقاً عظيمة وجعل
إنسانيتها فوق الظنون .

يوم كانت مؤتمرات تنعقد في أوروبا تسأل : هل للمرأة روح أم ليس لها
روح ؟ وإذا كان لها روح فهل هي روح إنسانية أم حيوانية ؟ يوم وقع هذا
في أوروبا كان الفقهاء في الأمة الإسلامية يقولون : إن المرأة في بيت زوجها

يسغى أن يوفر لها الزوج من يخدمها (١) ١١ .

هذا الكلام العجيب يطوى كله ويُردم كله ويحجىء بعض النسوة الحاهلات المتبححات يرددن أن يطرحن الإسلام ظهرياً وأن يقدن حركة نسائية لا تعرفها أمسا .

إنسى أقول . إذا بقي رمام الهضة النسائية في أيدي نسوة يحاربن الفصينة وقوانين الله ويسكتن على قوانين الزنا وقوانين العهر فإن هذه الهضة لن يبارك لها في خطوة وسكون لها بالمرصاد .

لقد انتهى إلى الأبد العهد الذي كان يُفرض علينا فيه من يتحدث باسمنا ونحى برفضه ، وانتهى إلى الأبد أيضاً العهد الذي يتصدر النسوة فيه من يريد أن يتحدث باسمهن وهن لا يعرفه .

نحن أمة مؤمنة ، الرجال مؤمنون ، والنساء مؤمنات ، فإذا كان هناك رجل لا دين له أو امرأة لا دين لها فلتحدث بأي اسم إلا اسم هذه الأمة .

إن أمتنا تزهد أن ترتبط بدينها وكتامها ، وهي تأخذ دينها لا من المتبححات الكاذبات على الله وعلى الناس ولكها تأخذ دينها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

قلت — ولا أزال أقول — في الميدان المسائي الآن نسوة أساتذة في الجامعات وفي ورارة التربية والتعليم وغيرها . ويوجد علماء لهم القول في صياغة القوانين ، ويوجد بعد ذلك خبراء بالمجتمع الأوربي وما في المجتمع الأوربي من فسق والانحلال .

(١) قال في بداية المجتهد (٥٤/٢) : هل يجب على الزوج نفقة خدام الزوجة ؟ وإن وجبت فكم يجب ؟ والجمهور على أن على الزوج النفقة لخدام الزوجة إذا كانت ممن لا تخدم نفسها ، وقيل بل على الزوجة خدمة البيت ، واختلف الذي أوجبوا النفقة على خدام الزوجة على كم يجب نفقته ؟ فقالت طائفة : يتم على خدام واحدة ، وقيل على خدامين إذا كانت المرأة ممن لا يخدمها إلا خادمان وبه قال مالك وأبو ثور . وست أعرف دليلاً شرعياً لإيجاب النفقة على الخدام إلا تشبه الإخدام بالإسكان فإنهم اتفقوا على أن الإسكان على الزوج للنسوة اللواتي وجوبه للمطلقة الرجعية « انتهى

فكيف يتصور بعض الناس أن القوايين الإسلامية يُلعب بها بعيداً عن هذه الحقائق كلها ؟

هذا مستحيل ، هذا مستحيل .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْمَذَكَّرِ مِنْ بَابِ التَّوْبَةِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ ٨١/٨

نظرات في سورة النساء (٢)

المحور الذي تدور عليه السورة
إرساء قواعد المجتمع وتبيين معالمه

خطبة الجمعة

بجامع عمرو بن العاص

في ٢٢/٣/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد وصلنا في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم إلى سورة النساء ، وألقينا نظرة عاحلة — ولكنها وعية — على هذه السورة الكريمة ، وبيننا أن سية هذه السورة تتكون من خمسة عناصر :

العنصر الأول والثاني :

حديث عن الأسرة المسلمة وقضاياها وهداية الله في شأنها ، ثم حديث عن أهل الكتاب أولاً حديث عن اليهود استعرض المآسي الخلقية والاجتماعية

التي شاعت فيهم واستفاضت بينهم .

ثانياً : حديث عن الصاري استعرض المتناقضات في العقيدة التي أذهبت لُبهم ، وحيرت شعبيهم .

العنصر الثالث والرابع والخامس :

ثم حديث عن المنافقين الذين صمعت شخصيتهم ، وتذبذبت وجهتهم فلم يُحسنوا أن يعضموا إلى إحدى الطائفتين فيكشفوا عن إيمان صريح أو كفر صريح ، ثم حديث عن المؤمنين الضعاف الذين لم يَقوَ الإيمان في أفئدتهم ، ولم يهيم هيمنة وثيقة على مسالكهم وتصرفاتهم فشاع فيها بعض الخلل وكان لها لهذا المجتمع ضعف ووهن، ثم حديث عن لحكم بما أنزل الله والجهاد في سبيل الله .

هذه العناصر — بداهة — لم تقسم تقسيماً فياً على أجزاء السورة ، فإن القرآن الكريم لا يعرف هذه التقسيمات العلمية المحدثّة ، وإنما كان الحديث عن هذه العناصر جميعاً ملتصقاً ببعضه مع البعض الآخر ، وربما تماسك السياق في السورة كلها فرأينا حديثاً عن الأسرة يتخلل حديثاً عن هذه الطوائف .

وقد سألتني بعض الإخوة المتابعين قال : إننا أُلصقنا في التفسير الموصوعي أن نعرف المحور الذي تدور عليه اسورة ، وقد كُشف فيما تناولنا من سور سابقة ، فما المحور الذي تدور عليه سورة النساء .

والجواب : أن هذه السورة — باتفاق المسلمين — نزلت في المدينة المنورة ، والوحي النازل في المدينة المنورة يتجه غالباً إلى المجتمع الإسلامي يُرسى دعائمه ويبين معالمه ، وذلك على عكس ما يُعرف في الاتجاه المكي من تناول النفس الإنسانية وغرس الإيمان في أعماقها ، وبثائها على المنافحة والمجالدّة وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يمكن أن ينهض هذا البناء المؤمن في وجه العقبات الكثيرة التي تعترضه .

أما في المدينة المنورة — بعد أن تُكوّن للمسلمين مجتمع — فإن اتجاه الوحي في السور المدنية إلى دعم هذا المجتمع وإرساء القواعد التي ينهض عليها وتوضح المعالم التي لا بد أن يصطبغ بها وأن تظهر فيها خصائص الأمة

أخديدة ، وسورة النساء — من هذه الأساحية — تقوم على دعم المجتمع الإسلامي وحياطته وتبيين وسيلته وعائته .

ولما كانت الأسرة أساس كل مجتمع صاح كان لابد أن تتحدث السورة في صفحات طوال — في نحو ست صفحات — عن الأسرة وقضاياها ، ثم لما كانت الأمة في المدينة تتكون من طوائف كثيرة — من يهود وبصاري ومساقيين ومؤمنين ضعفاء يحتاجون إلى تقوية — بُيئت السورة ها ما يجب على الأمة الإسلامية بإزاء هذه انزعاجات الموجودة خلالها .

سورة النساء وضحت نظام الأسرة توصيحاً ينطوي على كثير مما لابد من بيانه وكشفه لأنه خالف ما كان شائعاً بين الناس .. كتابيين وغير كتابيين .

فالإسلام — في بقاء الأسرة — استحب الرواح وأباحه ويسره ، وهو يفعل ذلك لأمرين :

أولاً : لأنه يريد أن تبقى مراكب الإنسانية موصولة السعي والنشاط على ظهر الأرض ، ولا يوجد طريق محترم لقاء الإنسانية ممثلة على مر السنين إلا الزواج .

ثانياً : لأن بقاء الأسرة يقوم على التراحم ولسكية النفسية ولذلك فإن الغريزة الجنسية — في نظر الإسلام — ليست رجساً من عمل الشيطان ، وليس سحقها هدفاً له ، وإنما الاعتراف بها جزء من منطق الفطرة — التي هي الصفة الأولى في الإسلام .

فكر بعض الناس — من عند أنفسهم لا من عند الله — أن يُحرموا الزواج ، وأن يجعلوا هذه الغريزة نفثة^(١) شيطان ..

فماذا جنت الإنسانية من ذلك التفكير القاصر ؟ .

جنت الإنسانية من ذلك عوجا في السيرة واصطراباً في السيرة حتى إن العقلاء في أوربا — لما رأوا أن الرهبة لن تنتج إلا الفساد في الظلام ولا

(١) نفث : نفح

أن العريزة تسللت كي تنفس عن نفسها إلى أنواع شادة من السلوك —
 رأوا تحريم الرهبانية بعد تجارب خمسة عشر قرناً من الاضطراب والتخلل !!
 الإسلام حَبَّنَا هذا كله ، وأراحنا من تجارب بائسة ومن آلام مُرَّة وبين
 النبي ﷺ أن الزواج ستة وستة المرسلين من قبله : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً
 من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ [الرعد ٢٨] .

وعندما حاول بعض أصحابه القلو وأرادوا أن يشعروا ألواناً من العبادة
 تمحارب مع هذا الجماع^(١) قال النبي ﷺ : « ... أنتم الذين قلتم كذا
 وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي
 وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني »^(٢) .

الحقيقة أن الإسلام اعترف بالعريزة الحسية وبسببها السلوك الوحيد
 الذي يقبله ، قال : هذه العريزة تُحس إلا في بيت الزوجية ، هذه العريزة
 تُقيد إلا مع الحلال الطيب : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على
 أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك
 فأولئك هم العادون ﴾ [المعارج ٢٩ - ٣١] أي المعتدون .

وكما تحدثت سورة النساء عن الرواح تحدثت عن الطلاق ، وقد قال
 العلماء فيه — وهو رأى علمي دقيق لكثير من المؤلفين لمسلمين — إن
 الأصل في الطلاق الخطر بقوله جل شأنه — في هذه السورة : ﴿ فإن
 أطعكم فلا تبهوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾ [النساء ٣٤] .

(١) جمع الفرس جنباً وجهوجاً وجماعاً : عتا عن أمر صاحبه حتى عبه . ويقال : جمع
 الرجل : ركب هواه فلا يمكن رده

(٢) بدء الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة زحف إلى يوب أرواح النبي ﷺ
 يسألون عن عبادة النبي ﷺ فيما أحبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد عمر له
 ما تقدم من دنه وما تأخر ، قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال آخر أنا أصوم الدهر
 ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم
 الذين . الخ »

(٣) رواه البخاري في النكاح — باب الترغيب في النكاح ٢/٧ ومسلم في النكاح ٤/١٢٨ .

أى ما دامت المرأة مطيعة فإن الإساءة إليها جريمة ، ولا معنى لهذه الإساءة ، ثم إذ حدث أن تغيرت العاطفة فإن الرجل ينبغي أن يتهم نفسه كما أمر الله : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [النساء . ١٩] .

وبذلك ورد أن رجلاً ذهب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال له : أريد أن أطلق امرأتى .. قال له : لم ؟ قال : لا أحبها .. قال له : ويحك أو كل البيوت بُنى على الحب ؟ فأين التذم والوفاء ؟ أين العهود والأخلاق والحياء والوفاء ؟ .

إن الإنسان ينبغي أن يكون في هذا تقياً . وقد ورد أن أبا أيوب رضى الله عنه طلق امرأته فقال له النبى ﷺ : « إن طلاق أم أيوب كان حوباً » (١) أى إثماً .

و لقصد من هذا أن الإسلام يريد — فعلاً — أن تبنى البيوت على أنها محاضن ، ليست فقط متنفساً للعريرة الجنسية في جو طهور مقبول ، ولكنها أيضاً محاضن ، أى مدرسة كبيرة يُرى فيها الولد — ابناً كان أو بنتاً — تربية دسيرة تجعل مستقبله ينشأ في كفالة الله وتعاليمه يتعلم في البيت الصلاة، يتعلم في البيت الاستعدادان ، يتعلم في البيت ستر العورات وعدم الهجوم عليها ، يتعلم في البيت الكثير مما لا بد أن يتعلمه .

وتحدثت سورة النساء عن المواريث ، وكانت المواريث إما مضطربة في جريرة العرب ، أو ليست هناك تعاليم محددة تتصل بها في الديانات الكتابية الأخرى ، فحاء الإسلام وكذب العرب في حرمانهم المرأة من الميراث وقال في حسم : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾ [النساء . ٧] .

(١) قال في مجمع الروائد (٢٦٢/٩) : رواه الطبراني ومعه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو

وفرض الإسلام المواريث نظاماً اجتماعياً لو دُرِس لُعرف أنه يكمل جو الأسرة من سلف خلف ، ويُشيع انطمأئنة بين الآباء والأبناء ، وفي الوقت نفسه فإنه جزء من النظام الكوني في المواريث .

إن الشيوعيين يرفضون قصية الميراث ويقولون : ما يجوز توريث مال ، وهم في هذا يكذبون على سنن الله الكونية ، لم ؟ .

لأن سنن الله لكونية تُورث الإنسان طوعاً أو كرهاً ما هو أخطر من المال ، تورثه الذكاء أو العباء ، تورثه الوسامة أو الدمامة ، تورثه الطول أو القصر ، تورثه المزاج الهادئ أو المزاج العنيف !! .

إن المواريث المادية — في الجسم — والأدينية والفكرية تنتقل من الآباء والأمهات إلى الأولاد ، والأموال التي تورث وفق هذا النظام الكوني ليست إلا جزءاً قليلاً مما فرض على الناس أن يرثوه ..

وإذا أردنا منع المواريث فليسمع ميراث الأخلاق وميراث الطباع !! وهذا مستحيل .

وتقسم المواريث في الإسلام انفراد المولى سبحانه وتعالى به وقال — مذيلاً آية المواريث — ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ [النساء : ١١] .

فعبثته وحكمته أساس في التورث ، وقد حتمت آيات المواريث بقول الله جل شأنه : ﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ [النساء : ١٣ ، ١٤] .

وبعض الناس يعود إلى الجاهلية الأولى يريد أن يحرم البنات من المواريث ، وهذا جهل وتضليل ويدخل حتماً في الوعيد الإلهي : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ [النساء : ١٤] وقد جاء في السنة : « إن الرجل يعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حالف (١) في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل

(١) أي جاز وعادل عن نهج الصواب

البار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته
فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» (١) .

وحاء في السنة أيضاً عن النعمان بن بشير قال : « انطلق لي أبي
يحملني إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله اشهد أني قد لحلت (٢)
النعمان كذا وكذا من مالي فقال : أكل بنيك قد لحلت مثل ما لحلت
النعمان ؟ قال : لا . قال : فأشهد على هذا غيры . ثم قال : أيسرك أن
يكونوا إليك في البر سواء قال : بلى . قال : فلا إذاً » (٣) .

لكن قال الفقهاء إن بعض الأولاد قد تُروجه في حياته فإذا أعطيت
لبعض الآخر — وصية — ما يُسوى به ويرى من تروج فلا جور في
هذا ، فهذه تسوية وليست تمييزاً ، وإذا علّمت ولدًا على حساب الآخر
فأعطيت من جهل ريادة فلا حرج في هذا ، فأنت بهذا تُسوى
ولا تفاوت .

والمجتمع قاض أمين على هذا ، فإن كانت الوصية جوراً وجب
رفضها ، وإن كانت عدلاً وجب إمضاؤها ، وفي قلب كل مسلم يؤمن بالله
ما يجعله يدرك أين يصح قدمه ؟ وكيف يعامل ولده ؟ .

هذا المعنى من معاني الإسلام حُدد في سورة النساء بدقة .

ما بدأت به سورة النساء من حديث عن الأسرة نحن نمر به على عجل
كأننا في قاطرة نرقب بسرعة — وهي تمشي بنا — معالم الجاهليين .

الطوائف التي يتكون منها المجتمع لابد من معالجتها ، وسورة النساء —
كما قلت — تدور على محور ، ومحورها لدى تدور عليه هو إرساء قواعد
المجتمع ، وتبيين معالمه .

والمعروف أن المجتمع الإسلامي مجتمع فكرة ، أي أنه ينهض على دين

(١) رواه أحمد ٢٧٨/٢ وابن ماجه في الوصايا — باب الخيف في الوصية ٩٠٢/٢ وقال في

ضعف الجامع الصغير وزيادته (١٤٥٨ — ٤٣٩) : ضعيف .

(٢) أعطيت .

(٣) رواه مسلم في المقات — باب كراهة تفصيل بعض الأولاد في الهبة ٦٦/٥ ، ٦٧

ويجبا به ويحكم الآخرين عليه ، ومعنى هذا أن الصفة الإسلامية يجب أن تسود الأمر والمهي ، ويجب أن تتصنع في المدرسة وفي المحكمة وفي التقاليد ، وفي القيم ، وفي الشارع ، وفي البيت ، وفي علاقات الحوار ، وفي الملابس ، كل ما تتكون منه البيئة أو يشأ المجتمع من تراكمه ومن تجمعه يتدخل الإسلام فيه لأنه — كما قلنا — دين يهص على فكرة ، والفكرة التي يهص عليها واضحة .

هذا دين يقوم على أن الله واحد ، وأن محمداً ﷺ سبه ، وأن الإله الواحد أنزل كتاباً يسعى أن يؤتمر بأمره ويهي بنبيه ، وأن النبي الخاتم ﷺ جاء بتطبيق عملي يسعى أن يتأسى به في هذا الميدان .. ولما كان المجتمع قائماً على المكرة فإن قيامه على الفكرة بدأ يغرُّ (١) المتسبين إليه روراً ، وذلك أن ناساً ما كان عليهم من بأس أن يزعموا الإسلام ، لكن كيف يسلم لهم رعمهم إذا كان هذا الدين عبادة ومعامة وعقيدة وشرعة وإيماناً ونظاماً ؟ .

هنا بدأت طبيعة الإسلام تكشف المنافقين : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ۝ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ۝ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاوزك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ۝ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ [النساء ٦٠ - ٦٣] إذا هؤلاء — الذين يكرهون الاحتكام إلى الله وشرعه — إيمانهم زعم وليس حقاً

هؤلاء الذين يصيقلون بالفكرة الإسلامية ويريدون محوها ويريدون أن يناوشوا هذا المجتمع ليأتوا على قواعده هؤلاء يحب أن يردعوا ، ومن حق هذا المجتمع أن يدافع عن نفسه وأن يستنقد المستضعفين الذين وقعوا في

(١) غرُّ ثوب أو المحسم بالإبرة ونحوها ، وخرأ خصباً . وهذا الثغر يكشف الصادق من الكاذب

برائن انتابين من الأقوياء ، وبذلك أمر بالقتال : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴿ [النساء ٧٤ ، ٧٥] إذاً لا بد من قتال ، لا بد من جهاد تُكوّن أجهرتة وتبياً عُدته المنافقون بداهة — يرفضون هذا ، ويضيقون به ، ويريدون أن يقرؤا ، إنهم يهرون من الرسول ﷺ وهو إمام في المسجد يصلي بالناس لأهم — كما وصفتهم السورة : ﴿ ... إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ [النساء ١٤٢]

فإذا كانوا يهرون منه وهو إمام في المسجد فهل يشتون معه وهو رئيس دولة يأمر بالجهاد ؟ .

إنهم — بداهة — يريدون أن يهروا من أعباء القتال ومن مغارم بذل النفس والمال ، وهنا يقال للمسلمين : قاطعوا أولئك المنافقين وابتعدوا عنهم ، احذروا أن تنقسموا في معاملتهم : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم مما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلا تجد له سبيلاً ﴾ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذلوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴿ [النساء : ٨٨ ، ٨٩] .

السورة تبنى مجتمعاً يعيش بخلق معين ولهدف معين فمن خرج على هذا الخلق فهو خصم للمجتمع ، ومن تنكر لهذا الهدف فهو خصم للمجتمع ، ولذلك فإن الدين أرادوا المداهمة وأرادوا أن يعيشوا معيشة مزدوجة الشخصية قيل لهم : لستم مؤمنين : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتلون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله

يكفر بها ويستنزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴿ [النساء

١٣٨ - ١٤٠] .

هناك أيضاً ضعفاء الإيمان ، ما هو الإيمان ؟ .

تكبير الكبير وتصغير الصغير ، إحقاق الحق وإبطال الباطل ، إنزال العالم منزلته ، سؤال أهل الذكر ، الرجوع إلى الإحصائيات فيما ينبغي أن يرجع إليهم فيه .

لكن ضعفاء الإيمان لا يحسنون العمل فإيهم يطهرونها وهناك دون أن يربط على قلوبهم إيمان راسخ ، ودون أن يوجه مسلكهم عقل راشد ، ولذلك وصف الله هؤلاء بأنهم طغاشون^(١) : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ [النساء : ٨٣] .

للقتال قصاياهم ولمسلم قصاياهم ، ويسعى أن يستفتى في كل قضية من هو قدير على النظر فيها وإبداء الرأي . قال تعالى — في وصف هؤلاء الذين لا يحسنون الاستفتاء والرجوع إلى أهل الذكر في حل المشكلات : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ [النساء : ٨٣] .

وأولو الأمر — ها — ليسوا الحكام وإنما هم أهل الذكر الذين قال الله فيهم : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء : ٧] .

الأسرة في المجتمع الإسلامي الآن — وإن كانت أشرف وأظف من أمر الغرب ييقن فهي — لم تبلغ الذروة أو المستوى الذي رسمه الإسلام لها .

لاشك أننا الآن خير من أوروبا في نظامنا الاجتماعي ، وإن كان هناك ما يُتعبأ فهو الرُشح النجس الذي يبيئنا من الموضوعي الجنسية التي تبنها بعض الإذاعيين والصحافيين .

(١) الطغاش : الأرعن الخسرع . وقال : قوم طغاشة

هذا هو الذى يهدد الأسرة عندنا وهو تهديد خطير لأن الرجل قد يكون مقصور النظر على أسرته سعيداً بزوجته ، ولكن فى مجتمع متهتك متبرج تُعرض فيه النساء على النحو الذى قال فيه الرافعى : « يا لحوم البحر سَلَحَلُكُ من ثيابك جَزَار .. » (١) !! عندما تُعرض صورة النساء على هذا النحو فإن الرجل قد يزهّد فى امرأته لأن امرأته فى البيت — خادمتها — تُطبخ له ، تكبس له ، تصنع الكثير له فهى ليست باستمرار متبرجة له ، لكن الشارع ملء بالمتسكعات المتبرجات لغير سبب إلا الإثارة ، وهذا نُضْحٌ من أوربا وسُخٌ مجتمعنا وهُدْدُ الأسرة فيه ، وأصحاب المعرة الحقيقية على الأسرة يكرهون هذا التهتك الوارد من أوربا .

النظام الإسلامى نظام مطرى مُشْرِفٌ يحترم الغريزة وربّانها فى بيت سُمّى بيت الطاعة !! .

الإسلام يحترم الغريزة واحتفى بها فى مجالها الصحيح ، وفى هذا يقول نبينا ﷺ : « .. وفى بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » (٢) ويقول : « إذا تَزَوَّجَ الْعَبْدُ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ الدِّينِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي النِّصْفِ الْبَاقِ » (٣) .

ويقول : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » (٤) أى لامرأته .

أهلنا الإسلام يعاب على موقفه من المرأة !؟ .

إذا محاسنى اللاتى أُذِلُّ بها * كانت عيوباً فقل لى كيف أعتذر !؟

(١) مصطفى صادق الرافعى : رضى القلم : ٢٥٦/١ ط دار المعارف .

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم فى الزكاة — باب بيان أن إسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٨٢/٣ وقوله . « وفى بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » يعنى فى جماعه ، ويحصل هذا الثواب إذا نوى فيه إضفاء نفسه أو زوجته أو حصول ولد صالح

(٣) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس وقال فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٤٢٠) ..

(١٧٧) : حسن .

(٤) رواه الترمذى فى المناقب — باب فضل أزواج النبی ﷺ ٦٦٧/٥ وقال : حسن صحيح

غريب ، والدارمى فى النكاح — باب حسن معاشرّة النساء ٢١٢/٢ وابن ماجه فى النكاح — باب

حسن معاشرّة النساء ٦٣٦/١ وابن حبان « موارد » (١٣١٢) فى النكاح — باب عشرة النساء

وقال فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٣١٤) : صحيح

سورة النساء تحدثت عن الأسرة لأنه يجب أن يُسَى المجتمع — أولاً — على البيت ، وفي البيت يُرَبَّى الأولاد على العفة والشرف والصدق .

يقول عبد الرحمن بن عامر رضي الله تعالى عنه . « دعيتُ أُمِّي يوماً ورسول الله ﷺ قاعدٌ في بيتنا فقالت : ها (١) تعال أُعْطِيكَ ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وما أردت أن تعطيه » ؟ قالت : أُعْطِيهِ ثَمراً ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أمّا إنك لو لم تُعْطِهِ شيئاً كُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذِبَةٌ (٢) » (٣) .

بعد تنظيم البيت في سورة النساء كشفت السورة سوءات المنافقين وبيّنت مواقفهم لأن النفاق سرطان للأُمم ولأن الدولة تقوم على مبدأ لا يعمر صفوها ولا يعرقل سيرها إلا الذين يريدون المداينة في هذا المبدأ ، وقد علّم رسول الله ﷺ أن يكون صريحاً في عرص الإسلام ومحكمة أتباعه إليه ومحكمة الآخرين إليه فقال الله له : ﴿ وَدُوا لَوْ تَدَّهَن فَيُدْهِنُونَ ﴾ [الفلم . ٩] .

المداينة أو الإدهان (٤) لا يمكن قبوله في الإسلام ، ولذلك فلما نرى سورة النساء حاربت النفاق بقوة والذي كشف المنافقين الحكم بما أنزل الله وقتال أعداء الله وهذا أيضاً هما لذتان كشفنا ضعفاء المؤمنين .

أما صلة السورة بأهل الكتاب من يهود وبصارى فلما فيها موقف آخر إن شاء الله .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

(١) ها : للتنبيه أو اسم فعل بمعنى حدد

(٢) كذبة : بفتح الكاف وسكون الدال أي مرة من الكذب ، أو بكسر الكاف وسكون الدال أي برع من الكذب

(٣) رواه أحمد ٤٤٧/٣ وأبو داود في الأدب — باب التشديد في الكذب (عود المعبود ٣٣٥/١٣) ورجاله ثقات خلا مولى عبد الله فإنه مجهول . وفي الحديث أن ما يتفوه به أساس للأطفال عند البكاء مثلاً بكلمات هزل أو كذباً يعطاه شيء أو بتحويله من شيء حرام داخل في الكذب

(٤) داهن مداينة ودهان : أظهر خلاف ما أصمر

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد :

فقد استشار شاهى صباح بعد الطلاب بكلمه احتاجت إلى تعقيب من رئيس الدولة ، وتحتاج إلى تعقيب ما ..

قال بعض الطلاب : لا حرية لأعداء الشعب ! .

وقال رئيس الدولة — مشكوراً — نعم لا حرية ولكن فى حدود القانون . ونحن نستقبل هذه الكلمة بشيء من التأمل فيها وفى هواجسها ، فإن كلمة « الشعب » وباسم « الشعب » وأعداء « الشعب » ومن أجل « الشعب » كلمة تكررت كثيراً فى حياة الأمم شرقاً وغرباً فى القارات كلها قديماً وحديثاً ، ثم بدا لى وأنا أستعرض هذه الكلمة أمها — أحياناً كثيرة — تكون عطاء حسيماً بالغ الخسة لأهواء بعض الناس ونزواتهم ، كأنه إذا رأى شاب فتاة أراد أن يفسق فيها قال: باسم الشعب يجب أن تكون هذه الفتاة لى !! باسم الشعب !؟ ما علاقة الشعب بهذا ؟ لو أراد إنسان مصاب بجنون العظمة أن يمس عن هذه العريزة فى دمه الملىء بالأحقاد والطمع على غير مؤهلات وعلى غير حصائص نفسية وثبت إلى المحكم ثم قال : باسم الشعب أنا أحكم !! .

أى شعب ؟! هذا أمر غريب ، قديماً كانت هناك خلافة اسمية قال الشاعر فى الخليفة العليان :

حطب الغرالى — المخلد الثانى

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من دك شيء في يديه ؟!

فباسم الشعب يؤكل الشعب ، وباسم الشعب يُظلم الشعب ، وباسم الشعب تُجتاح حقوق الشعب ، وباسم الشعب نحد عصاة من الناس حرمهم الله المواهب الأدبية التي تؤهل للقيادة ، وحرمهم المواهب الخلقية التي تجعل صاحبها جديراً بالتقدير تتسلط على المجتمع وتقول : باسم الشعب ! وهي تسحق الشعب ! .

إن الشيوعيين - في بلدنا هذا وخلال مدة طويلة - أحدثوا جَلّة غريبة في بعض المؤتمرات وأخذوا يتحدثون عن الشعب وكأهم أوصياء عليه ، والله تعالى يعلم والعالم كله يدري أن جميع هؤلاء الشيوعيين لو حوكموا إلى انتخابات حرة في بلدهم لفض الشعب يديه كليهما منهم ومن أخلاقهم ومن أنظمتهم التي ما وجد في ظلها إلا الجوع والخوف !! .

قال أحد الأدباء : دخل لص بيتاً فلما أطمأن له المُقام جلس ، فإذا رب البيت يطرق الباب ليدخل ، فقال اللص بحراً غريبة : من هناك ؟ عجباً !! لص يسأل صاحب البيت من الداخل ؟!

هؤلاء الذين يتحدثون عن لشعب لصوص ، نحن أمة تؤمن برسها ، نحن أمة تؤمن بقرآنها ، نحن أمة ترفض رفضاً حاسماً كل دَرّة إلحاد تحاول التسلل إلى مجتمعها ، فبأي حق يجيء بعض العيال ليقول : باسم الشعب نريد نشر الكفر ؟! أي شعب ؟! من الذي جعلكم يتحدثون باسم شعنا المؤمن ؟ .

إنني أهيب بالمؤمنين أن يكونوا أيقاظاً فإن هناك إلحاداً يحاول تزوير إرادة الشعب .

شعبنا المؤمن الطيب يوم تمكن من أن يقاتل باسم الله انتصر ، ويوم حُرم من أن يقول : باسم الله ، يوم حرم من أن يكون مؤمناً يُترجم عن إيمانه في طمأنينة كانت النتيجة أن الصيَّاحين باسم الشعب حدموا لإسرائيل أكثر مما خدمها « موسى ديان » .

إن رئيس الدولة رفض أن يقبل هذا وقال : الحرية للكل في حدود القانون .

والله ما داس القابون إلا هؤلاء الذين يريدون باسم الشعب أن يكفروا
بالله ورسله واليوم الآخر وكل مسلك نبيل في هذه الدنيا ١٩ .

يجب أن يستيقظ المؤمنون وأن يعرفوا أن المتاجرة باسم الشعب قد
اكتشفت عصابتها ، والآل مراكز القوى في السجن ، ليكن ، لكن هناك
كثيرون تربوا على أيديهم واستمعوا منهم ولا يرألون يعيشون في مجتمعها
فساداً .

قيل لي في أحد البلاد : أسمح للشيوعيين أن يقولوا ما عندهم ؟
قلت : نحن المؤمنين أصحاب حق ، وصاحب الحق لديه ألف دليل ، لكن
يحرثنى أن يكون هناك كتاب شيوعي مشور ، وكتاني في الرد عليه غير
موجود .

عندما يلتقي الحق والباطل في هذا المجتمع فإن الحق — بما وضع الله في
معدنه من صلابة وبأس — سوف يسحق شهادت الباطل : ﴿ قل إن ربى
يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل
وما يعيد ﴿ ما ٤٨ ، ٤٩ ﴾ لكن المراد هذه الكتب بالسوق ما يجوز ،
إسا ما يخاف الشيوعية إنما يخاف سرقة إرادة الأمة ، يخاف اغتصاب مشيئة
هذا الجمهور الطيب والزعم بأنه يريد الكفر ، وهو مؤمن .

« اللهم أصح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء
والنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل ٩٠] .

أقم الصلاة ...

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التوعد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١

نظرات في سورة النساء (٣)

بناء المجتمع الإسلامي

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ٢٩/٣/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد :

فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال (١) : « إن في سورة النساء لخمس آياته ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها :

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن نك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ (٢) و ﴿ إن تحسبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ونزخلكم مدخلا كريما ﴾ (٣) و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ (٤) و ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيم ﴾ (٥) و ﴿ ومن يعمل

(١) رواه الحاكم في المستدرک — كتاب التفسير (٣٠٥/٢) وقال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه ، فقد اختلف في ذلك

(٢) النساء — ٤٠

(٣) النساء — ٣١

(٤) النساء — ٤٨

(٥) النساء — ٦٤

سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴿١﴾ .

وفي رواية أخرى (٢) أن هذه الآيات الخمس قد انضمت إليها ثلاث آيات أخرى متتابعات تضمنتها سورة النساء وهي قوله جل شأنه : ﴿ يريد الله ليين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾

[النساء : ٢٦ - ٢٨]

والآيات التي ذكرها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وترجم عن مشاعره بحواها بقوله : « ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها » يجمع بينها كلها عامل مشترك ، وهذا العامل هو أن رحمة الله واسعة ، وأنها سبقت غضبه ، وأنه جل شأنه يغفر لعباده ، ويفتح لهم أبواب العودة إليه إذا ما باعد الشيطان بينهم وبينه ، ولما كان الإنسان قد خلق من عنصرين متضادين : طيبة من الأرض ، وروح من السماء فإن الإنسان لا بد أن يقع في الخطأ ، لا بد أن تزل قدمه ، وقد صور هذا ابن الرومي في بيت له يقول (٣) :

ولابد من أن ينزع المرء مرة * إلى الحمأ المسنون ضربة لازب (٤)
لكن هذه الآيات عندما نقرأها نحتاج إلى إلقاء ضوء حميف على كل آية لئلا نرى هل هي فعلا مدخل حقيقي لبهاء المجتمع الإسلامي من الأسرة متماسكة ، ومن الكيان الموحد لقوى أم أن هذه الآيات بعيدة عنه ؟

الآية الأولى (٥) هي قوله تعالى : ﴿ إن تجتربوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [النساء : ٣١]

تعني هذه الآية أن المسلم ينبغي أن يجتنب الكبائر وأن يبتعد عنها ابتعادا تاما ، وأن يجعل بينه وبينها مسافات شاسعة ، ويؤجل شأنه أن من

(١) النساء - ١١٠

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، انظر القرطبي . ١٦١/٥ وابن كثير : ١٧٨/٢ .

(٣) ديوانه ٢١٩/١ بلفظ : ولابد من أن يلزم المرء نازعا إلى الحمأ .. إلخ .

(٤) ضربه لازب . أي شيء لازم ، وأصل اللزب اللزب أبدل الميم بباء لتقارب المخرج صوتيا

(٥) أي الأولى في ترتيب الآيات

يحتسب الكبائر بعمر له الصغائر التي قد تقع منه .
والكبائر أنواع : منها ما هو متصل بالسلوك العملي كالسرقة أو الزنا أو
ترك الصلاة أو ترك الصيام ، ومنها ما هو متصل بالمشاعر النفسية كالكر
والحقد والبطر وما إلى ذلك

أنواع لكبائر نفسية كانت أو بدنية يسعى أن يظهر المرء منها ، فإذا
أخطأ بعد ذلك في نظرة لا تليق أو في كلمة بدرت منه ما ينبغي فإن
الحديث الشريف يقول : « فِتْنَةُ الرَّحْلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَحَارِهِ تُكْفِرُهَا
الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » (١) .

ويقول جل شأنه في آية أخرى تؤكد المعنى ها : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ [التكوير ٧]

ابتعد عن المعاصي ، ابتعد عن لكبائر النفسية والسلوكية ما يرى منها
وما لا يرى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأَنْعَامُ ١٢٠]
فما يرى هو المعاصي السوكة ، وما لا يرى هو المعاصي النفسية ،
فإذا اجتنب الإنسان ذلك كان قريباً إلى الله وعصرت له خطايه وأخطاؤه
الأخرى .

الآية الثانية : ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَصَاعِفَهَا
وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٤٠]

وهي آية تفيد أن حساب السيئات عند الله محدود فهو قد يجزي السيئة
بالسيئة إذا بقى عليها صاحبها ولكن حساب الله أوسع من ذلك فهو كما جاء
في الحديث : « إِنْ أَنْتَ إِلَّا اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ
بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عَمَلُهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلُهَا
كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَمَلُهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعَفَ إِلَى أَصْعَافٍ كَثِيرَةٍ ،
وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عَمَلُهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ

(١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة — باب الصلاة كفارة ١٤٠/١ ومسلم في الفتن — باب في
العتة التي تموج كموج البحر ١٧٣/٨

بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» (١) .

المصاعف عند الله لا حدود له ، وهنا أوجه النظر إلى أن قول الله تعالى : ﴿ يَغْفِرَ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران ١٢٩] ليس معنى المشيئة الفوضى ، فإن الله عز وجل أعرف بعباده وملايسات أخطائهم ، فرمما تصدق شخصان بصدقة واحدة فكتب هذا جزاء محدد ، وكتب لذلك أصعاف مضاعفة ، وربما فعل شخصان ذنبا واحدا فكتب لهذا عقاب محدد ، وغفر لذلك !! لا لأن الله يكتب الأمور فوضى بل لأن الله يعلم ما يحيط بكل إنسان من ملايسات ، فرمما الشيع غير زنا الشاب ، وصدقة من فقير مُقِل غير صدقة من عبي مُكْثَر ، ودس أعقبه ندم غير ذنب أعقبته فترة أو برودة أو قلة اكتراث .

فرب العالمين عليم بعباده ، وكتابه للحسرات ولسيئات تنموت

الآية الثالثة : ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

والناس يخطئون في فهم هذه الآية ، فإن الله غفر ما دون الشرك ، ولكنه لم يغفر ما يساوى الشرك ، وهناك ذنوب أعظم من الشرك !! قد يقول أحد : وما هو الأعظم من الشرك ؟

أولا : ما هو الشرك ؟

الشرك : أن يُسَوَّى المخلوق بالخالق ، هكذا فعل المشركون عندما جاعوا بأصنامهم ثم زعموها بنات لله وسورايتها وبين الله ، وعندما يُقذرون في جهنم يقولون : ﴿ نَالَهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا الجحيمون ﴿ [الشراء ٩٧ - ٩٩]

لكن هناك من ينكر الألوهية أصلا ، فهم شر من المشركين بقيا ، وهم عندما يحاسبون يحاسبون على ما هو شر من الشرك .
هذه واحدة ، وشيء آخر يساوى الشرك وهو فعل المعصية استباحة لها ، وترك الواجب جحدا لأصله .

(١) رواه البخاري في الرقاق — باب من هم بمسقة أو بسقة ١٢٨/٨ ومسلم في الإيمان — باب إذا هم العبد بمسقة كتبت وإذا هم بسقة لم تكتب ٨٢/١ .

فأساس عدم يرتكون الذنب أصناف : هناك من يرتكب المعصية بعد أن استنات في مدافعتها ثم أرله الشيطان موقع فيها ، ثم أعقب ذلك من التحسر والألم ما يمسح هذه المعصية ١١

وهناك ناس يرتكبون المعصية ثم يهرون أكتافهم ويمطون شمامهم (١) كأنهم لم يفعلوا شيئا ، الواحد منهم يترك الصلاة مثلا فإذا قلت له : لم لا تصلي ؟ نظر إليك برود وقال : ما الصلاة ؟! حدثني على جناحك !

هذا يقينا كفر بالله ، هذا يقينا مساو لشرك ، كذلك الذي يشرب الخمر أو يرتكب الزنا ثم إذا قلت له : لم تسكر ؟ أو لم ترى ؟ نظر إليك برود وقال : دعني مالك ولي ١١ هذا أيضا مساو للشرك .. إن كل معصية تقترن بالاستباحة والتبجح ، وكل واجب يُهمل ويفترن إهداره بالاستهزاء والسحرية فهو يقينا انسلاح عن الإسلام ولا يمكن بتاتا أن يدخل في هذه الآية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾

الآية الرابعة ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرهم الرسول لوحيدوا الله توابا رحيمًا ﴾ [النساء : ٦٤]

كان المافقون قديما إذا قيل لهم توبوا إلى الله ، وأصلحوا نفوسكم ، وتعالوا إلى النبي يستعمر لكم ويطلب من الله أن يقلبكم رفضوا ذلك رفضا شديدا : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [مافقون : ٦٥]

لأنهم ناس مافقون يتسبون إلى الإسلام زورا وبهتة لهم بالله علاقة قائمة ، ولو أن النبي ﷺ استغفر لكافر أو لمافق ما قبل استعمار الأنبياء منهم له لأن الله لا يقبل عبده إلا من آمن به ورحا رحمته وحتى عقابه

الآية الخامسة ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ينج الله غفورا رحيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]

(١) كناية عن الكبر ، يقال : تكلم معك حاجيه ونحوه تكبر

هذه الآية تمثل خصائص الإسلام ، الإسلام يقول لكل امرئ : إنْ غَبَرْتُكَ الأرض بترابها تستطيع أن تعيد لطهارة إلى جسدك بالتطهر ، إنْ غَبَرْتُكَ الحياة بآثامها تستطيع أن تعيد الإشراف إلى قلبك بالتوبة ، لن يحول بينك وبين العودة إلى الله بشر ، لن تحتاج إلى بشر يقودك إلى الله أو يشجع لك أو يكون وسيطا بينك وبينه أو تعترف عبده بدسب .. ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحیما ﴾ ..

هذا من خصائص الإسلام ، من خصائص الإسلام أنه قال لأى محصى : تستطيع أن تعتذر إلى الله لا تحتاج إلى أحد ، من خصائص الإسلام أنه قال لأى مسحوف : تستطيع أن تستقيم على الطريق وتعود إلى الله ما تحتاج إلى كاهن ، ما تحتاج إلى قس تعترف عبده ، ما تحتاج إلى بشر يحمل عنك توبتك : « إن الله تعالى يسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) .

إن الله تعالى باسط يده ليلًا ونهارًا لكل من يريد العودة إليه ، هذا منع الإسلام الوساطات والكهنات وجعل العلاقة بين الناس ورحمهم علاقة ميسرة سهلة .

ما أعظم الإسلام ، ما أشرف حقائقه ، ما أيسر الطريقة التي رسمها للناس ، وما أبعد الناس عن الحق يوم يتعدون عن هذا الدين .

انضم إلى هذه الآيات الخمس في سورة النساء قول الله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴿ [النساء : ٢٦ - ٢٨] .

الله يريد أن يتوب علينا ، الله يعلم ضعف فهو يرحمنا فلم لا نرحم أنفسنا ؟

(١) رواه مسلم في التوبة — باب قبول التوبة من الذنوب ١٠٠/٨

ها نقول : إننا قد ذكرنا في الخطبة السابقة أن محور سورة النساء
الذي تدور عليه هو بناء المجتمع الإسلامي ، وأساس المجتمع الإسلامي أنه
مجتمع ذو هدف ، ذو رسالة ، ذو فكرة .

ومعنى هذا بالتمثيل والتوصيح : أن هذا المجتمع يقوم على الإيمان بالله ،
فإذا كان هناك من المبادئ ما يباوئ وجود الله جل شأنه مَنَعه لأنه يقوم
على الإيمان بالله .

المثل الثاني : هذا المجتمع يرفض الرنا ، ويراه مكرا وفاحشة ، فإذا
كان هناك تبرج أو تهتك منعه ومنع كل ما يقرب من الزنا ، وبالتالي يُعْلَقُ
المواخير ، ويرفض أن يكون في بيته أى شيء من هذا الذى يُيسر المعصية أو
يعين عليها

المجتمع الإسلامي يحرم الخمر وبالتالي يُعْلَقُ الخانات ومعاصر الخمر
وما إلى ذلك مما هو بعيد عن أساسه وهدفه وفكرته .

المجتمع الإسلامي يقوم على الصلاة ، ومعنى أن المجتمع يقوم على
الصلاة أنه يبنى المساجد ، وأنه يسمع فيها إلى الأذان في الأوقات الخمسة ،
وأنه يُعْرِى المؤمنين بالحيء إلى المساجد طوال هذه الأوقات .

المجتمع الإسلامي يعلن عن نفسه ، وعن إيمانه بربه ، وعن حصونه
لأمره ونهيه ، وعن التزامه بوصاياه وحدوده .

المجتمع الإسلامي يعلن عن ذلك كله في الصبغة التي يظهر بها ويُعرف
في أرجاء العالمين بأنها لونه البارز الثابت ، ومعنى ذلك واضح ، قال تعالى :
**﴿ وَلْيَنْصُرْنِ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِي
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾** [الحج : ٤٠ ، ٤١] .

فطبيعة المجتمع الإسلامي أنه يصلى ويذكر ، طبيعة المجتمع الإسلامي
أنه يخشى الله ويَحْسِبُ حساب الآخرة لأن الله تعالى يقول — عَمْدُ يَصِفُ
المجتمعات الجاهلية التي حاربت الدين ، وأعلنت الحرب على المرسلين
أجمعين — : **﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ**

لنعودون في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلك الظالمين . ولنسكنكم الأرض من بعدهم ﴿ لكن كيف يُسكنهم الأرض من بعدهم ؟ وبأي شرط يسكنون الأرض بعد فراعها من الظلمة ؟ قال : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ [إبراهيم . ١٣ ، ١٤]

هناك فارق بين مجتمع إيماني ومجتمع كفري . المجتمع الكفري باهت لا لون له ، أو اللون ابدى يسوده لا صلاة فيه ، لا صيام فيه ، لا احترام فيه لصلاة ، لا احترام فيه لصيام

أما المجتمع الإيماني فهو مجتمع يحترم الصلاة ، ويحترم الصيام ، ويحترم حدود الله .

الإسلام يعلم أن هناك ناسا يدينون بغير دينه ، فماذا يصنع لهم ؟ يقول الإسلام في هذا : إن من أراد أن يبقى على دينه فليبق على دينه ، لكن لا يحور منع الإسلام من أن يفرض نفسه على مجتمعه ، لليهودي أن يبقى يهوديا ما نفعه ، للمصري أن يبقى مصريا ما نفعه ، لكن إذا حاول أن يجمع المجتمع من أن يقوم على الإسلام فإنه عندئذ يعلن الحرب على هذا الدين وعلى أتباعه ، ليس له ما دام قد بقي على دينه أن يمنع الدين الذي يعيش في مجتمعه أن يفرض نفسه على بيئته .

وسورة النساء عندما تعرضت لليهود وغير اليهود إنما أعلنت الحرب على تصرفات لهم منكرة .

لقد استبقى الإسلام اليهود في المدينة المنورة وفي غير المدينة المنورة من جزيرة العرب على أساس أن يحبوا على عقيدتهم ، أما أن يحاولوا ضرب الإسلام في صميمه ومنع تعاليمه أن تقوم وأن تصغ المجتمع فهذا لا يمكن ، وتأمل قوله جل شأنه — وهو يسترد الأشياء التي جعلته يغضب من اليهود ويلمعهم — : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ [النساء : ٤٤]

لماذا تشترون الضلالة وتريدون من المسلمين أن يضلوا السبيل ؟ أنتم يهود ، بقيتم على يهوديتكم ، دعوا المسلمين إذن ، دعوهم يصلون ،

دعوههم يزكون ، ماذا نحاولون صرب هذا المجتمع ؟

موقف آخر لليهود : يسألهم المشركون — وكان الذين سألوا من قادة قريش ومن رعماء الوثنية ، جاهلية العابدة للأصنام — يقولون لليهود : أنتم خيراء بالوحي تدركون طبيعة المنسبين إلى السماء وإلى الكتب السماوية دلونا نحن على الحق أم محمد ؟ فيكون جواب اليهود : أنتم على الحق ، أنتم أفصل من محمد (١) !! لم ١٩ محمد يدعو إلى التوحيد وهؤلاء عدة أصنام !! لكنه الحق على الجميع الإسلامي ، قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢]

الخلاف إذن لم يكن بين المسلمين وبين وجود اليهود في جزيرة العرب ، فإن الإسلام استبقاهم حتى إن الرسول ﷺ « ثوى ودرعه مرهونه عند يهودي » (٢) وثبت أن عمر رضى الله عنه عندما وجد يهودياً يتسول ذهب به إلى مره وأعطاه شيئاً من المال ووضع عنه وعن أمثاله الجزية (٣) !!

إذن الإسلام ما غضب لأن يهودياً بقى على يهوديته ، إنما الذى أغضبه أن هؤلاء يريدون أن يُمحيى الإسلام من المجتمع !! ولكي تعرفوا خطورة هذا اعلموا ما يأتي :

عندما يتكاسل امرؤ عن الصلاة فكسسه حرمة فردية قد يختفى بها ، قد يتعد عن المجتمع وهو يرتكها شاعراً بحسته عندما تقع منه ، لكن المعصية التي تُولد ميتة معصية لا يُحاف منها ، لشاب عندما يخطيء فخطؤه في المجتمع الإسلامي — ومع روح الإيمان — يُولد ميتة ، لم ؟ لأنه مؤمن ، إيمانه قاوم الخطأ طويلاً ، فإذا أهرم فإن إيمانه يصحو مرة أخرى ليدم أو ليتلمع على ما ارتكب !!

(١) انظر السوطي : لباب النقول في أسباب النور : ٨٣ .

(٢) رواه البخاري في الجهاد عن عائشة — باب ما قيل في درع النبي ﷺ ٤٩/٤

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ١٢٦ بتصرف

والحرمة هنا ميتة لا تتسل للمجتمع لتفرض نفسها ، لكن الخطورة كلها في أن تتحول المعصية إلى تقليد قائم أو إلى تشريع قائم ، معنى هذا أن الإيمان سُحِقَ ، وأن أثره الفردي والاجتماعي تلاشى !!

المجتمع المسلم — بطبيعته — يؤذن فيه للصلاة ، لكن عندما يقال للمسلم : إذا أردت أن تصلي الفجر فهات منها يوقظك ، فمعنى هذا أن المجتمع قد تَكُرَّ للصلاة وأن صوت المؤذن أصبح نابيا ترفضه طبيعة هذا المجتمع ، وأن الصلاة هنا هواية لفرد يريد أن يستيقظ مبكرا فلا يجوز له أن يوقظ الآخرين !!

القضية هنا ليست قضية إنسان تكاسل عن الصلاة في مجتمع يقوم على العبادة ، لا ، القضية هنا قضية مجتمع يريد الاسلاخ من الصلاة نفسها ، وهنا ينبغي أن يُعرف أنه يوم تُحول جريمة ترك الصلاة من معصية فردية إلى معصية اجتماعية فهذا ارتداد .

المعركة بين الإسلام وأمته من ناحية وبين الاستعمار شرقيه وغريبه من ناحية أخرى تقوم من خمسين سنة على هذا الأساس ، الاستعمار بألوانه يريد ألا يكون لون المجتمع إسلاميا ، فإذا نَحَح في هذا زان الإسلام ييقين ، والأمة الإسلامية مستميتة أن تبقي على دينها ، وأن يبقى الإسلام شعارا لها ، والمعركة بين الفريقين قائمة ، الذين يريدون بقاء المجتمع على الإسلام يريدون أن يبقى المسجد شارة للمجتمع الإسلامي ، وغيرهم يريد أن تراخى المدينة ذات الألف مسجد بمعابد أخرى لا حصر لها حتى يزول الشعار الإسلامي لها ، والأذان ، ينبغي أن يخرس هذا الصوت حتى تكون الصلاة صوتا مفردا لشخص عريب في المجتمع يصلي وحده أو يكسل وحده !!

المسألة خطيرة فعلا ، خطورتها تجيء من المعنى الذي شرحته لكم ، لا يقال لمؤمن: إذا أردت أن تصلي الفجر فهات منها يوقظك فإن معنى هذا أن المجتمع لا يريد الصلاة .

إن مجتمعنا مجتمع مؤمن يريد أن يصلي وأن يسمع الأذان ، لكن الغزو

الإلخادي بنوويه لشيوعي والصلبي يريد ألا يصلي وأن تثقل المساجد في
عاصمة الأمة الإسلامية — أي القاهرة

الأصوات النائية التي تصدر مع الأذان أو مع مكبرات الصوت عند
الأذان للمعجر بالذات إنما هي امتداد لما تريده موسكو وواشنطن وبكين
وباريس بالقاهرة ، تريد هذه العواصم أن يحرس مؤحد الله في القاهرة !!
هذا الصوت الذي يبعث خمس مرات له في قلوب المؤمنين متعة ،
والواقع أنه عندما يخترق حجاب الصمت وسكون الليل وهذه الناس فيه
يُبعث مشاعر الإيمان في قلوب المؤمنين وهو متعة روحية ينادون لها لأهم
يسمعون إلى صوت نبيهم ﷺ وهو يقول لهم ، « بَشِّرِ الْمُشَائِينَ فِي الظُّلُمِ
إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) وهم عندما يسمعون إلى هذا
الصوت يفتتحون به نهارهم يحسون بأن حو القاهرة يتطهر ، وأن الموجات
التي تغطي حو هذه المدينة يسير فيها بداء الحق ليسجاوب مع المؤمنين الذين
يريدون طاعة الله ويريدون مرضاته ، ومعروف أن أذان المعجر يتميز بكلمة
تُضم إليه وهي : « الصلاة خير من النوم » (٢) يسمعها المؤمن فيسبى
ويردد ويقول للمؤذن : « صدقت » إن الذي يتكسل إنما ينفد الكثير
من بركات الصباح ومن حيرات الله ومن ضمانات التوفيق ، ففي
الحديث : « من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبكم الله من دمه
بشيء فيدركه فيكبه في نار جهنم » (٣) .

(١) رواه أبو داود في الصلاة — باب ما جاء في المنى إلى الصلاة في الظلم (عون المعبود ،
٢/٢٦٨) والترمذي في الصلاة — باب ما جاء في فصل العشاء ، المعجر في جماعة (تحفة الأحادي
٢/١٤) وابن ماجه في المساجد — باب المنى إلى الصلاة ١/٢٥٦ ، ٢٥٧ وقال في صحيح الجامع
الصغير وريادته (٢٨٢٣) : صحيح .

(٢) قال في نيل الأوطار (٣٨/٢) روى ابن عزيمة والبارقطنى والبيهقى عن أنس أنه قل
من السنة إذا قال المؤذن في المعجر : حي على الفلاح قال الصلاة خير من النوم قال ابن سيد
الناس المصري : وهو إسناد صحيح

(٣) رواه مسلم في الصلاة — باب فصل صلاة العشاء والصبح في جماعة ٢/١٢٥ وقوله « في ذمة
الله » أي في أمانه وضمنه في الدنيا والآخرة ، وروى ذكر صلاة الصبح لأن فيها كلمة لا يواطى إلا
خالص الإيمان فيستحق أن يدخل تحت الأمان ، وقوله « فلا يطلبكم الله من دمه بشيء » ظهره
معي عن مطالبة الله لكن المراد به النهي عما يوجب مطالبته الله وهو التعرض بمكروه من صلى الصبح أو
هو ترك صلاة الصبح ، وقوله « فيدركه فيكبه في نار جهنم » يعنى من يطلبه الله للمؤاخاة بما لوط
في حقه وإقيام يعمله يدركه الله إذ لا يعرف منه هارب .

وكان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يمخر بقيام الليل وبصلاة الفجر
ويصف عبادة رسول الله ﷺ فيقول (١) :

وفيما رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا اهذى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يحاى حبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
إذا كان أصحاب البلادة وأشباه الدواب من الحق ينامون في شخير
وعمة فإن أصحاب الإيمان يرتقبون ساعة النداء ليهضوا ، والشيطان يمه
يخند في أن يحىء لكل إنسان يحاول أن يصرفه عن صلاة الفجر ، وفي
الحديث : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث
عقد ، يضرب كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ
فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده
كلها فأصبح نشيطا النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (٢) .

واعتقد لها عقد معنوية ، وإشارة إلى قافية الرأس إشارة إلى المح
واخيخ والحهار العصبى .

وقد وصف لسي عليه الصلاة والسلام رجل ظل نائما حتى فاتته
صلاة الصبح أذاء فقال : « داك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في
أذنه » (٣) أنا لا أدري بدقة هل الدين يقاومون صلاة الفجر ونداءها هل
هؤلاء ممن بال الشيطان في آذانهم وهم كسلاني عن الصلاة ؟

ربما إذا حسا الظن بهم ، ربما كانوا مسلمين عصاة بال الشيطان في
آذانهم واحتقر همهم وجعلهم صرعى رقودهم حتى فاتهم فضل الصلاة قبل
مطلع الشمس ، ربما كان بعضهم من هذا النوع ، لكن الذى أستيقنته أن

(١) رواه البخارى في التمهيد - باب فصل من تعار من الليل فصل ٢/٦٨ ، ٦٩

(٢) رواه البخارى في بدء الخلق - باب صفه إبليس وجنوده ٤/١٤٨ ومسلم في صلاة المسافرين -

باب ما روى في من نام الليل أجمع حتى أصبح ٢/١٨٧

(٣) رواه البخارى في بدء الخلق - باب صفه إبليس وجنوده ٤/١٤٨ ومسلم في صلاة المسافرين

باب ما روى في من نام الليل أجمع حتى أصبح ٢/١٨٧ .

بعض الذين يهاجمون مكبرات الصوت عند الفجر ما رُئي في مسجد منذ
وُلد وما شرفته نصسه بركعة لله يحتج بها يوم الحساب !!

هناك نوع من الناس يشتعل بالسُمسرة للمبادئ الأوربية من شرق أو
عرب ، همته أن يحارب الصيغة العامة للإسلام في هذا البلد !! لماذا ؟ حتى
إذا اضاعت الصيغة العامة وتحول الإسلام إلى برعات فردية فإن القضاء على
الزعات الفردية سهل ، إن الشيوعيين أنفسهم في بلادهم قالوا : اتركوا
كبار السن بتدبيرهم ، سيقرضون حتما ، تلقفوا الأجيال الجديدة وعلموها
الإلحاد في المدارس ، وعلموها الإلحاد في الشوارع والأندية ، وعلموها الإلحاد
في الصحف والمجلات والكتب ، وعلموها الإلحاد في النوادي والساحات ،
وعلموها في كل شيء ، فستشب — ما دامت الصيغة العامة منحلة — كما
قال الله : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا
نكدا ﴾ [الأعراف ، ٥٨]

هؤلاء يريدون أن يفقد المجتمع الإسلامي صيغته الإسلامية ، يريدون
أن تختفي شارات العبادة منه لحساب جهات معينة لنا لا أعتبر هزيمة الإسلام
أو هزيمة المصريين أمام الإنكليز في « التل الكبير » (١) ، بل أعتبر هزيمة
يوم استطاع القس « دنوب » (٢) أن يضع برامج للتربية والتعليم في وزارة
المعارف فخرج جيلا من الناس يتكلم باسم موسكو وواشنطن أوقع

(١) بلدة بمحافظة الاسماعيلية المصرية ، اشتهرت في تاريخ مصر الحديث بالمعركة الفاصلة التي جرت
عندها في ليلة الأربعاء ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ م ١٢٩٩ هـ بين جيش العرو البريطاني بقيادة الجنرال ونسلي
وبين جيش الوطنيين بزعامة أحمد عرابي وقيادة علي باشا ابروي وقد تم للبريطانيين مهاجمة معسكر
الوطنيين ببلد على عرة وأوقعوا بهم ، فازت عرابي وبعض بلول جيشه إلى القاهرة بعية تحصيها ولكن
هزيمة التل الكبير كانت حاسمة فتحت أبواب العاصمة بدخول البريطانيين بدون مقاومة في اليوم
التالي ، فكان ذلك بداية الاحتلال البريطاني لمصر وهو لدى دام نحو من ٧٢ سنة

(٢) كان اسم دنوب من الأسماء الاستعمارية الصعبة فقد وكل إليه كرومر شؤون التعليم فكان
مستشار نظارة المعارف منذ وقت طويل وامتد عهده إلى قيل الحرب العالمية الأولى . وقد اختاره
كرومر ليحقق به سيطرة النفوذ الغربي على مناهج التعلم و لتربية مكان عمه أشد قسوة مما حققت
مدارس الإرساليات الأجنبية فقد استطاع إسقاط كل الجوانب التي من شأنها أن تبني العقل العربي
الإسلامي من مناهج التعليم وخاصة فيما يتعلق بالقرآن والتاريخ واللغة والأدب ، وكانت سياسة
دنلوب تهدف إلى إنهاء دور الأهرام الشريف حصن اللغة و الشريعة .

وأصرح مما يتكلم به خووجه قادم من موسكو أو واشنطن ، لأنه باسم نه مسلم يتجرأ على الإسلام ويقول لك : إلى اللقاء في الحجة !! كأن اللجنة حديقة حيوانات تدخلها أنواع الجاموس الذي يشتعل في دور التحرير في القاهرة !!

هذا كلام غريب واعتذار أغرب عن خطأ صفيق ، إننا نريد أن يعلم الناس هذه الحقائق ، باسم من يتكلم هؤلاء ؟ إننا نريد أن نعلم .

لقد اتصلت بي امرأة من الإذاعة — وأنا في مكاني في وزاره الأوقاف (١) — وقالت لي : إنها ضائقة جدا بأذان الفجر !!

ولما كان الذي يكلمني امرأة قلت : ألتطف مع هذه المرأة حتى أعرف ما تريد ، قلت : لعلك تضيقين بالتواشيع أو بالابتهالات ولقد أصدرنا أمرا بمنع التواشيع ومنع الابتهالات وقلنا : لا يداع إلا الأذان فقط ، فهذه سنة رسول الله ﷺ ونحن نتبع السنة لا نزيد عليها ولا نقص .

قالت : أنا أضيق بالأذان نفسه !! قلت لها في هدوء : لكننا لا نقيم تقاليدنا وقوانيننا على ضيق رجل أو امرأة ، إن القاهرة بلد مسلم ، يوم يؤخذ في انتخاب حز رأي المسلمين أيسمعون الأذان في المكبرات أم لا يسمعون ؟ فإن تسعة وتسعين ونصف في المائة من المسلمين سيقولون : أسمعونا بألفاظ الأذان تقال في أطراف الليل والنهار !! فإذا كنت تضيقين بالجو في بلد إسلامي فاذهبي إن شئت لتعيشي في موسكو أو باريس حيث لا دين وحيث لا إسلام !! أما المجتمع هنا فمجتمع مسلم .

أنا أريد أن أقول : إن الإسلام ليس جدارا واطيا يشب عليه كل كلب في هذا البلد !! إن الإسلام دين محترم ولن نسمح للكلاب أن تنبحه أو تنال منه ، من أراد أن يبقى في القاهرة مسلما مصليا فليسلم وليصل ، ومن

(١) شغل فضيلته عدة مناصب في وزارة الأوقاف المصرية منها إدارة المساجد ، الإدارة العامة للدعوة الإسلامية ، وكيل وزارة الأوقاف لشئون الدعوة .

عصى ربه فيلحتف بمعصيته ولا يتبحر هذه المعصية والا اعتبر بتبجحه
مرتدا !!

إما لا تسمح أن يقول لنا أحد : صلوا في بيوتكم منبهات ، إنما نقول
كل كلب لا يريد أن يسمع الأذان . صبح في أدنك قطبا حتى لا تسمع
ذكر الله !! أما أن ننزم مجتمعا مسما بأن لا يسمع ذكر الله فهذه صفاقة
لا مثيل لها ، هذه سفالة عريية أن يهرص رجل مسحد إلحاده على مجتمع
مسلم !! .

إن الإسلام يعتر بعاصمته ، ويعتز بأن الشباب مؤمن ، المثقفون في
بلادنا مؤمنون ، تسعة أعشار أساتذة الجامعات مؤمنون وأنا خير
بالجامعات .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [البقرة : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

إن ديننا انفراد بأنه دعوة إلى وحدة دينية شاملة ، أساس هذه الوحدة : أن تؤمن بالله ، وأن تؤمن بكل الأنبياء الذين جاءوا ، ومحاولة التفريق بين نبي ونبي أو بين الأنبياء ورسمهم هي كفر ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما ﴿

[النساء : ١٥٠ — ١٥٢] .

ومع أن الإسلام قام على هذا الأساس — أساس أنه وحد رب العالمين توحيدا عاليا فإنه أعطى من لا يدين هذا الدين حق أن يحيا في كنفه بسببه المضاد للإسلام شريطة أن لا يحاول محو الصيغة الاجتماعية لديننا .

نحن ناس يقول لنا ديننا : الصلاة حق ، فليصطبح المجتمع بها ، الزكاة حق ، فليصطبح المجتمع بها ، الخمر حرام ، فلا بقاء لها في مجتمعنا ، الرنا حرام ، فكل ما يؤدي إليه يجب محوه ، وهكذا ، فعلى أتباع الأديان الأخرى ألا يحاولوا ضرب الإسلام في نظامه الاجتماعي لأنه دين يقوم على الشقين معا : هو عقيدة وشريعة ، هو دين ودولة ، فمن حاول غير ذلك فإنه يخون مجتمعنا وينضب أبناء هذا المجتمع ، ويعصب الله علينا إن قبلنا ذلك كله .

أيها المسلمون : إن هدف الاستعمار العالمي أن يقرض الخيل المؤمن
ليستطيع هو بإعلامه ، بقوايسه ، بتقاليده ، بدهوه ولعبه أن يخلق مجتمعاً
جديداً يكفر بالقرآن والسنة !!

وأنا أعلم أن هناك كتاباً وإداعيين أكل العل قلوبهم حقداً على توحيد
الله وعلى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ألا فليموتوا بغيظهم ، ألا
فليدهسوا إلى الحميم ، لكسا لا نذهب معهم ، لكسا لن نصدقهم في
كذبهم ، لكسا لن نستمع إليهم في توجيهاتهم : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ
يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة
٥٥ ، ٥٦]

فلنحرص على دينا ، ولنبق عن صلاتنا وأداسا ، ولنبق على أن نحارب
المنكر وعلى أن نقر المعروف وعلى أن نوى لله الواحد وليه الخاتم عليه
الصلاة والسلام .

« اللهم أصح لنا دينا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دينانا الذى
فيه معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [العشر ١٠]
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر - باب التوحد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/ ٨١ .

نظرات في سورة النساء (٤)

الدولة في الإسلام

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن دولة الإسلام التي قامت في أعقاب الهجرة الشريفة لها شارات تتميز بها ومعالم تؤثر عنها .

ليست هذه الشارات أو المعالم مراسم خوفاء بل هي حقيقة قائمة .
فالدولة في الإسلام تقوم على التوحيد لا على الشرك ، تقوم على الإيمان لا على الإلحاد ، وتبنى مجتمعا متقيدا بتوجيهات الله مستمداً من شرائعه .
الدولة في الإسلام ليست تسليم السلطة لبشر مصاب بحنون العظمة أو مدع للألوهية .

الدولة في الإسلام دولة تشرف بقواها الخاصة والعامة على قيام المجتمع بأمر الله .

توجد الآن دول تقوم على فكرة أو على مذهب اجتماعي ، فإذا كانت الدولة مثلا تقوم على الشيوعية فإن سيطرتها على التعليم تجعلها تبني مناهجه

على الإلحاد ، وسيطرتها على الإذاعة والإعلام نجعلها تسي برامحها على التحلل والإباحة والبعد عن أمر الله .

أما الدولة في الإسلام فمعنى قيامها على الإيمان والتوحيد أنها تحتضن برامج التعليم والتربية والإعلام ، وتجعل من ذلك كله محاضن ومؤشرات وموجهات لحمل الأمة كلها تستقيم على سواء السبيل

لقد جربنا أن يثبت الشباب في يثبات لا دين لها فماذا كانت النتيجة ؟

إن الأولاد الذين يستون في محاصر لا ترتبط بالإيمان ولا ترتبط بتقاليدهم ينشأون نشأة لا شرف لها ولا خلق فيها .

إن الاضطراب الاجتماعي الذي يسود العالم الإسلامي الآن سببه أن الأجيال الشابة أو الأخلاف الدشيين لا يجدون التغذية الروحية ولا التقويم المعنوي الذي يربطهم بالإسلام ربطا محكما .

للدولة في الإسلام وظائف :

مها أنها تقوم على الشورى ، ومعنى قيامها على الشورى أنها ترفض الاستبداد ، الشورى ليست اختراعا إسلاميا ، فالشورى فضيلة يعرفها كل إنسان بفطرته . وكما تعرف البشرية كلها أن العلم خير من الجهل وأن العدل خير من الظلم تعرف البشرية أن الشورى أفضل من الاستبداد ، وهذا ما أوحى إلى رجل مثل ابن تيمية أن يقول :

« الله ينصر الدولة لعادلة وإن كانت كافرة ولا يبصر الدولة الطامة ولو كانت مؤمنة » (١) .

إن الطبيعة البشرية تعرف الحسن والقبيح والخير والشر ، ثم يحىء الدين فيصحح أخطاء الفطرة وشروء المجتمع ويمسح التلويح الذي قد يقع لخنايع الطبيعة البشرية أو الفطرة الإنسانية عن الصواب .

(١) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام : • .

ولذلك ما جاء الإسلام بجديد عندما قال : إن العدل حق ، وإن العلم حق ، وإن الشورى حق ، إنما جاء بجديد عندما جعل من هذه المعاني عادات يُتَقَرَّبُ بها إلى الله !!

جاء الإسلام بجديد عندما جاء إلى هذه المعاني فحلطها بالكيان الإسلامي وجعل المجتمع يقوم على العلم لا على الجهل وعلى الشورى لا على الاستبداد وعلى العدالة لا على الخور والمظالم .

يقوم المجتمع في الإسلام على سيادة الحق ، وتكون للأمة كرامتها ومكانتها بقدر ما تؤمن فيها الحقوق ، فإذا ضاعت الحقوق ضاعت كرامة الأمة وحرمت من عناية الله وضمانات السماء ، وهذا معنى الحديث الشريف : « إبه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متنع » (١) !!

الدولة في الإسلام تقوم على تحكيم القانون الإلهي فيما يقع بين الناس من أخطاء ، ومعنى ذلك أن القاتل يقتل ، ولا معنى لما استحدثه الجاهليون من أن القاتل لا يقتل إلا إذا كان هناك تربص وسبق إصرار !!

ضمانات السماء في تشريع الله أن العقوبات تقع سواء كانت حقا للنشر أو حقا لله ، تقع ردعا للمجرم ونأmina للأمة .

لقد رأيت لحة من هذا المعنى عندما رفضت رئيسة حكومة أنجلترا أن تعطى المضربين عن الطعام الحق في معيشة حسنة ، قالت : لا ، إن هذا يهدد حياة آمين كثيرين في الخارج !!

هذا الكلام به رائحة من تفسير قوله تعالى : ﴿ ولکم فی القصاص حیاة ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

المحرم عندما يقتصر منه يدفع ثم ذنبه الذي ارتكبه ، وفي الوقت نفسه يخص المجتمع بضمانات كثيرة عندما يشعر كل من تحدثه نفسه بالجريمة أنه

(١) رواه ابن ماجة في الصدقات — باب مصاحب الحق سلطان ٨١٠/٢ وقال في صحيح الجامع الصغير (٢٤٢١ — ١١٠٣) صحيح ومعنى متنع أي من غير أن يصيبه أدى بقلقه أو يزعجه

سيرد المورد وينتهي إلى هذا المصير ويقتل كما قتل أو يعاقب كما أساء .
 الشرائع الإسلامية التي تحتصها الدولة كثيرة فيما يتصل بالأفراد ، فيما
 يتصل بالولاء العام — ولاء المسلمين لدولتهم لأنها تقوم على الإيمان —
 وولاء المسلمين لإخوانهم على ظهر الأرض لأن أخوة الإسلام تناصر :
 « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (١) وإذا وجدته في مكان
 ما محتاجا إلى العون متطلعا إلى الغوث عرض عليه عونه وقدم له غوثه وبين
 له أن الدين تناصر بين المؤمنين .

على هذا الأساس قامت دولة الإسلام في المدينة المنورة ، قامت على
 الإسلام لا على الكفر ، قامت على التوحيد لا على الشرك ، قامت على مبدأ
 السمع والطاعة لله فيما أمر وهى ، فإذا أقمت مجتمعا فهذا المجتمع يتلاقى
 أفراد الصلوات الجامعة ، وتصطبغ أرجاء المجتمع بالربانية التي تهتف باسم
 الله خمس مرات كل يوم ، فاجتمع كله كبيره وصغيره متعاون على أن يتصل
 بالله ، يتلاقى في الصلوات ، ويتراحم بالزكوات ، ويحس الحس ، ويقبح
 القبيح ، ويعلى راية المعروف ، وينكس راية المنكر تحقيقا لقوله جل شأنه :
 ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
 بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] .

الدولة في الإسلام تقوم على تناصر الإيمان ، ولقد رأينا هذا التناصر في
 خلال الدولة الأولى واضحة ، لأن أعداء الإسلام اعتبروا هذا الدين خروجا
 على التقاليد والعرف والسلطة فقاوموه بكل ما لديهم من قوة ، فليس
 بغريب أن تقوم الدولة في الإسلام على أن أخوة الدين تناصر وتلاحم
 وتماسك وأن المسلم أخو المسلم حيث كان .

رأينا بعد قرنين من الزمن تقريبا امرأة تؤسر في دولة الروم ، فلما
 أسرت وأهينت صرحت : وامعتصماه ١١ تقصد الخليفة العباسي القائم في
 بغداد ، فلما رويت القصة للمعتصم جمع المسلمين وهو يقول :
 يا ليكاه ١١

(١) رواه البخارى في المظالم — باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ١٦٨/٣ ومسلم في
 البر — باب تحريم ظلم المسلم وعذله ١٠/٨ ، ١١ .

لبي النداء واقتحم بجيش كثيف أرض الروم وطوى أبعادا شاسعة
ودخل في حرب مدمرة حتى استنقذ المرأة الأسيرة بإخوة الإسلام (١) .

إن الوضع الآن تغير كما قال قائل :

رُبُّ « وامتصماه » انطلقت * لم تصادف نخوة المعتصم

الوضع تغير لأن أكثر حكام المسلمين إما عميل للشرق وإما عميل
للغرب ، ولقد رأينا عملاء لإحدى الجهتين لا يرون حرجا أبداً من أن
يلعبوا في موسكو بينما لحيش الشيوعى يقتل إخوانهم في أفغانستان !! .

وذلك لأن أخوة الإسلام تبددت أو تلاشت أو اختفت مع نزعات
القومية العربية والبحث العربى والوطنيات الضيقة والأنساب المزورة التى
احترعت للأمة الإسلامية كى تذهب بها وتبلى قواها وتهلك كيانها .

الدولة فى الإسلام ليست طبلا أجوف ، إنما هى عملة لتعاليم هذا الدين
عبادة ومعاملة ، أخلاقاً وقوانين .

الدولة فى الإسلام هى الحزام الذى يشد شعب الإيمان السبعين والإطار
الذى يحكم تجمع هذه التعاليم ويشرف على مصالح الأمة ويسوقها إلى الغاية
التي يرتضيها رب العالمين .

هذه هى الدولة كما رسمها ديننا ، عندما بدأت فى المدينة كان بديها أن
تقوم أمامها العوائق وأن يوجد لها أعداء ومعارضون .

لقد نظرت فى القرآن الكريم الذى نزل فى المدينة المورة فوجدت فيه
نماذج كثيرة لوظيفة الدولة تحه الأعداء والمعارضين الذين يشغبون عليها
ويعملون ضدها .

واليوم تقدم نموذجاً واحداً من سورة النساء ، ولعلنا فى خطب أخرى
إن شاء الله تقدم نماذج من القرآن المدنى يزيد ما قلناه وضوحاً ويبين له
حدوده التى لا بد منها .

(١) أنظر الكامل فى التاريخ ١٧٦/٦ .

عندما قامت دولة الإسلام على التوحيد لا على الشرك ، على الإيمان لا على الكفر ، على إحياء شرائع الله الخاصة بدولة و لأسرة والمجتمع التي تتصل بالسياسة و لاقتصاد و الأسرة و لأحلاق الفردية ، عندما قامت الدولة على هذا كله كان طبعيا أن يبرى لها أعداء ، وأن يقوم صدها معارصون .

ولذلك وجدت سورة النساء تحدث عن مواقف للمعارضين في خمسة مواضع ، كان التعريض بأولئك المعارضين يبدأ بهد الاستفهام « ألم تر »^٩ خمسة استفهامات نقولها إجمالا ثم نشرحها بشيء من التعمل .

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الصلاة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالآلئيا وكفى بالله نصيرا ﴾ [النساء : ٤٤ ، ٤٥] .

استفهام آخر : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يركى من يشاء ولا يظلمون فتىلا انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثمنا مبينا ﴾ [النساء : ٤٩ ، ٥٠] .

استفهام ثالث : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالحب والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعهم الله ومن يلعن الله فليس تجد له نصيرا ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

استفهام رابع : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ [النساء : ٦٠] .

استفهام خامس : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتىلا ﴾ [النساء : ٧٧] .

هذه الاستفهامات الخمسة نستعرضها واحدا واحدا كي نقف وقفة تأمل أمامها .

الاستفهام الأول : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ من هم ؟ هم اليهود ﴿ أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ لأن ما بين أيديهم من صحائف الوحي ليس لوحى كنه ، وليس الوحي الحق ، هو أولا : ناقص ، وثانيا : مغشوش ، فيه أخطاء وجهالات كثيرة ، وأهم من ذلك كله أن مسالكهم ضد الموحدين مريبة ومرفوضة !! لماذا ؟ لأن أحقادهم صفحت من أفلتتهم ، فهم يودون للمسلمين أن يرجعوا كفارا بعد أن هداهم الله إلى الإيمان ، وقد تكرر هذا المعنى واتضح في سور أخرى : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوء ﴾ [النساء : ٨٩] ، وقال : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

هذه الودادة في موسم جعلتهم — بتعبير القرآن — : ﴿ يشعرون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل ﴾ !!

هذا الحقد توارثته الدول الاستعمارية كلها ومن يتسبون — للأسف — إلى السماء رورا ، ولقد سئل أحد المبشرين أمام رؤسائه : كم مسلما نصرته ؟ فقال الرجل . لا تسألونى كم مسلما نصرته ، ولكن سنوى : كم مسلما أفسدته على دينه ؟ أو أفسدت عليه دينه ؟ !!

هذا هو الذى يتجه إليه أعداء الإسلام : كيف يفسدون علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ .

الاستفهام الثانى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ أى يعتبرون أنفسهم قمة الحقيقة ، ويرون أنهم شعب الله المختار ، ويقولون فى سلااتهم إهم أساء الأسياء وإهم أجدر الناس بالسيادة على كلتا الجبهتين فى الشرق أو فى الغرب لعقريتهم ولعلمهم ولغناهم ولقدرتهم السياسية والاقتصادية !!

وهذا كلام يحتاج إلى تأمل ، فالقول بأن اليهود أو بنى إسرائيل هم أساء يعقوب كلام غير صحيح ، فإن هؤلاء اليهود من عشرات الأجناس

والدماء والألوان ، ولو فرضنا كدبا أنهم أولاد إبراهيم ما يحدتهم هذا شيئاً
فإن الله جل جلاله يقول عن إبراهيم ونوح ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم
وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾
[الحديد : ٢٦] .

فالانتساب وحده للأنبياء لا يعطى وحاجة ولا يكون شرفاً ولو كانوا
أبناء محمد ﷺ نفسه ، فإن بيننا عليه الصلاة والسلام قال : « يا فاطمة
بنت محمد سليني ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » (١) ،
وقال : « ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » (٢) .

فتركه النفس والقول بأن الله شعباً مختاراً كلام لا أصل له ، إنما يركى
الإنسان بعمله وخيقه وشرف نفسه وما يقدمه للآخرين من فضل وتبيل ،
أما ما عدا ذلك فلا قيمة له .

الاستفهام الثالث : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب
يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين
آمنوا سيلاً ﴾ [النساء : ٥١] .

سئل رعماء يهود — يوم ضربت الحرب بين الوثنية تقودها قريش
وبين التوحيد يقوده نحاتم الأنبياء ﷺ — قال لهم رجال قريش : أنتم خيراء
بالوحي ، أنتم أهل الذكر وأهل الكتاب احكموا بيننا وبين محمد أحن على
الحق أم هو ؟ فكان جواب أحبار اليهود وسدنة العهد القديم : أنتم على الحق
ومحمد على الباطل (٣) !!

الشرك عند هؤلاء حق والتوحيد باطل !! هذا هو الهوى الجامع
والحكم القبيح ، وسبب هذا الحكم الحقد والحسد والبغى فى الأرض
والاستطالة على الناس ورب الناس .

(١) رواه البخارى فى الوصايا — باب من يدخل النساء والولد فى الأقارب ٧/٤ ، ٨ ومسلم
فى الإيمان — باب فى قوة تعالى : ﴿ وألفى عشيرتك الأقربين ﴾ ١٣٣/١ .
(٢) رواه مسلم فى الذكر — باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٧١/٨ .
(٣) أخرجه ابن إسحاق انظر لباب القول فى أسباب النزول للسيوطى : ٨٢ .

الاستفهامات الثلاثة في أهل الكتاب وفي طليعتهم اليهود .

أما الاستفهام الرابع فهو في المنافقين الذين وجدوا في المجتمع المدني ولهم باطن سيء ومظهر حادع ، هؤلاء تكشفهم دائما أمور :

أول ما يكشفهم أنهم يكرهون الدولة الإسلامية ، ويكرهون التشريع السماوي ، ويكرهون الأحكام التي أمرها الله لتظهر المجتمع من أوساخه ، وفي الحديث الشريف : « **حد يعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمتطروا أربعين صباحا** » (١) .

هذا الحديث معناه أن البركة ليست في أن تمطر السماء الأرض ، هناك بلاد تكاد تموت جوعا من الحفاف ، والعرب أن هؤلاء طمس الله على أقدستهم فلا يعرفون استسقاء ، هم بهائم ليس لهم رب يدعوهم ، إنهم ينتظرون نجات من الشرق أو من العرب !!

هناك الآن خوف من أرمات الجوع ومن أرمات الضيق ، والسبب يس في أن الأرض لم تمطر ، إنها أمطرت ، ولكن السدوك البشري فوق طهر الأرض سدوك طائش معوج محروم من عناية السماء ومن مباركة الله ، فلو أن مجتمعنا أقام حدود الله نحققها لتوفرت البركات هنا وهناك وكما قال جل شأنه : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

الاستفهام الرابع : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

رغم : مطية الكذب ، أي أن كلامهم غير صحيح ، هم كذبة في رعمهم للإيمان ، ليس نديهم حقيقيا ، إنما هو تدين صوري ، ولو كان نديهم حقيقيا لصدعوا بأمر الله ولنفتوا أحكام الله ولما اخترعوا عقوبات لا

(١) رواه ابن ماجه في الخلود — باب إقامة الحدود ٧٤٨/٢ والتساؤل في قطع السارق — باب الترعيب في إقامة الحد — بلفظ ثلاثين — ٧٥/٨ ، ٧٦ وأحمد — بلفظ ثلاثين — ٤٠٢/٢ وقال في صحيح الجامع الصغير (٢١٣٠) : حسن .

صلة لها بدين الله ، هي عقوبات يريدون بها محاربة الجريمة في المجتمع ، ولكن هذه العقوبات ما حمت المجتمع من عدوان المعتدين وسرقات السارقين وعش الغاشين وضلال الصالحين ، وهيئات !! وقد يحلفون أنهم يريدون هذه العقوبات الإحسان إلى الأمة أو التوفيق بين ما يحب الله وبين ما يسعى لإيقاعه بين الناس من مصلحة ، ويكذبهم القرآن في هذا كله . ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ [النساء : ٦٠ — ٦٢] .

هؤلاء بين القرآن الرأى فيهم والحكم الفذ في شؤونهم عندما قال : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

أما الاستفهام الخامس فهو في صغفاء الإيمان الذين لا يعرفون حقيقة قدر ولا يحيطون عندما بالأسماء الحسنى والصفات العلى فيظنون أن الهروب يصل الأحل وأن السكوص يكثر الأوراق وأن الإنسان يستطيع أن يعيش أما في سر به مطمئنا بين أهله إذا لم يقل كلمة حق وإذا لم يجاهد في سبيل ربه وإذا لم يُلْتِ نداء الشرف عندما يطلب لمعركة الشرف ، هؤلاء يظنون أن سكوصهم وحهم يطيلا الآجال ويكثران الأوراق ، وهذا كله خطأ ، فإن لأرق والآجال لا يمكن أن تطول بالحن ولا أن تضعف أو تقل بالتصحية ، هيئات !

لقد سبق لرب العالمين أن حدد للناس أرقامهم وآجالهم ، فضعف الإيمان هو الذى يجعل بعض الناس يتعمق ويحس وتخور قواه في موقف شرف وتضطرب أقدامه إذا دعى إلى الدفاع عن دينه وعن أمته وعن يومه وعده !!

كل هذا سسه ضعف لإيمان ولو كان قوى الإيمان لعلم أن الطائفة تسقط وهى محقة في الحق — ما يدع أحده عن نفسه وهى ساقطة — ثم

يسين القدر عم كتب فإذا طعل أو شيخ صعيق يبقى حيا وإذا شاب عارم
القوة مضرح بدمه !! هذه آحال ما للشر فيها دخل .

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة
وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية
الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل
قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون شيئا . أينا
تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء - ٧٧ ،
٧٨] .

إن الإيمان الحق يفرض على المسلمين أن يستسلموا لله في هذه السواحي
كنها .

أقول قولي هنا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله موفق العاملين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي المؤمنين .
وأشهد أن محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .
أما بعد :

فإن الأمة الإسلامية في مفترق طرق ، وأعداؤها يشولونها من كل
جانب ، وأسباب الضعف التي تلاقت في مجتمعها كثيرة ، ولكنها تستطيع
على مر الأيام أن تمحو هذه الأسباب سداً سبباً وأن تأخذ طريقها إلى الله
خطوة خطوة ، وأن تبدأ فترسح الإيمان في القلوب وتقوى التقاليد النافعة
وتذهب التقاليد الصارة وتقيم البناء الخلقى متيناً في أمتنا .

إن بناء الأخلاق شيء من صميم عمل الفرد ومن صميم نشاط
المجتمع ، والدولة دخل فيه ، ولكنه دخل جانبي أو محدود أو على الأقل
عامل مساعد ، ولكن العامل الأساسي هو في نشاط الفرد ونشاط الأسرة
ويقطة الجميع في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والترفع عن الشهوات وبناء
فصائل الإيمان والوفاء والتراحم واحترام الحق واحتقار الباطل ، وما إلى
ذلك من معان مجتمعنا إليها فقير .

إنني أشعر بأن الأمريكيين كانوا عظماء كباراً عندما وضعوا أقدامهم
على القمر وأن تفوقهم الحضارى بلغ حداً يثير الإعجاب ولكني أقول
وبصراحة : إن هناك محالاً آخر ربما كان عندى أعظم من هذا التفوق وأدل
على الحضارة من هذا الغزو للفضاء !! أعنى أن رئيس دولتهم يدخل مع
رجل الشارع في انتحابات فينهزم !!

يستعرضان معا في الإذاعة فيعطى هذا خمس دقائق وهذا خمس دقائق ،
ليس لأحد تفوق على الآخر !!

هذا نوع من الخلق أو نوع من الكرامة الإنسانية يحتاج اسسمون إليه ولا يحتاجون إلى قبلة ذرية ولا إلى تفوق صناعي .

وليس بعامر بنيان قوم * إذا أخلاقهم كانت خرابا (١)
فليس الأخلاق والتقاليد الحسنة في أمتنا حتى يمكن أن نكون أهلا
للائتساب إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي
فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (٢) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠٠] .
عباد الله :

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴿ [النحل ٩٠]
أقم الصلاة

(١) هذا البيت لأمر الشعراء أحمد شوقي (الشوقيات ١/٦٠) .

(٢) رواه مسلم في الذكر - باب التوحد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١

القرآن يتحدث عن الهجرة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٩٧٣/٢/٢٩ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والسعة المسداة ، والسراج المبر .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعد :

فمما يروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يوصى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إنما ثقلت موارد من ثقلت موارد يوم القيامة لاتباعهم الحق ، والحق ثقيل على النفوس ، وإنما خفت موازين من خفت موارد يوم القيامة لاتباعهم أهوى .. وأهوى خفيف على النفوس » !! .

والواقع أن خدمة الحق قد تكون معنة متعة لأن أتباع أهوى يقفون صده ، ويكرهون مسيرته ، ويعترضون انطلاقه إلى غايته ، ثم إن الحق عندما يشق طريقه لا بد أن يشعر أصحابه بمرارة الكفاح ، وآلام الهزيمة لئلا يبد أن تصيبهم مراحل الجهاد لطويل قبل أن يدركوا هدفهم ، ويحققوا مرددهم !!

وعندما نتأمل في ذكرى الهجرة نجد شواهد لذلك ، وعندما نتأمل في سيرة أولاد النبی ﷺ بعده ، ومصابهم في أنفسهم وأموالهم بسبب دينهم واستمسكهم بالحق مشعر بهذه المعاني حية في صمائرنا .

كان الحسين بن علي رضى الله عنه يستطيع أن يعيش فرير العين ، وقد التقت في ساحته حسنة الدنيا وحسنة الآخرة !! .

كان الرجل من ناحية الدنيا ممدود المال ، عريض الحاه ، حميل الوجه ، شريف النسب ، وكان من ناحية الدين عابداً ، محبتاً ، مخلصاً ، يقوم الليل ، ويصوم النهار ، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا .

ولكن خدمة الحق كلفت الرجل أن يخرج يؤدي واجبه ، وليهض بأعباء الرسالة التي شعر بضرورة القيام بها ، وكلفه ذلك وكلف إخوانه أن يفتقدوا حياتهم واستقرارهم ، حتى قال شاعر من شعراء الإسلام يومئذ

يقارن بين حياة الحسين رضى الله عنه وأهله ، وبين حياة ملوك أمية
وترفهم ، يقول فى البيوت التى حربت لأنها خدمت الحق ، يقول (١) :
مدارس آيات خلعت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
وآل زياد فى القصور مصونة وآل رسول الله فى القلوات
يقصد ريسب ست على رضى الله عنها ، لكن الحسين وأخته وأهل البيت
رضى الله عنهم ، إنما سلكوا فى هذا مسلك جدتهم عليها السلام عندما هاجر ١١ .
كان يستطيع أن يعيش فى بيته ، له زوج صالحة ، ومن أسرة نبيلة ،
وحوله من رغد العيش ما يطمئنه إلى حاضره ومستقبله ، ولكنه لما بدأ
يحمل أعباء الرسالة ، بدأ يحمل المتاعب الثقال ، وكان ورقة بن نوفل رجلاً
حبيراً بطبائع المجتمعات ، وقضية الصراع بين الحق والباطل ، فلما بدرت
بوادى الوحى ، وذهب يقص ما وجد على ورقة ، قال له ورقة : « ليتنى
أكون حياً إذ يخرجك قومك فاستغرب النبى ﷺ وقال : « أَوْ مُخْرِجِيْ
هم ؟ » قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى » (٢) .
إن الدين ورثوا الخرافة تعصبوا لها ، والذين اطمأنوا لأوضاع باطلة
تدر عليهم السمس والعسل يحبون أن تبقى هذه الأوضاع ، وأن يعيشوا فى
صلها ، وهم يقاتلون دوسها ، ولذلك عندما وجدوا دين يعكر صفوهم ،
ومحارب إفكهم ، ويمرّق خرافاتهم تسمروا له : ﴿ وَإِذَا تَلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا

(١) من قصيدته دُخيل الخراعى ومضى طويبه وأولها

مدارس آيات خلعت من تلاوة	ومنزل وحى مقفر العرصات
منزل وحى الله ينزل بيها	على أحد المذكور فى السُّورَات
منزل قوم يُهتدى بهداهم	فوقهم مهم زلة العثرات
منزل كانت للصلاة وللتنقى	وللصوم والتطهير والخسرات

بأن قال

ألم ترى منذ ثلاثين حجة	أزوح وأغدوا دالم الخسرات
أرى فيهم فى غيرهم متقسما	وأيديهم من فيهم صقيرات
وآل زياد فى القصور مصونة	وآل رسول الله فى القلوات

ديوان دُخيل الخراعى . ١٣١ والقصيدة بنماها فى معجم الأدهاء ١٠٣/١١ وكتاب أعيان الشيعة

للإمام السيد الأمين ٤١٨/٦ ط دار المعارف بيروت وبعضها فى تجريد الأغالى ٢٠٨٦/٢ .

(٢) رواه البخارى فى بدء الوحى — باب كيف بدء الوحى ٣/١ ، ٤ ، ومسلم فى الإيمان —

باب بدء الوحى ٩٧/١ ، ٩٨ .

بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون
عليهم آياتنا ... ﴿ يكادون يبطشون بهم ﴾ ... قل أفأبئكم بشر من
ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴿ [الماع . ٧٢]
لكن أهل الحق الذين يستميتون في الدود عنه يرزقهم الله أموراً تهون
عليهم الصعب !! .

من أول تلك الأمور : نفس رقيقة تمح الباطل ، وتشمئز منه ، وتشعر
بالشفاء لو أنها قارفته أو قتربت منه ، نفس تأنس للحق ، وتهش له ،
وتسبحلى مرارة الدفاع عنه ، وترى في ذلك كرامتها ومجادتها وعظمتها في
الدنيا والآخرة :

إن الذي خلق الحقيقة علقماً * لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً
في كل زمن يوجد من يحتضن الحق ، ويستريح إليه ، ومن هذا المعنى
قول أحد العلماء وقد سئل : ما لذلك ؟ قال : في حجة تنبئ بتضاحاً
وشبهة تتضاءل افتضاحاً !! .

ربما كانت لذة الحيوان في أساء آدم أكلة شهية ، أو نومة هينة !!
ولكن هناك ناس يشعرون باللذة تعمّر أقطار أنفسهم بالسعادة لأن للحق
دليلاً قوياً ظهر ، ولأن الباطل أخذ يتبدد كما تتبدد العيوم عندما تشرق أشعة
الشمس !! .

هذا أول ما يرود الله به دعاة الحق وحمته ، وفي طليعتهم وقمتهم
صاحب الرسالة العظيمي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام !! إلى
جانب هذا هناك أمر يضعه الله في قلوب حدام الحق ، هذا الأمر هو أنه مهما طال
المدى فإلى الحق المصير ، وأن الكفاح مهما كلف من خسائر ، وحمل من عنق فإن
القاعدة القرآنية لا بد أن ترسو قواعدها وهي قوله حل شأنه . ﴿ ... فأما الريد
فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ... ﴾ [الرعد . ١٧]

وقد حدث فعلاً أن اصطدم حق وباطل من قديم ، ولكن ما الذي
انتهى الأمر إليه ؟ من قاتل الحسين رضي الله عنه ؟ .

مكرة في التاريخ لا يعرف !! باء بالعة في يومه وغده !! وذهب في
حر كان ينتظر غضب الله عندما يؤوب إليه .

أما الحسين فإن الله رفع له ذكره ، كما رفع ذكر جده عليه الصلاة
والسلام !! وبقي الحق وبقي أهله ، ونبحر الباطل وتخر خدمه !! .

هذه حقائق نذكرها بين يدي حديثاً عن الهجرة النبوية الشريفة ، لقد
تناولت الهجرة النبوية في الخطبة الماضية من راوية ، وأريد في خطبة اليوم أن
أتناولها من زاوية أخرى .

ألف الناس في القرآن الكريم أنه ينزل تعليقاً على ما يكون من
أحداث ، فيوجه التوجيه الذي تفتقر الأمة إليه ، إن كان الذي حدث نصراً
ذكر أسبابه بحق ، وكسر العرور الذي قد يصاحب المتصرين ، وإن كان
هزيمة ذكر الأسباب بصدق ، ومسح التراب الذي عفر جباه المهزمين !! .

على هذا النحو نجد أن سورة الأنفال نزلت في أعقاب غزوة بدر ، وأن
سورة الأحزاب نزلت في أعقاب الخندق ، وأن سورة الفتح نزلت في
أعقاب الحديبية ، وأن سورة آل عمران نزلت في أعقاب هزيمة
أحد ، قد يسأل أحد الناس: فهل نزلت في حادثة الهجرة سورة ما كما حدث
ذلك في أعقاب الغزوات التي وقعت ؟ .

والجواب : لا ، لم يقع هذا ، ولكن وقع ما هو أخطر وأهم . كأن
الله سبحانه وتعالى حكم بأن قصة الهجرة أكبر من أن يعلق عليها في سورة
واحدة ، وأن تمر مناسبتها بهذا التعقيب وينتهي الأمر ، فحكم جل شأنه بأن
تكون ذكرى الهجرة قصة تؤخذ العبر منها على امتداد الأيام ، وتذكر في
أمور كثيرة ، وفي مناسبات مختلفة !! .

ولذلك فإنني أعرض من سورة البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والتوبة ،
والأنفال آيات تناولت الهجرة ، وتناول الهجرة في هذه السور المختلفة إنما تم في إطار
الدواعي ، والملايسات التي قضت بالعودة إلى ذكرى الهجرة حديثاً عنها واعتباراً
بها ، ففي سورة البقرة نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[البقرة : ٢١٨] .

﴿ أولئك يرجون رحمة الله ﴾ يعنى أب الرحاء في الله ليس حق الكسالى والمعززة ، إنما هو حق المهاجرين والمجاهدين .
ولم ذكر هنا أمر الهجرة والجهاد ؟ .

تنظر إلى الآية التي سبقت هذه الآية لتعرف السبب ، فإن الله تعالى يقول للمسلمين . إن أعداءكم كثيرون ، يربصون بكم ويحاولون فتنكم عن دينكم ويستهبزون المرص لإلحاق الأذى قل أو كثر بكم !! قال تعالى : ﴿ ... ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرئذ منكم عن دينه قيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة : ٢١٧] ثم قال : إن الحاجة من هذا الارتداد ، ومن هذا الكفر الذى يراد إلحاقه بالمسلمين يتطلب واحداً من أمرين :

إما الجهاد حتى تنكسر صولة العدو ، وإما الهجرة إذا كان المؤمن أعجز من أن يقاتل .

هذا المعنى يستحق أن نذكر معه قول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنصرتم فانصروا »^(١) ومعنى الحديث : أنه بعد أن تم فتح مكة فلا مكان للهجرة ، انتهت الهجرة ، وإما في أعماق المؤمنين جهاد العدوان وكسر انطعيا إلى يوم القيامة ، وإذا استنصرتم فانصروا أى إذا أعلنت الدعوة إلى القتال وظهر الصير العام فانصروا ، ومع ذلك فقد وردت أحاديث أخرى تبيّن أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة ، وتفسير ذلك : أن بعض الناس قد يكونون في بيئات يعتزلون فيها ويستوحشون ، هؤلاء يسعى كى يبقى الإيمان في أعقابهم أن يلحقوا بكلمة الأمة الإسلامية ، والحقيقة أى شعرت بهذا المعنى ، وأنا أقرب حياة بعض الدين هاجروا ، من مصر إلى كندا ، أو استرايا أو غيرهما من بلاد الله ، فإن بعض المسلمين هناك ضاع دينهم ، أو فقدوا في البيئة الجديدة ما يربطهم بتراثهم وتاريخهم .

(١) رواه البخارى في الجهاد — باب فصل الجهاد ١٧/٤ ، ١٨ ومسلم في الإمارة — باب المبيعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد ٢٨/٦

أُلحق الأبناء أبناءهم بمدارس لا لغة فيها ولا صلاة ولا قرآن ، هُشِب
الأبناء على النحو الذى أتيح لهم وضاع بذلك دينهم .

الأمر يحتاج إلى علاج سريع ، إما أن يعودوا إلى إسلامهم ههنا ، وإما
أن يرسل إليهم في بيئاتهم من يستبقى علاقتهم بالله ورسوله والقرآن
وهداياته وإلا ضاعوا .

هذه آية من الآيات التى علقت على الهجرة بعد الهجرة بسنين ، في
سورة آل عمران يرى آية أخرى تحدث عن الهجرة بعد هزيمة « أحد »
وهزيمة كانت مرة ووقعها كان شديداً على النفوس ، ولكن الله ينبه الرجال
على أن المبادئ لا يصرفها المهاريل والضعاف ، من طلب عطيماً حاطر
بعطيته ، والأمم الصائغة ، والشباب الطرى لا يمكن أن يكون ساداً لهدف
صحح ولا حملاً لواجبات عظيمة !! .

إذن لابد أن يلحق المسلمون بعد « أحد » درساً يذكرهم بالهجرة .
قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من
ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم
وأودوا في سبيلى وقتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات
تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن
الثواب ﴾ [آل عمران : ١٩٥]

في سورة النساء ذكرت الهجرة ، ذكرت على أساس يستحق أن
يُدْرَسه في عصرنا ، فإن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت انطلاقاً بدعوة
محسوسه مضطهدة إلى مكان جديد أو وطن جديد تستقر فيه وتحاول
الانطلاق منه . ولذلك كان فرضاً على كل مسلم أن يترك مكة إذا كان
يعيش في مكة ، أن يترك جنوب الجزيرة العربية إن كان يعيش في جنوبها ،
أن يترك شمالها إن كان يعيش في شمالها ، وأن يلحق بالإسلام الذى أسس
مجمعاً في المدينة كى يدعم هذا المجتمع الجديد ويعلى فيه راية التوحيد ،
ويرد عنه عدوان الشرك ، ويجعل قوى المؤمنين في هذا الوطن الجديد

تتأسس وتتلاقى ، ومن هنا فإن عدم الهجرة كان جريمة ، واعتُبر الذين يؤثرون الضعف في أرضهم اعتبروا حطب جهنم !! وقال فيهم رب العالمين ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ [النساء : ٩٧] ثم استثنى القرآن أصحاب الأعذار الحقيقية فقال ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾ [النساء : ٩٨ ، ٩٩]

الرجال : أى الشيوخ المائى الذين لا يستطيعون الضرب في الأرض ولا الثقل من مكان إلى مكان ، ماذا تكون عصى هؤلاء ؟ ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ والتعبير بكلمة عسى قطع للدابر احتلاق الأعداء ، لأن صاحب العذر الحقيقي لا يدري أيعفو الله له أم لا ؟ وإن كان الرجاء في الله محققاً ، إلا أن التعبير جاء هكذا حتى لا يفعل أحد عذراً !! .

وفي سورة الأنفال نجد حديثاً عن الهجرة بعد النصر في معركة بدر والحديث سببه أن المسلمين بدأ منهم شيء من الرفق بالأسرى حتى تركوهم ، ولكن تطهير الأرض من المحرمين لمصلحة الحياة نفسها ، إن المحرمين جرائم تنقل الخرى والدل ولسرقة والأثرة والتشيع من الحرام ، ومن مصلحة الحياة نفسها أن يختفى هذا الصنف من الناس !! .

ولذلك فإن القرآن الكريم ذكر المسلمين بعد النصر بأيام الكرب والصرب التي كانت تلاحقهم في مكة وهم مضطهدون معذبون : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره وورثكم من الطيبات لعنكم تشكرون ﴾ [الأنفال : ٢٦]

ثم يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

وهذه الآية تشرح المؤامرة التي حيكت لخيوطها في مكة وهم يتحدثون كيف يخلص من محمد ؟ ويرى بعضهم أن يسجن ، ويرى بعضهم أن يقتل ، ويرى بعضهم أن يطرد ، إلى آخر ما اختلف القوم فيه .

ثم تأتي المناسبة الأخيرة التي ذكرت آياتها في سورة التوبة ، وربما ظن بعض الناس أن هذه الآيات نزلت في أعقاب الهجرة ، لأن الله يقول فيها : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة ، ٤٠]

ناس كثيرون ربما ظنوا أن الآية بعد قصة الغار وما وقع فيها ، وهذا خطأ ، فإن هذه الآية نزلت بعد قصة الغار تسع سنين !! نزلت في سورة براءة ، ونزلت كما أحكى لكم الآن لسبب ، فإن الله يُرحع الناس إلى قصة الهجرة ليعتبروا بها ولينتفعوا من أحداثها ، وقد حدث بعد تسع سنين من الهجرة أن استدعى ما يقتضى عرص قصة الهجرة والغار والحوار الذي دار بين النبي ﷺ وصاحبه ، عندما فرض على المسلمين علناً أن يتجمعوا لمقابلة الروم ، والروم أو الرومان كما يدرس اسمهم في التاريخ ، كانوا يومئذ الدولة الأولى في العالم ، كانوا أشبه بأمريكا الآن ، كانت دولة مرهوبة الجانب ، عظيمة السلطان ، باطشة بالشمال الأفريقي كله ، وبآسيا الصغرى كلها وعندما اشتبك الإسلام معها كانت خارجة من نصر تُجرر أذياله فخراً على الدولة الأخرى ، دولة فارس ، أى أن الاتحاد كلها كانت تكمل همة الرومان ، دولة عظمى ومنتصرة ، وفي هذه اللحظات قيل للمسلمين تحركوا إلى دولة الروم لتقاتلوها !! وقع الرعب في قلوب الناس ، وقع التخاذل والقلق ، وقال المنافقون لانتهى محمد ، انتهى ديبه ، سيشتبك مع الدولة الأولى في العالم وسيتلاشى !!

وشاء الله أن تنزل الآيات بعد أن تمت المعركة وبعد أن ذهب المسلمون في ثلاثين ألفاً !! ما عرفت جريرة العرب تعنت هذه الضخامة في ألبام مرهقة بحرها وجدبها حتى سميت العروة عروة العسرة ، ونزل القرآن يبكى المهزمين الضعاف ، يبكى الذين خافوا القوة المادية ونسوا قوة الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَعَّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ

إلى الأرض أرسيم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تصروه شيئاً والله على كل شيء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .. ﴿التوبة ٣٨ - ٤٠﴾ .

وعاد إلى قصة الطحرة يُذكر بوقائعها ، إن الرجل المرء الذي تألبت عنه مكة كلها وهي يومئذ أم نقرى وعاصمة الحرية العربية ، إن الرجل الوحيد الذي حرج معه صاحبه يؤسسه وبخدمه ، هذا الرجل ماذا حدث ؟ .

ما استطاع الناس أن يصنعوا له شيئاً ، بل لقد تحول على امتداد الزمن إلى حصارة عمرت امشارق و لمعارب عسطق العقل ، وأدب النفس ، وسناء حنة . . . قمت مجتمعاً لا تعرف الدنيا مثله تراحمًا وتناصرًا وعدلاً . ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ صيحة العراء في ضيق الغار وهجمة عدو واضطراب الدنيا ، صيحة العراء ﴿ إن الله معنا ﴾ ١١ .

نكر مكي يكون الله مع أمة مُمَّا ؟ يوم تكون هذه الأمة مع الله ، وقد عتب لكم : إن أحد الصالحين قال لتلميذه : إذا أردت أن تعرف مكانتك عند الله فاعرف مكانة الله في قلبك ١١ .

هكذا ذكر لإسلام قصة الطحرة ، وهكذا عرصها القرآن الكريم في مواضع شتى من أسوره ، نرت نُعلم ، وتعلم إلى جانب ذلك أن صاحب رسالة الحبلة عليه الصلاة والسلام ما فقد بالله ثقته ، ولا وهم فيه أمله ، عندما لاحقه سراقه بن مانك يريد أن يبطش به ، وأن ينال الخائز المرصده لمن يحيى محمد ﷺ حياً أو ميتاً ، وعندما هزمته الأقدار كبا ، وكبا فرسه ، قال له لمهاجر الوحيد المطارد في صحراء الجزيرة : « كيف بك إذا لست سوارى كسرى » ؟ (١)

وعاد الرجل كالمنحون من إحدى حدث ومن الذي سمعه ؟

(١) أخرجه البيهقي كما في الخصائص الكبرى للسيوطي ٢ / ١١٣ طبعة دار الكتب العلمية — بيروت . وابن عسبة كما في أسد الغابة ٢ / ٣٣٢

وفتحت فارس ، وجيء بسواري كسرى ، ودعا عمر بن الخطاب
رصى الله عنه سراقه وألبسه السوارى (١) تحقيقاً لوعده رسول الله ﷺ .
أقول قولى هذا واستعفر الله لى ولكم .

★ ★ ★

(١) المرجع السابق

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويريدهم من فضله والكافرين لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الإسلام لذى جاهد من أجله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام هو دين الله من الأزل إلى الأبد ، هو الدين الحق من الأزل إلى الأبد ، به بشر جميع الأنبياء من قبل ، وبحقائقه أرسلوا ، وبأركانه نهضوا بين الأمم ، منذ نوح عليه السلام أبى البشر الثانى ، يقول الله : ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون. فإن توليت فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ [يوس : ٧١ ، ٧٢]

ويقول الله لعيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ [المائدة : ١١١] .

وبين عيسى ونوح رسل كثيرون ، ذكر القرآن عناصر الوحدة الدينية التى تجمعهم كلهم والعنوا بالهدى الذى عملوا تحت رايته، أى الإسلام .

لكن الإسلام عندما شرح القرآن الكريم حقيقته على هذا النحو كمل المعانى فيه أن موسى ما كذبه عيسى ولا عيسى كذب موسى ولا محمد ﷺ كذب واحداً من الاثنين .

الأول كان يمهد لثاني ، والثاني كان يصدق الأول ، هذه حقائق ، لكن الأتباع الجاهلة شردوا عن رسالة موسى وعن رسالة عيسى ، ولذلك لما انحرفوا عن طريق موسى وعيسى وإبراهيم ، أصبحوا لا يستحقون وصف الإسلام ، لأن الإسلام إيمان بالله الواحد وتصديق لما جاء به موسى ، فأين ما جاء به موسى ؟ وهل صدق اليهود بما جاء به موسى ؟ .

إن الإسلام إيمان بالله الواحد وتصديق للنبيين جميعاً ، فإذا قال يهودى و إسرائيل . إن عيسى لقيط وأمه زانية !! وإن محمداً دجال ورسالته كاذبة !! .

فهل يمكن أن يقال إن هذا اليهودى يتبع موسى ويسمى مسلماً ؟ لا ، هذا غير صحيح ، إن الإسلام الحق عبادة لله الواحد ، ولو أن عيسى حتى لرفض ممن يزعمون اتاعه أن يجعلوه إلهاً مع الله ولقال لهم : إني عبد فقط !! ولا يمكن أن يسمى من يشرك بالله أو يكذب واحداً من أنبيائه مسلماً يعبد الله على طريقة موسى أو على طريقة عيسى .

إن محمداً عليه الصلاة والسلام جاء بالحقيقة الكاملة والوحدة الدينية الشاملة وهو مع ذلك وضع قاعدة إنسانية كلها رقة ، وكلها عدالة ، فين أن الذى يرفضه أى يرفض محمداً ﷺ ولا يريد أن يتبعه فليرفضه وليبق على ما يريد ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

فمحض نشر الحق ونؤيده ونسانده ونستमित فى الدفاع عنه ، ونرد كل فتنة نحاول أن نمنع الدين أو أن تشويهه ، ولكننا مع هذا الاستمسك والتثبت بعامل غيرنا كإنسان له ما لنا وعليه ما علينا !! هذا هو المهم الواعى والشرح الدقيق للإسلام ، أما الزعم بأن الأديان كلها سواء لا اختلاف بين يهودية أو نصرانية أو إسلام فى عصرنا الحاضر ، فهذا لعو من القول لا يلتفت إليه .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديارنا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادتنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [العشر : ١٠٠]
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التوعد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١،٨

شُبُهَاتٌ حَوْلَ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
في يوم ١٥/٦/١٩٧٣م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد .

فأرجو أن أوفق إلى أداء حصة اليوم برغم ما أعانى من بعض الأمراض
المعاجة .

موضوعنا — إن شاء الله — رد شبهات عن بعض الأحاديث النبوية
التي شاعت بين الناس وفهموها على غير وجهها .

والمسلمون يحسبون أن أعداءهم يترصدون بهم وينالون منهم ،
فلا يسعى أن يعيبرهم على أنفسهم بسوء الفهم للدين ولافتراء على وحي
الله بما لم يُرثه الله ورسوله .

١ — من ذلك أن عددا كبيرا من الناس يجرى على لسانه قوله عليه
صلاة وسلام « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » (١)

(١) رواه ترمذي في الأوسط وكبير ومعه و مشح أو مشرس لم يُقد به على ترجمه كذا في

مجمع بروث ٨١

فيعلم من هذه الكلمة أن الإيمان يمكن أن يكون لفظاً عابراً وقولاً فارعاً ، وأنه ما دام قد تحسّر وراء كلمة التوحيد التي أهدت من بين شفتيه فلا عيب أن يقصّر في حب الله ولا عليه أن يفرط في حقوق الله !! وهذا تفكير لا أصل له في ديننا ، فإن علماء الحديث قالوا : هذا الحديث له معنيان :

المعنى الأول : أن هذا الحديث إنما قيل في صدر الإسلام يوم كانت مهمة النبي عليه الصلاة والسلام أن يحارب الوثنية السائدة ، وأن يحقر عبادة الأصنام ، وأن يفطم لباس عن الخرافات التي ألفوها ، ويرفعهم عن مستواها إلى مستوى الإيمان بالله الواحد .

فكانت الدعوة إلى التوحيد هي امهاد الأول والأساس الأوحد الذي بدأ الإسلام به ، ولكن الإسلام بعد ذلك نما وأحدث تعاليمه تنزل من لدن العلى الكبير ليعلم الناس حقيقة دينهم ، وتمام شرعهم .

ومعروف أن القرآن ظل يزل حلال ثلاث وعشرين سنة ، وأن أركان الإسلام لم تكتمل لأول يوم جاء فيه هذا الدين الحنيف ، وإنما ظلت أوامره ونواهيه تنزل حلقة بعد أخرى حتى اكتملت سنسنتها قبل أن يذهب النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

معروف أن صوم رمضان لم يشرع إلا بعد خمسة عشر عاماً من بدء الإسلام ، ولم يكن صوم رمضان معروفاً في العهد المكي كله ولا كان فريضة من فرائض الدين .

ومعروف أن الصلوات الخمس ما شرعت إلا ليلة الإسراء ، وقبل ذلك كانت الصلاة ثنتين ثنتين .

ومعروف أن فريضة الحج لم تشرع إلا بعد أن استطاع المسلمون أن يفتحوا مكة ، وأن يؤموا طريق الحرم ، وأن يشيعوا الأمان في أرجاء الجزيرة .

عندئذ — بعد أن كانت كلمة التوحيد هي الإسلام — قيل : « بني

الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » (١) .

ثم جاء حديث آخر وسَّع الدائرة ويبيِّن أن تعاليم الإسلام أعم ، وهو : « الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، وحج البيت سهم ، والصيام سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجهاد في سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له » (٢) .

إذن الرأى الأول أن هذا الحديث قيل في صدر الإسلام ، وأن تعاليم الإسلام ظلت تنزل خلال ربع قرن تقريبا ، فكان هذا الحديث تصويراً لأول ما بدىء تعليمه ، ثم جاءت بعد ذلك أشياء كثيرة لا بد منها ولا يتم الإسلام إلا بها ولا تعتبر أركانه مستكملة إلا إذا أداها الإنسان جميعا . هذا رأى تباه أو فصَّه وأشار إليه العلامة « المنذرى » المحدث المشهور .

هناك رأى آخر يقول : ليس من الضروري أن تقول : هذا الحديث قيل أول الإسلام ثم جاءت بعد ذلك متعمات له ، إنما المقصود بـ « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » من قالها مؤمنا بها ، موفيا بحقوقها ، وقافا عند حدودها ، نازلا على ما يرتبط بها من آثار في النفس والمجتمع ..

والآثار المرتبطة بالإيمان كثيرة ، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام هذه الآثار في أحاديث شتى ، يبيِّن أن الإيمان لا بد أن يكون مجموعة من الأخلاق الأساسية من صدق ووفاء وأمانة وضبط للمواعيد وشرف في الخصومة ..

(١) رواه البخارى في الإيمان — باب دعاؤكم إيمانكم ٩/١ ومسلم في الإيمان — باب قول النبي ﷺ بي الإسلام على خمس ٣٤/١ .

(٢) رواه البراء ، وفيه يريد بن عطاء وثقه أحمد وغيره وضعفه جماعة ربقية رجاله ثقات . كذا في مجمع الزوائد ٢٨/١ .

فإذا كان الإنسان يدعى الإيمان ثم لوحظ عليه أنه يفتري الكذب ، وأنه يتلاعب بالوعود ، وأنه يغدر بالعهود ، وأنه يخون الأمانات ، وأنه يفجر في الخصومة ، فمعنى ذلك أن إيمانه مكذوب على نحو ما قال الله جل شأنه : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ [البقرة : ٨] .

وعلى هذا النحو جاء الحديث الشريف : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (١) .

فهذا الحديث يعنى أن الأخلاق من أركان الإيمان ، ويجب أن يكون الإنسان صاحب خلق حتى يعتبر إيمانه مقبولا ويقينه ناصجا .

ولابد أيضا للمؤمن من أن يؤدي الحقوق التي كتب الله عليه وهو منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، فإذا طلبت منه زكاة رحب بما يدفع ، وإذا فرضت عليه نفقة نهض ولم يبخل ..

إن المنافقين يعتبرون الزكوات التي يدفعونها غرامة كلموا بها ، ويعتبرون النفقات المطلوبة منهم مغارم لزمتهم وهم يودون لو فرّوا عنها ، وهؤلاء يقول الله فيهم : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويترهبس بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ ثم قال جل شأنه : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ [التوبة : ٩٩] .

يعنى أن المؤمن عندما تطلب منه النفقة يذهب بها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويقول له : يا رسول الله حد ما فرض الله علينا وادع الله لنا .

(١) رواه البخارى في الإيمان — باب علامة المنافق ٥٦/١ ومسلم في الإيمان — باب من غصب المال

وكان السبي عليه الصلاة والسلام يأخذ الصدقات المكتوبة ، ويدعو لمن أداها (١) كما أمره الله بذلك : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وتوصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

والفقه إذا كانت مع إيمان ضحيم فإنها تعتبر لذة للإنسان ، وقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه — في معركة بدر — يقول للسبي عليه الصلاة والسلام : « خذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت » (٢) . هذا هو الإيمان .

أما المسافقون فإذا كانوا قد صاقوا بالنفقات فهم أبصا يضيقون بذكر الله ، وبضييقون بالصلوات ، ويضيقون بالأذان ، وأبغض الصلوات إليهم المحر والعشاء (٣) ، لأنهم يحبون أن يناموا وأن يستريحوا وأن لا يحتشدوا مع المؤمنين في هذه الصلوات الجامعة ، ووصفهم الله فقال : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

ولعل من المسافقين في عصرنا من يعلنون كرههم للأذان ومن يتحدثون عن الأذان بعصب ، ولقد رأيت ناسا يجيئون إليا في الورارة (٤) يطلبون أن لا يسمعوا أذان الفجر !!

(١) نص عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتته قوم بصلاتهم قال : اللهم صلّ عليهم ، فإنه أي أبو أوفى بصلته فقال : اللهم صلّ على آل أبي أوفى « رواه مسلم في الزكاة — باب الدعاء لمن أتى بصلته ١٢١/٣ .

(٢) رواه ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده . وذكره الأمامي في مغازيه . كما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢٦٤/٣) قال الألباني (فقه السيرة للخزالي ص ٢٤١) . وهذا مرسل ، وكذا رواه ابن أبي شيبة كما في « الفتح » (٢٣٠/٧)

(٣) في الحديث : « ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء .. » رواه البخاري في الأذان — باب فصل العشاء في الجماعة ١٦٧/١ ومسلم في المساجد — باب فصل صلاة الجماعة ١٢٣/٢

(٤) يقصد ورارة الأوقاف المصرية التي كان يعمل بها يومئذ مديرا للدعوة .

قلب لهم . وماذا ؟!

قالوا : لأنا نحب أن ننام .

قلت لكن أذان الفجر شرع حتى لا تناموا ، وقد أودع الله فيه كلمة لم تودع في الأذان بقية الصلوات الخمس ، وهي قوله : « الصلاة حرم من النوم » .

فإذا كنتم تؤثرون النوم فإن هذه طبيعة الإنسان ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (١) .

والمعنى أن الشيطان يحىء للإنسان من عند جهازه العصبي عندما يهدأ في فراشه ويستقبل النوم ، وهذا سر التعبير النوى « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » فإن القما متقى المح والمخيج وما يتصل بالجهار العصبي ، وليست — بداهة — العقد هنا عقد حبل حسي ، لا ، هذه عقد معنوية ، إن كل عقدة توغر للإنسان — وهو نائم — أن يستأنف النوم ، لأن الشيطان يهيج في نفسه يقول له : أمامك ليل طويل ، أمامك متسع للرقاد ، أمامك ما تستريح به أكثر ، وهذا كله لينيمه عن صلاة الفجر وليؤخره عن أداء حق الله .

والله لقد نظرت إلى هؤلاء الذين يعتبرون الأذان مرعجاً لهم ثم تذكرت قوله تعالى في المشركين : ﴿ وإذا ذكر الله وحده أشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ [الزمر : ٤٥] .

لم هذا ؟!

(١) رواه البخاري في التمهيد — باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ٦٥/٢ .
مسلم في صلاة المسافرين — باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ١٨٧/٢ .

كان يسقى أن يهش هؤلاء لذكر الله ، وأن يستجيبوا للنداء وهم
يرحبون بتلبية من ينمهم ومن يوقظهم ، من يميتهم ومن يحييهم ، من
يطعمهم من جوع ومن يسترهم من عرى ..

ولكن هكذا الناس في عصرنا ، يرون أن صوت المؤذن مرعج ، وأن
صوت الشيطان — عندما يقول لكل منهم : عليك ليل طويل فارقد —
أحب إليهم من صوت مبادئ الرحمن !!

كلمة « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » كلمة رؤر الشيطان
مفهوما عند كثير من المسلمين ، والغريب أنهم يدسّون أصابعهم في كتب
السنة ويستخرجون هذا الحديث دون أن يستخرجوا معه أحاديث أخرى
تسهم إلى ما يحب عليهم من سلوك وما يحرص عليهم من خطوات الكمال
والترقى ..

فقد روى : « لا يدخل الجنة قتات » (١) أى غمام .

وروى أيضا : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من
كبر » (٢) .

وروى أيضا : « لا يدخل الجنة قاطع رحم » (٣) .

وروى أيضا : « .. من غشنا فليس منا » (٤) .

وروى أيضا : « ليس منا من لم يجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا .
ويعرف لعائلنا حقه » (٥) .

وروى أيضا : « ليس منا من نحب امرأة على زوجها » (٦) . أى
أفسدها عليه .

(١) روه البخارى في الأدب — باب ما يكره من التهمة ٢١/٨ ومسلم في الإيمان — باب يك
غظ تحريم التهمة ٢١/١ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان — باب تحريم الكبر وبيان ٦٥/١

(٣) رواه مسلم في البر — باب صفة الرحم وتحريم قطعها ٨/٨

(٤) رواه مسلم في الإيمان — باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا ٦٩/١

(٥) روه أحمد ٣٢٣/٥ والطبراني وإساده حسن . كذا في مجمع الزوائد ١٤/٨ ورواه أيضا

الحاكم كما في الجامع الصغير .

(٦) رواه أبو داود في الطلاق — باب فمن نحب امرأة على زوجها ٢٢٤/٦ والحاكم في

الطلاق .. وقال في صحيح الجامع (٥٤٣٧) : صحيح

وروى أيضا « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

فَلِمَ تُسَنَّى هذه الأحاديث كلها ؟

الواقع أن هناك أحاديث لابد من ذكر ملاساتها معها حتى تفهم على وجهها الصحيح ، وحتى لا يصل المسلمون في فهم دينهم .

٢ — من ذلك ما يسميه بعض العلماء حديث البطاقة ، وفي هذا الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتتكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ يقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء » (٢)

هذا ما روته كتب السنة ، وتعليقنا على هذا أن الأمر يحتاج إلى فهم . فقد جاء رحل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أقاتل وأسلم ؟ فقال أسلم ثم قاتل ، فأسلم ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : «عمل قليلاً وأجر كثيراً» (٣) .

(١) رواه مسلم في الإيمان — باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ٥٤/١ .
(٢) رواه أحمد ٢١٣/٢ وابن ماجه في الزهد — باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ١٤٣٧/٢ والترمذي في الإيمان — باب من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله وقال هذا حديث حسن غريب ٣٩٥/٧ والبيهقي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . كذا في الترغيب
(٣) رواه البخاري في الجهاد — باب عمل صالح قبل القتال ٢٤/٤ ومسلم في الإمارة — باب ثبوت الحجة للشهيد ٤٤/٦

هذا رجل — فعلا — كان مشركا ، وأعلن إيمانه بالله ، وقاتل مع
لسي عليه الصلاة والسلام ، ومات قبل أن يصلي ، قبل أن يزكى ، لأنه
مطالبت به حياة حتى يفعل شيئا من ذلك ، هنا يمكن — فعلا — أن
يقال : إن كلمة التوحيد التي حتم بها حياته ظهرت العمر كله ، وجعلت
الرجل ينقلب إلى ربه وقد ابيضت صفحته وأصبح من أهل الجنة !!

هذا هو معنى حديث الطاقة ، أما أن يتصور المسمون أن يفسدوا
وأن يعثوا وأن يخونوا وأن يقتلوا في ظل كلمة لم يحسوا خدمتها ولا الوفاء
بها يدخلون الحجة، فهذا كلام ما قاله أحد من العلماء الراسخين أو الأئمة
المحترمين ، إنما قاه الكسالى من المسلمين يوم أصبح الكسل شيمتنا ،
وكانت نتيجة هذا التكاسل أو التلاعب أن سقطت الويثة وأن ضحك
الناس منا وحدث للأمة الإسلامية ما حدث .

قال العلماء : إن كلمة التوحيد لكي تكون صادقة يجب أن يكون
معها إيمان بأمرين وتنفيذ لأمرين :

• الرضا بأحكام الله ، وعدم الشغب عليها ، وعدم الطعن فيها ، وعدم
الاعتراض على إنفاذها .

• والجهاد في سبيل الله .

وكلا الأمرين لا بد منه للإيمان ، والله جل شأنه يقول : ﴿ فلا وربك
لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا
مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

وأما القاعدون عن الجهاد فإن القعود عن الجهاد كشف نفاقهم .
فهل يقبل — في عصرنا هذا — أن يجيء من يتنذر أو من يسخر
بأحكام الله ومن يكص ويحين عن الجهاد في سبيل الله ومن يضم إلى
حرب الشيطان معترضا على الأذان ومن ومن .. ثم يدعى بعد ذلك أنه
مسلم !؟

لا ، كفى عثا بالإسلام ، والله يقول في مثل هؤلاء : ﴿ وفر الذين
اتخذوا دينهم لعا ولها وغرهم الحياة الدنيا ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

٣ — يتصل بهذا الحديث حديث آخر في معناه ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لَنْ يُدْخَلَ أَحَدُكُمْ جَمْعُهُ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ .. » (١) .

هذا الحديث طار به أهل العفلة والسماحة والشعب على دين الله ، طاروا به في كل ناحية يقولون : الجنة شيء يساق إلى الناس هكذا دون عمل ! العمل ليس سببا في دخول الجنة !

وهذا من أكذب الكذب على الله ورسوله ، والعيب أن الإسلام يتعرض لشرحه — أحيانا — من لا عقل لهم ولا فقه لديهم .

أما أن العمل سبب لدخول الجنة ولا بد منه في دخول الجنة فهذا نص القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ، منها قوله حل شأنه في سورة الأنعام ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام ١٢٧]

وقوله في سورة الأعراف ﴿ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وقوله في سورة الحل ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الحل : ٣٢] .

وقوله في سورة الزخرف ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٢ ، ٧٣] .

وقوله في سورة الأحقاف ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٣ ، ١٤]

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى — باب ثمنى المريض الموت ١٥٧/٧ ومسلم في صفات

السائقين — باب لَنْ يُدْخَلَ أَحَدُكُمْ جَمْعُهُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ١٣٩/٨

ولو أردنا أن نسوق عشرات الآيات من مواضعها في سور القرآن مصر
على أن العمل سبب دخول الجنة لاستعرضنا القرآن كله .

قد يسأل أحدكم : فما معنى قول لرسول عليه الصلاة والسلام إذن
« لن يدخل أحدا عمله الجنة » ؟ .

والجواب أن الرسول المؤدب الكريم الرقيق المذهب يريد أن يقول
لساس : حذروا الاستكثار بالعمل ، احذروا أن تغتروا بالعمل ، احذر أن
تعمل شيئا ثم تقف بين يدي الله لتقول له : لقد أديت لك حقتك ،
وما بقي لك عندي شيء ، فعندك لي الجنة بعدئذ !! كأنها ديس عليه !!

المقصود من الحديث كسر دابر العرور وإشعار الناس بأنهم لو
قطعت رفاههم في سبيل الله فما ونوا حق الله ، العمل سبب لا بد منه لدخول
الجنة ، ولكنه ليس الثمر الحقيقي للجنة .

هذا معنى الحديث ، لأن الله يستطيع أن يقول لأي إنسان عمل
صالحا : تعال مالك عندي ؟

عبدتني مائة سنة ؟

ورقتك مائة سنة ، فليس لك عندي شيء ، أو يقول له : يكن رزقي
لك تفضلا مني ، عبدتني مائة سنة ؟ حد في الجنة مائة سنة تنعيما وتكريما
ثم أفنتك وتلاشي ولا يبقى لك وجود ، بل قد يقول الله للإنسان : لو
حاستك على ما تقدم من عمل لاستخرجت لك من الشوائب والعلل في
عملك ما يجعل عملك يرقص ، ما أرجى عمل بك بين يدي ؟ صلاتك ؟
إنك تقف مصليا بين يدي فتملأ الوسواس صدرك ، وتسرقك الشواغل من
بين يدي فتسرح يمينا وشمالا ، فلو حازيتك لعاقبتك على سوء أدبك !!

إذن الحديث لا يقصد منه مع العمل كما يفهم المعلنون ، إنما الحديث
يقول للإنسان : اكذخ ، اغرق في سبيل الله ثم قف منتفضا بين يدي الله
لأنك ما أديت حقه وهذا معنى قوله تعالى ﴿ فلذرههم في عمرتهم حتى
حين . يحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين . نساوع لهم في الخيرات بل
لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات

ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما أتوا
وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم
لها سابقون ﴿ [المؤمنون : ٥٤ - ٦١] .

إن الأحاديث النبوية تحتاج إلى أيدٍ خيرة ، إلى أصحاب بصر ،
يعرفونها ثم يصيغونها إليها ما يلحقها من أحاديث أخرى وآيات قرآنية ، ثم
تعرض على الناس ليُنتَفَعَ بها لا ليشغب بها على دين الله .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى . ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام التبيين وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ..

فإني أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الناس أنه لا يصح — في منطق عاقل أن يباع الشيء الواحد بألف جنبه وعميم ، كيف يتصور أن يباع بأعلى الأسعار وبأزهدا وأنفها ؟

إن الله عز وجل قال : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة : ١١١] .

فإذا كان قد باع الجنة بالنفس والمال فأى ثمن هذا ؟
إنه ثمن كبير ، وإن كان المؤمنون قديما قانوا : نحن الراجحون ، فإن النفس هو حالقها ، والمال هو رارقه ، هو أولى بنا منا ، فإذا أخذ ما يملك ومنح الجنة نظيره فنحن الراجحون .

على أى الأحوال النفس والمال ثمن الجنة فى الآية ، فهل يتصور أن تباع الجنة بالنفس وبالمال ثم يأخذها أحد الكسالى بكلمة ما فكر فيها ولا أدى حقها ولا عرف معناها ولا طهر نفسه بسناها ؟

هذا مستحيل ، ينبغي أن نعقل فإن الإسلام تأبى عليه أعداء
لا ينامون من كثرة النشاط ، لا يستبقون لأنفسهم شيئا من كثرة
التضحيات ..

اجتمع يهود العالم ، الأعياء وأعطوا ألوف الملايين في ساعة من
الساعات ، فإذا كان أعداء الإسلام يتنازلون — من ثرواتهم — عن ألوف
مؤنفة من الملايين وأبناء الإسلام لهم أرصدة هائلة رهية تُشغل العالم
الرأسمالي وهم يضررون بالعطاء منها في سبيل الله فكيف يعتبر أولئك مؤمنين
بسلوك الإسلام ويعتبر هؤلاء كفارا يساندون الشيطان ، ثم يتطرأ أن
يتنصر الحيل بنفسه الحيل بماله على المتطوع بماله المخاطر بنفسه ؟

هذا مستحيل ، ينبغي أن يعرف المسلمون من أصحاب المال البطائل أن
الذى عرض عليهم الإسلام يطلب منهم أن يعقوا أكثر مما يمسى الكفار في
سبيل الشيطان ، أما أن نخل ونخن ونعش ، أما أن تخرج الأمور من بين
أيدينا مضطربة ثم يرغم المسلمون أن الحية حكر عليهم فهذا كذب على الله
الذى يقول للمسلمين : ﴿ ليس بآمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل
سوءا يجزيه ولا يجدي له من دون الله ولما ولا نصيرا . ومن يعمل من
الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا
يظلمون نقيرا ﴾ [النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عاد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم في الذكر — باب الصوم من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨٩

الإسلام والمتغيرات الدولية

خطبة عيد الفطر المبارك

بِسَاحَةِ مَسْجِدِ مُصْطَفَى مُحَمَّدٍ

في ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الحمد لله ذي الحلال والإكرام والعزة التي لا ترام .

﴿ غافر الذنب وقابل الحرب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ [غافر : ٣] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرِهِ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

كُلُّ شَيْءٍ هُوَ خَالِقُهُ ، كُلُّ شَيْءٍ هُوَ رَاقِعُهُ ، كُلُّ نَورٍ هُوَ مَشْرِقُهُ ..
سُبْحَانَهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ ، سُبْحَانَ كُلِّ شَيْءٍ بِحَمْدِهِ ، وَخُضُوعِ كُلِّ شَيْءٍ لِنَجْدِهِ ،
وَاحْتِجَاجِ كُلِّ شَيْءٍ لِعِطَائِهِ وَرِفْدِهِ ، سُبْحَانَهُ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ .. ﴿ ٥ 〉 فَلِلَّهِ

الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء في
السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ [الجاثية : ٣٦ : ٣٧] .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، خيرة الله من خلقه ، وصفوته من
عباده ، أمير الأنبياء ، أول خلق الله ديناً .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد

فنحن الآن نلقى نظرة إسلامية على أحوال أمننا وامتعيرات العالمية
حولنا ، وهي نظرة نستبهم الله فيها برشد ، ونسأله أن يعيننا على الصديق ،
وأن ينفعنا بالعبرة التي ينبغي أن يستخلصها من هذا كله .

وقل أن أخوض في بعض العناوين التاريخية أحب أن أقول للناس
كلهم : إن الإسلام دين يقوم على الإقناع الحر والدعوة المحردة ، لا يعرف
ضغطاً ولا إكراهاً لا مادياً ولا معنوياً ، إنه يعرض ما عنده ، ويترك لدوى
الألباب أن يتحيروا ما شاءوا . وفي حماس العرض قد يكون الإنسان شديد
اللهجة قوى البرة ، ولكن الله يقول لسيه ﷺ وهو يعرض ما عنده :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس
حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : ٩٩] .

وليس هذا حكراً على دين محمد ﷺ بل الأديان كلها منذ بعث نوح
عليه السلام ترفض الإكراه وتقوم على الدعوة المحردة ، ولذلك يقول نوح
لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بية من ربي وآتاني رحمة من عنده
فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ [هود : ٢٨] .

منذ بدأ محمد ﷺ دعوته ما أكره أحداً على الدخول في دينه
ولا عامل حصومه إلا بالبر والقسط . ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين
الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴿ [البقرة ٢٥٦] .

على هذا الأساس بدأت دائرة الدعوة الإسلامية تنداح في جزيرة العرب ، ودخل عرب الجزيرة في الإسلام بعد عشرين سنة وهم داخرون يعلمون أن الحرية الدينية وحدها هي الباب الذي دخلوا منه في هذا الدين العظيم ، ولكن العالم من حول الجزيرة لم يعامل العرب بالإصاف ولا بالقسطاس ، بل وحدها شيئاً آخر ، فإن الدولة الرومانية - وكانت الدولة الأولى في العالم يومئذ - بعد أن انتصرت على المرس في معركة هائلة استردت فيها الصليب الأعظم وفرصت سلطانها على الدنيا - أبت أن يأخذ الإسلام منه ، فحاصرت جزيرة العرب من الشمال .. ويقرأ المسلمون التاريخ - ولا أدري أيقروونه بعقل أم يرددون كالسعاوات ما سطر التاريخ لهم من وقائع - وفيه أن الرومان رفضوا أن تنطلق الدعوة الإسلامية من جزيرة العرب ، وأنهم أرسلوا جيشاً هم من نحو مائتي ألف مقاتل لقتال المسلمين في « مؤتة » وأرغمهم على الاسحاب جنوباً - ومؤتة في جزيرة العرب تساوى « بنها » مثلاً أو « طيطا » في مصر .

يقول للرومان : من جاء بكم من قارتكم إلى داخل جزيرة العرب تقاتلون الإسلام وتقتلون القادة الثلاثة لهذا الجيش ؟ جاءهم الطغيان والتعصب ، ثم انطلق المسلمون يثأرون لأنفسهم ويمدون دعوتهم وذهبوا إلى « تبوك » وتراجع الرومان قليلاً كي يلتقطوا أنفاسهم ويجمعوا قواهم ، وهو حىء المسلمون بأن النبي ﷺ قد مات ، ولكن حلفاءه رضى الله تعالى عنهم مضوا في نفس الخطة وقاتلوا الرومان لماذا قاتلنا الرومان ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] فهل نفرص الإسلام على الناس ؟ .

لا ، لا ، لا ، قال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليّ البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

أنا أعرض الدين - كما يعرض الناس الأرباء - وأقول للناس :

هل يعحبكم هذا الدين ؟ فإن أعحبهم ودخلوا فيه فأنا أح لهم وهم إخوة لى ، وإن قالوا : لا يريد دينك ، اشبع أنت به ، أقول لهم : أطلب منكم أمرين :

الأمر الأول : هل تتركونى بديى دون فتنة ؟ .

الأمر الثانى : هل تسمحون لى أن أعرض الدين على غيركم ؟ .

فإن قالوا : نعم . قلت لهم كما أمرنى الله : ﴿ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يقاتلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٠] .

أما إذا قالوا : إن نطقت بكلمة تدعو بها إلى الإسلام أغلقنا فمك بالسلاح ، وإذا دخل أحد فى الإسلام عذبا حتى نرده ، ضريت الحرب بينى وبينهم ولست معتدياً ، إن قتال الاعتداء لا يعرفه ديننا أبداً : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

فماذا يصنع إذا كان عبرتنا يريد فتناً ، ويريد إغلاق أمواتنا ، ويأبى أن يترك الإسلام بالقلم واللسان يتحرك ؟ .

أوجه النظر إلى أمرين :

« إن محمداً ﷺ رحمة للعالمين .

« لقد كان الاستعمار الرومانى يصطط بصدرة الثقيل على جريرة العرب وعلى وادى النيل وعلى الشمال الإفريقى وعلى آسيا الصغرى ، فإذا كان الإسلام قد قاتل الاستعمار الرومانى وأطلق الشعوب السجينة من سجنها الكبير وأعطاها الحرية فهل يلام لأنه حرر الشعوب ؟ .

الحقيقة أن الإسلام - بالفتوح التى قام بها - حرر شعوباً كانت سجيئة ، ورفع رؤوساً كانت ذليلة ، بل إن الأقباط فى مصر استقبلوا الفاتح المسلم ببشاشة وحفاوة لأن الاستعمار الرومانى كان قد عزل البطريك وقتل أخاه حرقاً ثم رمى بجثته فى الإسكندرية على شاطئ البحر ، ففرح الأقباط

بدخول الإسلام لأنه دخل محرراً مقررأ حرية الدين ؟!

إننى أقول عملء فمى وأقول بفخر واعتزاز نحن مسلمين ابتدعنا الحرية الدينية فى الأرض ، وما كانت أوربا تعرفها ، بل يعرف العالم كله أن الكاثوليك فى فرنسا - منذ قرين اثنين - أوقعوا مذبة بالبروتستانت قتل فيها ثلاثون ألف بروتستانتى فى مذبة « سان بارثلميو » (١) وهى مذبة هائلة عندما وقعت فرح الفاتيكان بها وصك بقوداً تحليداً لذكرها .

هذا عمل لا يعرفه الإسلام فى تريحه أبداً ، نحن ابتدعنا حرية الرأى وحرية الدين ولا نزال حراس الدين الحر ..

لكن أوربا بعد خمسة قرون عادت مرة أخرى فأعلنت علينا حرباً صليبية ظلت ثلاثة قرون بعد أن جرت إليها الشر ، والاريخ الأوربى يقول : إن إسقاط بغداد كان فى معركة تترية صليبية ، وسقوط بغداد كان سقوطاً رهيباً .

والثلاثة قرون التى هوجمت فيها الأمة الإسلامية شهدت ثمانى حملات صليبية ، وأكتفى فى تلخيص هذه الحملات بكلمات لـ : « فيليب حتى » .. وهو مستشرق مارونى أمريكانى - قال : فى القرن الثانى عشر من الميلاد كان كل شىء يؤد بروال ديس محمد ، فقد بحح الصليبيون فى اكتساح فلسطين ، وتسلبوا ودخلوا مصر ، وتسلبوا يبتعون طريقهم إلى الحجار ، وبحح التتار فى إسقاط بغداد ، ويوشك أن تنقى دراغا الكماشة على العالم الإسلامى فيموت !! .

لكن المسلمين إبان الأزماات العصوص وأيام الضوائق المهلكة يتجمعون على ديبهم ويتساندون على صفوفهم ، ويكوبون حبة تستमित فى الدفاع عن موروثاتهم وعقائدهم ..

(١) مذبة سان برثلميو . مذبة دامية حرت فى يوم عيد القديس برثلميو بباريس عام ١٥٧٢ دبرتها الملكة الأم كاترين دى ميديشى ضد البروتستانت واشترك فى تدبيرها دوق أنجو ودوق جبر وراح صاحبها أعداد كبيرة من الفرنسيين البروتستانت بلغ عددهم نحو ٣٠ ألفاً بعضهم فى باريس ومن بهم الأموال كولى .

ولذلك يقول « فيليب حتى » : فلما جاء القرن الثالث عشر للميلاد كان هناك سؤال آخر : هل سيقف شيء أمام دين محمد !! .

استعاد المسلمون بيت المقدس ، ودخل التتر في الإسلام ، وجاء القرن الثامن المحررى والأمة الإسلامية قد غسلت أرضها غسلًا من بقايا الصليبية الزاحفة ، وبخا المسلمون من البلاء الذى أريد بهم .

أكما نحن فى هذا معتلين ؟ .

عُربا فى عقر دارنا ، قتل التتر مليونى شخص فى بغداد ، اسودَّ النهر مرة بالكتب التى أُلقيت فيه ، واحمرَّ مرة أخرى بالدماء التى سالت إليه !! .

حدث للأمة الإسلامية ما حدث ، ثم شاء الله أن يقود الأتراك العالم الإسلامى فتأروا ما حدث وأسقطوا عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، ونجهوا فى غرب أوربا حتى وصلوا إلى « فيينا » وظفوا نحو أربعة قرون يقاتلون على هذا الأساس .

لكن الذى حدث بعد ذلك - وتلك الأيام نداولها بين الناس - أن الأوربيين استردوا أنفاسهم وهجموا مرة أخرى ، وسقط العالم الإسلامى بقضه وقصيصه .

لكن هذا العالم الإسلامى - كما قلت - مرن على أن تُجتاح أرضه ثم يلتقط أنفاسه ويصطلح مع ربه ويعود إلى قواه ، وبدأنا فعلاً بحروب تحرير انتهت بأن مصر - والله المنة - تحررت وأن العلم الإسلامى انتشر فى بلاد كثيرة واستقلت أرضون كثيرة منه ، فماذا حدث ؟ .

حدث زحف آخر ، فإن الصليبية العالمية اصطلحت مع الصهيونية العالمية وأسست دولة إسرائيل على أكبادنا وأنقاضنا ، ورضى المظلوم ولم يرض الظالم ، ورضى المقتول ولم يرض القاتل ، ورضى المعتصّب المسروق ولم يرض السارق المعتصّب ، وأنى أن يترك للعرب مكاناً يعيشون فيه ثم قال نريد إسرائيل الكبرى ، وقبل أن أحدد ما هى إسرائيل الكبرى أقول لكم :

إن هناك قساوسة انجيليين في الولايات المتحدة الأمريكية - والولايات المتحدة الأمريكية فيها نحو أربعين مليون كاثوليكى - يقولون : إنه لابد من أن يدخل اليهود الأرض المقدسة أرض الميعاد وأن يقيموا دولة هم ويجب أن نتظر مسيحهم ، بل إن قسيساً اسمه . « إيفار » ومعه نفر من القساوسة أقنعوا مجلس الشيوخ والنواب في أمريكا بأنه لابد من أن تكون القدس عاصمة لإسرائيل !! .

ولذلك تحول تسعة أعشار أعضاء مجلس الشيوخ والنواب إلى دراويش للصهيونية العالمية ، بل قرروا الإيمان بالمسيح اليهودى ، أتعرفون من المسيح اليهودى ؟ إنه المسيح الدجال الذى حُدرنا به ومن فتته ، لقد آمن به دراويش مجلس الشيوخ ومجلس النواب الأمريكى قبل أن يظهر المسيح الملعون الإله الأعور الذى سيجيئ إلى فلسطين ويحاول العث بالمقدسات !! .

على كل حال إن الحركة الآن تتجه إلى أن إسرائيل الكبرى - كما فى العهد القديم (١) - من الفرات إلى النيل ..

ومعنى هذا أن إقامة إسرائيل الكبرى يجب أن تحتاج فى فضائها الجوى وامتدادها الدينى مصر والعراق واسعودية والأردن وسوريا وسال وفلسطين !! .

ومعنى هذا أيضاً أن المعركة التى يريد اليهود فرصها معركة ديسية ، إذا مححوا فيها هلكنا جميعاً ، وإذا هلك العرب هلك المسلمون من بعدهم !! .

أنا أعلم أن رؤساء العرب كلهم لا يريدون المعركة لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية ، ولكنى أقول : إن المعركة ستعرضها إسرائيل عينا شئنا أم أبينا !! .

فماذا نصنع ؟ .

(١) فى سفر التكوين - الإصحاح الخامس عشر : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً : لتسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات .

يجب أن تسد الفجوات بين الحكومات العربية كلها ، يجب أن يصطلح العرب وأن يكونوا أسرة كأ أسرة أوروبا العربية ، لا بد أن نردم الفجوات بين الدول العربية ، يجب أن ينسى السوريون ما صنع العراقيون وأن ينسى العراقيون ما صنع السوريون وأن ينسى المصريون ما صنع غيرهم ، يجب أن نتلاحم وأن نكون أمة واحدة .

هذه واحدة ، ويجب أن يتحرك الإسلاميون حركة تقريب ، وأنا أول من يتنازل عن حقوقه لدى من أساءوا إليه ، أنا أريد أن يتصافح الإسلاميون وأن يتعاونوا ، وأريد أن لا تكون بين الشعب وبين حكومته فجوة أو حصة أو حصومة .

إن هذه الفجوات والحفوات هي التي سيتسلل منها الزحف اليهودي لإقامة إسرائيل الكبرى ليطحس الحيل المحاصر والحيل القادم على سواء .
إننا يجب أن نطرح الحصومات والعداوات تحت أقدامنا ، يجب أن نعلم أن الأمة الإسلامية في خطر داهم .

إن الرئيس الأمريكي « بوش » يقول : أنا فرح لأن القدر اختارنا لنشهد الخروح الكبير من روسيا إلى فلسطين !! .

إسا أيها الإحوة عافلون ، إن بواعث ديبية رهيبة وراء العداوات التي تبيت الشر لمستقبلنا والظلام لحاضرنا ويومنا وعدنا .

إسا يجب أن يصطلح وأن نتعاون وأن ننسى الحصومات وأن نتآخي وأن نتدارس كيف تنتهي هذه المحنة وكيف تتلاشى هذه المآسي ، يجب أن يتحرك المسلمون حركة تقارب وتعاون وتآح ، لا بد من هذا وإلا صيغنا .
أقول قولي هذا وأستعفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، موفق أعمالين ، وناصر المتقين ، الله أكبر ،
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
الله أكبر ، ما دار في فضائه فلك ، الله أكبر ما مسح بحمد الله بشر أو
ملك ، الله أكبر ما بسق في حقله نبات ، الله أكبر ما اهتز في مهده طفل
يشد الحياة ، الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر والله الحمد .

وأشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمداً رسول الله .

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد :

أيها الإحوة . انتهى رمضان ، وأنا غير راض على الطريقة التي انتهى بها
رمضان ، والله لقد أكلنا كثيراً ، وما كان ينبغي أن نأكل كثيراً فإن رمضان
شرع للصيام لا للطعم ، والله لقد سهرنا مع ليل سحيقة فيها هزل وهلو
ولعب وما كانت ليالي رمضان إلا للقيام .

ورداً كنت أودع رمضان فإني أقول للمسلمين بيتين قيل إلهما للإمام
الشافعي وقبل أن أذكرهما أذكر هذا التمهيد لهما :

الأعمال قسمان : أعمال قلوب وأعمال جوارح ، وقد اتفق علماء
الإسلام على أن أعمال القلوب أحقر من أعمال الجوارح ، أعمال القلوب
هي الأساس ، وأعمال الجوارح هي شيء ثانوي ، معاصي القلوب هي
الهلاك ، ومعاصي الجوارح هي شيء ثانوي ، معاصي القلوب مثل الكبر
والرياء والحسد والحقد ، ومعاصي الجوارح مثل السرقة والبطرة والديثة .

يقول الإمام الشافعي :

وذرة من القلب السعوى من الرضا والصدق والتوكل
أثقل عند الله من جبال شمعن من ظواهر الأعمال

* * *

درة من عمل القلب القى الطيف البرىء الذى يستهدف وجه الله
أفضل من حال من الأعمال التى يقوم بها البدن فى غيبة القلب . وأنا فى
الحقيقة - لو يُسمع لقصير أمر ، وأنا قصير ، لألغيت الأعياد فى العالم
الإسلامى كله وقلت بها الشعائر الدينية فقط ، أى أعياد والقدس ليست
بأيدينا ؟ .

كان صلاح الدين مكشاً دائماً الحزن قيل له : ما أحزنك ؟ قال :
كيف أفرح ويسمى المقدس فى يد الصليبيين ؟ .

أطفال الانتفاضة يتصورون من الجوع ، مسلمو أفغانستان يقاتلون
وهم يتعرضون للتصور والعري ، فما الذى يُفرح المسلمين حتى يعيدوا
ويطُّلوا ويرموا ؟ والله هذا حراب قلوب !؟ .

حدوا من الأعياد الداحية الدينية فقط ثم قولوا : لا عيد لنا حتى نطهر
الأرض من وسخ أرسا وأهال ديسا وأسقط رايتنا وجعلنا نعيش غرباء فى
هذا العالم !؟ .

إسى أطلب من المسلمين أولاً أن يصحوا ذات بينهم ، وثانياً أن
يجمعوا حكومات وشعوباً حتى يدرسوا كيف يغيرون عاداتهم ، وكيف
يعيرون تقاليدهم ، وكيف يعيرون أحواضهم ، وكيف يستعدون لعدو قرر
دحهم وهو ينتظر اوقت المناسب لتنفيذ ما قرره ، كأنه حكم عليها
بالإعدام وهو يسطر اليوم امدى ينفذ فيه هذا الحكم ، أنام ؟ أسهو ؟
أصحك ؟ أتحاصم ؟ أتهرق ؟ أخرى وراء القضايا الصغيرة ؟ أحتاج
للأمور التافهة ؟ .

يا إخوانى يجب أن نغير أحوالنا وأعمالنا ، وأما كإنسان مسئول عن
الداحية الدينية سأقنع إخوانى الإسلاميين أن يلغوا ما بينهم من فروق وأن
يتعاونوا على لبر والتقوى وأن يقولوا كما قال المجتهد الأول : رأى صواب
يحمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحمل الصواب II .

وأقول للحكومات العربية كلها : تأخوا ، تعاونوا ، النصقوا
بشعوبكم ، هذا هو المستودع الذى تأخذون منه الرجال ، إن المتدينين

المتحمس هو الذي سيقتل الصهيوني الذي يريد قتلى فاستفحوا به
ولا تحرقوه !! .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الْأَنْعَامِ"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه

٨ / ١٢ / ١٩٧٢ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد قرأت سورة الأنعام قراءة عامة ، ومسَّرتُ حُملها تفسيراً فيه شيء من الأناة ، ثم رأيتُ - في هذه الخطة - أن أعرض بعض الملاحظات العام التي استشعرتها وأنا أقرأ السورة وأفسرها . وسورة الأنعام يمكن أن تسمى سورة « العقائد » لأنها تحدثت عن أصول الإيمان وأوضحت معاهد الحس والقوة في شعبه المختلفة ، وأسبغ أسوره في ذلك كأسلوب القرآن كله

في الحديث عن الله جل شأنه ، والحديث عن الله في الكتاب العزيز بعيد عن
تقعر الملائمة وعن تعقيداتهم في قصاياهم المختلفة .

حديث القرآن عن الله تعريف للشر يقوم على السهولة في العرض
وعلى توجيه الأنظار إلى ما في صحائف الكون من آثار تدل على الخالق ببارك
اسمه .

ولذلك بدأت سورة الأنعام بشرح سهل ﴿ الحمد لله الذي خلق
السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الدين كفروا بربهم
يعبدون ﴾ [الأنعام : ١] .

الله جل شأنه هو الذي أوجد المكان والزمان ، خلق الأرض وخلق
حولها الظلمة والضوء والليل والنهار !!

ومضت السورة — في حديثها عن الله — تشرح روائع آياته في
ملكوته ﴿ إن الله فائق الحب والوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت
من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكناً
والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [الأنعام ٩٥ ،
٩٦] .

والسورة — أحياناً — تتحدث عن المولى جل وعز بصميم العائب
وهو حاضر دائماً ﴿ وهو الذي جعل لكم اللحوم لتتدوا بها في ظلمات
البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أشاكم من نفس
واحدة فمستقر ومستردع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي
أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج
منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أغناب
والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في
ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [الأنعام ٩٧ - ٩٩] الحديث عن الله
حديث يُعرف الناس ربه تعريفاً سهلاً سمحاً بعيداً عن صياغة المنطق
المتكلف وعن غموض الفكر الفلسفي الذي يصيق جمهور الناس به .

ومع أن أسلوب القرآن سهل سمح فإن حقائقه العقبية فوق الريبة ، وقد تحدثت السورة عن الله ، ثم تمت العكرة لوصيعة - التي شاعت قديماً ولا تزال تشيع إلى الآن - عن أن لله ولداً أو ابناً ﴿ بديع السموات والأرض ألى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿ [الأنعام : ١٠١ - ١٠٣] وسورة الأنعام عرضت عقائد من حلال المصرة التي أحملتها الآن ، بيّنت أن أصحاب الحق عندما جاءوا للناس به يسطون حقيقتهم ويقررون أدلته اعترضتهم حمهير من الناس أنبت اتصال وأبست إلى الباطل يقوده صواعيت ممن يستمدون حاههم أو سطوتهم أو سلطتهم من هذا الباطل المستقر ، ولذلك يجادلون عنه ويقاتلون دونه !! .

ومن ثم وقع صراع بين الحق - يمثله الأنبياء ومن على أقدامهم من الدعوة - وبين الباطل - يمثله شرادم من الجهلة ومن على رأسهم من الطواغيت والفراغة والفجار !!

وقد أشارت السورة إلى ملاح هذا الصراع ، ونحن عندما نتبع هذه الملاح نستعيد أدباً وقيماً نحن بحاجة إليهما !! قال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿ [الأنعام : ١٠ ، ١١] .

وفي الوقت الذي يهدد فيه الصالحين ويقول لهم : التفتوا إلى مصابر من سقكم ، يقول لأهل الحق لا بد أن تصبروا على تكاليف الدعوة وأن تؤدوا صرية ليقين وما نستتبعه هذه الصرية من بصحيات وآلام ، ويوجه الكلام لسيد الرسل وحامل نواء الحق من بدء الخلق إلى نهايته ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ [الأنعام : ٣٤]

لكن كيف ستدور المعركة بين الحق والباطل ؟ .

أهل الحق — أحياناً — يداخلهم شيء من العرور أو لعلهم يتصورون أنهم ما داموا يساندون الحق فإن مرسل الحق ومزله لا بد أن يرل نصره على أهل الحق ولو فرطوا ، أو لا بد أن تكون هناك حوارق عادات وأن تكون هناك أمداد غيبية غير متوقعة تنصر الحق !! وربما كان هذا التفكير سبباً في أن يتهاون أهل الحق في نصرته منتظرين من ظروف عارضة أو من قوى معيبة أن تقوم عنهم بتنظيم فرطوا فيه أو بإعداد يكلوا عنه أو بقوى لم يحسنوا استجماعها أو استكمالها !! .

وهنا يؤدب القرآن المؤمنين على لسان خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ [الأنعام : ٥٠]

والمقصود من هذه الكلمات أن يجتهد المؤمنون ، وأن يذلوا قواهم كلها وألا يتوقعوا نصراً يجيئهم مع تفريط ..

والذي يرقب المعارك بين المحقين والمبطلين — إلى يومنا هذا — يرى أن أتباع الإيمان إلى الآن ما يحسون خدمته بالأساليب التي تُخدمها في الدنيا المباديء والعقائد !! ما يزال المبطلون يتجمعون على باطلهم ، وما يزال المحقون يتفرقون حول حقهم !! .

نحن بشر ، وينبغي أن نخشع في معركتنا كل ما يطيقه البشر دون انتظار لشيء ، فإذا أدينا ما علينا وكان ما أديناه — بطبيعته — قاصراً دون بلوغ النصر فإن نصر الله يجيء حتماً ما دما قد أدينا كل ما طلب منا !! وكيف يجيء النصر ؟ إن الله عز وجل يبين أنه أحياناً يُصيح الناس على لُهب الأحداث كما يُصج الطعام أو كما ينصح الررع تحت هب الشمس أو لُهب النار ، قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ [الأعراف : ١٣٠] .

وفي سورة الأنعام — هنا — يقول لنا كلاماً يحتاج إلى بيان ، وبيانه

— أولاً وقبل أن يقرأه — أن الناس يستكبرون إذا أُلِّموا حالة معينة بقيت لهم يستمتعون في طلبها ويتعودون النعم في بحبوحتها ، ولقد شعر النبي عليه الصلاة والسلام بأن ضلال قريش وصدودها عنه يرجعان إلى أن قريشاً عاشت في شبع وفي أمان وأن الشيع أعراها بالكبر وأن الأمان أغراها بالعدوان ، إذن لو تغيرت حالها فإن طغيانها وعدوانها ينحسران ، ولذلك دعا عليه الصلاة والسلام عليهم بهذا الدعاء : « اللهم أعني عليهم بسِّع كسْبِهم يُوَسِّفُ » (١) أي سبع سنوات عفاف تجعل كبرهم يَكسر ، وغرورهم ينحسر ، ويتواضعون لله ، ويفتحون قلوبهم للحق الذي رفضوا أن يستمعوا إليه وقالوا لصاحبه ما قالوا

لا بد أن يفاوت القدر في أحوال الناس بين الخير والشر ، والحلو والمر ، والنصر والهزيمة لأن الأمر كما قال رب العالمين : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] وتصريف أحوال الناس من سلم إلى حرب ومن شدة إلى رخاء ومن نصر إلى هزيمة إنما هو تقليب لهم وغمز لأدمغتهم وبواصيهم حتى تتحرث إذا حمدت ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ • فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ • فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعام : ٤٢ — ٤٥] .

إن الله تبارك وتعالى يقب الأُم بين الأزمات والرخاء حتى تتذكر ، وربما مكر بالظلمة ووسَّع عليهم كما يُسَمِّن الخروف حتى يُذبح ، وعندما يَسْمُون وينتفخون وَيَعْتَرُونَ يقطع دابرهم ويعلم أن الحمد لله رب العالمين !! لكن قد يطول المدى ، ومع طول المدى نجد أنواعاً من النفوس

(١) رواه البخاري في التفسير — سورة الدخان ٦ / ١٦٤ ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار — باب الدخان ٨ / ١٣٠ ، ١٣١

لها منطق متغاير ، لكل نفس اعتراضها وسؤاها وموقفها : هناك نفوس تستعجل ، وأولئك المستعجلون ذهبوا إلى النبي ﷺ — من باب الهرء أو من باب الكفر — وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُهد فيهم وعيد الله ، وكان الخواب الإلهي على لسان النبي ﷺ حاسماً : ﴿ قل إني نهي أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴾ . قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ . قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ [الأنعام : ٥٦ — ٥٨] .

وهناك نفوس أخرى قد تستعجل أو قد تتردد أو قد تستطيل مراحل الطريق فتفر في أوائله ، وفي هؤلاء تسمع قوله تعالى ﴿ قل أندعو من دون الله مالا يفعنا ولا يضرنا ويرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى انشأ ﴾ [الأنعام : ٧١] لكنه لا يحىء ، ضل وراغ ، فليضل من يضل ، وليؤمن من يؤمن فإن كل إنسان سوف يحى ثمة كدحه المادي والأدبي على سواء

ملاحظة أخرى في العلاقة بين الحق والباطل يمكن أن تنصم إلى هذه الملاحظة وهي أن الله عز وجل — في سورة الأنعام — حرّك الفكر البشري النائم لأن بعض من تُحذرت عقولهم بتقاليد بالية جاعوا إلى السبي عليه الصلاة والسلام يطلبون منه بعض خوارق العادات كي يؤمنوا : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ [الأنعام : ٨ ، ٩] مرة أخرى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠] إن الخاصة الأولى للإسلام أنه دين أقام تعاليمه على عظمة الفكر البشري وعلى عظمة العقل الإنساني ، ولذلك

فإن جميع خوارق العادات التي وقعت للنبي عليه الصلاة والسلام أعطيت
مرلة ثانوية لأن المعجزة الكبرى للنبي عليه الصلاة والسلام هي القرآن
الكريم ، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « ما من الأنبياء من
نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي
أوتيت وحياً أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم
القيامة » (١) .

لقد قرأت سورة الأنعام وتأملت في معانيها ومسايقها وشعرت بأن هذا
القرآن العظيم مشحون بالهدايات العميقة ، مليء بالعبر المذكّرة ، مليء
بالقوى المصحرة لطاقات الأمم لو أن الأمم استمعت ووعت !!

وتحتم السورة بهذه الكلمات تنمة للأقوال (٢) الأربعة والأربعين :
﴿ قل إنني هدايتي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما
كان من المشركين ﴾ . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب
العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ [الأنعام :
١٦١ — ١٦٣] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن — باب كيف كان نزول الوحي ٦ / ٢٢٤ ومسلم في الإيمان
— باب وجوب الإيمان برسالة نبي محمد ﷺ إلى جميع الناس ومسح الميث عنده ١ / ٩٢
(٢) تكررت كلمة « قل » في السورة أربعاً وأربعين مرة .

الخطبة الثانية

الحمد لله .. الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لم عذاب شديد ﴿ [شورى . ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن خمسين طائفاً من كنية الشريعة — آتاهم الله رشدهم ، وسدد خطوهم ، وبارك عملهم — جاءوا إلى المسجد اليوم وقاموا فيه معسكراً لتنظيمه ، وأخذوا فعلاً يجمعون القمامات ويريلون الأتربة ، ويحاولون أن يوفروا بيت من بيوت الله بعض ما يجب له من توقيير وكرامة ، ولكن جهودهم قاصرة حتماً !! لماذا ؟ لأنهم يعملون داخل إطار صيق فرض عليهم !! هذا الإطار الصيق هو التعليمات التي وصعتها مصلحة الآثار !! وأنا في الحقيقة لا ينقصني عحي من مصلحة الآثار في مصر ، فإن المحاري طافحة في صحن المسجد ، فهل المحافظة على طفح المحاري بعض ما تعمل له مصلحة الآثار في مصر ؟! لو كان هذا الأثر أثراً فرعوياً لجمعت له الأموال من كل مكان للمحافظة عليه !! ولكنه أثر إسلامي فلا حرج أن تطفح المحاري فيه ! .

ما فكرت مصلحة الآثار يوماً في أن تأمر بإعلاء أرض المسجد حتى يقطع هذا الطفح المؤذي ! .

والمشكلة في بلدنا يجب أن تُعرف بصراحة، إنني لا أحسن العموض ، إن إضاعة هذا المسجد وتحقير عمل ما تقرُّ به إلا عيون الاستعمار العالمي ، والدين يستقون هذا المسجد على هذا النحو قد يكونون مصري الجنسية

ولكن قلوبهم إما أن تكون شيوعية أو صليبية استعمارية ، لأنه ما يمكن أن تكون المحافظة على بقاء المخاري في المسجد عملاً تحافظ عليه أو تتشبه به مصلحة الآثار في مصر .

« اللهم أصلح لنا دينا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديننا الذي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [الحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التهود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨ / ٨١

أولوا الأبواب في القرآن الكريم

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، لرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، ولسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن العقل أنفس مواهب لرحمن عند الإنسان ، به يقدر الإنسان أن يعرف النافع من الضر والخس من الفبيح والخطأ من الصواب والسفاه من الرشده .

وقد وردت في القرآن الكريم نحو ثلاثمائة آية تتحدث عن العقل ووظائفه وطرقه في الفهم والاستنتاج والحكم .

لكي إذا كان العقل مناط التكليف بالإيمان والإحسان والعدل والرحمة فإن هذا هو العقل الذي يمتاز به الإنسان على الحيوان وهو لعقل الكلي لكامل

هناك ما نسميه بقصاً في العقل أو ما نسميه جنوباً جزئياً وهو حلل في التفكير ينتشر بين كثير من خلق الله .

عندما أمر الناس بالتقوى وأنا فاجر أو عندما أمر الناس بالرحمة وأنا فاس أو عندما أمر الناس بالسماحة وأنا متعصب فإن هذا شيء يدل على صرب من الحلل يحب أن يعالج بالتذكير واهداية ، وهذا سر قوله تعالى :

خطب الغرالي مجلد الثاني

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٤٤] .

كأن هذا التصرف جنون جرنى يقال للإنسان معه : ألا تعقل ؟ تأمر الناس بالبر وأنت بعيد عنه شارد عن طريقه ؟ من عجائب لغتنا أنها سمت العقل بأسماء عجيبة :

سمته « انتهى » (١) والى جمع نهيه كأن وظيفة العقل أن يهوى الإنسان عن الإسفاف .

وسمته « الحخر » (٢) كأن وظيفة العقل أن يحجر على الإنسان إذا ضل وتصرف تصرفاً عابثاً حتى يكف عن عبثه

وسمته « العقل » لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ، لأن العقل هو الذى يقيد الإبل والدواب حتى لا تشرذم وتنطلق على غير هدى فالعقل فى ديسا كما هو أصالة فى فهم الحقائق فهماً سليماً فهو كذلك أساس فى زجر الإنسان عن الاضطراب والموضى إذا رعب فى الاضطراب والموضى .

وقد رأيت وأنا أتلو القرآن الكريم أن هناك كلمة تستوقف الأنظار وينبغى أن نثريث طويلاً أمامها وهى كلمة « أولى الأبواب » ومعناها أصحاب العقول ، كأن اللب هو العقل أو العقل هو اللب وما عداه قشر يطير مع الريح لا وزن له .

تكررت كلمة « أولى الأبواب » ست عشرة مرة ، ونحن الآن نستعين ربنا لنقف وقفة عملى أمام كل مرة وردت فيها لنشدها ونستوعب معناها ونندخره فى نفوسنا .

وردت كلمة « أولى الأبواب » ثلاث مرات فى سورة البقرة :

(١) وفى التثريب العرير : ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ (طه : ١٢٨)

(٢) وفى التثريب العرير : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ (الحجر : ٥) .

المرّة الأولى :

﴿ ولکم فی القصاص حياة یا أولى الألباب لعلکم تتقون ﴾
[البقرة : ۱۷۹] .

المرّة الثانية :

﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرص فیہن الحج فلا رفت ولا فسوق ولا جدال فی الحج وما تفعلوا من خیر یعلمہ اللہ وترودوا فإن خیر الزاد التقوی واتقون یا أولى الألباب ﴾ [البقرة : ۱۹۷] .
ومعنی الكلمة هنا أن فی مناسک الحج حکماً یعرفها من يعرفها ویجهلها من یجهلها ، وأن الذین تصوروا أعمال الحج مناسک غامضة بعيدة عن التصور العقلي مخطئون .

المرّة الثالثة :

﴿ یؤتی الحکمة من یشاء ومن یؤت الحکمة فقد أوقی خیراً کثیراً وما یذکر إلا أولوا الألباب ﴾ [البقرة : ۲۶۹] .

وعندی أن الحکمة فی هذا الموضع تعنی النفقة الراشدة العاقلة التي تحمل الإنسان بحس توزیع ماله علی مطالبه الخاصة وعلی مطالب دینہ وواجبات مجتمعه بحيث یكون فیما یملك مُدْخَرٌ للمقراء والمساکین ومحال للإنفاق فی سبیل اللہ .

ولحکمة أوسع من هذا المعنی إذ أنها تعنی أحياناً أن یكون التعلیم مناسباً للطلاب فقد جاء : « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (۱) ، « حدثوا الناس بما یعرفون أحببون أن یُکذّب اللہ ورسوله ؟ » (۲) .

(۱) رواه مسلم عن عبد اللہ بن مسعود فی مقدمة صحيحه ۹/۱ .

(۲) رواه البخاری عن علی بن أبی طالب فی کتاب العلم . باب من خص بالعلم قوماً دون قوم کراهية أن لا یفهموا ۴۴/۱ .

وقد تكون الحكمة في غير المال ونفقته وفي غير العلم وعرضه ، قد تكون في الدعوة كيف تُعرض على الناس وكيف يحاطب كل مجتمع بما يلائمه ويناسب حاجته ويوائم مستواه العقلي ، ولكها على أية حال خير كثير يعرف قدره أولوا الألباب .

ووردت كلمة « أولى الألباب » مرتين في سورة آل عمران :

المرّة الأولى :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [آل عمران : ٧] .

وقد يستلزم للمسلمين أن المحكم من كتابهم هو الذي حوى أصول العقيدة والأخلاق والسلوك وأن المتشابه لا معنى لمحوص فيه لأنه فوق طاقة العقل أولاً وبعيد عن أن يصل الإنسان إلى حيثته بأدواته الكبيرة ثانياً ، ثم هو مثار هرة وحلاف ويبغى أن يبقى المجتمع المؤمن موحد الرأى مسدد الهدف .

المرّة الثانية :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

يستطيع المسلم أن يعرف ربه وأن يسيطر حشيشه وأن تفتح آفاق عقله على جوابات من عظمتها عندما يتأمل في البرمان والمكابر وخمسة آلاف مليون من الخلق يعيشون في انفارات الخمس يُتهمون نفساً بعد نفس ويدفق الدم في عروقهم شراً شراً أو إصعاً إصعاً بقدره اخلاق الكبير الخير عباده أجمعين .

الموضع السادس : في سورة المائدة : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

الكف أعظم من الكم ، كابس طريق مؤمن أعظم من ملك كافر على رأسه التاج ، رجل صالح عامض في الناس أرجح في موازين الخير عند الله وعبد مؤمن من كثرة لا حير فيها ولا تقوى لها . ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ .

أثبت تاريخ الحياة — إلى يوم الناس هذا — أن القلة المنظمة تغلب الكثرة الموضوية وأن القلة العاملة تغلب الكثرة العاطلة وأن الناس ليسوا بالأعداد .. قال رجل لخالد بن الوليد رضي الله عنه : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجود بالنصر وتقل بالخذلان (١) .

الموضع السابع : في سورة يوسف . ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف : ١١١] .

يَسَّ رب العالمين أن القصص الذي يسونه في الوحي المبارك ليس روايات مؤلفة ولكنه أحداث تاريخ وقع ، ويعنى ذلك أن المسلم قارئ القرآن يسعى أن يدرس التاريخ لأنه لا حديد تحت الشمس ، ممكن أن نفيس به ، محاصر على المصى ، ممكن أن يستنح مما كان حقيقة ما سيكون ، ولذلك أوتينا العقل لكي نعيش ونوارن ونغتنر ونتدبر .

الموضع الثامن : في سورة الرعد ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [الرعد : ١٩] .

(١) دار هذا الحوار قبيل مشوب القتال بين المسلمين والروم في معركة (اليرموك) الهامة سنة ثلاث عشرة من الهجرة (٦٣٤ م) وكان المسلمون ستة وثلاثين ألف مقاتل سوى عكرمة فإنه كان ردعا هم وكان الروم في مائتي ألف وثمانين ألف مقاتل (ابن الأثير : ٢٨٢/٢) .

الناس كثيرون في هذه الدنيا ، لكن بعض الناس في أبصارهم قصور فلا يرون من بعيد ، أو في أبصارهم عمى فلا يرون شيئاً قط ، هذا الذي يكون من آفات في العيون قد يكون آفات على البصائر التي ينبغي أن تعرف الحق وأن تتعنه وأن تدرك حسه وأن تعرف الباطل وتشمئز منه وتصر من قبحه ، وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان تُعرض عليه الآيات ويسمى أن يستعمل عقله وأن ينتفع بأنفس ما وهب الله له . ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

الموضع التاسع في سورة إبراهيم . ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .
إن هذا القرآن تلاه النبي ﷺ على الناس ثم ذهب إلى الرفيق الأعلى وترك الكتاب المخالد يتلى على الناس كي يعظمهم عن الشهوات ويصدهم عن الأهواء القبيحة ، كي يتذكر من له عقل أن الله واحد وأن المرحع إليه وأن المهاد الحسن ما نعه نحن لأنفسنا عبده ، فالذين يعملون الصالحات لأنفسهم يمهّدون والذين يعملون السيئات لأنفسهم يمهّدون ولكن شر مهاد .

الموضع العاشر والحادي عشر : تضمنتهما سورة ص

الموضع الأول : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص : ٢٩] .

هذا القرآن لا تفنى عجائبه ، وكلما وقفت أمام بابه تفرع الباب لمعنى جديد وجدت حرائر الرحمة فيه سيالة ، ومن عيوب الدين استعدوا عن الرحمن أن حُجُباً صدتهم عن الكتاب فهم ما يحسون السماع إذا تلى ، ولا القراءة إذا اطلعوا ، أما عباد الرحمن فقد وصفهم الله بقوله : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

الأصم : من استمع إلى الآيات فلم ينتفع بها ، ما انتفع بحاسة السمع .

الأعمى : من قرأ لقرآن فلم يستمد به ، ما انتفع بحاسة البصر .
من عجائب التاريخ ومن غرائب العالم أن المخططات الأحيائية عموماً تدبّر
انقرآن الكريم على الناس !! كأنما اطمأنت إلى أن المسلمين لن يفهموا منه
شيئاً ، إنما يتشعرون النغم الخلو والصوت العذب وانتهى الأمر !! .

الموضع الثانى : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أى مسنى
الشیطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب *
ووهنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الأبواب ﴾ [ص :
٤١ - ٤٣] .

يجىء هذا الكلام فى سورة « ص » تذكيراً للشر بعجزهم وضعفهم
وحاجتهم إلى رهم ، وفى الحديث القدسى : « يا عبادى كلکم جائع إلا
من أطعمته فاستطعمونى أطعمکم ، يا عبادى كلکم غار إلا من كسوته
فاستكسونى أكسکم » (١) .

نحن هدف للنوائب والمتاعب ، نحن دائماً نصاب بما يُطلق أَلستنا
بالدعاء ، المؤمن المخلص يدرك أن ما نزل به من ضرر لن يكشفه إلا الله ،
المؤمن العاقل يدرك أن الشر كلهم أعجز من أن يقربوا له حيراً أو أن
ياعدلوا عنه أذى أو ألماً إلا إذا أذن الله ، ومن قواين العطاء الإلهى :
﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من
بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ [فاطر : ٢] .

هنا فى هذا الموضع من سورة (ص) نجد أن رب العالمين يذكر عبداً
من عباده فقد أهله وماله ولكنه لم ييأس من روح الله فبقى يقرع أبواب
الرحمة حتى جاءه العطاء مضاعفاً وانساباً إليه الخير غزيراً يروى ظمأه ويرد
لهفته ، حتى إذا أصاب أولى الأبواب صرر لم يلحأوا إلا لباب واحد هو باب
الله ، ولم يدلوا ويكشفوا صراعتهم إلا عند رب العالمين وفى ساحتته .

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى البر والصلوة والآداب - باب تحريم الظلم ١٦/٨ ،

الموضع الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر تضمنتها سورة الزمر :
 الموضع الأول : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر
 الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون
 إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [الزمر : ٩] .

الحديث بدأ بمقارنة بين ليل لرسول ﷺ وليل غيره ، غيره نائم ،
 حنة منقاة على الفراش كأنها دابة لحقها الإغواء فهي تستريح ، أما هذا النبي
 الكريم عليه الصلاة والسلام فإن حسده ينام وقلبه يقظان ، فإذا تحرك في
 فراشه تحرك بذكر الله ثم على عجل يهض يستصب على قدميه يقرأ الكتاب
 العرير .

في طلام الليل مفرداً قام يدعو الواحد الصمد
 عابد لم تُبق طاعته مه لا روحاً ولا جسداً

الموضع الثاني : ﴿ فبشر عباد • الذين يستمعون القول فيتبعون
 أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ [الزمر :
 ١٧ ، ١٨] .

المؤمن ليس متعصباً بشيء سبق إلى عقده ، إنه إنسان يحسن الموازنة
 والمقارنة بين ما يعرض عليه من مبادئ وأفكار ، ويختار ما يرى أن الشرع إليه
 أقرب وأن العقل إليه أميل .

الموضع الثالث : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع
 في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاباً
 إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ [الزمر : ٢١] .

يذكر الله العباد بحلال قدره وعظمة قدرته وافتتانه فيما أبدع من خلقه
 لأنه أحسن كل شيء خلقه ، اطر كيف يتحول الطين إلى ورود ورياحين !
 اطر كيف يتحول القدي إلى سكر وشا وحلو وأشياء أخرى معجبة وألوان
 أخرى تسي العيون !! .

* * *

الموضع الخامس عشر في سورة عافر ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ۝ هدى وذكرى لأولى الألباب ﴾ [عافر : ٥٣ ، ٥٤] .

يبدو من السياق أنه يتناول الأقدمين من بني إسرائيل ، ولا ريب أن أتباع موسى الأوائل كانوا أولى بالحق والنصرة والتكريم من فرعون وآله وجنده ، ومن هنا أعطاهم الله الكثير .

الموضع السادس عشر : في سورة الطلاق : ﴿ وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ۝ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ۝ أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولى الألباب الدين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ [الطلاق : ٨ - ١٠] .

هذه الآية تشير إلى سمة كويبة وهي أن الله لا يعاجل الناس بالعقوبة إذا عاجلوه بالمعصية بل هو يتأني بهم ويعطيهم فرصة للمتَاب فإذا أبوا إلا الحماح وإذا آثروا الصلال على الهدى فإنه يصريهم الضربة التي تشببها الواصي .

هذه ستة عشر موضعاً تكررت فيها كلمة ﴿ أولى الألباب ﴾ في كتاب الله عز وجل لتبين أن القرآن الكريم يطلب من المسلمين أن يكونوا أصحاب عقول مستبيرة وأصحاب معرفة مستوعبة وأصحاب علم واسع .

إن الأفق الضيق شر على صاحبه وشر على المبدأ الذي بحمله وشر على العقيدة التي يقبها إلى الناس ، ونحن نريد أن نكون على مستوى الدين .

لا أعرف كتاباً في الأولين والآخرين أعلى قدر العقل وجعل أمته أمة الحضارة لعاقلة الواعية المتقدمة الهادية إلا هذا القرآن الكريم ! فاعرفوا قدر كتابكم وأحسوا اتباعه .

هداني الله وإياكم سبيل الرشاد .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .
وأشهد أن محمداً رسول الله ، مام السنين وسيد المصالحين .
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الناس : كلمة السياسة ها معيان متناقضان متباعدان كلاهما غير الآخر .

قد يكون معنى السياسة أن يملك الإنسان السلطة فيسحرها في إذلال العباد ، قد يكون معنى السياسة أن يملك الإنسان السلطة فيتملكه حنون العظمة فهو لا يعرف إلا نفسه وأهله وأتباعه ، قد يكون معنى السياسة أن أتعصب لثراث أو لدم أو لأمر مما تواضع الحق على العصية له

هذا اللون من السياسة مرفوض ، نحن نكرهه ونوصي بكرهيته ونصرف الشباب عنه ونوصيهم بتطليقه لأن الله تعالى يقول : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص : ٨٣] .

كل من اشتغل بالسياسة يطلب بها العلو في الأرض والكبرياء على الناس أو كل من اشتغل بالسياسة ليثير الفوضى والفساد في أنحاء البلاد فهو إنسان فاجر فاسد ، وإن طلب الدنيا فقد بصيب منها شيئاً لكنه فقد الآخرة يقبناً : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] .

المعنى الثانى للسياسة : أن أملك السلطة فأمر بالمعروف وأهى عن
المكر وأقيم الصلاة وأوتى الزكاة (١) وأحسن الحس وأقح القبيح وأسعى
فى بشر الرحمة والمودة بين الخلق وأمر من أملك أمره أن يتواصى بالحق
والصبر وأن يتواصى بالرحمة .

هذه السياسة مطلوبة لأنها تجعلى أصبأ اجتماع فى قالب يرضى الله
وأسوق للناس إلى وظيفتهم التى حققوا من أجبها وهى عبادة الله .

* * *

كان صاحب الرسالة العظمى عليه الصلاة والسلام يرى الناس فى
المسجد على هذا المعنى ، كان يقرأ فى صلاته : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا
الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾
[النساء : ٥٨] .

كان يقرأ فى صلاته ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله
والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا
من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك
نصيراً ﴾ [النساء : ٧٥] .

أليست هذه سياسة ؟ أليست الدعوة إلى مجاهدة الظلمة ومقاتلة
المعتدين سياسة ؟

هذا اللون من السياسة هو صلب الإسلام يقيى ، نحن نكره سياسة
الفوضى والشغب ، ولكنا نحب كتابا ونسبنا ونتمسك بالحصارة التى أقامها
هذا القرآن نظرياً وطبقها وشادها سبه صلوات الله عليه عملياً ثم انطلق بها السلف
الأول فأثاروا ظلمات القرون الوسطى وأهدوا للإنسانية خير ما تشرف
به .

(١) روى الترمذى العزيز ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعروف ونهى عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٤١]

إنا نحر المسلمين لنا ماص في مياسة العالم يصير الوجوه ، أما غيرنا فله
ماص تسود به الوجوه .

نحن لا نخجل من ماضينا ولا نستحي من كتاب ربنا ولا من سنة نبينا
عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أصنع لنا دينا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دينانا الذي فيها
معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل
خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠]
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصلاة

* * *

نظراتٌ في سورة "الأَنْفَالِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فلسقي نظرة على أبعاد التغير الإنساني الذي يصحب المجتمعات البشرية وهي تُصْعَدُ إلى لقمة مستحقة البصر والتحكير ، أو وهي تُسِفُّ إلى الأرض مستحقة الذل والهوان ، وذلك من حلال قامل مخلود في سورة الأنفال .

إن سورة الأنفال نزلت في أعقاب غزوة بدر ، ولكننا لن نتعرض

للعروة إلا بالقدر القليل الذي يحتاج إليه توصيح المعنى .

أما المحور الذي تدور عيه السورة — فيما رأي — فهو أن الأمم عندما تُسِفُّ وتُحِيدُ إلى الأرض تستجمع الخصائص التي تسحقها الهزيمة ، وأنها عندما تَصْعَدُ إلى أعلى وتطير بأحذية من الشوق إلى مستوى من لكمال الرفيع فإنها تستحق التحكين والفوز المين !! .

ويعين يدي التأمل في سورة الأنفال — من خلال هذا المعنى — أذكر مثلاً استمعت إليه من سائح عربي ذهب إلى « أسبانيا » في أحد المؤتمرات التي انعقدت هناك ، قال لي : دخلت في المسجد بقصر الحمراء وقال لي السرجان الذي يشرح لي الآثار : كانت هنا أمة مسلمة مكَّها الله في لأرض يوم كانت لله حلائف ، ثم طردها من هذه الأرض يوم أصبحت في هذه الدنيا طوائف !! نعم كان للإسلام في الأندلس دولة أشرقت بها العصور الوسطى ، وقَدِّمَتْ للإنسانية عقيدة التوحيد في هالة من العلم الواسع والحضارة الراهية فارتقت الإنسانية طويلاً بهذه الدولة الموحدة !! ثم لما عصمت الشهوات برؤوس الحاكمين وأثرفوا في هذه الدنيا ، وقصَّوا الأعمار بحثاً عن الشهوات ، ونسوا المثل الرفيعة التي طُولُوا بخدمتها طَرَدُوا من هذه الأرض !! .

ماذا كان يأخذ الناس منهم بعد أن أصبحوا طوائف ؟ .

يأخذون منهم الزخارف في جدران البيوت أو المساجد ؟ .

يأخذون منهم الموشَّحات التي تبكي الحبيب المهاجر أو المهجور ؟ .

ماذا يأخذ الناس من الأمة الإسلامية إذا فقدت رسالتها ؟ .

شاع الكذب في هذه المجتمعات ، ووجدنا أصحاب الأقلام المتعلقين وأصحاب قرض الشعر ابتغاء الجوائز والمكافآت يسبون إلى الحمام أنه يمدح الخلفاء على هذا النحو :

إن الحمام بأيكها تشبو
هل قد عُمِ أو قد عُهِد أو كان ؟
كالمتصم والمتضد مكان ؟

والمعتصم والمعتضد اللذان ورد ذكرهما في هذا المدح قال فيهما شاعر آخر (١) من حكماء الشعر البصرياء بأقنار الرجال .

مما يرهقني في أرض أدلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب ممكة في غير موضعها كأنه يحكي امتناعاً صورة الأسد
ليس على الله عزير أن يطرده أمثال هؤلاء من العر وأن يحرمهم السلطة
وأن يجعلهم رعاة في الأرض لأهم أبوا إلا مرة الرعاع في أحوالهم
وأعمالهم !!

سورة الأنفال أشرت إلى هذا المعنى وهي تتحدث عن هزيمة قريش
وانكسار دولتها التي كانت قائمة في مكة ، وتحدثت في الوقت نفسه عن
المصر الذي ساقه الله للمؤمنين .

ونحيء للسورة من وسطها لكي بين المحور الذي دارت عليه ، يقول
الله في وسط السورة ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة
يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ذلك بما قدمت
أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿ [الأنفال : ٥٠ ، ٥١] .

هل الذي حدث لقادة الكفر في مكة وزعماء الوثنية في الجزيرة كان
بدعاً في سنن الله الكونية ؟ لا ، بل هذا الذي حدث يتفق مع سنن الله في
المجتمعات المنحلة ولذلك قال الله عقب هذه الآيات ﴿ كذاب آل فرعون
والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي
شديد العقاب ﴾ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى
يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ كذاب آل فرعون والذين من

(١) هو ابن أبي شرف كما في المقدمة لاس جلدود — الفصل الثاني والثلاثون في اللقب بأمر
المؤمنين .

قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿ [الأنفال : ٥٢ - ٥٤] .

لكن ما يقصى الله به من تدمير لطئمة ومن إنشاء لأمم أخرى أعدل وأعقل يحتاج إلى رسم طويل ، ومعنى طول الرمس أن سس الله الكونية لا تتم بين عشية وضحاها ، فقد يموت أنبياء ، وقد يموت قادة ، وقد يُستشهد مجاهدون قل أن ينسم النصر آخر الأمر ، ولذلك يقول الله لسيه ﷺ : ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ [يوس ٤٦] ويقول : ﴿ وإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ [الزخرف : ٤١ ، ٤٢]

لا بد أن تتطاول وتتراحي أيام الصراع بين التوحيد والتثليث ، بين العقل والحماسة ، بين الحقيقة والخرافة ، بين الجهل والعلم .
لماذا هذا الطول ؟ .

لأن الله يُنضِجُ الكمال في نفوس المجاهدين مع طول الرمس وفي الوقت نفسه يُنضِجُ العناد والفسق في نفوس المعاندين والفاستقين مع طول الزمن ، فإذا كوفيء المؤمنون بالنصر فبعد أن يبلغوا قمة الخير والكمال ، وإذا كوفيء المجرمون بالعقاب فبعد أن يبلغوا قمة الشر والفساد !!

هذا المعنى وضحته سورة الأنفال في موضعين :

الموضع الأول قوله تعالى : ﴿ وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [الأنفال : ٧ ، ٨] .

كانوا يردون الآية إلى المدينة بغزيمة باردة دون أن يُسفك دم ودون أن يُؤدب مجرم ولكن الله قرر إبرال صرية مهية بالكافرين !!
الموضع الثاني قوله تعالى : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة

القصوى والركب أسهل منكم ولو تواعدتم لاحتلفتم في الميعاد ولكن
ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن
بينة وإن الله لسميع عليم ﴿ الأنفال : ٤٢ ٠

رب العالمين يهلك هؤلاء بخدرة ، ويعطي هؤلاء بجدارة .

والأقدار التي ترل بصعود هذا أو هبوط ذاك ليست حركات عابثة ،
إنها أقدار ترون بدقة هائلة مسالك الأفراد والجماعات !!

ويستقل هذا المعنى من ميدان القتال إلى ميدان السحن ، فيقول الله
للأسرى وهم في قيود الهوان والمسكنة : إنكم وحدكم الذين تصعون
مستقلكم ، إن اتويعتم خيراً للناس انفتحت أمامكم محالات رحبة للحركة
والعطاء وإلا فلکم الويل : ﴿ يأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى
إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله
غفور رحيم ٠ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم
والله عليم حكيم ﴾ [الأنفال : ٧٠ ، ٧١] .

إن الخونة قد يستطيعون الإساءة إلى غيرهم ردحاً من الزمان ، وقد
يتناولون في المجتمعات ويحسبون أن الحق قد خلاهم غير أن القضاء الحكيم
يترصد لهم إلى حين ، ثم يستمكن الوثاق من أعناقهم !! .

هذا وصف للفساد وهو يهبط بنو به ، وهذا الفساد يشمل الأمم ،
يقول الله في سورة النحل : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها
رزقها رعداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع
والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ [النحل : ١١٢] .

لم هذا العذاب ؟

لأنها أطمعت من جوع فما شكرت ، وأمنت من خوف فما
شكرت ، فإذا تسلط عليها المخاوف والأزمات حتى تعرف قدر النعم التي
فقدتها !! .

وإنما أهلك الله السلطة التي كانت تحكم في مكة لأن العباد والجهالة

بلغت بالقوم مبلغاً عجيباً فقد قالوا مكابرين رب الكون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] .

كان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا ووفقنا لاتباعه ، أما أن يسفك الكره بقلب إنسان أن يكره الحق ، وأن يكره حملته ، وأن يكره الحياة به والسير على ضوئه فإن مثل هذا الإنسان ينبغي أن يُؤارى بجاهليته وعياده في مطاوي القبور ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [الأنفال : ٥٠ ، ٥١] .

نظر بعد ذلك إلى الجانب الآخر وهو المجتمع المؤمن ، لقد عاش قل الهجرة وبعدها يحترم ديه ويقدم مطالبه على رغائبه ويحمل في الحياة شارته ويرفع رأيته ، وكان خصومه يستكثرون عليه حق الحياة كما يريد ، بل كانوا يروعونه في الحرم الآمن ويرعمونه على الروح ها وهناك !! لقد أبالته الأقدار النصر والتمكين والسيادة ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتحطفكم الناس فأوأمكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

إدأ هؤلاء استحقوا فعلاً أن يُنصروا لأنهم تحملوا في ذات الله الكثير ، ووقفوا إلى جانب نبيهم ﷺ وهو يُطارَد ويُحَوَّف ، ولم يهزموا بل صمدوا وظنوا على ثباتهم إلى أن انصروا . وهنا نلاحظ أن النصر الذي ساقه الله كان فصلاً أعلى ، وكان عطيةً للقتل فيها أكبر الدخول ، وليس لعمل الناس فيها إلا الدحل المخلود ، هم قاتلوا وثبتوا وبدلوا وجاهدوا وصحوا وتحملوا وهاجروا وتركوا بلادهم ومملكاتهم وثرواتهم لله ، لكن الله سبحانه وتعالى عندما أراد النصر أدار المعركة وحده : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان

وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إنا يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فتبتوا الدين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴿ [الأنفال : ١١ ، ١٢] .

رب العالمين بالحو الذي صمعه وبالرمال التي ثبتها وباليقين الذي أرساه في القلوب هو الذي جعل المؤمنين يكسبون المعركة على هذا النحو العريب حتى قال قائل (١) في مكة : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاعوا ويأسروننا كيف شاعوا !!

وهذا مصداق قوله جلّ جلاله : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إنا رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إنا الله سميع عليم ﴾ [الأنفال : ١٧] .

لكن ما هي الخصائص التي يرقى بها مجتمع حتى يستحق لنصر ويتبوأ القمة ويضمن عناية السماء به ؟ .

أشارت السورة في مطلعها إلى هذه الخصائص ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى رءسهم يتوكلون » الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [الأنفال : ٢ — ٤] .

تلاوة الآيات قد تكون معث تخويف إذا هجست هواجس الشر في قلب الإنسان وإذا وُرَّ الشيطان على المعصية ، ها يحيى ذكر الله فيبدد العيوس ويكشف الطريق ويجعل المؤمن يسحو من الحفرة التي حفرها الشيطان له .

يحيى ذكر الله للأفراد وللأثم وهي على طريق الكفاح والجهاد ، يحيى للفرد عندما يقال له : عش لنفسك ، ابق لأولادك ، وفر الدنيا لأسرتك ، ماذا تصنع في مقاومة الطعنة والبغاة ؟ التفت لنفسك قبل أن يبطشوا بك ،

(١) هو أبو سميان ابن الحارث بن عبد المطلب وقصته عند ابن إسحاق « راجع ابن هشام ٢ / ٢٨٩ والطبري ٢ / ٤٦٢ » .

ها يجيء ذكر الله يقول له : هيهات ! ما من أمر يتم إلا إذا شئت القدر الأعلى
القرار فيه ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا
لا تموتون إلا قليلاً ﴾ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم
سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴿
[الأحزاب : ١٦ ، ١٧] . ذكر الله ههنا يعلم الإنسان الثبات : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾
[الأنفال : ٤٥] قال تعالى : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً
وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : ٢] .

القرآن الآن انتشرت له إداعات في العالم الإسلامي ، وبكسر ما قيمة
القراءات والإداعات إذا لم تحرك الإيمان الهاجع المخدّر الذي يصحّث منه
أعداء الإسلام ؟ لذلك كان من خصائص الكمال البشري أن تتحول
الآيات إلى مسالك وأحلاق وإلى جهاد وأعمال ، وهذا أمر لا بد أن نعرفه
لأن النهضة الإنسانية ليست كتاباً تقرأ أو تحفظ ولكنها أحوال وأحلاق ،
والأهم الغالبة تهتم بالشكل وقبلما اهتمت بالموضوع وكما قل الشاعر :

أرى حُللاً تصاد على أناس وأخلاقاً تُهان ولا تُصانُ
يقولون : الزمانُ به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمانُ

وبعد أن رسمت السورة صورة المجتمع المؤمن حقاً شئت خلال القصص
الواعي وعبره البالغة بداءات شتى للمؤمنين تحذوهم إلى الكمال ، ومن
أجل ذلك تضمنت السورة ستة بداءات لا يستعني عنها سلف ولا خلف ،
بل لعلنا اليوم أحوج الناس إلى فقها !! .

الداء الأول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً
فلا تولوهم الأدبار ﴾ [الأنفال : ١٥]

الداء الثاني : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه
وأنتم تسمعون ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

الداء الثالث : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم
لما يحكيكم ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

الداء الرابع . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

الداء الخامس . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

الداء السادس ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

الحقيقة أن شرح هذه الداءات يحتاج إلى خطة خاصة ، لكنني أوجه النظر إلى آخر ما جاء في هذه لسورة ، وآخر ما جاء في هذه السورة يبين أن للمسلمين ولاءً واحداً . ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَرَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَتَرُوا مِنْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأمل . ٧٢] .

ثم جاءت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفُسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

الكافرون أنواع . هناك من يكر الله ، هناك من يرى الألوهية أسرة فيها أب وابن وأم ، هناك من يرى أن الله يتجسد في صور شتى !!

أنواع الكفر كثيرة ، والكفر كله ملة واحدة ، وقد سألت نفسي : إن اليهود يقولون عن عيسى : إنه ابن زنا وهم متهمون أيضاً — كما يزعم المصاري — بقتله ، ومع ذلك فقد رأيت القاتيك كان برأ اليهود من مقتل عيسى واصطلاح المريقان !! على من اصطلحوا ؟ على الإسلام وأمنه !! والفتنة والفساد يملآن الأرض الآن لأن المسلمين لا يعرفون من يوالون ولا من يخاصمون !! .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله . . . الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويريدهم من فضله والكافرون لم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : وأنا أقرأ قصيدة الرثاء في ذهاب الأندلس كانت أبيات منها تحرك مشاعري وتجعلني أقارن بين عصر وعصر وعهد وعهد . . . قلت : ما هذه السرطانات التي شاعت في الأمة الإسلامية الآن تريد تمزيق الوحدة ، تريد تقطيع الكيان المشترك ، تريد جعل المسلمين مشغولين بالتواهي ؟ !

تذكرت قول الشاعر (١) وهو يتحدث للأندلسيين ويقول لهم :

تبكي الحيفية البيضاء من أسف	كما بكى لقراق إلألف هيمان
على ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس	ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثي وهي عيدان
أعندكم نبأ عن أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركيان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	أسرى وقتل فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان

(١) هو أبو الطيب الرندي .

ألا ينجل لدين يثيرون العداوة والبعضاء الآن في نفوس المسلمين ؟ .
ألا ينجل هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا مصير الأمة الإسلامية على
هذا النحو ؟ .

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ؟ .

أما على الخير أنصار وأعوان ؟ .

ينبغي أن نتعاون فيما اتفقنا عليه — وهو كثير — وأن يعذر بعضنا
بعضاً فيما اختلفنا فيه — وهو قليل !! .

جاءني ناس قالوا : العمل في البنوك حرام ، والعمل في المحاكم حرام ،
والعمل في الشركات حرام ، والعمل في الجهاز الحكومي كله حرام !! .
ونتيجة هذا التفكير أن يملأ الصهاية والصليبيون هذه الأجهزة وأن
يبيع المسلمون الفول والتبن !! .

هل هذه طريقة في إصلاح الأمة ؟ !

كان ابن تيمية — أيام احتلال بغداد — يمشي مع تلميذ له ، فوجد
التلميذ جماعة من التتر الذين احتلوا بغداد يشربون الخمر فأراد أن يتوقف
ليشتبك معهم ويمنعهم من شرب الخمر فجره ابن تيمية وقال له : مالك
وهؤلاء ؟ دعهم في سكرهم إنهم لو صحوا يقتلونا !! .

أي تحرم هذا الذي يشغل دماغك الآن ؟ .

إذا كنت تريد إقامة الإسلام فليست إقامة الإسلام أن تمنع جنود العدو
من شرب الخمر ، إقامة الإسلام أن تقيم جهازاً إسلامياً يغلّب هذا الجهاز ،
إقامة الإسلام أن تكون جيشاً للموحدين يأكل هذا الجيش ، إقامة الإسلام
أن تدخل في كل عمل وتعطي يدك مع كل مصلح حتى إذا جاء الإصلاح
للجهاز الذي أنت فيه تكون خبيراً بمناعه ومفاسده ، أما تعلم الإصلاح
بعيداً عن هذا الجو فكتعلم السباحة على الأرض !! وما يتعلم العموم على
الأرض أحد إلا إذا كان خيالاً مغفلاً .

ادخلوا في كل ميدان ، واحدموا الإسلام بقدره ، وهناك قواعد في
الشرعة الإسلامية كقاعدة : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » وقاعدة
ارتكاب أخف الضررين .

أيها الإخوة : إنه ليسعدنا في هذا اليوم أن يكون يسا إخوة لنا جاءوا من
السودان شرح الله بالإسلام صلورهم ، وأقام بالحق أخلاقهم وألستهم ،
وجعلهم دعة للخير بعد أن كانوا قد تُخدعوا بالمسيحية رماً ، وعرفوا
— بعد جدال حسن مع إخواننا الذين ذهبوا إليهم — أن الله واحد ، وأن
محمداً نبيه ، وأن المرسلين إخوة ، وأن كل إنسان مسئول برأسه عن نفسه ،
وأن أحداً لم يُقتل في سبيل خطايا الخلق ، عرفوا هذا كله وجاءوا يستكملون
أواصر الأخوة والإيمان مع إخوانهم في القاهرة ، وإننا ليسعدنا أن سقاهاهم وأن
نحتفي بهم وأن تُسرُّ لمراهم .

إننا نتمنى للإسلام مستقبلاً حسناً في جوب السودان وفي المراتع التي
انتشر فيها وباء التبشير الأجنبي مستعيناً بخيانات الحكام العملاء الذين فتحوا
له الأبواب ومهدوا أمامه السبل !!

وإن شاء الله للإسلام عودة وله جولة ودولة ، والأيام يسا ﴿ وسيعلم
الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : ٢٢٧]

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديننا الذي
فيه معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

مِنْ نُبُوءَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن هناك نبوءات في القرآن الكريم صدقتها الأيام ، وهي نبوءات تحر عن غيب لا يعلمه إلا الله ، ثم جاء المستقبل فكشف عن صدق ما قيل .
« من ذلك أن المسلمين عندما عادوا أدراجهم مسحبيين من مكة دون أن يؤدوا عمرة الحديبية كانت نفوسهم كميرة وكانت الوسواس قد تسللت إلى أفكار بعضهم : كيف قيل لنا : إكم ستدخلون مكة ثم تعود دون أن تدخلوها ١٩ .

ونزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح . ٢٧] .

هذه الآية نزلت في السنة السادسة ولم تمض مستان حتى كان المسلمون الذين معوا من دخول مكة ومن أداء مناسك العمرة قد عادوا وهم سبعة أصعاف ما كانوا ، ويبدى المسلمون من مظاهر القوة والبأس ما يوقع الرعب والرهبه في أفئدة المشركين .

• هناك نبوءة أخرى أول سورة الروم ، وقصتها غريبة وتستحق التسجيل والتعليق ، فإن الصراع بين المملكتين الكبيرتين . الروم التي تعتنق البصرانية ، والفرس التي تعتنق الموحسية كان براعاً حاداً دموياً طويلاً المدى ، وشاء الله - في دور من أدوار هذا الصراع - أن يهزم الروم هزيمة ما عُرف مثلها ، وكانت أبعاد هذه الهزيمة تمتد إلى المعروف من القارات المعمورة يومئذ ، انسحب الروم أمام زحف الفرس وتركوا مصر واليمن وفلسطين والشام وكادت عاصمتهم تسقط ، وحسروا حسانر سودت وجوههم ، ثم اضطروا إلى أن يوقعوا على صلح الهزيمة وهو صلح يجعل الروم ملزمين بتقديم أفواج من النساء للحيش المنتصر غير قاطير مقنطرة من الذهب والفضة !! .

فكانت نكبة الروم قد سودت وحوه البصري وأحنت رءوسهم ، ويتس الناس من أن تكون للروم دولة أو عودة ، لكن صوتاً وحيداً غريباً كان يبعث من مكة وحدها يقول : ﴿ غلبت الروم ﴾ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون ﴾ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ [الروم : ٢ : ٦] .

لم يكن هناك ما يؤيد هذا الصوت من بقية قوة في دولة الروم أو بقية تماسك في شعوب البصرانية ، والغريب أن الآية التي قالت : إن الروم سينتصرون حددت أن الانتصار لن يتحاور بضع سنين ، وفعلاً وقع ما لم يكن في الحسبان وما لم يعرف في قوانين التاريخ ولا في أحواله ، وانتصر الروم على الفرس واستردوا جميع ما خسروا ، وكان انتصارهم غريباً معجباً معجزاً !! .

كان يجب أن يقابل الصوت الوحيد الذي تنبأ بهذا النصر مقابلة حسنة وأن يعرف لصاحبه أن الله تبارك وتعالى مرق العيوب عن المستقبل أمام بصيرته وأنزل عليه من الوحي ما جعله يتطرق بما لم يُعرف في القارات كلها وما لم ينتظره أحد .

لكن الضمير الصليبي جعل مؤرخي الصراية يذكرون القصة على نحو معوج كذوب ، قالوا : نعم لقد تنبأ محمد بأن الروم سينتصرون ولكن سب النبوة حققه على الفرس لأنهم مزقوا رسالة بعث بها إلى ملكهم يدعوه إلى دينه !! .

وهذا التعليل تروير وكذب من أئمة إلى يائه لأن سورة الروم التي ذكر فيها أن الروم سينتصرون نزلت في مكة قبل أن يبعث الرسول ﷺ برسالته إلى ملك فارس بحواشي عشر عاماً ، فمن الخلط وتحريف الكلم عن موضعه وتشويه الحقيقة لغير سبب واضح أن يقال إن السر في النبوة حققه على الفرس لأنهم مزقوا رسالة بعث بها النبي ﷺ إلى ملكهم !! .

« وهاك نبوءة ثالثة جاء بها القرآن الكريم وهي قوله تعالى :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [الصف : ٩] .

وإذا كانت النبوءة الأولى قد استغرقت لتحقيقها نحو سنتين ، وإذا كانت النبوءة الثانية قد استغرقت لتحقيقها بضع سنين ، فإن النبوءة الثالثة استغرقت لتحقيقها قروناً ، ولا تزال هذه القرون تمتد لتبين أن الإسلام باق وأن لواء التوحيد معقود على أصحابه لن ينزل إن شاء الله !! .

قيمت هذه النبوءة والإسلام عريق في جزيرة العرب تحيط به قبائل مشاكسة مشركة كما تحيط به قوى اليهود والصاري الذين تعاونت أحزابهم جميعاً على ضرب الإسلام والكيد له .

ولكن الأسوار الحديدية التي كانت تمنع الإسلام من الانطلاق عبر الجزيرة تلاشت ، ومضى المسلمون فوصلوا أقصى الشرق وأقصى الغرب وأقصى الشمال وأقصى الجنوب ، ومضت السنون والإسلام يزيد ولا ينقص !! .

* في سورة الروم آية تبين أن الإسلام باق إلى قيام الساعة وهي قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك

كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم وإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴿ [ا روم : ٥٥ ، ٥٦] .

* وفي سورة آل عمران آية تبين أن الإسلام باق إلى يوم القيامة وهي قوله تعالى لعيسى ابن مريم ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

والذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم الذين يرويه عبداً لله ويصفونه بأنه رسول لبنى إسرائيل يمهد للرسالة العامة التي تحيى من بعده ، وأنه هو وغيره من الأنبياء إنما جاءوا مستعينين بأن من عدا الله عبد له ، وأنه ليس له ابن ولا صاحبة ولا أم ولا والد ولا ولد ، أما الذين يقولون بأن لله أمماً أو صاحبة ، أو ابناً أو ما إلى ذلك فهوؤلاء ليسوا أتباع عيسى وإنما أعدؤه !! فآية سورة الروم وآية سورة آل عمران كلتاهما تصدق إحداهما الأخرى وتؤيد معناه وهو أن الإسلام باق حتى يأتي أمر الله وحتى يتقوض العمران على ظهر الأرض وينفض سرادق الحياة والأحياء وترجع الدنيا إلى ربها ليحتكم عنده إيمانها وكفرانها وصالحها ومفسدها وملأكتها وشياطينها .

* وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : « ليلفن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر » (١) .

* وورد في حديث آخر : « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » (٢) .

(١) رواه أحمد ١٠٣/٤ والحاكم في المستدرج والملاحم وقال صحيح ووافقه الذهبي ، والطبراني في الكبير ٥٨/٢ وقال في المصنف (١٤١/٦) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح
(٢) رواه الترمذي في الأمثال - باب ٦ وقال هذا حديث حسن غريب ١٧٠/٨ - ١٧٢ وأحمد ١٣٠/٣ ، ١٤٣ ، ٣١٩/٤ وقال في صحيح الجامع : (٥٨٥٤) صحيح .

ولكن من باب الإيضاح العلمي أقول : إن آية سورة الروم يفسرها البعض على أساس أن كلمة ﴿ في كتاب الله ﴾ المقصود بها كتاب الأمر : الخلق والرق والموت والحياة والعز والدل والسلم والحرب .

لله كتابان : كتاب تَضْمَنُ وحيه وهو القرآن الكريم ، وكتاب تَضْمَنُ أمره في ملكوته الطويل العريض ، والمقصود بالأمر هنا تدبير شئون العباد ، وهو تدبير لا يحصى ما يقتضيه من لفظ لأنه إذا كان على ظهر الأرض خمسة آلاف مبيون من البشر فإن كلا منهم يحتاج في نفسه وهضمه ودق قلبه وبقطة عينه أو فكره إلى أوامر متلاحقة من الله !! .

قال تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس : ٦١] .

الكتاب المبين هنا هو كتاب الوجود أو كتاب الملكوت وهو غير القرآن الكريم . وقال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ [الحديد : ٢٢] .

الكتاب هنا كتاب آخر غير القرآن الكريم .

أقول هذا لأن مبشراً عبياً قرأ قوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

فقال : هذا كلام غلط لأن لقرآن يكتب بلواة حبر !!

ظن المغفل أن المقصود بـ ﴿ كلمات ربي ﴾ هنا كلمات الوحي ، مع أن الآية تشير إلى كلمات الإيجاد والإمداد والإحياء والإماتة المتصلة بكتاب الوجود ، لكن الجهل معرة وفصيحة لأصحابه خصوصاً عندما يتعرض هؤلاء الجهلة لكتاب لا يأتيه الساطل من بين يديه ولا من خلفه كي ينالوا منه وهيبات هيبات !! .

ومن باب الإيضاح المعنى أيضاً أقول: إن بعض المسلمين القاصرين ربما جاءوا إلى أحاديث صحيحة وحكموا فيها أحاديث أخرى قد تكون مرحلية أو في مناسبات معينة ويتهون إلى أن عمر الإسلام قصير وأن الإسلام كما بدأ غريباً فسيموت أو ينتهي غريباً ١١٩ .

وهؤلاء الناس جهلة بقوانين التربية وسواميس الله في كونه وبحقائق الوحي في حملته وتفصيله ، ولذلك فإن أوجه النظر إلى هذا فإن الإسلام باق إلى قيام الساعة ، وقد قال صاحب تفسير « اسار » (١) يعترض هؤلاء القاصرين : يا قوم إن سورة النور لم تتحقق بعد !! ويقصد بهذا قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسن الذين كفروا معجزين في الأرض وماوأهم النار ولئس المصير ﴾ [النور : ٥٥ : ٥٧] .

قد تثيرك قواهم ، قد تفدحك حيوش المعصاة والمخترعات المحروقة من أدوات الدمار لكن رب العالمين يقول ﴿ لا تحسن الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ لن يغدوني ﴿ والله غالب على أمره ﴾ لكن مع من يكون أمر الله ولم يكن الاستخلاف ١٢ .

قال تعالى : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ .

وكلمة ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ تعني حراسة مسته والقيام عيها والعمل بها ، وأحب أن يعرف المسلمون أن أحداً في الأولين والآخرين لم يخص تراثه ويراقب كلمه ويضبط كل ما صدر عنه في بيته أو مع أهله أو

(١) الشيخ محمد رشيد رضا طيب الله ثراه

مع أصدقائه في صحته ومرصه وسلمه وحربه كما وقع هذا لمحمد ﷺ !!
أحصيت سته وعُرفت بدقة وقام علم السنة وقام علم الرجال وقام علم
الخرج والتعديل وقام علم الإحصاء والتسجيل لكل شيء .. لكن كل
من يصبه أن يكون المسلمون على مستوى السنة ، فإن السنة كان لها رجاها
الدين يحسون فهمها ودرسها وتبويبها وتوزيعها على الأمر والنهي والواجب
والمندوب والحرام والمكروه .

« وكلمة « السنة » كلمة تحتاج إلى شيء من التفصيل :

قد تكون في مقابلة المرض ويُقصد بها عندئذ النوافل .

قد تكون في مقابلة القرآن ويُقصد بها عندئذ الحديث النبوي .

قد تكون في مقابلة البدعة ويقصد بها عندئذ الأصل .

قد تكون بمعنى الدين كله أي سيرة الرسول ﷺ وقوله وعمله
وقرآنه .

وححد السنة ضلال ، والحرب الآن على الإسلام تناول الكتاب
والسنة ، واليوم نشرت « الأهرام » رداً على كلام كنت قد كتبت من
يومين دفاعاً عن الكتاب والسنة ، ووجدت فيما نُشر شيئاً من الجراءة على
فهم التراث الإسلامي ، فالرجل يدعي أن ابن تيمية حرّض أو أمر بمقاتلة من
يتركون سنة الفجر !! .

وأنا قرأت كتاب « السياسة الشرعية » لابن تيمية من عشرين سنة
تقريباً ، وليس فيه ما يُنسب إلى الرجل ، والرجل حكى قولين مترددين في
الفقه : من ترك سنة الفجر يقاتل أولاً يقاتل ؟ .

ومع ذلك فأنا قرأت رسالة مشورة لابن تيمية يؤكد فيها أن الدعوة
الإسلامية تقوم على الإقناع وأن الإسلام أشد بالحق لا بالسيف وانتصر
على السيف الذي اعترض طريقه ولم يكن السيف في يده أداة إرغام أو قسر
على الدخول في الإسلام .

ثم إن ابن تيمية يعلم الحديث الصحيح الذي يفيد بأن من واطب على
 الفرائض والتزمها نجا ، ففي الحديث . « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من
 أهل نجد نثر الرأس يُسمع دوى صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو
 يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ « خمس صلوات في اليوم
 واليلة » فقال هل عني غيرها ؟ قال « لا إلا أن تطوع » . قال رسول
 الله ﷺ : « وصيام رمضان » قال هل عني غيره ؟ قال : « لا إلا أن
 تطوع » ، وذكره رسول الله ﷺ « الركاة » قال : هل عني غيرها ؟
 قال : « لا إلا أن تطوع » فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أريد عني
 هذا ولا أنقص . فقال رسول الله ﷺ « أفلح إن صدق » (١) .

ما أعرف في حياتي العلمية إماماً قال بالمقاتنة على البواغل ، وأنا سأعود
 إلى قراءة كتاب « السياسة الشرعية » لكي أعرف بدقه تصحيح العقل
 الذي ذكر فإن الكاتب يعلب أن يكون كاذباً ، ودليل كذبه أنه نسب
 إلى الشيخ الألباني - وهو رجل أعرفه عفاً بيد واللسان وأعرفه يأكل حلالاً
 وهو ممن خدموا السنة فعلاً - أنه مفسر الحديث : « جعل رزقي تحت ظل
 رمحي » (٢) بأن للمسلمين أن يعتصموا أرواقهم بالرماح وأن يحصلوا أقواتهم
 بالسيوف !! أيقول عالم من علماء المسلمين هذا لكلام ؟ .

القضية كلها أن الكاتب يقول : إنه يحارب العنف . قمت - وأنا أحدث
 نفسي عمارة - ويحك !! تحارب العنف بين الناس وما تنطق بكلمة تحارب بها
 العنف بين الحكومات ، إن آلاف القتلى الآن سال دمها على أرض الشام ،
 وقتل البعث البصري ألوف المسلمين ، أليس هذا عملاً ؟ .

هل العنف أن يقول مسلم : يريد أن نحكم بكتاب الله ؟ .

إن الأمر يحتاج إلى أن يفهم المسلمون ثقافتهم على حقيقتها وأن يدركوا أن
 دينهم - في هذا العصر - يناوش بطرق شتى .

أقول قولي هذا وأستعصر الله لي ولكم .

(١) رواه البحري في الإيمان - باب الركاة من الإسلام ١٨/١ ومسلم في الإيمان - باب بيان
 الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ٣١/١

(٢) رواه البحري معلقاً في الجهاد باب ما قيل في الرماح : ٤٩/٤

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الإخوة
أن الإسلام لا يهرمه القوى الأحسية ، إن هذه القوى مهما اشد ساعدها
فإن نازها إلى خمود وثورائها إلى همود ، إنما يصاب الإسلام من داخل
أرضه ، إنما يصاب الإسلام إذا اشتعل الرعاع انقاصروب بالفقه واشتعل
العلماء المداكرون المدرسون يطلب الدنيا وتمتق الحكام واشتعل الحكام في
طوب العلم الإسلامى وعرضه بالنوران حول أنفسهم والسعى لعجالة
لا خير فيها ولا قيمة لها من هذه الدنيا .

جاءني شاب تخرج في كلية الشريعة والقانون وعرض عليه أن يكون
وكيلاً للبيابة فرفض بحجة أنه لا يريد أن يحكم بعير ما أنزل الله !! .

قلت له : إنك في ميدان البيابة وميدان القضاء ستحكم بما أنزل الله في
تسعين في المائة من القضايا التي تعرض عليك ، وإذا كان قانون الحمايات قد
اختلف مع الحدود في بعض الأمور فأقوى الناس على إصلاح هذا القانون
وعلى تخفيف شره وتقدير خطره مسلم صالح ، وإذا بركنا هذا الميدان بحيء
كهاز صهيونى يحكم البيابة والقضاء ؟! .

أى عجلة تجعل شاباً يصعب مستقبل الإسلام في عالم القضاء بهذا لفكر
ويقاوم به آراء الأئمة الذين يرشدون الأمة ويريدون للأمة أن تأخذ تمامها
وكاملها ؟! .

هل يحىء محامون شيوعيون للدفاع عن هؤلاء الذين ألقى القبض عليهم لأنهم يتسببون إلى جماعات تنسب إلى الإسلام لمادا لا تترك هذه الأمة أمر الفقه لمن يحسنون الفقه ؟ .

لمادا يتحدث الرعاع فيما لا يحسنون ويصوبون للأمة الخطأ ويخطفون الصواب ؟ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديارنا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة



نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "يُونُسَ"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

الهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد .

فأول ما فكرت فيه وأنا ألقى نظرات محملة على سورة يونس أن أحد ظواهرها التي لا تحتاج إلى جهد وقلت : لقد تكلمت السورة عن الألوهية ، وعن الطبيعة البشرية ، وعن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

فلألق مع إخواني المصلين معي نظرات في هذه السورة تُبين لنا كيف كان الحديث عن الألوهية ، ثم كيف كان الحديث عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم كيف كان الحديث عن الطبيعة البشرية .

فأما الحديث عن الألوهية فإن أول ما بدأ بدأ بوصف الله جلّ جلاله بأنه الخالق لما يرى وما لا يرى من هذا الكون الكبير : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يوس : ٣] .

كلمة « لعرش » كلمة لا يستطيع البشر أن يدركوا حقيقتها ، وبدل ذلك فإن التوقف عندها من التكيف الذي تُهيأ عنه ، لكن الانطباعات التي تستقر في النفس عندما نسمع الكلمة : أن الله جلّ شأنه ناهد الكلمة في مملكته الرحبة ، وأن سلطانه مُوطَّد في الأرض والسماء ، ما يحرّو بشر ولا ملك أن يعترضه ولا أن يقف في طريقه ، وأن عِلمه شامل مستوعب تستوي فيه الأزمنة ، فأول يوم من بدء الخلق إلى آخر يوم من انتهائه مبسوط في كتاب يستوي العلم به وصوحاً وإشراقاً ، فليس هناك قرب ولا بُعد فيما يتصل بالعلم الإلهي حتى لقد قال أحد المصريين : إن يوس في بطن الحوت كمحمد عند سدرّة المنتهى ، كلاهما في علم الله واضح ، ليس أحد أقرب من الآخر في ذلك العلم وإن كان أحدهما أعظم من الآخر مكانة وأعلى درجة وهو محمد عليه الصلاة والسلام !! .

إذا قيل : « استوى على العرش » فالانطباع انعم أنه الملك الذي استقر ملكه ، وتوطَّد سلطانه ، واستبحرت معرفته ، واستفاضت بعمائمه ، وأن أرمّة الأمور في هذا الملك من أعلاه إلى أدناه لا يُهت أمر منها من الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ [هود : ١٢٣] .

ثم بينت السورة أن الملك يكون للأشياء وللأشخاص ..

يكون للأشياء في قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوس : ٥٥] .

ويكون للأشخاص في قوله تعالى . ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمِنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس : ٦٦] .

ثم قارنت السورة بين الإله الحق وبين الأصفار والأوهام التي تعلق بها
الأنفكس ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَخَالِدُوا
بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةَ فَأَلَيْ تَصِفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ
اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَلَيْ تَتُفَكِّحُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ
لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا
إِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٣١ -
٣٦] .

هذه الأسئلة أهدت أمصي في أهدافها وحقائقها ، قلت : لنعش في
أرض الواقع ، كم بشراً من أبناء آدم يسكنون الأرض ؟ .

يقول آخر إحصاء لهم يبلغون أربعة آلاف مليون .. قلت : أربعة
آلاف مليون فيها ثمانية آلاف مليون أدن ، وثمانية آلاف مليون عَيْن !! .

العين حمار مُعْقَد التركيب ، كيف يلتقط الصور ؟ كيف يقع على
المشاهد ثم يوصل بطريقة ما هذه المشاهد إلى المخ فيكون طريقاً من طرق
الإدراك للعقل البشري ؟

السمع حمار مركب فوق صُذْع الإنسان يسمع الأصوات على
موجات محددة ويوصلها أيضاً إلى المخ فيكون طريقاً من طرق الإدراك
للعقل البشري !! .

هل الذي خلق السمع والنصر خلق هذه الأجهزة وتركها تعمل
وحدها ؟ .

لا إنها لحظة بعد أخرى تستمد قهرتها على العمل وطاقتها في الرطوبة من خالقها جلّ جلاله ، والأمر أشبه بالتيار الكهربائي الذي يوصل إليكم الآن لصوت ، فلو انقطع التيار انقطع الصوت ، والتيار الذي يصل يولد لحظة بعد أخرى !! إشعار الشر بأنهم يبصرون بفصل الله ويسمعون بعممة الله أشارت إليه آية أخرى هي قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرَفِ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٦]

في الواقع تَحَسُّسُ وسائل العظمة الإلهية ومعرفة مداها ممكنة بالعقل العادي لأن العقل العادي لم يعجزه أن يعرف كم آكلًا على ظهر الأرض انفتح فمه على رأس جهاز هضمي من نحو ثلاثين مترًا يشتمل هذا الجهاز بالقضم والضم والتحويل الحماد الذي يأكله من الساعات إلى عظم ولحم وشحم وعصب وبصر وسمع وطاقة وحياة !! .

وبمضي السؤال في حوار يعبرس الإيمان ، ويمحق الإحاد ، ويقضم طهر الشرك ، ويقم دعائم الاعتقاد الصحيح : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ .

عندما بدأ الله الخلق بدأه بكلمة « كن » فإذا كل شيء وفق مراده ، وفق تخطيطه ، وفق تديره ، وإذا كل شيء يعود له ، يستمد منه ، يعده وينتجه إليه طوعاً أو كرهاً ، إن عظام الكافر تسجد لربها لأب ما تناسك في كيانه إلا باسمه جلّ جلاله .

ثم إن الله جلّ جلاله لا يتعبه شيء ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

﴿ وَلَمْ يَئْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ لم يشعر بإعياء ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] . أي ما مسنا من تعب ، ومع ذلك فإن بعض أصحاب العقائد الأخرى

يقولون : إن الله تعب بعد الخلق واستراح في اليوم السابع (١) ، وكان من تقديس الراحة في اليوم السابع أن التوراة حكمت برحم من يعمل يوم السبت إلى أن يموت (٢) !! .

وبمضي السؤال : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع آمن لا يهْدَى إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون ﴾ .

من الذي كشف العطاء عن أعيننا ؟ .

من الذي رسم لنا الصراط المستقيم ؟ .

من الذي بعث لنا أنبياءه يعرفوننا ما ينبغي أن نعرف ؟ .

﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ ؟ .

انظروا إلى القرآن وهو يهز العقل الشرقي ويطلب منه أن يتحمل ويقول له : أما لديك من إحساس بأن لتسوية بين الدكي والبلبد لا تجوز ، بين العادل والحائر لا تجوز ، بين العالم والجاهل لا تجوز ؟ فكيف تسوى الله مخلقه ؟ كيف تحكمون ؟ .

ثم يحییء الكلام عن النبوة في سورة يونس :

بدأ الكلام عن النبوة من الآية الأولى :

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن هم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر

(١) في سفر التكوين — الإصحاح الثاني ١ وخرج الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدس له لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً .

(٢) في سفر الخروج — الإصحاح الحادي والثلاثون ٥ وأما اليوم السابع ففيه سُبُّ عَظْمَةٍ مَقْدُسٍ لرب كل من صنع عملاً في يوم السبت يُقْتَلُ قَتْلًا .

صين ﴿ [يونس : ٢] .

هل العجب أن يكون بشر من الشر مبلغاً عن الله ؟ .

عيد الأصنام استذكرو أن يكون محمد نبياً ؟ .

وأهل الكتاب الذين قالوا عن أسياهم ما كانوا استذكروا أيضاً أن يكون محمد نبياً ؟ .

فمن السي إذا لم يكن محمد نبياً ؟ ! .

إنه المثل الأعلى للسوة التي تعتبر همزة وصل بين الأرض والسماء !! .

وكانت سورة يونس رقيقة سهلة عندما قالت للناس : ما العجب في أن يكون محمد نبياً وهو يتلو على الناس كلاماً لا ريب فيه ولا يتسلل إليه باطل ولا ترقى إليه ريبة ؟ ! .

إنكم تناقشونه وتريدون منه كلاماً آخر ، ما دخله هو في أن يأتي لكم بما تريدون من كلام ؟ .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ [يونس : ١٥] .

أنا أتلقى ولا أؤلف ، أن أستمع ما يوحى إلي وأبلغ ، ولست شاعراً أصوع قصائد أو أديباً يكتب من دماغه ، ولكن الله هو الذي أقرأني فقرأت ، كنت أمياً وعشت بيسكم رماً ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴿ [يونس : ١٦ ، ١٧] .

ثم تقول له الآيات : تحمل إذا قاوموك ، وامض في طريقك ولو اعترضوك ، ولك فيم مضي من الأساء أسوة فقد اتعبوا وانتصب المردة

من حملة الناطل كي يعوقوا سيرهم ويطفئوا نورهم وهيبات ! .

يقول الله له في هذه السورة . ﴿ واتل عليهم بأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ [يونس : ٧١ ، ٧٢] .

كان نوح يدعو إلى الإسلام وهي دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ولذلك يحىء في آخر السورة ليقول للناس : ﴿ قل ياأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ [يونس : ١٠٤] .

هكذا تعرض الرسالة الحائمة نفسها على الناس ، ويستحيل أن يوجد في الدنيا ذو عقل وإنصاف يُمكن من الاطلاع على رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كماهي ثم لا يقتنع اقتناعاً يعوص في أعماق قلبه بأن محمداً حق !! .

ثم يحىء الكلام عن الطبيعة البشرية في سورة يونس : الناس لهم في حياتهم أطوار ، ولهم في دنياهم أحوال ، إن الصحة القوية والثروة الكبيرة والسيطة انصبة قد تجعل الإنسان يطعم ويستبد ويعيش وفق الساعة التي تيسرت له وجعته يأمر ويهى ويملك الإنفاق والإعطاء وإجابة الملمات وقضاء المآرب واللبنات ، ولكن الإنسان يكشف له ضعفه ويشعر بذله وعوديته يوم يتجرد من أسباب قوته !! إنه لو كان ملكاً ذا جلالة لو لو كان رئيساً ذا سلطات مطلقة إنه يدله المرض ويقعه أمام ربه شاعراً بالمقر إليه ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ [يونس : ١٢] .

ثم يسمى القرآن الكريم هذا الأسلوب مكرراً ، فيقول في وصف البشر أفراداً أو جماعات : ﴿ وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا

هم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرأ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴿ [يونس : ٢١] .

إن الحفظة الكرم الكاتين يحصون عليكم التفاصيل التي تقع في حياتكم ، يحصون عبيكم أنكم عند الشدة عرفتم ربكم ، وعند ارحاء نسيت فضلهم ولم تشكروا نعمته ، ثم يوضح حل حلاله هذا المعنى فيقول :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يأبى الناس إنما بغيركم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنتنبهكم بما كنتم تعملون ﴾ [يونس : ٢٢ ، ٢٣] .

أنتم بهذا المسلك لا تصرون ربكم فهو عني عن شكركم ، إنه لا يريد بطاعتكم ولا يقص تعصيتكم ، إنكم تصرون أنفسكم ﴿ إنما بغيركم على أنفسكم ١١ ١ .

ثم يضرب الله المثل . هذه الدنيا كل شيء اردان فيها ، لقد بدأت غرساً محدوداً ، ثم أخذ العنق البشري يكدح ويصل ويتوهق الله أمكن لئاس كثيرين أن يعمرؤا الحراب وأن يجندوا قوى الكون الهائلة لمصلحتهم ، وهذا لون من ألوان التكريم الإلهي ، لكن لهذا التكريم مقتضيات .. إن من التبجح أن تأكل وتشبع ثم لا تقول لمن أطعمك : شكراً لك ! .

إن من التبجح أن تصكر وتقدر ثم لا تقول لمن وهبك السمع والبصر والفؤاد : لك الحمد والمجد ! .

إن الحياة بدأت من الله وتنتهي إلى الله :

قال تعالى : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاخبط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها

حصيداً كأن لم تكن بالأمس كذلك فصل الآيات لقوم يفكرون ﴿ [يونس : ٢٤] .

إن هذه الدنيا سيُخربُ عمرها : ويُقوَّصُ سياتها ، ويختكم إلى الله كهرها وإيمانها ويومئذ ينقسم الناس قسمين : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ [الحاثية : ٢٧] .

هذه السورة فيها حديث متشابه يمكن أن يجمع هذه النظرات في إطار التفسير الموضوعي الذي ألفاه ، ويستعين الله يوماً ثم نعرض لهذه السورة في صورة تجمع شتاتها وتبين أوجها وآخرها . لكن لمناسبة أن هذه السورة قالت : ﴿ أَقْنِ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ هناك حديث قدسي عجز الله من الناس عن إدراك حقيقته ، يقول الحديث : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه .. » (١) .

معنى هذه الكلمات أن لإنسان عندما يؤمن إيماناً يستغرق حواسه ، ويملاً أقطار نفسه فإن فكره سيكون لله ، وإن نظره سيكون لله ، وإن حركته في الأرض ستكون لله ، وإن كدحه سيكون لله وكما قال الله على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

وليس معنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى يتحول إلى يد أو رجل كما يفهم الأعياء ، لا ، إن الحديث يريد أن يفهم أن بعض الناس مد أن يستيقظ في الصباح إلى أن يأوى إلى فراشه ربما كانت حظرات نفسه في ممامه شيئاً يتصل بالدين وباللَّهِ وبالإيمان !! .

(١) رواه البخاري في الرقائق — باب التواضع ٨ / ١٣١

وهذا النوع من الناس هو الذي يستحق الولاية ، وهو الذي يكون لله ولياً !! .

هذا المعنى تأخذه من سورة يونس من آيتين أعقبت إحداهما الأخرى ، قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس : ٦١] .

وبعد هذه الآية التي نحمل الإنسان صاحب الذهن نير القلب ، إذا شهد شيئاً على طهر الأرض أحس أن الله يشهده أيضاً ويشهد ما يره وهو معه في كل شيء !! من استصحب هذا المعنى وعاش به ارتقى إلى الدرجة التي وصفتها الآية التي بعد ذلك : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٤] .

فولاية الله ليست كما فهم المسمون في عصور الأخطاط هذه الجهالات أو العساوات في بعض الأحساد القدرة التي لا يمكن أن يطر إليها مؤمن نظرة احترام ، إنما ولاية الله عقل لمّح بصير بأفاق السماء وفجاج الأرض يرى عظمة الله في مشاهد سكوت فنعكس هذه المشاهد في نفسه استعراقاً وهداية وحصوعاً وتعانياً يحس سمعه وبصره ويده ورجله وتفكيره وحركاته اظاهرة والباطنة لله !! .

سورة يونس سورة فيها خير كثير نرجو الله أن يعيننا على تفسيرها يوماً ما .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ... الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد .

أيها الإخوة : بوصفي إنساناً ممن يخدمون الدعوة الإسلامية أرى لزماً عليّ أن أعرف ما يقوله الناس عن الإسلام ودعوته ، ثم أرى لزماً عليّ أن أعرف ما يقوله المواطنون سواء كانوا على رأيي أو ضدي في الأحوال العصيبة التي يمر بها ، فلا شك أن الأمة الإسلامية تمر بفترة من أخطر الفترات في تاريخها لأن عدوها قرر — كما قلت في وضوح — أن ترتد عن دينها وأن تتنازل عن بلادها !! .

تابعت ما يقال بشأن بقاء الإنسان العربي كما يقال في هذه الأيام ، ولمناسبة « ورقة العمل » التي تدرس هنا وهناك فقرأت في إحدى صحف اليوم كلاماً عن أن برامج التعقيم يراد تغييرها ويُطر فیتطویرها ، ولا بد ونحن بعيد النظر في هذه البرامج أن نعرف ما الراد الذي نقدمه لأبنائنا لِنُمنّي كيانهم الأدبي ، ولِنُرشد وجهتهم في الحياة ..

وكان الكاتب مصمماً إذ قال : إن كل بيئة تمسكت ببوع معين من الراد ، وقال : إن الروس قلوا : نحن نبني ثقافتنا على المادية الماركسية اللينينية ، وإن العرب الأوربي له ثقافة ربي بها أجياله ، وإن الأمريكيين

صنعوا لأنفسهم ثقافة معينة ، ثم انتهى الكلام إلى : ما هو الراد العلمي للأمة العربية ؟ ما هو المذهب التربوي للأمة العربية ؟ ما هو التوجيه الثقافي للأمة العربية ؟ وكان الجواب : لا شيء !! .

وهذا صحيح !! هناك فراغ مخيف في عقول الطلاب في مراحل التعليم المختلفة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية !! .

ليست هناك عقيدة موحدة ، ليست هناك قيم ضابطة للأخلاق ، ليست هناك هذه المثل الرفيعة التي تعلم الناس أن يقفوا عند حدود معينة ، وقد شعرنا بوصوح أن الرجل قد يحرر أعلى الإجازات العلمية وأنه يكون حاد الذكاء إلى درجة العبقرية ولكنه فارغ الفؤاد من الإيمان مقطوع العلاقات برب العالمين !! وهنا يستغل ذكاءه العبقرى في تكوين نفسه على حساب أمته ودينه .

اقترح الكاتب بعد ذلك اقتراحاً قال فيه يريد تعليمياً يعتمد على روح الإسلام !! .

كلام جميل لكنه أيضاً مريب ، لأنه ما حدود كلمة : روح الإسلام ؟ .

هل من روح الإسلام أن نُحيت الأركان مثلاً فلا تكلف الشباب بالصلاة ؟ .

هل من روح الإسلام أن نبيح الخنا ؟ .

هل إذا قلنا : لا بد من تغيير القانون الذي يبيح الخنا جاء إنسان وقال : ادعوا إلى روح الإسلام ؟ .

هل إذا قلنا لا بد من وضع الصلاة كركن أساسي في منهج المدرسة والجامعة جاء إنسان وقال : ادعوا إلى روح الإسلام ؟ .

أنا أريد أن لا نلعب بالكلمات ، إن دين الله لا يؤخذ عن أفواه الجاهلين والقصرين .

إن اليهود أبغ من تشبههم بالشكل في دينهم أنهم وضعوا على رأس سكرتير الأمم المتحدة الطاقة اليهودية واضطر الرجل أن يخلعها بعد أن مكثت على رأسه حياً حتى لا يقال : إنه أصبح يهودياً لكي يظهر بمظهر الحياد ولو تمثيلاً !! .

فإذا كان اليهود قد اعتبروا طاقة الصلاة شيئاً يتمسكون به فما معنى أن يحییء إنسان ليقول لنا : حدوا روح الإسلام ودعوا بنصوص الإسلام ؟ .

إسلام بلا نصوص تصيغ روحه ، إسلام بلا كتاب وسنة لا روح له بل لا عنوان له إنه أكذوبة ، ولذلك يريد أن يعود إلى ديناً موصوعاً وشكلاً ، حقيقة ومطهرأ ، روحاً وجسماً ، فإن هذا التقسيم غير معروف في دين الله .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دياننا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ وَحَاجَةُ الْإِنْسَانِيَةِ إِلَيْهِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير

للهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

ما بعد :

فإن جميع النبوات قبل الرسالة الخاتمة كانت نبوات محمية محدودة الزمان والمكان ، تستغرق جزءاً من الزمن لا تتجاوزه وجزءاً من الوقت لا تتعداه ، يستوى في ذلك المرسلون كنهم بدءاً من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام .

يقول الله تعالى في رسالة نوح : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [نوح : ١ ، ٢] .

ويقول في رسالة عيسى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا حَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف : ٦] .

وفي إنجيل متى : « لَمْ أَرْسَلْ إِلَّا إِلَى خُرَافٍ بَيْتِ إِسْرَائِيلِ الصَّالَةِ » (١) .

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس عشر

أما الرسالة الخاتمة فجاءت على غير ذلك ، خالفت جميع الرسائل
السابقة من ناحية الأبعاد الثلاثة : طولاً وعرضاً وعمقاً ..

طولاً : استغرقت الزمن كله إلى قيام الساعة .

عرضاً : استغرقت البشر جميعاً في المعمور من أرض الله .

عمقاً : تناولت ما يحتاج إليه البشر من عقائد وعبادات ومعاملات
وأخلاق ، ووضعت القواعد العامة والمبادئ المتيرة التي توجه الناس إلى
ما يضمن لهم الصالح في معاشهم ومعادهم على سواء .

وبذلك أصبحت هذه الرسالة لا معقب عليها ، وأصبح نبيها عليه
الصلاة والسلام مسك الختام ، فلا وحي بعد ذلك ، ولن يحيى من عند
الله هدى جديد يحمله بشر آخر .. كان الناس قبل محمد عليه الصلاة
والسلام يشبهون العلام الذي يعيش مع أبيه فهو يأخذ بيده ويمشي به في
الطرق حتى إذا بدأ العلام يكبر قال له أبوه : لست باستمرار معك ادرس
هذه الخريطة فإن لك عقلاً تستطيع أن تعيش به وأن تتعرف به لطرق وأن
تدري به المزالق التي تُتلفك والمصالح التي تُجديك ، حذ هذه الخريطة
وامض بها !! كذلك صعد الله للعالم مع نبي الخاتم صلوات الله عليه ، كان حل جلاله
يستطيع أن يبعث في كل قرية رسلاً ، ومادا يكفه هذا ؟ لا يكلمه شيئاً .
﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ [الفرقان : ٥١] لكه حل جلاله
لم يشأ واكتفى بأن أرسل النبي الذي رسم الخريطة للعالم بعد ما كبر وقال
له : هذا الوحي بيدك مصباح يلقي بصوته على الطريق فتتبع به وتعرف
كيف تصع قدمك في حاضرک ومستقبک .

وهكذا من أربعة عشر قرناً إلى الآن لم يحيى كتاب ولن يحيى كتاب ،
وم يبعث نبي ، ولن يبعث نبي ، اكتفت الحكمة العليا بهذا القرآن الكريم
مع النبي الخاتم صلوات الله عليه .

ولما كان الإسلام دين الإنسانية منذ بدأت - بمعنى أن العقائد الركيكة
فيه هي ما يبعث به المرسلون السابقون - فإن الإسلام بوصفه الجديد يعتبر
دين السموات والأرض ، دين الأزل والأبد ، وليس وراء ذلك شيء له

قيمة : فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى
تصرفون ﴿ [يونس : ٣٢] .

ولأن هذا الدين ساوى الإنسانية كلها فهو كون آخر يضارع
ويساوى الملكوت الكبير لدى تعيش الدنيا تحت سمائه وفوق أرضه ،
ولذلك جاءت ثلاثة أقسام فى القرآن الكريم ، كل قسم يوجه النظر إلى
عظمة هذا القرآن تسيهاً إلى عظمة النسي الذى يلعبه وإلى صحامة الرسالة التى
ورثنا إياها .

قال تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون
عظيم * إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يحسه إلا المطهرون *
تنزيل من رب العالمين ﴾ [الواقعة : ٧٥ - ٨٠] .

مواقع النجوم : محطاتها فى مدارات الملك الواسع .

والوحدة التى يقيس بها علماء الملك سير الكواكب فى هذا الكون
الصالح وحده مدهنة ، فإن السنة الضوئية تعنى المسافة التى يسيرها الضوء
فى سنة ، والضوء يقطع فى الثانية (١٨٦ ألف ميل) أو (٣٠٠ ألف كيلو
متر) (١) .

ولذلك كان الكلام لعرب الأمير : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون
عظيم ﴾ وكيف يعمون وهم يومئذ لا يعرفون المراصد ولا يعرفون الأبعاد
الشاسعة التى تستقل فيها الكواكب ولكن وُجَّه نظرهم إلى أن هذه
الكواكب ومن فيها من أملاك وهذه الأرض وما عليها من جن وإنس يجب
أن يَخُوفُ الله وجهه وأن يسبحى له صديبه وأن يخضع لأمر ربه وأن يستكين
لحكمه وأن يفقد تعليماته . ﴿ أفغير دين الله يبلغون وله أسلم من فى
السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ [آل عمران :
٨٣] .

(١) أى أنه يقطع فى الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل) وفى السنة الواحدة من سينا يقطع
(ستة ملايين مئوت ميل أو ستة آلاف مئير ميل تقريباً) وهذه المسافة هى التى اصطالحوا على
تسميتها (السنة الضوئية) ليعبروا بها عن أبعاد السماء الخائفة ، فمضى قيل لنا إن نجماً يبعد عنا سنة
ضوئية فهذا أنه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل !! .

القَسَمُ الثاني : قسم بالمرئى وغير المرئى ، بالبصرات وما يعجز البصر
لعادى عن إدراكه : ﴿ فلا أقسم بى تبصرون * ومالا تبصرون * إنه
لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول
كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ [القلم : ٣٨ -
٤٣] .

والقسم الثالث : قسم بالكواكب وهى تذهب وتحيى فى الفلك
لرحب : ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * والليل إذا عسعس *
والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش
مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون ﴾ [التكويد : ١٥ -
٢٢] .

سمى الله ذهابها وعودتها الخناساً وكنساً .. تنخس - تعود . تكنس :
تدخل فى فلكها الذى تدور فيه .

عسعس : رقى ظلامه وبدأ يختفى .

هذه الأقسام فى القرآن الكريم تعطى لمحة عن عظمة هذا الكتاب ،
لكن لكى تنكشف الحقائق فى هذه اللوحة ينبغى أن نقول : إنه ما دامت
الرسالة الخاتمة أُيدت بهذا الكتاب المعجز فلا بد أن يكون هذا الكتاب
ممتداً - كما قلت - مع الأعصار المختلفة ، ومعنى هذا : أن المعجزات القديمة
الحسية كان ينتفع بها من رؤاها ، فالدين رأوا عصا موسى تتحول إلى ثعبان
واضح وتلتقط الأعيب السحرة يمكهم أن يؤمروا بل يحب أن يؤمروا لأهم
رأوا بأعينهم كيف تلتقط العصا الأعيب السحرة ، أو كيف تضرب الحجر
فينبجس منه الماء ، أو كيف تضرب البحر فيتحول إلى شاطئين بينهما طريق
يبس ، إلى آخر ما روى الله به موسى أو ما روى به الأنبياء الآخرين .

طبيعة هذه المعجزات أنها تبعث الإيمان فى قلب من شاهدها ، لكن
المعجزة الجديدة مكلفة بأن تبعث الإيمان فى قلوب الناس إلى قيام الساعة ،
ومن هنا كان القرآن الكريم قديراً على محق الباطل ودمعه وعلى إعلاء الحق
وإبرازه ، كان القرآن الكريم قديراً على حث العقل البشرى كى يودى

وضيفته ويعمل فكره في استنباط هذه الحقائق التي تُعرض : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ [الرعد : ١٦] .

هذه آية برلت من أربعة عشر قرناً ، لكنها تحاطب العقل الإنساني في هذا القرن : أين الآهة التي خلقت مع الله ؟ أين الآهة التي رزقت مع الله ؟ أين هي ؟ لا وجود لها : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ .

عندما اقترح الكفار قديماً معجرات لكي يؤمنوا قيل لهم : لن تحابوا : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك حنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

لمادا ينتظر البشر على ظهر الأرض أن تنزل ملائكة من السماء لتشرق لهم قناة أو تُجرى هم بهراً ؟ وما عملهم إحد على ظهر الأرض ؟ وهل رودهم الله بالعقل والمواهب وكرمهم على سائر الخلق إلا ليفحروا طاعتهم البشرية في صنع هذه القنوات وفي عرس هذه الحدائق وفي استنبات التربة حتى تُخرج البساتين وتُخرج الزروع والثمار ؟ .

هذا الدين جاء - كما قلت - ليقول للبشر : لستم في وصاية أحد ، ما تحتاجون - كما يحتاج الصبي - إلى ولي أمر يأخذ بيده وهو يمشي به في الشوارع والميادين ، كبرئهم ، سيروا وحدكم ، استعلوا عقولكم ، قدروا فكركم .

هذا هو الذي صممه لإسلام في معجراته الأخيرة ، ولذلك يقول النبي ﷺ - واضعاً الفرق بين معجراته ومعجزات من قبله - : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما

كان الذى أوتيت وحياً أوحى الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم
القيامة» (١) .

يقول الفيلسوف لمسلم ابن رشد : إن الفارق بين المعجزة الجديدة
والمعجرات القديمة أن هذه من جنس القضية التى جاءت للاستدلال عليها ،
أما غيرها فلا صلة له بالقضية وموضوعها .

وصرب ابن رشد لذلك مثلاً : أرأيت إذا جاءك طبيب يقول لك : أنا
طبيب . تقول له : ما الدليل على طبك ؟ يقول لك : الدليل أنى أمشى على
الماء . هلو مشى على الماء فأنت مضطر لأن تصدقه ، ولكن ما صلة الماء
بالطب ؟ لاصلة .. لكن عندما يقول لك الطبيب أنا طبيب تقول له :
ما الدليل على طبك ؟ يقول لك : المرض العضال أشفيه ، هات ما عندك
من مرضى أعجزوا الأطباء فتحىء له بالمرضى الذين حيروا الأطباء فيداويهم
ويشفيهم ويردهم معافين سالمين يمشون على الأرض آمنين مطمئنين ١١ .

هذا دليل من جنس الدعوى ، هذا دليل من نفس القضية ، ولذلك
كان القرآن دليلاً على صدق صاحبه ، دليلاً من نفس الدعوى . ما هو
الدين ؟ أليس إحياء للقبوب ، أليس إنارة للفكر ؟ أليس هداية للسلوك ؟
أليس شفاء من العلل النفسية ؟ فقد فعل محمد ﷺ ذلك كله بكتابه ،
ولذلك كان هذا الدين ديباً باقياً إلى قيام الساعة ، لو أن إنساناً آخر بُعث
من السماء - فرضاً - فإنه لن يقول إلا ما قاله القرآن من أن الله واحد ،
وأن الطريق إليه هو القلب السليم والعمل الصالح ، وأن هداية الناس
ما تكون إلا بيقظة ضمائرهم وصلاح عقولهم .

ربما تسأل البعض : إن هذا الدين - فعلاً - أدى دوراً عظيماً في

(١) رواه البخارى في فضائل القرآن - باب كيف كان نزول الوحي ٢٢١/٦ ومسلم في الإيمان -
باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ٩٢/١ .

خدمة الإنسانية وارتقى بها ارتقاء لا يمكن إنكاره ، ولكن هل ظل العالم يحتاج إلى الإسلام ؟ .

نقول : ما يزال العالم محتاحاً إلى القلم الأحمر الذي أمسك به الإسلام ليشطب هذه الخرافات التي استولت على عقول شتى وليقول : ﴿ قل هو الله أحد ۝ الله الصمد ۝ لم يلد ولم يولد ۝ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص : ١ - ٤] .

ليكن المسلمون في أيام عجاف ، ولكن العالم في شرقه وفي غربه لا يزال أفقر ما يكون إلى الإسلام رسالة تصلح له أوضاعه السياسية والاقتصادية وأوضاعه الخلفية والاجتماعية

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿[الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله، ثم قدروا الدين الذى شرفكم الله به ، قدروا السبوة التى حملتم رسالتها وآلت إليكم مواريتها .

إن المسلمين فقراء في ميادين شتى ، لعل أولها ميدان المعرفة ، ميدان التطبيق العلمى ، ميدان الحضارة الصناعية ، أو لعلهم قبل ذلك قد خاتوا ديبهم في مجالات شتى .

أنا لا أستطيع لو أن ملكاً مصاباً بحرب أو مصاباً بحمى خبيثة لا أستطيع أن أحمده له ملكه وهو مصاب بالحمى أو مصاب بالجرب ، لا بد أن يصح أولاً قبل أن أحترم جلده وأعترف له بعافيته . ربما كان ناس كثيرون في هذه الدنيا على درجات ملحوظة من الحضارة أو القدرة العلمية والصناعية ، ولكهم ما دموا يجهلون الله أو يحجلونه فهم كالحیوان أو أضل مسيلاً ، لكن إذا حقروا ما وصلوا إليه من مستويات علمية فما أستطيع أن أحترم ما وصلنا إليه من منجزات فكرية وصناعية ، لأننا نحن الذين لم نحسن العمل به .

إن القرن الخامس عشر الهجرى يحىء وبين المسلمين خلافات كثيرة تدل على أن ضمائرهم نائمة وشهواتهم يقضى تدل على أن الحرافات تغدو

وتروح في بلادهم وأن الحقائق مستعربة أو مستكرة في أوهامهم .

إن الأمة الإسلامية في محالات سياسية واجتماعية واقتصادية تحترف التسول أو الصعلكة ولا تحسن الأحد من يبيعها ولا تحسن إدراك ما لديها من نفائس !! .

لذلك يجيء هذا القرن وأما حذر أشفق على مستقبل أمتنا ، لا أراي أهيب بكل ذي ضمير أن يفكر فإن العداوات العالدية والعداوات المحلية في كثير من الأقطار الإسلامية مخوفة ، فإن كنا ستمضي على أحوالنا هذه فإن المصير مخوف والعاقبة قلقة ، أما إذا استيقظنا وتششنا بموارشنا وعرفنا عظيمة الكتاب الذي آل إلينا وشرف السب لسي العربي محمد الذي كرما الله به فإننا نبداً حريقنا صاعدين ونصح أقدامنا على أول السلم لكي يرتفع مرة أخرى .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

(١) رواء مسلم في الذكر باب التصرف من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٢١/٨ .

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الْحَجِّ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

١٩٨١ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فستعين الله تعالى وتلقي نظرة باحثة متدبرة على سورة الحج .

وقبل أن نتحدث عن سورة الحج نذكر أن سوراً كثيرة في القرآن
بكریم يكون عناوینها مرتبطة بشيء محدود فيها ، فمثلاً سورة المائدة سورة
نستغرق بضع عشرة صفحة من القرآن الكريم ، ومع ذلك فإن كلمة

المائدة إنما تشير إلى قضية أحدث بضعة سطور ، أمّ السورة كلها فهي في العقود المبرمة بين العباد وربههم وبين الناس بعضهم ولبعض الآخر ، وضرورة قيام الناس باحترام هذه العقود والوفاء بحقوقها .

وسورة الحج من هذا النحو ، جزء منها في الحج لا تشير إليه الآن لأن للحج مناسبة كبيرة يطول الحديث فيها عن هذه الفريضة ، أما الآن فطردنا إلى المعاني والقضايا والأحكام التي تتضمنها هذه السورة المباركة ، بدأت السورة فحدثت الناس عن الحكمة الأولى من وجودهم :

إيا نحن البشر خُلِقْنَا لنعبد ربنا ، خُلِقْنَا لنعيش أتقياء بررة لا أشقياء فجرة ، ويجب أن يعتبر الناس هذه الحياة مهاداً ليوم يحىء بعد ذلك يحاسب الناس فيه على كدحهم الطويل إبان عيشتهم على ظهر الأرض .

هذا المعنى معنى لتقوى وأن تكون لنا ضمائر ترقب الله وهي تعمل في هذه الحياة — هو ما بدأت به سورة الحج :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسَكَارَى وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ ، ٢] فتقوى الله تعني وجود قلب خاشع بين حمايا الصدر يرقب رب العالمين فيما يفعل ، ويترك ، فيما يقدم ويؤخر . والناس أمام هذا المعنى فرق كثيرة : بعضهم آمن بالله وصدق بلفائه ، والحديث عن لقاء الله يكثر في القرآن الكريم ، والسبب أننا سكرى بخمرة الحياة ، نحن نعيش لديانا ، تغلبنا غرائزنا فما نفكر إلا في يومنا الحاضر ، فنحن محتاجون إلى تذكير مُلِحٍّ باللقاء الأخير وباعتبار هذه الدنيا تمهيداً لما بعدها .

وقد ساق القرآن الكريم — أول ما ساق — ما يمنع الريبة :

ما الذي يجعلك لا تصدق بقاء الله ؟ .

ما الذي يجعلك ترتاب في البعث ؟

إن كثيراً من الناس يشكون في أن هناك حياة آخرة !! ما السبب ؟
السبب أنهم غافلون ، فإن الوعد بالبعث يمكن أن يستبعد من عاجز كما أنك
ترفض أن تصدق شخصاً مُفلساً يقول لك : سأعطيك ألف جنيه !! .
من أين له ؟ إنه مفلس ، فكيف تصدقه ؟ .

لكن عندما يقول لك من يشتغل كل لحظة بالإيجاد . سوف أوجدك
مرة أخرى ! فكيف تكذبه ؟ .

نحن الآن ونحن نتكلم تكون أرحام الأمهات قد دفعت بعشرات من
الأطفال بنين وبنات في القارات الخمس !! .

من الذي أنشأ هذه الأطفال في بطون الأمهات ١٢ .

البشر يأكل لقمة حبر مع قطعة حس أو مع أي أدم من الإدام فمن
الذي يحول هذا الطعام إلى حيوانات موية في الرجل وبويضات في
الأنثى ١٣ .

من الذي يجعل هذه الأصول تمثل فيها خصائص الحس الأدبية
والمادية وتكتسب الموروثات العادية وغير العادية في الآباء والأمهات ١٤ .
صانع هذا — بدهة — واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفواً أحد !! .

إذا قال لك : سأعيدك مرة أخرى فم ستعرب ؟ إنه من الآن يوجد
من عدم ، ولذلك يقول للناس : ﴿ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم
يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ
الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴿
[العنكبوت : ١٩ ، ٢٠] .

وهذا ما ركزت عليه سورة الحج وهي تبني الأمة المؤمنة (١) :

(١) بناء الأمة المؤمنة هو محور الذي دارت عليه السورة كما سيجيء في شها حديث شيخنا بركة الله
به

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنَبِّئَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

الحقيقة أن هناك دورة في هذه الحياة عندما يَأْمَلُ فيها أهل العقل وأولوا الألباب لا بد وأن يحسوا بأن وراء هذه الدورة حُكْمَ الْحَكِيمِ وَلُطْفَ اللَّطِيفِ وَحِيرَةَ الْخَيْرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَأَنَّ النَّاسَ تَأْكُلُ الْأَطْعِمَةَ وَالْحَبُوبَ وَاللَّحُومَ وَالنَّوَالَحَ وَالْفَوَاكِهَ وَشَتَّى الْأَصْنَافِ الَّتِي تَزْجُمُ الْمَعْدَّ ثُمَّ تَلْفِظُ هَذَا كُنْهَهُ عَلَى نَحْوِ مَعْرُوفٍ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ هَذَا كُلُّهُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى هَوَاكِهِ نَاصِجَةً وَإِلَى حَبِّ الْحَصِيدِ ، وَإِلَى أَلْوَابِ وَطَعُومِ حَلْوَةٍ ، وَإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسْجُرُ الْعَيْنَ وَيَتَّهَرُّ الْقَلْبَ !!

من صاع هذا ١٩ .

يَحِبُّ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا قِيلَ لَهُ إِنْ الْبَعْثُ حَقٌّ أَنْ يَقِيسَ الْغَائِبَ عَلَى الْحَاضِرِ وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ سَهْلٌ ، وَالْأَدْلَةُ مُبَعَثَةٌ فِي آفَاقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٦ ، ٧] .

وسورة الحج — بعدما يَسْتَكْرِفُ كَيْفَ تُبْنَى الْأُمَّةُ الرَّاشِدَةُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ — يَسْتَأْذِنُ هُنَاكَ فِرْقاً أُخْرَى تَرْفُصُ هَذَا الْكَلَامَ وَتَأْبَاهُ :

﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

الذين آمنوا : هم المسلمون ، والمثل الأخرى مثل صاله بعيدة عن الحق ، وقد أعطى هذا لإحمال فكرة عن اليوم الآخر وأن رب العالمين سيفصل بين هؤلاء جميعاً ، حتى يحيى عيسى ابن مريم ويقول له :

﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ [المائدة : ١١٦] كل إنسان سيحاسب : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ [الأحزاب : ٨] .

هذا الإحمال هنا فصلته السورة أكثر في أماكن متعددة .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : ٣] .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا حزين وبذيقة يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك مما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [الحج : ٨ - ١٠]

ثاني عطفه : أي لاوى عقه لأن الإنسان عندما يرفض الشيء يلتوي ويتركه استكباراً^(١) .

قال العلماء : إن أسباب المعرفة في هذه الآية :

هناك عقل واضح تنشأ عنه معلومات صحيحة .

وهناك وحي صادق ينشأ عنه علم صحيح بتوقيف من السماء .

وهناك مَنْ يتبع أهل الفكر الناضح ، ومن يتبع أهل الوحي الصادق .

وهناك مَنْ لا يتبع عقلاً راشداً ولا وحيّاً صادقاً بل يتبع هواه .

(١) وهذا كقوله تعالى ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلاط من قبله وقال ساحر أو محنون ﴾ الداريات ٣٨ ، ٣٩ . وكقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستعمر لكم رسول الله لووا رؤسهم وأرأيتهم يصرون وهم مستكبرون ﴾ المنافقون ٥٥ . وقال لقمان لابنه . ﴿ ولا تصغر حنكك للناس ﴾ لقمان ١٨ .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

هذا النوع من الناس الذي لا يتبع صريح المفعول ولا صحيح المنقول هو أغلب المتحدين !! .

إن نصف العلم يقود إلى الكفر ، أما العلم كله فيقود إلى الإيمان ، هناك أنصاف متعلمين ، أو أنصاف قارئين ، أو أنصاف مثقفين ، هناك شخص قرأ بعض الكتب أو اطلع على بعض الفلسفات ولكن كما قال الشاعر (١) :

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
هناك ناس — فعلاً — رأيهم يدعون المادية أو يدعون العقلانية أو يدعون الماركسية فإذا حاورتهم وتشتت عقولهم وقذرت مسافة العمق فيه لم أجد إلا عروراً بالجهل وضحالة في البحث وجوراً في استخلاص النتائج !! .

هذا نوع من الكفار تحدث عنه سورة الحج .

هناك نوع آخر تحدث عنه السورة وهو النوع الذي يعيش لبطنه أو يعيش يربط النتائج بالكماسب فهو ممكن أن يبقى على الإسلام إذا وجد ربحاً عاجلاً أو كسباً سريعاً ، وكان بعض الأعراب يعتنق الإسلام فإذا خلفت امرأته ذكر أو أنتحيت إبله كثيراً وأحصبت أرضه قال : هذا دين طيب ، فإذا وجد أن الأمور تعلت عليه فحلفت امرأته بنتاً أو لم تنتج أرضه خيراً كثيراً قال : هذا دين لا خير فيه !! (٢) .

(١) الشاعر هر أبو نواس وببيت في ديوانه ٧

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » قال : « كان الرجل يتقدم المدينة فإن وجدت امرأته علاماً وتنجت حيلة قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنتج حيلة قال : هذا دين سوء » البخاري — تفسير سورة الحج ٦ / ١٢٣ ،

هؤلاء هم الذين تنزلتهم الآية الكريمة في سورة الحج ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [الحج : ١١] .

على حرف : أي على طرف ، ليس متمكناً ، أو على وجه واحد في الحياة ، والحياة حلو ومر ويسر وعسر ، والله عز وجل يختير — حتى — أحب العباد إليه بالشدائد لا لأنه يكرهه بل لأنه يعره ، أترى سيدنا موسى عليه السلام الذي يقول الله فيه : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه : ٣٩] هذا الذي ألقى الله عليه محبة منه يُرمى في البحر وهو طفل وتحرم أمه من رؤيته وتكلف بهذا الاختبار المروع لقلب أم !! لكن هكذا الحياة أساسها الاختبار ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر : ١٥ — ١٧] .

كلا : ليس الأمر كذلك ، هذا كله خطأ ، هذا تفكير حائر بائر لا قيمة له ، فلا كثرة المال تدل على التكريم ولا قلة المال تدل على الإهانة ، وإنما التكريم والهوان لهما معان أخرى ، يكرمك الله عندما يتصدق عليك بذكره ، وعندما يمنحك السداد تُقوي حبلك به وتُحسِّنُ علاقتك معه ، وأما الهوان — يسأل الله لعافية — فهو أن يصاب الإنسان في دينه ، يصاب بفسوة القلب أو حمود العين أو قتراف الخطأ دون مبالاة ، هذا هو الهوان ﴿ومن عن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ [الحج : ١٨] .

هذه نماذج من خلق الله كما رسمتها الصفحات الأوليان من سورة الحج ، لكن نعود إلى تكوين الأمة المؤمنة ..

هل ستعيش الأمة المؤمنة في مواجهة الفرق الأخرى في سلام ؟
هل سيلقاهم الضالون من كل فج بالتحية والابتسم ؟ .

لا ، بل سيكون هناك خصام في فهم الألوهية وفي الطريق الصحيح
لحياة البشرية ، وقد أشارت السورة إلى هذا عند قوله جل شأنه :

﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب
من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم
والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم
أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق * إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا
الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب
ولؤلؤاً ولباسهم فيهاحرير * وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى
صراط الحميد ﴾ [الحج : ١٩ — ٢٤] .

نحن نخاصم الآخرين ، نخاصمهم في ماذا ؟ .
نقول لهم : إن الله واحد ، ويقولون : أكثر من واحد !! .
نقول لهم : إن الله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * له
مقاليد السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء
عليم ﴾ [لشورى : ١١ ، ١٢] .

ويقولون في الله كلاماً آخر دون ذلك بكثير ، فلا يثبتون له الكمال
الواجب ولا ينزهونه عن المحدثات والنقائص !! .

لقد خاصمنا الناس في الله وخاصموننا في الله ، وهنا نجد القرآن الكريم
يقول للمسلمين : ستكونون في رعاية الله وكلاءه يوم تثبتون بدينه
وتحافظون على عقائده وتمسكون شرائعه ، ثقوا أن الله سيؤازركم ويدفع
عكم لأنه ظهير للمؤمنين عندما ينطلقون في هذه الدنيا يعملون له ويدعون
إليه ويتحملون في سبيله ، قال تعالى في هذه السورة :

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾
[الحج : ٣٨] .

إنه يحب المؤمنين ويدفع عنهم ، ويكره خونة النعمة الذين يمرحون في
فصل الله ويحذون أياديهم على رؤوسهم وأبدانهم وأرواحهم .

ثم يقول للمؤمنين : قد تتعبون من أجلي ، تحملوا فالكفاح ضريبة على

الأحياء وهو ضريبة أثقل على أهل الإيمان من قديم ، فإن حملة صحف الوحي في التاريخ الأول دافعوا عن عقائدهم ، والدين يحملون صحف الوحي ليصحبوا بها مسيرة الإنسانية حتى يوم البعث يجب أن يدافعوا عن صحفهم وعن صلواتهم وعبادتهم ، وليدركوا أنهم مصورون حتماً !! .

لكن متى يجيء النصر ؟ .

يوم ينظر الله إليهم فيحدد أن إسلامهم ليس أمراً نظرياً ، وأن إيمانهم ليس خيلاً حائراً عابراً ، لكن عندما يتحول الإيمان إلى عمل ويتحول اليقين إلى سيرة تفرض نفسها على المجتمع عدئذ ينصر الله من يعملون له ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١] .

مؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله لا بد أن يستعيدوا الأرض التي فقلوها لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده !! .

لكن متى يستعيدون الأرض التي فقلوها ؟ .

يوم يعلم الله من أحوالهم أنهم إذا ملكوا انتشرت الصلوات ، وأديت الزكوات ، وعلا صوت المعروف ، وخفت أو انمحي صوت المنكر . أما إذا عم الله من أحوالهم أنهم إذا عادوا إلى الأرض أو مكَّنوا فيها ما أقاموا صلاة ولا آتوا زكاة ولا رجَّحوا معروفًا ولا قبحوا منكراً فإن الله تعالى يَكِلُهُم إلى أنفسهم وليس هنالك إلا البوار !! ولذلك لم أستغرب صيغ القدر عندما طُرد المسلمون من الأندلس فإن آخر ناس منهم أمضوا صلحاً عبر شريف .

قلت في نفسي : ليس هؤلاء أولاداً شرعيين للعاتح العظيم طارق بن زياد الذي أحرق السعير وقال لطلاب الآخرة : أين المهر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر !! .

أما الذين عاشوا في الترف فإيهم سلّموا لأهم ما يصلحون للقاء في الأرض ، وعندما أسمع بعض الناس يقولون : نقيم دولة فلسطين علمانية أشعر بالأذى والكبد وأقول : لن تقوم لفلسطين دولة علمانية أبداً لأن الله لا يصبر بئنة من يقولون : نقيم دولة لا دين لها بل سيهرمهم أمام من يقول : نقيم دولة يهودية لأن هؤلاء هم دين وإن كان جائراً محرّفاً مفسداً .

قد يطول الصراع بين الحق والباطل ، وهذا تقول السورة :

﴿ ويسعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ . وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴿ [الحج : ٤٧ ، ٤٨] .

وكم من قصور خربت ، وكم من آبار جفت ، وكم من قرى تلاشت ، وسنة الله في كونه هكذا هزيمة وبصر ، ومدوجرر : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ . ويسعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ . وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴿ [الحج : ٤٥ — ٤٨] .

بعد هذا الدرس للأمة الإسلامية جاء درس ثان وهو درس يحتاج إلى تأمل فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين في هذا الدرس أن أعداءه على درجة كبيرة من الخذل وطول اللسان وكثرة الكلام وسوق الحجج المزيفة ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى

بعض زخرف القول غروراً ﴿ [الأنعام : ١١٢] .

كلام مزخرف ، وصحف مليئة ، وكتب مطبوعة طبعاً جيداً ، وأباشيد وأعان وأنعام وألحاح وأشياء كثيرة تساند الباطل !! فهل يكون الحق الذي يلقاها حقاً عيباً أو قاصراً أو ضعيف الأدوات ؟ لا ، إن جاءوا بدليل جتهم بالدليل الأقوى ، إن جاءوا بحجة جتهم بالحجة الدامعة ، وفي هذه السورة نجد أربع آيات متتابعة يقول الله فيها :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله علم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لهم شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عقيم ﴾ [الحج : ٥٢ - ٥٥] .

هناك ثلاثة أقوال في هذه الآيات :

القول الأول : أن أهل الباطل هم لسنّ وقدره على الخذل وهم يساندون باطلهم بأنواع من الفسفات وبراع من التوجيه تمليء بها صحف وإذاعات — وهذا ما نسميه إلقاء الشيطان — كي تُعكر رسالات الأنبياء والمرسين ، ولكن أهل الحق يواجهون هذا العرو العقلي ولا يرالون به حتى يكشفوا زيفه ويفضحوا سوائه ويردوا الناس عنه وهذا إلى يوم القيامة ، وبعض المستعملين يُخدع بالحجح الواهية والبرامج الكنوب فيتبعها ، والبعض الآخر يتضح له الحق فيؤمن به !! .

القول الثاني : وهو قول رأبته إن كان حقاً وخيراً فهو من عند الله ، وإن كان شراً وخطأً فهو من عندى أنا : أن الوحي السماوي يبدأ صافياً نقياً فإذا شى طريقة في ديب الناس أخذ يتلوث ، والواقع أن نهر الثقافة الإسلامية بدأ مع العصر الأول نقياً قريباً من السماء كماء النيل في محراه الأعلى قَطُرٌ صاف ليس فيه إلا ما يَروى الظمأً ويُبت الزرع ثم يأخذ النهر طريقه فإذا

على مَرِّ الأيام يدحل في الماء تراب وجراثيم بل أقدار وجيف للموتى وبلاء
كثير ، فلو أن الناس تناولت الماء بوضعه عندما يصل إلى القاهرة مثلاً لجرَّ
عليهم الأمراض والعدل !

ما بُدَّ من تنقيته حتى يعود سماوياً كما كان .

ما بُدَّ من عزل العناصر الغريبة التي عُلِفَتْ به .

وهو عندما يُعزل يعود إلى أصله الأول .

كذلك الثقافة الإسلامية عَرَضَ لها من أهواء الناس ومن جهالة
المتحدثين ومن أعلاط المتفهمين ومن شهوات الحاكمين ما أساء إليها ،
وعَمَلُ العلماء والمحدثين أن يعيدوا الثقافة الإسلامية بقية ، وهنا يتناولها أهل
الخير ، ويهتدي بها أولو الرشد ، وينتفع بها المؤمنون ، أما الذين ارتابت
قلوبهم فهم يحتاجون إلى في هذه الثقافة من غريب أو من دخيل كي يتعلموا
عنها ولا حجة لهم في هذا !!

القول الثالث : قول محذور لا قيمة له وإن ذكرته بعض كتب
التفسير ، وكان على ابن كثير عفر الله له ورضي عنه أن يحمل على هذا
القول حملة مشددة بدل أن يسوقه بشيء من الحياد أو من الغمز
الحميف (١) — : هذا القول هو أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة النجم فلما
بلغ هذا الموضع : ﴿ أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾
[النجم : ١٩ ، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق (٢) العلى
وإن شعاعتهن تُرتجى » قالوا : ما ذكر آلتنا بخير قبل اليوم . فسجد

(١) قال ابن كثير قد ذكر كثير من المفسرين هذا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من
المهاجرة إلى أرض الحبشة هذا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنهم من طرق كلها مرسلة ، ولم
أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم . تفسير القرآن العظيم — تفسير سورة الحج : ٥ /
٤٣٨

(٢) الغرانيق - الأصنام وهي في الأصل - الذكور من طير الماء ، واحداً غرنوق بصم فسكون
بصم النون ، وقد كان العرب يرمون أن الأصنام تفرسهم من الله وتشجع لهم فشيبت بالطيور التي
نعنو في السماء وترتفع

وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى . أي قرأ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي في قراءته !! .

هذه شيء عجيب ، ومع هذا فإن بعض المشتغلين بالنسب — وهم ليسوا أهلاً للاشتغال بها — روجوا هذا الحديث وهو حديث مكذوب من ألقه إلى يائه ولا أساس له .

بعد أن بُيئت الأمة الإسلامية على هذه المعاني تُحدث لها رسالتها — في آخر السورة — على شكل دوائر ، كل دائرة تلحقها دائرة أوسع منها

﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ [الحج : ٧٧ ، ٧٨] اركعوا واسجدوا : هذه دائرة الصلاة .

وعبدوا ربكم : هذه دائرة العبادة وهي أوسع من دائرة الصلاة .
وافعلوا الخير : هذه دائرة الخير وهي أوسع من دائرة العبادة العادية .
وجاهدوا في الله : هذه هي دائرة الجهاد وهي الدائرة الأوسع والأوسع .

وفي ثانياً السورة ما يُلهم الرشد ، وما يبسي الحق ، وما يوحى المظهر إلى عظمة الله ، وجاء هذا في عدة آيات بدأت باستهمام فيه تعجيب وتفتيق للذهن وتفتيح للعقل الإنساني :

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [الحج : ١٨] .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير * له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغني الحميد ﴾ [الحج : ٦٣ ، ٦٤] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

هكذا نلقي نظرة عامة على سورة الحج لنرى اهور الذي تدور عليه وهو . كيف يتقي المؤمنون ربه ، وكيف يواجهون الفرق الأخرى التي لا تتقي الله ولا تحس معرفته ، وكيف تكافح مكرها وتُبطل كيدها وتعيش إلى آخر الدهر محلصة لكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ، وكيف تقدم من سلوكها الممدج في دوائر كالموج ، تقدم للناس الخير وتوضح مساهجه في كل أفق .

أقول قولي هذا وأستعفر الله لي ولكم .



الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿... الذي يقل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام التبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

إن ديب هذا دين واضح ، كتابه لا نظير له في إنصاف الناس من أنفسهم وفي قيادتهم إلى ربهم ، وعندما تكون إيجابيين — تُشغل بالحق كما عرفه الله لما — لن يبقى في حياتنا مجال للباطل الذي يشغلا الآخرون به . وقد رأيت أن أعداء الإسلام فيهم الآن استطالة على المسلمين ، وفيهم الآن نوع من الرعبة في السخريه منهم أو الصحتك عليهم .

سئلت في عدة بلاد عن ورقة يجدها الناس عندما يفتحون بيوتهم أو محامهم التجارية فيها عدد من أسماء الله الحسنی يطالبون بكتابتها ثلاثين أو أربعين مرة وإلا تُحرب البيت وأفلست التجارة !! .

وأغلب الدين يكتبون هذه الأوراق ليسوا مسلمين بل من ملل أخرى تريد أن تشغل المسلمين ، إن كانوا طلاباً تشغلهم عن دروسهم ، وإن كانوا تجاراً تشغلهم عن محامهم .

أيها المؤمنون : لا أمر إلا ما أمر الله به ولا نهى إلا ما نهى الله عنه ، ما أستطيع أن أوجب شيئاً لم يوجبه الله — وما أستطيع أن أحرم شيئاً لم يحرمه الله .

الإيجاب العام لله وحده يبعه نبيا عليه الصلاة والسلام .
فإذا جاءت ورقة من هذا النوع فلا تكثر بها ولا تلتفت إليها ،
اكثر بالحق الذي كفك الله به ، اشعل نفسك بتعاليم الدين التي وضحتها
الله لك .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديارنا التي
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [الحل . ٩٠] .
أقم الصلاة



حَاضِرُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

حطبة عيد الفطر المبارك سنة ١٤٠٩ هـ

بِسَاحَةِ مَسْجِدِ مُصْطَفَى عَمُودٍ بِالْجِزَةِ

الحمد لله كما يحب ربنا ويرضى ، الحمد لله حمداً دائماً طيباً كثيراً مباركاً فيه ، الحمد لله على نعمه الباطنة والظاهرة ، بحمده سبحانه وتعالى كما يليق بآلائه الباهرة ، حمداً في السر وفي العلن ، وفي الأولى وفي الآخرة ، بحمده سبحانه وتعالى على ما أفاء من نعمه ونسأله أن يحشرنا إليه ووجوهنا باضرة مستبشرة ، كما نسأله أن يجعل حساننا عنده وفق وعده المبين في كتابه الكريم : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ [الرمر : ٣٥] .

الحمد لله : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك
 فى الملك ولم يكن له روى من الذل وكبره تكبيراً ﴾ [الإسراء : ١١١]

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر .
الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر .
كل درة في الأرض وكل محرة في السماء ، رب الأمكة كلها ، ورب
الأزمة كلها مكاناً بعد مكان وزماناً بعد زمان ﴿ قل لمن ما في السموات
والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب
فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ وله ما سكن في الليل والنهار
وهو السميع العليم ﴿ [الأنعام : ١٢ ، ١٣] .

الحمد لله ، والله أكبر ، الله أكبر ما سبح بحمده كل شيء ، وما عنا
لوجهه كل حي ، وما تطلع إلى رفده ' كل كائن : ﴿ إليه يرد علم الساعة
وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه
ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما مت من شهيد ﴾ [فصلت :

(١) الرُّفْدُ : العطاء والصبة

٤٧] . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الميئين وسيد المصدين ، إمام الخليفة الذي أسدى لشريعة مالم يسده أحد . ومع ذلك فإن جزاء النبي الحاتم أمير الأنبياء أن يتواصى حلف الأطلسى بجميع دوله على حماية وغد (١) ولع في عرصه وأساء إليه وإلى أهل بيته ونال من المسلمين كلهم ، وكان حرية الرأي هي حرية الشتم والبداءة والإهانة ، ويبقى محمد عليه الصلاة والسلام كما قال فيه مادحه البوصيري :

كيف ترقى رفيك الأنبياء يا سماء ما طولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حا ل سنأ منك دونهم وسناء
إمما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماء (٢)

صلوات الله وسلامه على صاحب الرسالة الخاتمة ما قامت برها الأشياء
وما دامت في وجودها الأرض والسماء .

أما بعد :

أيها المسلمون : نحن في هذه الأيام في حاجة إلى وقفة تأمل ننظر فيها إلى حاضر العالم الإسلام كي نبصر ما يحتاج إليه وكي نأخذ العبرة مما يرحى بالعبرة ، فقد شعرت بأن القوى المعادية للإسلام تُعربد قريباً منا وبعيداً عنا ، ونحن يجب أن ندرك ما يراد بنا وما يبيت لنا .

إن فلسطين لا يحف فيها دم ، وكما يطلع الناس على النشرة الجوية في كل صباح يتسمعون إلى أبياء القتل في الانتماضة التي أمدتها الله وحده بالقوة إلى يوم الناس هذا !! .

ونرى أن القلة المارونية في لبنان - بعد أربعة عشر عاماً من الدماء المسفوكة والثورات الدائمة - تأتي إلا أن تضع يدها على الكثرة المسحوقة

(١) هو الكاتب سلمان رشدي صاحب كتاب آيات شيطانية .

(٢) ديوانه : ١ ط الخليل .

وأن تفرض عليها ما تشاء !! .

ونرى العروبة والإسلام في السودان يحاربان حرباً شعواء حتى لكأنا
نخشى أن يكون النطق بالإسلام جريمة هناك !! .

إن الأمر يحتاج إلى أن نتعرف حاصر العالم الإسلامي الذي صاق به
أحد الشعراء فقال :

قد استردَّ السبايا كل مهزم لم تبق في أسرها إلا سبايانا
وما رأيت سياط الظلم دامية إلا رأيت عليها لحم أسراما
ولا نغوت على حدَّ الظلِّبِ أنفأ حتى لقد حجلت ما سبايانا

إننا نواجه آلاماً متعبة ، ولكن الخبراء بالتاريخ الإسلامي يعرفون أن
هذا التاريخ له خط بياني متعرج بشكل يستدعي الدراسة ، فهو يَهْوِي إلى
القاع حتى لا يكاد يبين ، ثم يصعد إلى الأوج حتى يبلع عمام السماء !! .

وربما كان المسلمون في أيامنا هذه في فترة الخفاف من تاريخهم ، لكن
الصفحة الكئيبة التي تراها لحاصر العالم الإسلامي سوف تشعها بإذن الله
صفحة مضيئة مشرقة ، ذاك شأن تاريخنا كله ، نرى هذا التاريخ يَهْوِي ثم
يَصْعد ، نرى أمتنا تمرض ثم تصحو ، وتقع ثم تثب ، وكما قال ربنا :
﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

شاء ربنا أن يذهب بيت المقدس في فترة من فترات الجَزَر (٢) من
تاريخنا ، ولكن الجزر لا يبقى بل يعقبه مدٌّ ، وفي فترة المد - بعد قرن من
الزمن - استبقدنا المسجد الأقصى وأعدنا فلسطين إلى كياننا !! وفي يوم
ما سقطت بغداد تحت سايك التتار ومؤامرات الصليبيين وكانت صفحة
سوداء ، ولكن التاريخ لم يقف فقد استعدنا بغداد واستطعنا بعد بغداد أن

(١) الظلِّب : جمع ظَلَبَة وهي حد السيف والسيان والخنجر وما أشبهها .

(٢) الجَزَر : انحسار ماء البحر عن الشاطئ عند المد .

يستعيد القسطنطينية وأن جعلها عاصمة للأمة الإسلامية بعد أن كانت عاصمة لدول الرومان !! .

إن تاريخنا يحفظ ويرتفع ، وقد تكون الأمة الإسلامية الآن في فترة محنة كمثيرة سيلاء الصليبيين على المسجد الأقصى أو كمثيرة سقوط بغداد في أيدي التتار، ولكن اهراق ما بقيت والانتصارات ما تحلفت ، وسوف يعود إلى أمجادنا التي فقدناها وسوف يسترد كل شبر ونغسله من أوضار (١) الذين لوثوه بعدواهم .

إن نبينا عليه الصلاة والسلام بشرنا بقوله : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدبر ولا وتر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر » (٢) أى ليمتد الإسلام مع امتداد الليل والنهار ومع مساقط الظلمة والنصوء على أرض الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [اصف : ٩٠]

لكن الخسائر التى أصابتنا كانت لها أسباب والانتصارات التى أحرزناها كانت لها مقدمات ، وعلى المسلمين إذا جدد جدتهم واصطلحوا مع ربهم أن يتعرفوا ما هى أسباب الانكسارات التى أصابتنا وما هى أسباب الانتصارات التى أدركتنا وأنقذتنا ، وعندما نعلم أسباب المد والجزر فى تاريخنا فإننا نعود صعداً من حيث جئنا ولا حرج علينا .

أيها الإحوة . لا تطبوا الدهر لوياً واحداً ، إنما الدهر شعون وفتون ، بعد انتصار بدر وقعت هزيمة أحد ، ولم تكن هزيمة أحد قاضية علينا ، وبعد انتصار الفتح وقعت هزيمة في حبر ثم أعقبتها نصر ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

(١) التوضير . الدون والتوسع . والجمع أوضر .

(٢) رواه أحمد ١٠٣/٤ والحاكم في المستدرج والملاحم وقال : صحيح ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في الكبير ٥٨/٢ وقال في مجمع الروائد : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح ١٤١/٦ . والمراد بيت المدبر والوبر . أى أهل البوادي والى والقري والأمصار

شاء الله أن يكون قدر أمتنا أن تحارب في جهنم باستمرار ، ففي أيام
النبي ﷺ كانت الحرب مع المشركين وكانت مع أهل الكتاب ، وفي دولة
الخليفة كانت الحرب مع الفرس وكانت مع الرومان ، وبعد ذلك كانت مع
الصليبيين وكانت مع التتار !! .

إن نصرنا مرهون بجهتنا الداخلية التي إن انتصرنا فيها كانت الخاتمة
لنا ، هذه الجهة التي ينبغي أن تنتصر فيها جهتنا الداخلية ، صديقتنا يربا ،
صديقتنا بإخواننا ، صديقتنا بأنفسنا ، صديقتنا بالأصدقاء والخصوم على سواء

يجب أن ندرك أن المسلمين لن يكسبوا نصراً إلا بالإسلام ، وأنهم
بالإسلام وحده تعلموا كلمتهم ما بقوا معتصمين بعروته ، فإذا حمت قبضتهم
عليه وانحلت عراهم معه هبطوا وانكسرت أوجسهم فلم يستطيعوا
التحليق !! .

الإسلام هو أبونا وأما وهو حياتنا وعربنا ، ويجب أن نتشبت به وأن
نحيا به وأن نحيا له .

أيها الإخوة : الحملة الإسلامية تحتاج إلى نصيح ، وقبل أن أسدى
النصح لها أتكلم عن واقع مر أحسست بمرارته في فمي !! .

إن التقاليد القديمة أن يُعفى عن المسحوبين أيام العيد ، فما لدى قلب
الصفحة وجعل هذه الأيام على المقيص ؟ يؤخذ أبرياء ويعتقون ويسحبون
في أيام العيد ؟ إسى ما أجد إلا أن أفرع إلى الله سبحانه وتعالى وأن أدعو
وأن تؤمنوا معي : اللهم أحسن خلاص المسحوبين ، اللهم أحسن خلاص
المسحوبين ، اللهم فك إصار المعتقلين ، اللهم فك إصار المعتقلين وأرجعهم
إلى أهاليهم سالمين .

أيها الإخوة : لكن المسلمين يحتاجون إلى أمور حتى يدرك ما فاتنا :
لعل الأمر الأول : أن تتوحد كلمتنا في جهة سواء ، وبغير شك وحدة
الصف تعين على إدراك العاية وتحقيق الأمل .. فإذا عرّت هذه الوحدة
لسبب من الأسباب فلتكن هناك وحدة اهدف ، ومعنى ذلك أن نتشبت
نحن المسلمين بصفوفنا المتراسة وراء غاية واحدة .

يا عباد الله : إن حكماء صهيون يرسمون سياسة اليهود ، وإن الفاتيكان ومحس الكنائس العالمى يرسم السياسة الصليبية العالمية 11 .

أريد من الأمة الإسلامية - وفي طليعتها الإسلاميون - أن تتفارب صفوفهم ، وأن تتراص في جهة واحدة ، وأن يواجهوا عدواً قرر أن ينال منهم . إن كارتر جاء من أمريكا ليزور السودان الحنوى ، وإن مندوب فرنسا رار بسا ليعهد الموارنة هناك ، فهل الإسلاميون سيظلون متمرقين 12 .

لماذا إن فاتتهم وحدة الصف ألا يتجمعوا في وحدة هدف حتى ننقذ الإسلام ؟ .

وهناك شيء آخر أريد أن أذكره :

إن كلمة الله العليا لا يخدمها أناس أبدىهم هي السفلى ، إذا كنا متحلفين إدارياً وتحارباً وزراعياً وصنعياً فكيف نواجه أعداء الإسلام بهذا الضعف ؟ يجب علينا نحن الإسلاميين أن نستعيت في رفع الأحوال التي نعيش فيها حتى نستعيت عن غيرنا ، فالعربى قديماً كان يقول لزميله :

لَوْ أَنُّ عَمَّكَ لَا أَفْضَيْتَ فِي حَسْبٍ شَيْعاً وَلَا أَنْتَ دِيَّانِي فَتَحْزُونِي (١)

فإذا كنا - نحن المسلمين - مدنيين لأناس لا يريدون بنا خيراً ولا يودون لنا إلا العنت فلم لا نضعف إنتاجنا ؟

بني أقول لكم بحسرة إسي قرأت في صحيفة خليجية أن إسرائيل صدرت لشرق الأوسط مواد غذائية بعدة مليارات من الدولارات 11 .

ما هذا ؟ ماذا تصنع شعوبها ؟ ماذا تصنع حكوماتنا ؟ إن الإسلام لا ينتصر بنا ما دما هذا الضعف وما دما هذا التبلد ، الأمة الإسلامية تحتاج إلى أن تكون أمة مثمرة مستحقة ، لماذا يكون الأمر عندنا على غير

(١) هذا البيت لدى الإصح العنوى ومعه : أى لست بقاهر لى ففسوس أمرى وأصل : لَوْ أَنُّ عَمَّكَ . أى لله ابن عمك حدثت به اللام الخاصة والقصدية بأكملها في الأغاني للأصفهاني : ١٠٤/٣ - ١٠٦ .

طبيعته في العالم كله ؟ إن العلاقة بين الحكومات العربية وبين الشعوب العربية لا تُسرُّ مؤمناً ، إنها علاقة بين خصوم وليست علاقة بين أصدقاء ، إن الإسلام يريد أن تكون الأمة جسداً يحكمها روحه ، وما يكون هذا - بئس - إلا إذا عدنا إلى دينا وأحسننا العمل به وأحسننا الانتماء إليه . إننا أيها الإخوة محتاجون إلى أن ندرك ما ينبغي أن ندركه من كتاب ربنا ومن سنة نبينا ﷺ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأسياء وسيد المصلحين . اللهم صل وسلم
وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعد :

أريد أن أقول لكم أيها الإخوة : نحن عرب أم نحن مسلمون ؟ يبدو
أننا لا عرب ولا مسلمون !! .

قد أسأل لماذا ؟ .

أقول : كان العربي قديماً إذا أصابته هرمة حرم على نفسه المباح
والأفراح حتى يدرك ثأره ، وفي هذا يقول تأبط شراً ، وكان قد قُتل خاله
ولم يستطع أن يدرك ثأره (١) :

إنَّ بالشَّعبِ الذي دون سَلْعٍ لَقَتِيلًا دُمُهُ ما يُطسِّلُ (٢)
خَلْفَ الْعَبءِ عَلِيٍّ وَوَلِيِّ أَنَا بِالْعَبءِ لَهُ مُسْتَقِيلُ (٣)
ووراء الثَّأْرِ مَيِّ ابنُ أَحِبِّ مَصِيعٌ عُقْدَتُهُ ما تُحْلِلُ (٤)
فلما أدرك ثأره قال :

(١) ديوانه : ٢٤٧ ، ٢٤٨ قيل : قال تأبط شراً هذه الأبيات يرقى بها نفسه قبل موته لما أيقن
بالقتل يطلب فيها من ابن أخته أن يثأر له لئلا يذهب دمه هدرًا ، وقيل : إن قائمها هو ابن أخته تأبط
شراً يرقى بها خاله .

(٢) الشعب : الطريق والحبل . سلع . اسم موضع . طُلُّ دُمُهُ : أي ذهب هدرًا أي لم يذهب
دمه هدرًا ذلك الذي وقع قتيلًا في الشعب قرب موضع صنع

(٣) أي أنه ذهب وترك الثأر عليٍّ عبد أبي قحافة على حمله غير عاجز عن إدراكه

(٤) المصع : الشهيد . عقْدته ما نُحْلِلُ : كناية عن قوة العزيمة

حَلَّتِ الْخَمْرُ وَكَانَتْ حَرَامًا وَيَلَايَ مَا أَلَمَتْ تَجِلُّ (١)
عَاسِقِيهَا يَا سَوَادَ بْنَ عَمْرٍو إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخَلُّ (٢)

هذه الطبيعة العربية هي التي جعلت أبا سفيان يقول عند هزيمته في بدر : لا أعتسل من جنابة حتى أدرك تأري من محمد !! .

هذه الطبيعة العربية هي التي جعلت هدد بنت عتبة تقول : لا يمس حدى طيب حتى أدرك تأري من محمد !! أنا أرى أن المسلمين مهرمون في اسودان وفي لبك وفي أماك لا حصر لها وكان كلمة الإسلام أصبحت سئة وكان الانتفاء إلى الإسلام أصبح تستباح معه الدماء والأموال والأعراض حتى إن وعداً من الهدد يجرى ليشتم بيها ويتضاقر الأوريون والأمريكيون على حمايته ، وأقرأ أن حفلاً أقيم له في أكسفورد !! .

سبحان الله !! كنا نقول : هذا تصرف الرعاع . فإذا العامة والخاصة والساسة والفاده يتآمرون على ديسا ؟! فما الذى يجعل المسلمين فرحين عندما يجيئهم عيد ؟ أنا أرى أن العيد إقامة الشعائر الدينية فقط ، أما أن يفرح المسلمون وأن يصحكوا وأن يتهجروا وتلك حالهم العادية والمحلية فهذا ما لا ينبغي أبداً إذا كنا عرباً . أما إذا كنا مسلمين فإن صلاح الدين الأيوبي رُئى وهو متحهم الوجه فقيل له : ما أحربك ؟ قال : وكيف أبتسم والمسجد الأقصى أسير في أيدي الصليبيين ؟! إنه الآن أسير فلم تصحك ؟! .

إن أمتنا الإسلامية إذا لم تصح على ما بها فإن آلامها ستضاعف ، يجب أن نحاول بشق النفس أن نتخلص من أهوان المادى والأدنى الذى وقعت فيه أمتنا الإسلامية .

(١) لقد فاز بأحد الثأر بعد بطاء ومعت مئة ، فصارت الخمر حلالاً له بعد أن حرمها على نفسه وذلك جرياً على عادتهم من تحريم الخمر وعمل الرأس قبل الأحد بالثأر
(٢) الخلل : المهرول . يطلب شرب الخمر لأن جسمه قد هزل بعد خواجه

إن أمتد الإسلامية أحوج أم الأرض إلى الإيمان ليملاً هراعها ويعمر
حراسها .

اللهم أصلح لنا ديسا الدى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها
معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل
خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

اللهم فرح كرب المعتقلين . اللهم اصبر إحراسا فى أفغانستان وفى
فلسطين . اللهم اجمع كلمة المسلمين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين .

أيها الإحوة : اطلقوا إلى بيوتكم لا يستفرنكم أحد ، لا نريد اشتباكاً
فى شارع ولا فى ميدان ، ومن أراد استفزازكم فلا تستجيبوا له .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الشُّعَرَاءِ"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

ففي هذا اليوم نستعرض سورة الشعراء أو ما تيسر منها ، نحاول أن نتبين ما أودع الله فيها من خير وحكمة .

وسورة الشعراء من القرآن الذي نزل في مكة ، ولقرآن أول ما خاطب مخاطب ناساً لم يقرروا الله حق قدره ، ولم يرجوا له وقاراً ، ولم يستقبلوا استقبلاً حسناً من بعثهم إلى الناس كي يأخذوا بواصيهم إلى الحق كان في قلوب أولئك العرب الكافرين قدر غير قليل من الكبر والجفوة ، لا بأس عليهم أن يقولوا لمن أرسل إليهم : لم أرسلت أنت ؟ نوْلِمَ لم يكلمنا الله مباشرة ؟ أو لِمَ لم يرسل علينا ملائكته لتتحدث معنا ؟ .

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان ٢١٠] .

هؤلاء المشركون طلبوا من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام كي يصدقوه أن يسوق لهم جملة من خوارق العادات التي ربطوا إيمانهم بوقوعها ، ولكن الله عز وجل ساق الأمور على ما قضت به الحكمة ، وأنزل هذا القرآن على أنه المعجزة العزة التي تشهد لصاحبها بالصدق .

وسورة الشعراء من هذه السور التي توجه النظر إلى آيات الله والتي تبين أن محمداً عليه الصلاة والسلام نبي بهذه الآيات التي تنزل عليه : ﴿ طسم » تلك آيات الكتاب المبين ﴿ [الشعراء : ١ ، ٢] .

لكن العرب لا يريدون آيات الكتاب المبين ، إنهم يريدون عصا تنقب إلى ثعبان أو مكعوف البصر يرتد البصر إلى عينيه أو مثل ذلك ، وهذا من الخوارق ، وينزل القرآن قرآناً فقط يجلو الظلام عن العقول ، ويمرّق العشوات عن الأهدنة ، ويلقي أشعة تكشف الطريق وتبين الاستقامة والعاية ، وتهدى الناس إلى ربهم عن طريق الفكر فماذا يصنع الرسول ﷺ بإراء مقترحات القوم ؟ .

ليس سي الله واعطاً يقول خطبة من الخطب ثم يذهب إلى بيته وقد أدى واجبه واستراح ، ليس مدرساً يلقي الدرس فهم الطلاب أم لم يفهموا ، يقول : أديت واجبي ويذهب إلى بيته ويهدأ وبطمئن ، لا ، إنه والد ، وكما يحزن الوالد إذا رسب ابنه أو ضل الطريق فكذلك يحزن النبي ﷺ لأن الناس لم يتفعلوا بهداه ولم يتأثروا بخطاه ، حزن حتى نال الحزن من صحته وقال الله له : أئتحر وراء قوم رفضوا الإيمان بك ؟ .

﴿ إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : ٤] .

نحن قادرون أن نزل عليهم آية من السماء نقصم ظهورهم أو نحني رؤوسهم .

وقد تسأل : وما المانع أن ترسل إليهم خوارق العادات التي طلبوها ؟

والجواب أن هناك موانع :

أول مانع : أن هؤلاء الناس لو أحبوا إلى ماسألوا وتنزلت المعجزات التي اقترحوا ما آمنوا بها ، قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون » لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] .

فلا معنى إذن لإجابتهم إلى مقترحات سوف يرفضونها يقيناً .

المانع الثانى : أن الأمم إذا كذبت بعد أن تحاب إلى مقترحاتها تهلك حتماً ، تلك سنة الله فى الأولين ، والله لا يريد أن يهلك هذه الأمة بل يريد أن يستبقها حتى نعقل ، ولذلك عندما قالوا ﴿ فَيَأْتِنَا بَأْيَةٌ كَمَا أَرْسَلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ كان الجواب : ﴿ مَا آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥ ، ٦] .

الشيء الثالث : أن معجزة القرآن علاج للنفس الإنسانية ، علاج يستأصل الجرثومة ، ويضع الصحة مكان العلة ، والشفاء مكان الداء ، لأنه يجيئ إلى قوم ركبوا رؤوسهم وصلوا الطريق فيصع النور في رؤوسهم ويأخذهم رويداً رويداً إلى الحق بعد أن يقنعهم به وهذا سر حتم الرسالات بمحمد ﷺ فإن الدواء الذى تضمنته معجزته هو الدواء الحقيقى للبشرية على امتداد الزمان والمكان ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » (١) .

هذا القرآن يقول للناس : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ . [الشعراء : ٢] .

فما هذه الآيات ؟ .

فى سورة الشعراء نماذج للآيات التى تساق إلى الناس :

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٧ - ٩] .

(١) رواء البخارى فى فضائل القرآن - باب كيف كان نزول الوحي : ٢٢٤/٦ ومسلم فى الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ٩٢/١

أليس آية تدل على الله أن ترى القساير المقطرة من الفواكه الحلوة
وحبوب الحصيد تخرج من الأتربة الكدرة المغيرة ١٩ .

أليس عجيباً للناس يستدعى التساؤل أن ترى لخدائق البهجة تنبت من
الحمأ المسنون ؟ .

أليس شيئاً يلفت النظر أن ترى أصابعاً لا حصر لها من هذا الطين
الأسود تتورع على الورود والأرهار والأثمار ألواناً مختلفة فيها الحمرة القانية
والصفرة الفاقعة وليااض لاصع والسواد الداكن ؟

﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ إن في
ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿ .

كلمة ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ وإن ربك هو
العزيز الرحيم ﴿ تكررت ثمانى مرات في سورة الشعراء :

المرّة الأولى : بعد الحديث عن أهل مكة وتساؤهم عن حوارق
العادات ورفصهم لآيات الكتاب المبين .

والمرّة الثانية . بعد قصة موسى مع فرعون .

والمرّة الثالثة : بعد قصة إبراهيم مع قومه .

والمرّة الرابعة : بعد قصة نوح مع قومه .

والمرّة الخامسة : بعد قصة هود مع قومه .

والمرّة السادسة : بعد قصة صالح مع قومه .

والمرّة السابعة : بعد قصة لوط مع قومه .

والمرّة الثامنة . بعد قصة شعيب وأصحاب الأيكة .

فقله جل شأنه : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ حملة شرحت بثمانى
آيات منها آية كونية تتصل بتوجيه النظر إلى هذه الأرض المباركة التى يعيش
فوقها ، ثم آيات تزيينية تتحدث عن الأولين .

و نحن نتتبع بإيجاز حديث لقرآن الكريم وهو يقص مواقف الأنبياء من أقوامهم وكيف أن هؤلاء المرسلين عرضوا حقائق الدعوة و يسوا معالم النبوة وهدوا الناس بأساليب نعرض على العرب و نعرض من بعد العرب على الإنسانية كلها ما بقي من الإنسانية يوم واحد لماذا ؟ لأن الله تعالى لما لحص أحداث التاريخ ومواقف الأمم من الأنبياء كان يعرض ذلك درساً يؤسس اليقين وعبرة تنفع الإيمان .

في قصة موسى نلمح أموراً نوجه النظر إليها :

لقد جاء قوم فرعون يدعوهم ، واستعرب فرعون محبيء موسى إليه وقال له : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبث فينا من عمرك سنين ﴾ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴿ [الشعراء : ١٨ ، ١٩] .

وفعلته التي يشير إليها هي : المصري الذي قتله في الصراع الذي كان يلور بين المصريين والإسرائيليين يومئذ .

رد عليه موسى : ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ فقررت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ﴾ وتلك نعمة تمها على أن عبدت بني إسرائيل ﴿ [الشعراء : ٢٠ - ٢٢] .

فرعون يدعى أنه الرب ، وموسى يقول : ﴿ فوهد لي ربي حكماً ﴾ ولذلك يسأل موسى : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : ٢٣] .

وحواب موسى : ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [الشعراء : ٢٤] .

استعجب فرعون و ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون ﴾ [الشعراء : ٢٥] .

ومضى موسى في دعوته : ﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ [الشعراء : ٢٦] .

ومضى فرعون في كبره وزيفه : ﴿ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ [الشعراء : ٢٧] .

فرد موسى : ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [الشعراء : ٢٨] .

لكن فرعون أبى ورفض .

ورسالة موسى تقوم على أمرين :

الأمر الأول : تعريف فرعون بأن الله رب العالمين .

والأمر الثانى : مع الاستعداد الذى تعرض له بو إسرائيل .

كان موسى يعلم أن بقاء بنى إسرائيل مع المصريين شىء مستحيل لما بين الحسين من جفوة أو من فجوة ولذلك كان طلبه :

﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ [اشعراء : ١٧] .

لكن فرعون أبى ورفض واستدعى السحرة : ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم • يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون • قالوا أرحه وأخاه وابعث فى المداائن حاشرين • يأتوك بكل سحار عليم • فجمع السحرة ليلقات يوم معلوم • وقيل للناس هل أنتم مجتمعون • لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالين ﴾ [الشعراء : ٣٤ - ٤٠]

يقول العلماء : هذا منطق الرعاع والعوعاء لأنه بعيد عن الإصاف والعقل ، لو كانوا أصحاب إصاف وعقل لقالوا : لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالين أو لعلنا نتبع موسى إن كان هو العالب ، لكن التفكير فى اتباع موسى لم يحطر بأهم ، إن القيود التى تشدهم إلى الوثنية شديدة ، وإن ما ورثوه فى دمائهم وأحوالهم لا يمكن أن يمسكو عنه ، ولذلك كان الحديث الذى يدور بينهم ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالين ﴾ !! .

هذا حديث الناس ، أما حديث السحرة أنفسهم فنوجه النظر إليه لما فيه من دلالة .

الحديث فى شقه الأول يصف قوماً نفعيين طلاب مال وأصحاب حشع ورعة فى المكافات والحوائر ، يتملقون ملكهم ويخلفون بعزته :

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ قال نعم وإنكم إذا لمس المقربين ﴾ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ فألقوا حياتهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ [الشعراء : ٤١ - ٤٤] .

هكذا يعبد الناس الدنيا ويعبدون فيها المال والوجاهة ، لكن مرقف السحرة تغير في الشق الثاني : ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يؤفكون ﴾ فألقى السحرة ساجدين ﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ رب موسى وهارون ﴾ [الشعراء : ٤٥ - ٤٨] .

عنق فرعون على هذا : ﴿ قال أنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلن سوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبكم أجمعين ﴾ [الشعراء : ٤٩] .

هذا شيء عجيب في الاستبداد السياسي ، يعرض الرجل سلطانه على صمائر الناس وعقولهم ، وإيمانهم أو كفرهم رهس بمشيئته ، لكنهم لم يبالوا بتهديداته . ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ [الشعراء : ٥٠ ، ٥١] .

فأراد أيها المسلم بين هؤلاء الرجال في موقفهم الأول وبعد أن أموا كانوا ناعمين يطلبون الدنيا ، فلما شرح الله باحق صلورهم ولما تلاقى أشعة الإيمان في نواصيهم إذا هم شيء آخر وأفق آخر ، وهذا ما يصنعه الإيمان بالناس ، إن الإيمان لو دخل قلب واحد من أولئك الذين نسميهم « خفافس » لتحول إلى رجل عملاق وتحول إلى كيان صلب وتحول إلى فتاة يضع روحه على كفه ويقاتل من أجل ربه !!

إن الإيمان صانع المعجائب ، والناس في عصرنا هذا تذهل عن وظيفة الإيمان وأثره وتتعلق بالطواهر المارعة والقشور الطائفة وهي لا تصنع شيئاً .

انظروا كيف حول اليقين الراسخ سحرة فرعون من أنانيين لا يفكرون إلا في أنفسهم إلى ربابيين يعصون الله ويتحملون في ذات الله

التفتيل والصلب وضياع الدنيا وفقدان كل شيء !! ثم نحد وقفة أخرى في قصة موسى مع فرعون ، لقد خرج مع قومه ووجدنا أنه يمضي في طريقه فإذا هو ينصر ويظهر قومه فيرون فرعون يلاحقهم بحيشه ، وها تسرى الشكوك في قلوب كثير من الناس وتترلزل أقدامهم ويطلبون أنهم أدركوا وأحبط بهم .. ومعارك الإيمان في الدنيا كثيرة ، ويريد الله أن يوجه النظر إلى أن أهل الإيمان لابد أن تمر بهم فترات كاحنة تنقطع فيها أسياهم مع الدنيا ويُظلم من حولهم كل أهو .

في هذا الوقت الذي تشتد فيه الطمة ويتضاعف الحرج يُختبر الإيمان بالاحتبار الحقيقي ، فمن كان راکباً إلى الله بقى ثابتاً ، ومن كان متعلقاً بغيره اضطربت نفسه وسرت الهواجس إليه تُحوفه من اليوم والعد ومن الحاضر والمستقبل ، أما المؤمن فيرى أنه مع اشتداد الطمة سيطع الفجر ومع تضاعف الحرج سيجيء اليقين .. ﴿ فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأرلفنا ثم الآخرين * وأنحينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ٦١ - ٦٨] .

يا طلاب الآيات من العرب ، يا من يريدون خوارق عادات ليؤمنوا ، يا من يريدون أن يروا الله أو تتزل الملائكة إليهم تدبروا قصص الماضين واعرفوا ما كان بين المصلحين والمحرمين وحدوا من ذلك آية : ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ .

ثم نحىء قصة إبراهيم بعد قصة موسى مباشرة - وليس في الآيات ترتيب تاريخي إنما هو مجرد التحميم والحشد للعبارة والعظة - وقصة إبراهيم تمثل الإيمان عندما يكون فطرياً لا فلسفة فيه ولا تعقيد معه ، قصة إبراهيم تمثل الإيمان عندما يكون سحية نفس ، عندما يكون حركة قلب سليم . الرجل يقول ببساطة : هاك آلهة كثيرة تعبدونها - يخاطب أباه

وقومه - لكن هذه الآلهة الكثيرة أُنْ أخاصمها . ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ ۖ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالَ أَفَأَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ ۖ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۖ ﴾ [الشعراء : ٦٩ - ٨٥] .

هذا رسول الفطرة - حد ثنا محمد ﷺ - يعرض الإيمان عرضاً فطرياً ، وما يصد عن الإيمان إلا عبي أو مريض القلب والعقل .. إبراهيم يُرْسَى مطوق الفطرة ، ولذلك كان من أدعية النبي ﷺ التي علمها أصحابه : « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وسنة نبينا محمد ﷺ وملة آينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (١)

في قصص الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب سمح عدة حمل تتكرر هي في مطمح قصة كل نبي مع قومه وهي : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ نوح المرسلين ۖ إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُمْ نُوحُ أَلَا تَتَّقُونَ ۖ إِلَى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴾ [الشعراء : ١٠٥ - ١٠٩] ما قاله نوح هو ما قاله هود لعاد وصالح لثمود ولوط لفرى المؤمنين وشعيب لأصحاب مدين وأصحاب الأيكة .

وهذا يعطى فكرة بينة أن أنبياء الله يبلعون ويعلمون وينذرون

(١) رواه أحمد في المسند ٤٠٦/٣ ، ١٢٣/٥ والدارمي في الاستعداد - باب ما يقول إذا أصبح ٣٧٨ ٢ والنسائي في عمل اليوم واليلة - ذكر ما كان النبي ﷺ يقول إذا أصبح ص ١٣٣ والبرقي في الكبير - في الدعاء . وقال في صحيح الجامع (٤٦٧٤) : صحيح

ويشرون لا يتعون من وراء كدحهم للأثم وتعليمهم للناس وهدايتهم للجواهر أجراً من أحد ولا مكانة عند أحد ، إنهم يرجون ما عند الله ويتعون ما عند الله ، ولذلك يعلم النبي ﷺ الدعاة إلى الله أن تكون بيتهم وجه الله وأن يكون هدفهم ما عنده وحده فيقول « ما دثبان جائعان أرسلوا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » (١) .

يعنى أن كل حرص على المال وعلى الدرجات ما يمكن أن يكون حرصه هذا عسر سلامة لدينه وإيمانه ، بل سيكون هذا الحرص على المال والوحاجة مهكاً لدينه وإيمانه كما تهك الدثاب الحائقة قطيع غنم أرسلت فيه .

ولذلك كان على لسان النبي ﷺ باستمرار لقومه : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾ [سبأ : ٤٧] .

وبقيت من سورة الشعراء شروح آيات الله في الأثم السابقة تستصحب مع النذير الخاتم عليه الصلاة والسلام لنا معها موعد والله ولي التوفيق ..

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .



(١) رواه الترمذى في الرهد - باب ٣٠ وقال . هذا حديث حسن صحيح ٤٦٧/٧ وأحمد ٤٥٦/٣ ، ٤٦ وسارمى في الرقاق - باب ما دثبان جائعون ٣٩٤/٢ وأبو يعلى وابن حبان وقال في صحيح الجامع (٥٦٢٠) صحيح

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله خاتم النبيين وإمام المرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

إن علينا معشر الدعوة إلى الله أن نصف الإسلام وأن نعرض حقيقته وضيئة لامعة لا يعيبها عيب ولا يشبهها شيء .

الإسلام هو شرعة الله التي توسطت ما يدعو إليه المتطرقون من يمين أو يسار ، وكما يخرج اللس من بين فرث ردم لبناً خالصاً سائعاً للشاريين وكذلك شرعة الإسلام ما بين المعالين أقصى اليمين أو المعالين أقصى اليسار إن صح التعبير .

إن لإسلام دين يعرض نفسه وحقائقه وقصائله وخيراته للأهم التي تأخذ به عرصاً يسعى أن يقوم الدعوة إلى الله بتجليته حتى لا يختلط به ادعاء هؤلاء أو ادعاء أولئك .

قرأت أن نحو خمسمائة سجين قتلوا في سجون (إيران) في ظل ملك مسلم !! .

وقرأت أن هناك إقطاعاً طائشاً أحرق في (المغرب) !! .

وقرأت أيضاً : أن الذين يقاومون الملك الحائر هما والملك الحائر هما يساريون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر !! .

فقلت في نفسي : كلا الطرفين لا يستحق مني تأييداً ولا تكريماً :

الذى يدعى الإيمان وبه يملك اسحت وبه يقتل الأحرار وبه يؤخر الشعوب
كاذب فى دعوى الإيمان ، كاذب فى مسينه إلى النبى صل الله عليه وسلم .

والذى يعرض الحرية أو ما يسميه بالعدالة الاجتماعية وهو متحلل من
قيود الإسلام متحهم لهدايات الوحي ولوصايا الأنبياء مدحصة أدق تلخيص
وأحمله فى الدرر التى ألقاها عليها صاحب الرسالة العظمى قرآناً كريماً وسنة
حاتمة الذى يريد عدالة اجتماعية وهو محاصم للنبي صل الله عليه وسلم ورسالته فهو كذاب
دجال

كلا الفريقين عدو لى ، والذى أعرفه : دين أتى بعبادة الله وحده
وبتحرير الناس على سواء ، الذى أعرفه : دين يقرب حاكمه : (أطيعوا الله
ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم) (١)
ومعنى هذا أن الرباط بين الحاكم والمحكوم من جهة وبين الله جل جلاله
من جهة هو الدين ، يلتقى عليه حاكماً ومحكوماً .

أما أن يجيبىء حاكم - باسم الدين - ليلتهم الدنيا والآخرة فهو كاذب
ولو ادعى أنه ابن اسى صل الله عليه وسلم ، وأما أن تحيىء شعوب تستمع إلى دعاة حُقق
يقولون : إن التحرر عن طريق البعد عن الدين فهذا هو الصلال الميى .

عليها أن تعرض الإسلام لا كما يفهمه الملوك وأذناسهم وحواشيهم أو
حكام الجور ومن يخط معهم ومن يخطب فى حياتهم هؤلاء جميعاً ليسوا من
الإسلام فى شيء ، والذين يتصاحبون برفع المستوى الاقتصادى وما إلى
ذلك هؤلاء وأولئك كذبة .

الإسلام خط وسط ، جمع فى كتابه وسنه بين ما لله من حقوق
لا يجوز أن تنسى أبداً وبين ما شرع الله لكادحين وأصحاب الأموال من
حقوق لو عرفوها والترموها ماكان هالك تطالم ولا كان هالك كفران
ولا كان هالك داع إلى الإلحاد يستجلب من شرق أو غرب .

(١) جزء من خطبة لأى بكر رضى الله عنه ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية وقال : هذا إسناد
صحيح ٣٠١/٦

أيها المسلمون : اعرفوا دينكم ، وخذوا الحق من مصادره لا من السنة
الكاذبين المرتزقة ممن يعملون هنا أو هناك للمموك أو لأعداء الملوك من
الشيوعيين .

الحق مع الإسلام وحده ، مع نبيه ﷺ وصحابته رضي الله عنهم
والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

• •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة عيد الأضحى المبارك

بمسجد السيدة زينب رضي الله عنها بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ

الحمد لله حمداً مصاعف الشكر والثناء والتمجيد . ﴿ وقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِلىٌّ مِنَ الذَّلِ
وَكَبْرِهِ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر .
 أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ما قامت برها الأشياء وسبّحت
 بحمده الأرض والسماء الله أكبر ما بقى العالم أجمع محكوماً بأسمائه الحسنى
 وصفاته العلى ، فما من شئ إلا وهو خالقه ، وما من أمر إلا وهو مديره ،
 ولا من حير إلا وهو سائقه ، ولا من فصل إلا وهو رارقه ، ولا من نور إلا
 وهو مشرقه ، سبحانك ربنا ولك الحمد كما تحب وترضى .

الله أكبر الله أكبر . الله أكبر . سبحانه رباً أنت الثواب مبيقت
رحمتك عصيبك ، وأنت الودود لا تكسر خاطراً لأمريء وقف بيباك ولاد
بحسبك ، وأنت القدير لا يعحرك شيء في السموات ولا في الأرض ، وأنت
الغنى لا تعد حرائثك ، وأنت الواسع الملكوت الرحب جرد من حلقك
الفخم الصخم ، سبحانه لا يحصى ثناء عبيث أنت كما أشيت على نفسك .

الله أكبر . ما بقيت الأدلة تتحدد على مر الزمن شاهدة بأن القرآن حق وأن محمداً ﷺ حق وأن الإسلام العظيم حق ، لقد قلت وأنت المصدق الصادق ﴿ سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت . ٥٣] .

وتمر القرون بعد القرون والعصور بعد العصور تُشهد الناس على أنه ليس بعد التوحيد عقيدة ، ولا بعد الإسلام شريعة ، ولا بعد محمد ﷺ

سوة ، ولا بعد هديه هدى ، ولا بعد البصائر التى أنارت العالمين شئ يستير به العالمون .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . وإن صاق بالتكبير من صاق من أهل الإلحاد والظلمة ، ولكننا نكبر ربنا ونحمده ولو كره الكافرون ، سوف نعبد الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

إن ههنا أساساً أحبوا شركهم واستلذوا ضلالهم ، وكما قال ربنا : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ [النقرة : ١٦٥] .

ههنا الحب الأشد سوف يهرم الحق بالباطل ، وسوف يمضى على طريقه المستقيم فلا يتبقى له نشاط دون الحق التى عرصها السموات والأرض .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير .

وشهد أن محمداً رسول الله ، حيرته من خلقه ، قمة العباد ، الإنسان الأول فى الوجود شرفاً وإقداً وكرماً وإعزازاً لأمر ربه وتمسكاً به حتى أتاه اليقين ، نعم هو الإنسان الأول الذى أحرى الله على لسانه : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] . إنه المسلم الأول الذى بقى هدايته فى أرض الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لا يزهد فيها إلا هالك ، ولا يريغ عنها إلا رائغ .

صلوات الله وسلامه على نبيه المصطفى ، ومحى على هذه الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة باقون أبداً ، عليها حيا ، وعليها نموت ، وفى سبيلها نحاهد ، وعليه تلقى الله : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴾ وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ [هود : ١٢١ - ١٢٣] .

خطب العزالى - المجلد الثانى

أما بعد :

فإن الأعياد في الإسلام ليست أسواق طعام وشراب ، وليست ميادين
لهو ولعب ، إن الأعياد في حضارتنا ارتبطت بذكريات عزيزة وقيم غالية ،
العيد الأول ارتبط بالشهر الذي يصوم الناس فيه ويزن القرآن الكريم فيه ،
والعيد الكبير ارتبط باكتمال الوحي في الأعم الأغلب ، ارتبط باكتمال الدين
﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] ربما يكون اكتمال الدين - على ظاهره -
تمام القرآن الكريم ، وهذا صحيح ، فإن القرآن الكريم ظل يرسل به الوحي
المبارك نحو ربع قرن ، وانتهى مع ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وإن كان أهل الحديث يرون
أن سورة البصر نزلت بعد ذلك تنعى النبي ﷺ أجله ، وأن آية نزلت
﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم
لا يظلمون ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

ليكن ، فاكتمال الدين تم مع هذا العيد الكبير ، نكر الأمر الذي ينبغي
أن يعرفه المسلمون أن اكتمال الدين نظرياً صحبه اكتمال البيئة التي تُصدّره
لأرجاء العالم ، فالنبي ﷺ ما ترك حريرة العرب إلا بعد أن ربي جيلاً من
الخلق هو أركي ما عرفت أقطار الشرق والعرب ، وأبقى أساس ضمائر ،
وأصحهم عقولاً ، هذا النبي الكريم ﷺ ربي الخيل الذي حمل الرسالة بعده
للعالمين ، وكان بتضحيته وأخلاقه وشباطه وشجاعته هو الذي نقل الإسلام
من جزيرة العرب لكي يستقر في القارات الخمس ، ولا يزال الإسلام
ينطلق مادة وعدداً إلى الآن ، ومع المحاولات الرهيبة بوقف اند الإسلامى ،
فإن الإحصاءات الصحيحة التي يذكرها مراغمين بها مروري الإحصاءات
أن عدد المسلمين الآن ربع سكان الكرة الأرضية ، ففي كل أربعة
أشخاص يسكنون هذه الأرض رحل ينتمى إلى الإسلام ، لكن هذا الانتماء
يحتاج إلى شيء من المراجعة والتصحيح ، وهذا عملنا الذي نحب أن نتعارف
عليه وأن نتعاون فيه وأن نتجمع لبلوغ أهدافه ونصل إلى هياياته .

أيها الإخوة :

يشير العبد الذي نحتفل به الآن إلى خُلُق كَوْنِهِ السَّيِّئِ ﷺ في الأمة ، وهو خلق لابد منه لتكوين كل جماعة وتصحيح كل مهضة وإعجاح كل حركة ، وهو خلق الصبر .

إن طبيعة الحياة التي نحياها أنها اختبار مرعج موحج ، قد يكون اختباراً بالبأساء - الأزمات الاقتصادية - وقد يكون اختباراً بضراء ، وقد يكون اختباراً بالناس ، يُختبر الإنسان بأخيه الإنسان ، يُختبر الحاكم بالشعب ، والشعب بالحاكم ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

إن هذا الاختبار لابد منه لدعم لرحولات وإنشاء البطولات ، فإن مواطن لراحة لا تصنع رجولة ، والرجاء الموصول لا يكون معدداً صلياً . يقول أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية : لا تسأل الله أن يصفحك حملك ولكن اسأل الله أن يقوى طهرك . إن حفة الحمل شأن الأطفال ، أما الذي يهض بالأحمال النقال ويحمل الأعباء الشداد فهم الرجال ، وعندما تعذب طبائع الناس في حب الراحة والاستحمام يجيء الوحي الأعلى ليسهم إلى الحقيقة التي يريدون تحاوزها والعد عنها فيقول الله تعالى للمسلمين . ﴿ أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبكم مستهم البأساء والضراء ورزقوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وهذا الاختبار ليس اختباراً سهلاً ، إنه يطل مراحل من الزمان والمكان حتى تكاد الأرواح ترهق ، يصرّب القرآن الكريم المثل لذلك في أماكن كثيرة .

في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، ولا نخرج عليها لأنكم تحفظونها . وفي قصة بني إسرائيل عندما طاردتهم فرعون وخرج بقومه وراءهم وهم هاربون من ظلمه ، كان سو إسرائيل يشعرون أنه إذا أدركهم فرعون هلكوا

وكان بطشه بهم شديداً وسكاه بعيداً ، وكن فرعون يحشه طل يتعقب بني إسرائيل الهاريين حتى كاد يذبحهم ، وشعر بو إسرائيل بهذا ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ وأزلنا ثم الآخرين ﴾ وأوحينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ [الشعراء : ٦١ - ٦٦] .

وانتهت قصة البطش وأسطورة الألوهية الكاذبة ، وكم حكمت الأرض من مصارع للطامة ، وكم سجل التريخ من مآس لمن عابها الله فعلهم وقاوموه فهرمهم ، وانتهى الأمر إلى من قال عن نفسه : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى : ٥٣] .

لقد كوّن النبي ﷺ جيشاً من المسلمين الأولين كانوا رجالاً ونساءً بين وبنات مؤمنين برهم إيماناً حسناً واثقين منه ثقة بالعة ، ولذلك انتصروا وفرضوا أنفسهم على العالمين ، كانوا قبل الإسلام العالم الثالث - بتعبير عصرنا - وبعد الإسلام أصبحت لأمة إسلامية هي العالم الأول : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

ها تساءل : كم من الزمن يحتاج إليه هذا التعبير أو هذا التحول ؟ يجب أن نعم أن الزمن جزء من العلاج ، وأن من المستحيل أن تبلغ مراكب بين عشية وصحاها إذا كان قدر الله أن هذه الأمانى لا تتحقق إلا خلال السنين الطوال ، وقد احتف عذماء لاجتماع فقال بعضهم : يمكن أن تتكون أمة خلال أربعين سنة ، ولعلهم يظنوا في هذا إلى ما حكاه القرآن الكريم عن بني إسرائيل عندما رفضوا أن يدحوا الأرض المقدسة : ﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : ٢٦] .

قال العلماء : خلال أربعين سنة هلكت الأجيال الحبابة وذهب الخانعون الذين يستحبون الذل ويرتضون الدنية ، ذهب هؤلاء ونشطت أجيال أخرى قادها يوشع لكي تدخل الأرض المقدسة .

قال العلماء . أربعون سنة يمكن أن تكون فترة تغيير لتحول المجتمع من العوصى إلى النظام ، ومن الفرقة إلى الوحدة إلى غير ذلك .

لكن المعروف أن بينا عليه الصلاة والسلام كُون الأمة التى هى خير أمة خرجت للناس - خلال ثلاث وعشرين سنة !! .

قالوا : لكن هذه إمكانيات محمد ﷺ الرجل الذى أوتى من طيبة النفس وبقاء القلب ودكاء العقل ونور البصيرة ما سكه فى نفوس من حوله من أصحابه فإذا هم يتحولون إلى فرسان بالنهار ورهبان بالليل وإذا هم يتحولون إلى خلق آخر .

والحقيقة أن الرمس الذى تتكون فيه أمة إنما يرجع طولاً وقصراً إلى مقدار الجهد الذى تنذله هذه الأمة شعاً وحكومة كي تستقل من الظلمات إلى النور .

إن الشعب هو الحكومة والحكومة هى الشعب ، إنما لا يريد أن تفرق بين الجسم والروح ، إنما يريد أن نقول للناس : يوم يعرف كل امرئ ما عليه بأمانة ويؤديه بثقة وقدرة فإنه يصل إلى غايته ، وهو الذى يحدد الوقت بنشاطه أو تكاسله .

إن الأمم لا تُخلق بالأوهام ، إن الأمم لا تُخلق بالخيال ، إن الأمم لا تُخلق بالأكاديب ، إذا أردت أن تبني قصراً مشيداً شاهقاً فبذلك تأتي بأقوى ما فى الأرض من مواد حتى تبنيه ، كذلك الأمم ، إنما تبني بالأخلاق ، وفى بيئتنا لا أخلاق دون عقيدة ، فبوم يتوافق الشعب والحكومة معاً على أن العقيدة والأخلاق والقيم الرفيعة والتقاليد الراشدة هى شرائير الحياة فى كيان جسم يريد أن يطبق فإسا واصلون إلى غاية فى أقرب وقت

لكن الإيمان - فيما أرى - تحول إلى كلام ، الإيمان أخلاق أساسها
بالسببة إلى الله : الصبر والشكر والتوكل والحب والخوف والرجاء والورع
والتوبة ، هذه مراحل تجعل صلات الناس برهم نابضة بالقوة وليست
حركة شمع عديم الحياة ، هذه أخلاق المؤمنين مع الله فهم قاتون محبتون
خاشعون ، هكذا كان سلفنا - حكومة وشعباً - موصولاً بالله .

يقول علماء الحديث : (كان عمر رضى الله عنه يكبر في قبه منى
فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج مئ
تكيراً) (١) فإذا أنت أمام دولة وأمة تتعاون كلها على أن الكبرياء لله ،
والعظمة لله ، والركوع والسجود لله ، والإخبات والتوكل على الله ،
والاستمداد والاستلھام من الله !! .

إن أمتنا أمة التوحيد ، وهذا التوحيد يجعلها تحسن العادة ، وترفض أن
يكون في الأرض جبروت أو مكرت لغير الواحد القهار : ﴿ إن كل من
في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ لقد أحصاهم وعدهم
عدداً * وكلهم آتيتهم يوم القيامة فرداً ﴿ [مريم : ٩٣ - ٩٥] .

ثم هناك بعد ذلك الأخلاق بين الناس بعضهم وابتعض الآخر ، هذه
الأخلاق التي عدّها صاحب السنة المشرفة أركان الإيمان ، وعدّها أركانها
أركان النفاق : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه
خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ،
وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٢) .

هذه العقائد والأخلاق ، ثم بالأمانة في كل منصب يتولاه الإنسان
تبنى الأمم ، ولتدبر قول نبينا عليه الصلاة والسلام :

(١) رواه البخاري في العيدين - باب التكبير أيام مئ ٢٥/٢ .

(٢) رواه البخاري في الإيمان - باب علامة المنافق ١٥/١ ومسلم في الإيمان - باب بيان خصال

المنافق ٥٦/١

« ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولاً يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » (١) .

وجاء في الحديث أيضاً . « إنه لا قُدُسَتْ أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَّع » (٢) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

(١) رواه البراء وبنظيرين في الأوسط ورجال البراء رجال الصحيح كذا في الترمذي والتهذيب ١٣٩/٣ وعال في صحيح جامع الصغير (٥٠٩٥) صحيح

(٢) رواه ابن ماجة في الصدقات - باب لصاحب الحق سلطان وإسناده صحيح ٨١٠/٢ ومعنى متنع : أي من غير أن يهيبه أدى يفقه أو يرعجه

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ،
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

إن ديننا واضح ، أساسه كتاب كريم وسنة مطهرة ، والحقيقة أني
رأيت أمثا - وأنا أطوف في العالم قريه وبعيده - محبة لدينها حريصة عليه ،
واستيقنت من أن الصحوة الإسلامية حق ، أحسست بذلك وأنا على
شواطئ الأطلسي ، وأنا عند شواطئ الهندي في باكستان وسريلانكا ،
وكنت أحس هذا المعنى وأنا أعانق قائد جيش المسلمين في مورو في القديين
الذين يستमितون لعمل دولة إسلامية تحمي بيصتهم وتصور حقوقهم وتمنع
طغيان الطاعين الذي نال كثيراً منهم

أيها الإخوة :

أخوة الإسلام رحمة لا تعرف قطراً ولا حداً ، كان للسيد محمد رشيد
رضا رحمه الله أم - لعلها تشبه المصريين في تلمسهم للنكته - عندما ترى
ابنها يستيقظ في الصباح وهو مقبصر أو مكثب تقول له : مالك حريماً
أمات مسلم في الصين فأت حزير من أهل ذلك ؟!

إن الرجل كان يحمل آلام المسلمين حيث كانوا ، وتلك طبيعة
الإسلام ، لكى وجدت هذه الهصة أو هذه الصحوة تمضي في طريقها
بطء شديد ، إنها موجودة ولن تختفى أبداً لأن الذي قال : ﴿ إنا نحن نزلنا
الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر . ٩] لا يحفظ الذكر حبراً على
ورق ، لا يحفظ الذكر أصواتاً مسجحة ، وإنما يحفظ الذكر بأهم تعمل له
وتعمل به وتحمد في سببه ، فأنا أعلم أن الأمة الإسلامية قد تعطل ولكن

مهما برّحت بها العلة فلن تموت وستبقى الأساة والدعاة والهداة الذين
يمهّنون لها الطريق ويصلون بها إلى العاية إن شاء الله .

من أسباب بطء الحركة الإسلامية أو الصحوة الإسلامية في أيامنا
الأخيرة أن عدداً كبيراً من المسلمين إليها كانت لهم أصوات أكثر من اللازم ،
كان هم صياح لا يؤيده العقل ، فما الذي حدث ؟ شعر بهم خصومهم
فصاعقوا الاستعداد لكبحهم وأعدوا قوًى كثيرة لليل منهم ، ماذا عليكم
يا أصحاب الصحوة الإسلامية لو لدنتم بالصمت ، صابروا الأيام ، كافحوا
الرغبة في الكلام .

أنا حثت من الخرائر ، وكان هناك شباب يدخل في الدعوة في الصباح
وبعد يوم أو يومين يحنى وقد وضع خطة لإعلان الحرب على الاتحاد
السوفيتي !! أقول له : ويحك ، اجعل الإسلام في بيتك أولاً ، ثم في
حارتك ، ثم في الشارع ، ثم في البلد ، ثم في الدولة ، ثم فكر في أن تدعو
الناس ودليلك على صدقت حانتك الحسنة وإتاجك الحيد ، أراد أن
يكابرني - قنت له : ويحك ، إنه لما كان المستعمرون هنا كان الهكتار من
الأرض - يشه قداين - يتح خمسة وثلاثين قطاراً ، وهو الآن يتح سبعة
قطاير !! .

إن وجهي يسودّ عندما أرى العمل يجرح من بين أصابع الكافر كاملاً
مخوداً وحيهاً ، فإذا جرح من بين أيديكم جرح ناقصاً أو مشوهاً أو سيئاً
العرص !! .

علام تستعجل ؟ ابن نفسك بالإيمان والأحلاق ؟ اجعل الشارع
مسجداً ، اجعل البيت مسلماً ، اصبح الحاكم ، إنك مكلف من ربك بأن
تحسن الكلام حتى مع أذعياء الألوهية لكي لا يكون لهم عند الله عذر

أيها الإخوة :

إن هناك أقداراً مرسومة تسير بها الأمم والشعوب ، هناك قوانين إلهية
لا تتحلف لقوله تعالى :

﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَصْلَحَ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَيَحْقِ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨١ ، ٨٢] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ ﴾ [إبراهيم : ١٣ ، ١٤] .

إن أمتنا حاحة وهي تمتد يدها إلى ربها ليصبرها أن تقيم أحكامه في البيت وفي الشارع وفي الدولة وفي الديوان وفي كل مكان ، إنا مكلفون أن ننفذ أحكام الله في بيوتنا ، الحكم بما أمر الله مطلوب من الشعب ومن الدولة ، مطلوب من التاجر ألا يعش ، ومطلوب من الدولة ألا تفصل حكماً استعماريّاً محبواً مع الاستعمار على حكم برل به كتاب الله وجاءت به سنة رسول الله ﷺ ، والحكومة والشعب يتعاونان معاً على أداء حق الله وعلى بدوع الأمل الذي يصح به من علة ونكث به من قلة ونعتز به من ذلة

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الرُّومِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، ولعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابه والتابعين .

أما بعد :

فخطبتنا اليوم حول سورة الروم ، بلقى نظرة عامة عليها داعين الله سبحانه وتعالى أن نستفيد مما أودع فيها من هدايات وما بث فيها من عبر .

سبق أن قلنا: إن هذه السورة نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية ببضع سنين وأن صدر السورة تحدث عن الهرطقة التي سحقت الروم أمام الهرس ثم تبيأ أن أولئك الأروام بعد هزيمتهم سوف يتصرون . وكان جديراً بالتاريخ الصسى أن يحتفى هذه السوءة ، وأن يتحدث عنها ، ولكنه حاول تحريف الكلم عن مواضعه ، وأن يعص من شأن السوءة التي صدقتها الأيام وكشفت أن صاحبها ما تحدث بها إلا ملهماً من رب العالمين عن طريق الروح الأمين .

نتجاوز هذه السوءة لتحدث عن السورة نفسها ، وأول السورة أشار

إلى أمر يعيبنا نحن الآن ، فإن العرب كانوا أمة ضعيفة يوم كان الروم والفرس يملكون أرمة الدنيا ، والضعيف أحياناً ينتمس لنفسه وحاجة عندما يتعلق بحجة أو بأخرى ، ويظن أن تعينه لأحد الأقوياء تعضيه فضلاً من مكانة ، وهذا جهل كبير ، لفرض أن الخوسية انتصرت في فارس فهل انتصار الخوسية في فارس يعطى الوثنية العربية قوة أو يرد باطلها حقاً ؟ كلا . ما قيمة هذا الانتصار ؟ لا قيمة له . ونصرص أن النصرانية انهرمت في بلاد الروم - وعلى يد أتباعها - فهل يصير ذلك مسلمين أو يرد حقهم باطل ؟ كلا . لا يضير ذلك دعاة التوحيد ولا يزال من حماسهم بديهم وإخلاصهم لربهم .

كن بعض الصعاف له مع الأقوياء لمستصرين في العالم تصرفات وتعلقات وتعليقات يحب أن تلقى عليها صوءاً ، يحب أن يعلم الصعاف أنهم إن أرادوا أنفسهم مكانة فذلك عن طريق حصائصهم وتسميتها ، وعن طريق رسالتهم والوفاء لها ، أما أن تكون لأمة الضعيفة دساً لإحدى الجهتين فذلك لا يعطيها مكانة أبداً .

عندما تقدم الألمان ناحية لإسكندرية في الحرب العالمية الثانية استمعنا إلى بعض الأصوات الطائشة تقول تقدم يا روميل (١) !! فلنصرص أنه تقدم فماذا سبصع إلا أنه سيحرق الحرث والسل ؟ والدين كانوا يكرهون الاستعمار البريطاني ويميلون إلى مهادنة ربانته أكان هذا المل بشرف أمتهم أو يعطيهم شيئاً من القدرة على المستقبل ؟ كلا .

من أخطاء الصعاف هذا التعلق العريب بالقوة المتصارعة في العالم ، ولعل بعضهم يحسب أن صراع الأقوياء يفع لصعاف ، إن صراع الأقوياء قد يكون عاملاً ثانوياً في استماع الصعاف عما قد يقع ، لكن الحقيقة الأصيلة في القضية كلها أن صراع الأقوياء لا يهب الصعاف قوة وأن العرب أو

(١) عسكري ألماني من أشهر قواد الحرب العالمية الثانية ، وهو هيند مرشل أروين روميل ، ولد بإقليم سوابيا ١٨٩١ ونفى متأثراً بجراح من أثر انفجار قنبلة في ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ م

المسلمين عموماً ما يفهم أن تتقاتل الجبهتان في العلم إذا بقوا هم حوة لرسالتهم أو صعاف التعلق بها أو قليل الاستفادة منها ، فلو فئت القوتان المتارعتان على امتلاك الأرض وبقي المسلمون لا يفهمون من دينهم إلا صوراً لا حقيقة لها فإن صراع الأقوياء لا يشرف الصعاف ولا يقدمهم حصوة إلى الأمام ، إليك وحدك - أيها الضعيف - الذي تمك أن تقوى يوم تحسن العمل ويوم تخطو إلى الأمام بقوتك الخاصة ، ولعل ذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة وهي تعنى على ما كان بين الروم والفرس :

﴿ ألم • غلبت الروم • في أدنى الأرض وهم من بعد علمهم سيعلبون • في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون • يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون • أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون • أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وحاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون • ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ [الروم : ١ - ١٠] .

إن حضارات كثيرة حكمت العالم ومدييات شتى تقلت على هذه الدنيا ، ولكن تاريخ الحضارات المقرصة أو المردهرة وهذه الدنيا التي يعيش في ظلها ، كل هذا ينطق بأن ما عدا الله باطل وأن ما عدا الحق سحيف ﴿ فدلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [يونس : ٣٢] .

ولذلك جاءت سورة الروم بعد أن حقرت علم الأقوياء هذه الدنيا تبته إلى أن هؤلاء الصعاف في حرية العرب يستطيعون أن يقودوا حضارة جديدة أساسها أن تعرف ربك ورفقته (١) ومحمد ثم تكون هذه المعرفة سبباً في أن تسبح بحمده وأن تنوه بمجده .

(١) الرمد : العطاء والعنة

ولذلك تحدثت سورة الروم عن الله جل جلاله الحديث السهل الذى لا يعرف تعقيدات الملاسعة ولا عمومى المتكلمين :

« الله الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » [الروم : ١١] .

« الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون » [الروم : ٤٠] .

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله » [الروم : ٤٨] .
« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » [الروم : ٥٤] .

ودكرت السورة ست آيات متعاقبة تبدأ كل آية بتوجيه النظر إلى بعض آيات الله :

أول هذه الآيات :

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » [الروم : ٢٠]

كؤم من التراب الهامد الحامد تلمسه أصابع القدرة فإذا هو يتحول إلى فواكه وإلى حبوب تلمسها أصابع القدرة فإذا هما يتحولان فى جسد الإنسان إلى خلايا حية تبنى اللحم والعظم وتشد الأعصاب وتنشئ الأعاجيب فى هذا الكيان ، ثم يتحول الإنسان بالقدرة العليا إلى كائن يجرى فى القارات الخمس ثم تبلى به القدرة إلى أن يحاول الوصول إلى الكواكب الأخرى !! .

من الذى جعل حفرة من التراب - تلوث راحة اليد - تتحول إلى إنسان دكى قوى عبقرى مكلف يختار لنفسه ويتجبر أحياناً فيكون فرعون

ويتواضع أحياناً فيكون إنساناً كريماً ؟ .

إنه الله : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر
تنتشرون ﴾ [الروم : ٢٠] .

آخر هذه الآيات الست : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض
بأمره ثم إذا دعائكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم :
٢٥] .

هذه الآية تعطى معنى لا بد من شرحه :

إن السيارة تشحن « بالنزين » وتظل تنور آلاتها وتنطلق عجلائها
إلى أن ينفد الوقود فتتوقف .

إن المسبب تمثؤه ثم في الوقت المعين يبدأ جرسه يدق ثم ينتهي الدق مع
نهاء الشحنة التي كانت فيه .

لكن هناك إنساناً يدور قلبه باستمرار ، تتحرك الرئتان باستمرار ،
يطلق هذا الإنسان عشرات السنين دون أن توجد أشياء — نلمسها — تمده
ببقاء الروح في الجسد ١١ .

ما الروح ؟ ما علاقتها بهذه الأعضاء ؟ كيف تجعل القلب يدق ؟
كيف تجعل الصدر يمتلئ بالشهيق والرفير ؟ كيف تحرى الدم في العروق
بسرعة كنا ميل في الساعة ؟

من يصنع هذا ؟ الله ! هو الخالق الأمر : ﴿ ألا له الخلق والأمر
تبارك الله رب العالمين ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهذا في سورة الروم يقول : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض
بأمره ثم إذا دعائكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم :
٢٥] .

وبين الآيتين حديث عن المجتمع الصغير وهو الأسرة :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل
بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الروم : ٢١]

ثم حديث عن العالم الكبير :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم
إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢] .

﴿ ومن آياته مأمكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك
لآيات لقوم يسمعون ﴾ [الروم : ٢٣] .

﴿ ومن آياته يرثكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء
فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم :
٢٤] .

ثم جاءت آية أخرى مفردة وهي :

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليدققكم من رحمته
ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [الروم :
٤٦] .

هل تحدث كتاب في الدنيا عن الله بمثل هذا الإشراق ؟ .

هل تحدث كتاب في الدنيا عن الله بمثل هذا التمجيد ؟ .

هل تحدث كتاب في الدنيا عن الله بمثل هذا الوضوح ؟ .

الجواب : لا .. فكيف يتهم الإسلام بأنه كيت وكيت ؟ .

ما يوجد الآن في القارات كلها كتاب تحمس للوحدانية وأحصى آيات
الكمال والجمال وشرح ما يسعى الله من ثناء وما يحيى به من عطاء كهذا
القرآن !! .

هذا الدين هو دين الفطرة ، ولذلك جاء في هذه السورة :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها
لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾
[الروم : ٣٠] .

وبينا ﷺ هو نبي الفطرة ، ولذلك كانت الفطرة السليمة هي

ما يدعو إليه ، وقد صرب المثل لذلك مترعاً من طبيعة البيئة التي يعيش العرب فيها .

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء » (١) .

هاك تغييرات تقع للفطرة بعد الولادة ، يحییء البدوى في الصحراء فيقطع أذن البهيمة أو يرسم علامة معينة على جسمها ، وقد تكون هياك تغييرات للفطرة أساسها فساد الأبوين ، فالمفروض أن الولد يولد سليم العين والأذن ولكن إذا فسد الأب ومرص « بالرهري » — لأنه استمرراً لربا فإن مرضه هذا لمة تمتد منه إلى الحين في بطن الأم ، فقد يولد أعمى صانع النصر لأن الفطرة عدا عليها أب حقير مصاب بالرهري !! .

دينا يعود بالبشر إلى فطرتهم ، ولو أن إنساناً ولد في جزيرة ليس فيها أحد ولم يتعلم من أحد شيئاً ما فكر أبداً إلا في أن للكون رباً واحداً لا ثان ولا ثالث ولا أكثر ولا أقل !! .

وقد به القرآن إلى هذه الفطرة في آية أخرى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۖ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۖ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤] ..

• • •

للعلماء في شرح هذه الآية طريقان :

(١) رواه البخاري في الجائز - باب ما قيل في أولاد المشركين ١٢٥/٢ ومسلم في القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٥٢/٨ ويؤله - هل ترى فيها جدعاء - أي مقطوع الأدب ونقص الأوصاف .

الأول يقول : إن الله - في عالم اندر - أحد القوس كلها وبسط عليها من أشعة جلاله وأخذ الميثاق أن تبقى موحدة له .

الثاني يقول . إن الآية تمثيل للطبيعة التي خلق الناس بها وشئوا في أرحامهم أمهاتهم عليها بل نشئوا في أدوار تفكيرهم من الطفولة إلى اليقظة عليها لولا ما يحيى من عوج البيئات العاسدة ، ويقول هؤلاء : إن السؤال والجواب مثل قول العرب : قال الحدار للوتد لم تشقني ؟ قال : سس من يدقني !! .

ما قال الحدار شيئاً للوتد وما أجاب الوتد الحدار بشيء ، ولكن هذا مجرد تمثيل .

وأياً ما كان الأمر فحس على ثقة من أن ديسا دين الفطرة ، وتطلع الإسلام إلى أن يستولى على الحياة العامة سببه أن أثر الحياة العامة في اعتدال الفطرة أو تشويهها خطير ، فإن العالم في أدواره الأولى كان يمكن أن يعيش عدد كبير منه بعيداً عن المجتمعات ، لكن الآن أصبحت للدول ضغوط هائلة على الأفراد ، ففي العالم الشيوعي حيث يقع نحو ألف وأربعمائة مليون من الخلق في ظل نظام يقول : « لا إله والحياة مادة » .. تتحرك جميع الإذاعات ووسائل الإعلام وتدخل مع الصورة في التليفزيون ومع الخبر في الراديو ومع القراءات والدوريات اليومية والأسبوعية والشهرية ومع الدراسات في الفصول والمدرجات ، مع هذا كله يُدرس الإلحاد .

فكون الإسلام عبادات ومعاملات أو عقيدة وشرعة سببه أن ترك الحياة العامة للفوضوية والجاهلية والنظم المنحلة يعتبر عدواناً على الفطرة .

فتطلع الإسلام إلى امتلاك الحياة العامة وإلى أن تكون السولة بيده هذا أمر لا بد منه ، ما بُدَّ من أن تكون السولة لله وأن يكون توجيهها لله ، وأن تكون صدى لفطرة الإنسان لا حرباً على هذه الفطرة وانحرافاً عمقاً عنها إلى مزلق الشيطان وأهواء الأبالسة .

وقد جاء حديث - بعضه قدسي وبعضه نبوي - يشرح هذه الفطرة شرحاً مابِّد من أن نقف عنده قليلاً أو كثيراً لأن بعض المتدينين يظن أن

التدين افتعال أو تكلف أو تزويق للطاهر ، واخديث هو :

« ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومى هذا ، كل مال (١) نحله عبداً حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم (٢) عن دينهم ، وحُرِّمْتُ عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقنهم عربهم وعجمهم (٣) إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان (٤) وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً ، فقلت : رب إذن يثْلَغُوا رأسى فيدعوه حُبْرَةٌ (٥) قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْرَكَ ، وأنفق فستفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل عن أطاعك من عصاك ، قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفى ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قرنى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال ، قال وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبَرَ (٦) له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً ، والخبائن الذى لا يخفى له طمع (٧) وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلِكَ ومالك ، وذكر البخل أو الكذب ، والشتظير الفحاش » .

(١) المال : المالك ، بمعنى المال كل ما يملك الإنسان

(٢) أى استحوطهم فذهب بهم وأرأى أنهم عما كانوا عليه وحالوا معهم في الباطل

(٣) المقت أشد العصب ، وهذا انظر وانفت قبل بعثه عليه السلام والمراد بقايا أهل الكتاب

اباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل

(٤) قال القاصى : كناية عن كونه محفوظاً في الصدور لا يتطرق إليه الدهاب ويحتمل أنه كناية

عن تسهيل حمظه .

(٥) أى يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبر أى يكسر .

(٦) أى لا عقل له يبره ويمعه مما لا يبعى

(٧) لا يظهر

معنى قوله : « كل مال نخلته عبداً حلال » هو معنى قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق لكم فى الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وهو أيضاً معنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

من فساد الفطرة أن يلجأ بعض الناس إلى التحريم دون دليل .

طبيعة التدين الفاسد السرعة إلى التحريم دون دليل .

ومعنى قوله : « إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك » أى لأمتحك ، وقد امتحن النبى ﷺ وكان بلاؤه مصاعماً ، والعصمة - كما قال العلماء - لا تمنع المحنة

ومعنى قوله : « وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان » أن القرآن وحده تميز بالحدود ، الكتب السابقة كتبت فى ألواح ، ممكن أن يغسل الحبر ويبقى الدوح لا قيمة له ، لكن فى القرآن الكريم - وحده - اعتبر الحرف مقدساً ، اعتبر الشكر جزءاً من الموضوع ، واعتبرت الصياغة بعض الاستدلال المقهى على الحكم المقصود .

ومعنى قوله : « وإن الله أمرنى أن أحرق قريشاً » أى أن أبلغهم الدعوة التى يكرهونها ، كانوا يكرهون التوحيد كرامة شديدة ويضيقون بصاحبه أشد الضيق قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ [الزمر : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ [القلم : ٥١] وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ [الحج : ٧٢] .

واستجاب النبى ﷺ لأمر الله وأخذ يحدث قريشاً بما تكره ، فكان ناس كثيرون يرونه من بعيد فيقولون : سيحدثنا فى الإسلام تعالوا نختلفى من

وجهه ﴿ألا إنهم يشنون صدورهم ليستحوا منه ألا حين يستعشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ [هود : ٥] .

هذا الحديث شرح الفطرة شرحاً حساً ، والفطرة السليمة هي العاصم وحده ، ولذلك تحدثت سورة الروم ، عن حال من يكون على الفطرة فقالت : ﴿مبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم : ٣١ ، ٣٢]

إن الناس إذا لم يجمعهم الحق فرقهم الباطل ، إن الناس إذا لم تجمعهم العفة فرقهم الشهوات . إن الناس إذا لم تجمعهم الدار الآخرة هلكوا في أودية الدنيا لكثرة متاهاتها ، والفطرة السليمة هي العاصم وحده .

بعد ذلك تحدثت سورة الروم عن أن الناس - بطبيعتهم - يعودون إلى الفطرة وتطيب قلوبهم وترق سرائرهم ويعتدل مزاجهم ، ويستقيم سلوكهم عندما يصعمون بالمرض أو بالمقر أو بصياح ،سلطة أو بذهب ،لقوة ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون * وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقطون﴾ [الروم : ٣٣ - ٣٦] .

هؤلاء جميعاً يظنون أن العى تدليل من الخالق لبعض الخلق وأن الفقر إدلال من الخالق لبعض الخلق ، وهذا غلط : ﴿أو لم يروا أن الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ [الروم : ٣٧]

بسط الرزق وقبضه اختبار إلهي محض ، ولذلك قال لمن عنده المال انجح في الاختبار بأن تؤدى حق الله وحده ﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون﴾ [الروم : ٣٨] .

افعل هذا لله لا لجمع عاجل ﴿ وما آتيم من ربا ليربوا في أموال
الناس فلا يربوا عند الله وما آتيم من ركاة تريدون وجه الله فأولئك هم
المضعفون ﴾ [الروم : ٣٩] .

ثم يرى أن الناس تحمل بهم الكوارث وتذهب عنهم القوة وتشيع بينهم
المرض والاضطرابات بسبب أنهم لم يقوموا بأمر الله . ﴿ ظهر الفساد في
البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم
يرجعون ﴾ [الروم : ٤١] .

وينت السورة على عجل أن الصراع بين حزب الحق وحزب الباطل
قديم وبقى إلى قيام الساعة

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات
فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم :
٤٧] .

لكن متى ينتصر المؤمنون ؟ .

يوم تنضح الفطرة ويستقيم العقل ويسلم القلب من العش والأحقاد ،
يوم يكون المؤمنون حقاً على مستوى الكلمة وإن المشكلة الكبرى التي
يواجهها العالم كله الآن هي متى يدخل العرب في الإسلام ؟ متى يكون
المسلمون مسلمين ؟ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً خاتم الأنبياء وإمام المرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد .

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .

أيها الإخوة

إن كتابنا هذا مجمع الحقائق التى يفتقر العالم كله إليها ، وأود أن تتاح القرص مستقبلاً إن شاء الله للقى نظرة عامة على سورة من سور القرآن نحاول أن نعرف المحور الذى تلور عليه والهدايت التى يمعا الله بأن أودعها فى طيات كتابه .

والتفسير الموصوعى شىء شعلت نفسى به لكى يكون نوعاً من الدعوة إلى فهم القرآن فهماً يلائم هذا العصر الذى يريد اساس منه زاداً سريعاً يقدم لهم وفيه وفاء بحاجتهم .

ويمكن أن يردداد الوعى بالتفسير عندما يعود الإنسان إلى مصحفه وإلى أحد التفاسير ومعه ما قلنا من نقط سريعة .

• • •

اللهم أصلح لنا دين الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديارنا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

الْأُمَمُ بَيْنَ الصُّعُودِ وَالْهُبُوطِ

خطبة الجمعة بمجمع الإيمان بالمصورة
في ١٩٨٦/٧/٢٥ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو
على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فقد بحثت في علاقة بني إسرائيل بنبيهم موسى عليه السلام ، وحاوت
أن أعرف حقيقتها وأن أشرحها لئلا أسرح ما أعقبا وما صاحبها من
نتائج ، فإن قصص القرآن الكريم مصباح تنطلق أشعته منه لكي يعرف
الناس الطريق الصحيح فلا يزيغوا ولا يضلوا .

بدا لي أن علاقة بني إسرائيل بموسى لم تكن علاقة إيمان بالله وتقدير
حقوقه وتكريم لبيبه ، وإنما كانت أشبه ما تكون بعلاقة قوم مع من جاء
بحرهم ويدفع لعدابهم ، أو علاقة قوم برجل من بني جسدتهم
يتعصون له ويحتفون به ، وأحدث أتأمل ما جاء في القرآن الكريم في هذا
المجال .. رأيت أن موسى عليه السلام بعد أن انتصر على سحر فرعون
فاهترت ألوهية الرجل الأحق ، وانكشفت صورته أمام الناس فإذا هو

محمول تافه ، ثم كان إيمان السحرة بموسى عليه السلام وإيثارهم للآخرة على العاجلة كان ذلك حتماً لدعوى المقتول بأنه إله .

لكن هذا النصر الذى أحرره موسى على خصومه لم يدم طويلاً حتى بدأت المحنة تنزل بقومه وبدأ سيل جديد من المحن والفتن ينزل ببني إسرائيل ﴿ وقال الملائكة من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهلك ﴾ الحاشية الصالة تُعري فرعون سبي الله ، الحاشية الصالة تُملئ للرجل المعرور أن يمضى في طريق الموت والأذى ﴿ قال سنقتل أبناءهم وستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ ماذا يصنع موسى أمام هذا اللأ ؟ لا طاقة له على دفعه ولذلك أخذ يصبرهم على لأواء هذه المتاعب ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ ماذا كان حواسمهم ؟ كان جواباً رديئاً ، فقد قالوا له . ما استعدادنا منك شيئاً ، نَعْتُكَ كانت صيفراً ، تعبنا قبلها وتعنا بعدها ﴿ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف : ١٢٧ - ١٢٩] مصابيح الشعوب بين يدي الله ، مستقبل ابدول في أصابع القدر بصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، من يدرى ؟ قد يهلك عدوكم ثم تتولون الأمور من بعده ، ترى هل ستكونون هراغة مشهم تذلون الناس ، وتصرون الناطل ، وتتبعون الشهوات أم ستكونون قوماً صالحين ؟ هذا هو معنى كلمة موسى لبني إسرائيل ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

مما يذكر هنا أن صلاح الشعوب جملة أو كون الصلاح ينتظم أكثر الناس لا يتم إلا بعد مراحل طويلة ، أما في المرحلة الأولى فالناس خليط وأغلب الناس يتبع ما شاع من تقليد وما انتشر من بدع وأحكام ولا يعنيه أن يحيا كما ورث الحياة ، وأغلب اليهود عندما ظهر موسى كان الذل قد رسم خطوطاً عريضة عميقة في أعصابهم ، وكما قال أبو الطيب المتنبي (١) .

من بين يسهل الهوان عليه ما يجرح عمت إسم
فأكثر أتباع موسى ألقوا الدل والهوان ، ألقوا إذلال المراجعة وأن
تحمي أصلاهم لغير الله ، وأن يُصربوا فلا يتألموا ، لكن عدداً قليلاً من
النامس سلمت فطرته وصحت عقيدته وعرف الدين صلة بالله ترفع الرؤوس
وتركي النفوس وتحمل المؤمن يختار دروب الحياة وهو لا يعرف إلا ربه
ولا يبعي إلا رضاه ولا ينتظر إلا جده (١) .

وقد صرح القرآن الكريم في سورة يونس أن الذين آمنوا إيماناً فيه
صلاحية وقبول هم الخيل الماشيء ، أما الخيل الذي ألب الدنيا وتحمل ذل
فرعون دون أن يتمرد فقد فسد ، قال تعالى . ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية
من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يقتلهم وإن فرعون لعال في
الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ [يونس : ٨٣] .

الشباب الحديد الماشيء هو الذي مصى مع حيالات المجد والتحرر
ومعرفة الله وحده ورفق الألوهية الأرضية واحتقار الأصنام الحية التي
يعبدها الناس في كل عصر ومصر .

وبعد رمن من التعذيب والتقتيل جاء الأمر لموسى بأن يتحرك من هذا
البند ، وأصدر موسى أمره إلى بني إسرائيل بأنه في ليلة كذا يتركوا بلادهم
متجهين نحو الصحراء الشرقية إلى شاطئ البحر ، وعرف بنو إسرائيل أنهم
حارجون من مصر ولن يعودوا فاستعاروا الخي من المصريين على أن تنفي
معهم قليلاً ثم تُرد وهربوا بها !! .

انظروا الفارق بين مسكين ، عندما قرر النبي ﷺ الهجرة من مكة
إلى المدينة وكانت في بيته ودائع كثيرة للمشركين ستبقى بعده على بن أبي
طالب رضي الله عنه كي يرد الدائع إلى أصحابها (٢) فلا يكون اختلاف
الدين سبباً في التهم مال أو إضاعة حق !! .

(١) الخد : المعطاء

(٢) أسيرة النبوة لابن هشام ١٢٦/٢ ، ١٢٧ ، وتاريخ الطبري ٣٧٨ ٢

وخرج بنو إسرائيل - وهم سارقون - وراء موسى ، وبداهة ليسوا
كلهم لصوصاً ولكن عدداً كثيراً منهم كان يحمل حتى المصريين معه ، وبدأ
معدن النوم يتكشف .

عرف فرعون أن بني إسرائيل حرقوا هاريين ﴿ فأرسل فرعون في
المدائن حاشرين ﴾ إن هؤلاء لشردمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا
لجميع حاذرون ﴿ [الشعراء : ٥٣ - ٥٦] وانطلق فرعون وراء بني
إسرائيل ، وبدأ الجيش المصري يقترب من اليهود ، فلما أحس اليهود بأن
المراحل تُطوى وراءهم وأن الجيش المصري يقترب منهم صاحوا موسى :
﴿ إنا لمدركون ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴿ [الشعراء : ٦١ ،
٦٢] .

مهما اشتدت الظلمة ومهما كثر الخرح فإن المؤمن لا يصطرب يقينه
ولا يتصدع إيمانه ولا تصعب بالله صلته فهو لآخر لحظة واثق من أن الله لن
يصعبه ﴿ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ فأوحينا إلى موسى أن اصرب
بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم
الآخرين . وأنحينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين ﴿
[الشعراء : ٦٢ : ٦٦] .

كيف غرق الآخرون ؟ .

أمر موسى بأن يترك البحر على النحو الذي حدث له . جبال من
الأمواج عن اليمين ، وجبال من الأمواج عن الشمال ، وقاع يس ﴿ وأترك
البحر رهوا إنهم حند مغرقون ﴾ (١) [الدخان : ٢٤] واطلق فرعون
وجنوده وراء الإسرائيليين حتى اجتمع الجيش كله داخل البحر فانطبقت
الأمواج وهلك المسدون !! .

(١) وأترك البحر رهوا . تركه ساكناً على هيئته التي هو عليها بعد صربه بالعصا ليدخله القبط
فإذا حصلوا فيه أطلقه الله عليهم . يقال . رها البحر يترهو : سكن . وجاءت الخيل رهواً : أي
ساکة . أو أتركه مفتوحاً على حاله معرجاً ، من رها الرجل رهواً فتح بين رجليه وفرح بينهما ،
وهو حال من البحر . والمراد به : البحر الأحمر

تتابع القصة لتعرف طبيعة بني إسرائيل ، فإنهم ما كادوا يخرجون للشاطئ الآخر ويسيروا قليلاً حتى وجدوا قوماً يعملون الأصنام وكشف الضلال في معادهم ﴿ وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهر فصلكم على العالمين ﴾ [الأعراف . ١٣٨ - ١٤٠] .

ومشى بهم قليلاً ، وهنا وقف وقفة تأمل فيما يقصه القرآن علينا ، فقد اجتاروا الخليج إلى سياء ، ومصوا في سياء في طريقهم إلى الشاطئ الآخر ، والشاطئ الآخر كان فلسطين الأرض المقدسة ، من كان يسكنها ؟ .

كان يسكنها جنس عربي ، كان يسكنها الكنعانيون وهم جنس عربي فيه أحلاق العروبة قبل أن يؤدها الإسلام ، فيه حصال العرب من حبروت وقتك ومفاحرة قبل أن يحيى الإسلام فروع حسيبتهم ويلزمهم الأدب

كف الله بني إسرائيل أن يدحوا أرض فلسطين ليقاتلوا جبارتها ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجال من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : ٢٠ - ٢٦]

كانت استيحة أن الله جعل سياء مصيدة لليهود ، أحكم جذرائها
عبيهم فلا يخرجون منها أبداً ، وطلوا هكدا أربعين سنة حتى هلكت
الأجيال احبابة المرافقة التي استمرت الداي والمدلة ، وتكوت أجيال
أخرى تعرف الله وتحب رصاه وتبدل حياتها في سيله ، ثم دخل اليهود بعد
دلت فلسطين يقاتلون الحبايرة .

ونسأل : ماذا كان حال الدنيا خلال أربعين سنة ؟ .

كان الحبايرة يفسدون في الأرض ، وقيل الله أن تبقى الأرض أربعين
سنة يحكمها الحبايرة لأن الحياة احتبار ، وسيبقى الكافرون يحكمون الأرض
ما بقيت الأرض ليس فيها العصر الذي يحلف الطلبة ويستطيع أن يطبق
آيات الرحمن بدل تعاليم الشيطان .

لا بد أن يبقى زمام العالم بين أيدي عبيد الشيطان لأن عباد الرحمن
بنداسد التي استقرت بينهم ليسوا أهلاً لأن يتصرفوا ولا أهلاً لأن يقودوا ،
لا بد لكي تكون الأمة سيده أن تستجمع أسباب السيادة .

قرأت في التاريخ الإسلامي أن « هولاكو » دخل بغداد وقتل نحو
مليون أو مليون ونصف من الناس حتى إن العرات احمرّت مياهه من كثرة
دماء التي سفكت !! وكان المسلمون يومئذ أهلاً للهزيمة وكانوا جديرين
بها ، ثم مضى القرن السابع الذي اهرم المسلمون فيه ، وجاء القرن الثامن
الهجري وما جاء القرن التاسع الهجري حتى كان المسلمون يثأرون
لأنفسهم مما برل بهم ، ودخل المسلمون القسطنطينية وجعلوها عاصمة
الإسلام !! .

متى انتصروا ؟ لما صلحت أحوالهم واصطلحوا مع الله !! .

هناك فارق كبير بين الخليفة العربي الذي قُتل مع قومه في بغداد وبين
الخليفة الذي انتصر على أعداء الإسلام وافتتح القسطنطينية .

* * *

يقول التاريخ عن « محمد الماتح » : كان رجلاً صواماً قواماً ، وكان كثير القراءة للقرآن الكريم ، وقبل أن يموت جمع أولاده وأوصاهم بأن يظلوا محاهدين لصرة الإسلام وأن لا يشعلهم شيء عن مرصاة الله !!

انظر لصنتك بالله ثم انتظر أن يصع الله لك ، وادى حدث أن أمتنا لم تعرف حقيقة الصلة بالله .

أتطوبون العرب لما ملكهم الله الفرس والروم كانوا : عترة بن شداد ، وامراً القيس ، وبقية الشعراء والدحاليين ؟ لا ، لا ، كانوا نوعاً آخر من الناس ، كانت فلسفة الحكم في العالم يومئذ : الحق الإلهي للملوك (١) فإذا في المدينة فلسفة جديدة للحكم يقول فيها الخليفة « ... أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » (٢) .

ويشرح عمر رضي الله عنه سياسته في المال فيقول :

« ما مثلي ومثل هؤلاء إلا كقوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل معهم ، فقالوا : أنفق علينا ، فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء » ؟ .

قالوا : لا يا أمير المؤمنين ، قال : « فكذلك مثي ومثلهم » (٣) .

(١) نظرية سياسية تعرف كذلك باسم نظرية التمويص الإلهي ، والمقصود بها أن الملوك أو رؤساء الدول قد اختارهم الله تعيياً لحكم شعوبهم ، فمن ثم فهم لا يستمدون سلطانهم من شعوبهم بل من هذا التمويص الإلهي ، وبعبارة من هذه النظرية تعتبر كل ثورة على الملوك اعتراضاً على حكم الله ، وهذا ما عناه لويس الرابع عشر بقوله : « أنا الدولة وأبدولها أنا »

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣٠١/٦) وقال هذا إسناد صحيح

(٣) مناقب عمر لابن الحوري : ١٠٢

وكان يقول :

لا شيء فيما ترى إلا بشائسته يبقى الإله ويودى المال والولد (١)

سياسة جديدة في المال ، سياسة جديدة في الحكم ، سياسة جديدة في البحث العلمي تقوم على التحرر والملاحظة ورفض الأحيلة الفلسفية الشاردة ، سياسة في الخلق والسلوك ، سياسة جديدة في كل شيء ، غير المسمون وحه الحياة وطلعوا على اساس ثقافة جديدة وحضارة جديدة .

كيف وقع هذا ؟ .

هما بقارن بين فترتين ، يقول المؤرخون : احتاج بنو إسرائيل إلى أربعين سنة حتى يتحولوا إلى جيل يصلح لوراثة الحكم أو لقيادة الناس أو لإمامة الخليفة ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وثمت كلمة ربك الحمسى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

من الممكن جداً أن تتحول الأمم إلى أصدادها ، لكن الأمر لم يفتح إلى أربعين سنة بالنسبة إلى السبي العربي المحمد عليه الصلاة والسلام ، فخلال ثلاث وعشرين سنة غير العرب السارحين في الصحراء كأنهم إبل هائمة إلى شعب ثقافة وحضارة يحتقرون المذات ويظنون الآخرة ، ويمشي أحدهم إلى ميدان الوعي وهو يقول :

ركصاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاذ
غير اتقى والبر والرشاد (٢)

هذا التعبير الذي حدث لدحيش العربي أصبح أهلاً للسيادة وأهلاً لأن

(١) نفس المرحع ١٨٨ وتدرج الطبري ٢٩ ٥

(٢) هذه الأبيات قالها عمير بن الحمام وهو يقاتل في غزوة بدر ، وقد رواها ابن جرير كما ذكر

لحافظ ابن كثير في البدايه والنهاية ٢٧٧ ٣

يؤخر الرومان من هنا والفرس من هنا ويتصدر قافلته البشرية ويقودها
بجدارة .

الأمة العربية الآن تلقى الويل والاحتقار لأنها تحاول لإنسلاخ من
الإسلام ، وقد قلت لبعض إخواننا الفلسطينيين : ماذا تطلبون إقامة دولة
علمانية ؟ .

إن إخوانكم في الجزائر كانوا يحاربون تحت علم التوحيد وتحت هتاف
الله أكبر ، وكانوا يسمون من قُتل شهيداً ، وكانوا يسمون أعداءهم
كفاراً ، ووقعت المعجزة وانتصر الجزائريون على الاستعمار الفرنسي .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

﴿ الحمد لله الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [شورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الأمم ليست بالمراعى أو الهتافات فإن شيئاً من هذا لا ترجح به كفة ولا يتصر به صعيد ، لكي تكون الأمة الإسلامية أهلاً لنصره الله يحب أن يطر الله إليها هيرى أن الأسرة الإسلامية أطف وأحكم وأفضل من الأسرة غير الإسلامية ، وأن الموظف المسلم أرعى للأمانة وأحفظ للحدود وأطوع للطعام من أى موظف آخر ، وأن الشارع المسنم أنصف من أى شارع ، شاق ، صا أو عريها

أيها الإخوة :

الإسلام دين جاء رحمة للناس وخروجاً بهم من الظلمات إلى النور ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [إبراهيم : ١] .

ما هى الظلمات التى نخرج منها ؟ ظلمات الليل ؟ كلام فارغ لا يقوله عاقل ، ظلمات الجهل والموصى والتسبب وضعف اليقين وضعف الأخلاق ، وما أكثر هذا فى الأمة الإسلامية !! .

- يحب - كما تُدرّس في كليات الطب الحثّ لتعرف أسباب الوفاة ويتّبع بها في علاج الأحياء - أن تُدرّس الأمّ المهزّمة ويعرف ما فيها من علل ، فإذا كُشفت هذه العلل ، وعرفنا جراثيم الداء أمكر الخلاص منه والعد عنه ، أما الأمّ التي تنافق أمراضها ولا تريد أن تحشها ولا أن تتعد عنها فستبقى بعثتها إلى أن تموت بها

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديارنا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة ..



نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الأَخْرَابِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعد .

فإن الجماعة الإسلامية الأولى ، والدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة عانتا ضغطاً شديداً من الكفار والمفاقيين .

وأم الكفار فإن أحزابهم على اختلاف ملتهم جمعتهم عاية واحدة هي تقويض الإسلام ونسف دعائمه والإنسان عنه من القواعد ، يستوى في ذلك الوثنيون وأهل الكتاب

ذاك عمل الأعداء في الخارج ، أما عمل السافقين في الداخل فكان إثارة الفتن والبليلة الفكرية والعاطفية .

ولقد رأيت من تحاربي الكثيرة ومن دراساتي الكثيرة أن عمل المفاقيين في الداخل قد يكون أنكى وأقسى من عمل الكفار الصرحاء الذين يهاجمون الدولة من الخارج .. قد يكون عمل المفاقيين مستوراً تحت أعشية من الخداع والبرودة والمروعة ، وقد يكون مجبراً تحت استعجال أصحاب البيات الحسنة وإن كانت عقومهم ضيقة وفقههم قبيلاً ، ذلك لأن الصديق الحامل قد يكون أشد على صاحبه من العدو العاقل .

وأمس ترمى إلى نقاش غريب في « جامعة القاهرة » فإن واحداً من هيئة التدريس في « كلية الطب » وعدداً من التلامذة له أشاع تفسيراً غريباً لقوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

قال : إن الآية صريحة في أن لكل إنسان أن يعمل بالدين وأن يتركه 11 .

تفسير الآية في نظره غير تفسيرها عند جمهور الفقهاء والمفسرين على امتداد أربعة عشر قرناً ، هؤلاء جميعاً قالوا : المقصود بالآية أننا لا نكره أحداً على الدخول في الإسلام ، وأن القوة في أيدينا ليست أداة ضغط أو فتنة أو هيمنة على العقل والضمير ، فالإسلام غنى بحججه ، ثرى ببراهينه ، فهو يسوق قضيته بين أشعة عامرة من البيات والهدى ، فمن رد ذلك كره فلا علينا منه ، ومن قبل فهو أخونا ، أما أن محتاح إلى سلاح لتأسيس إيمان في قلب أو يقين في قواد فلا .

لكن مفسر القرن الخامس عشر في « كلية الطب » قال لنا : إن المقصود بالآية أن الإنسان حر في أن يصلي أو لا يصلي أن الإنسان حر في أن يزكي أو لا يزكي ، أن الإنسان حر في أن يُحسن أولاً يحسن ، أن الإنسان حر في أن يقارف ما يشاء من مطالب الهوى وممارع الشهوة دون أن يكف بإكراهه على شيء من الهدى والخير .

ونحن - في هذه الدائرة - لا نُكَلِّف بإكراه أحد على شيء من الهدى والخير ، ولكن الكلام بهذا الأسلوب معناه إبطال قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما دام كل إنسان حراً في أن يصلي أو لا يصلي ، ومعناه أيضاً إبطال أن تتحول الدعوة الإسلامية إلى دولة إسلامية تحارب الشر وتقيم الخير وتأمُر بالصلاة وتعلمها في برامج التدريس وتشجّع عليها الأجيال وتكلف الآباء في الأسر أن يربوا الأولاد على أدائها وتكف الإذاعة أن تنادي للصلاة في كل وقت من الأوقات الخمسة .

ومن هنا فالتفسير بهذه الطريقة تقويض للمجتمع المسلم وبلية لقواعده فضلاً على أنه جهل مركب وصفاقة عربية في فرض الصلّال على الإسلام ، فإن شبانا أعراراً مساكين تعوا الذي قال لهم هذا ومشوا وراءه ، وما أشك في

أن الاستعمار العالمى بشقيه الصهيونى والصيبنى وراء هذا الفكر !! .

فكر آخر : جاءنى طالب من « الرقاريق » أمس وقال لى : إن بعض المتسبين إلى السلفية - وما هم بسلميين فى الحقيقة - رموا بالكتب المعاصرة ورفضوا أن تُعرض فى معرض للكتاب الإسلامى !! .

والكتب المعاصرة بعضها ألّفها أحونا الأستاذ سيد قطب .. والأستاذ محمد قطب .. والأستاذ أبو الحسن الندوى .. والأستاذ أبو الأعلى المودودى .. والأستاذ عبد القادر عودة .. وكثيرون !! .

قلت : ما أشك أن وراء هؤلاء البله فكرأ حبيثاً يريد تمريق الكيان الإسلامى والوسوسة هؤلاء بأن الكتابات المعاصرة رديئة وأن الكتابات القديمة لابن تيمية وابن القيم هى وحدها التى يؤخذ الإسلام منها !! .

وشيوخ الإسلام ابن تيمية رحل كبير وتلميذه ابن القيم رجل كبير ، والغريب أن ابن تيمية بُلى فى عهده بقوم تناولوا الأئمة العظام بلسان حاد وولعوا فى أعراضهم وحاولوا مساوشة القمم الشماء فى تراثنا الإسلامى وفقها الضخم فتصدى لهم شيخ الإسلام ابن تيمية وألّف كتابه المشهور (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) !! .

والواقع أن الذين يتظاهرون بالحماس لابن تيمية وابن القيم جهال لأن الإسلام لم يكن عقيماً قبل ميلاد ابن تيمية وابن القيم فى القرن السابع للهجرة ، سبعة قرون قبل ميلاد ابن تيمية وابن القيم وسبعة قرون بعد ميلاد ابن القيم وشيخه ابن تيمية امتلأت برجالات الإسلام من ذوى الفكر الثاقب والقلب النابض والحرارة التى تصبغ عواطفهم نحو ربهم ونحو نبيهم !! .

وما بد فى عصرنا هذا من أن نقرأ كتب المعاصرين لأن الغزو الاستعمارى الذى هجم بحوافله على العالم الإسلامى - فى عصرنا - جديد فى أساليبه ، مزود بخطط عربية لسرقة العقائد واختلاس القيم ، وهو يحرق وراءه خلفية عريضة من الحصار العربى التى ازدهرت فى ميدان العلم والتطبيق واستطاعت أن تستغل تقصيرنا وغفلتنا وتراخيها فى خدمة ديننا

حلال القرون الأخيرة وهجمت عليه هجوماً موعاً يحتاج إلى أفكار جديدة
وكما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في القرن الثاني : تَحْدُثُ لِلنَّاسِ أَقْصَى
بَقْلَرٍ مَا أَحْدَثُوا مِنْ فَحْوَءٍ !!

وكيف يقال : إن الثقافة الإسلامية انتهت بكتابات ابن تيمية وابن
القيم ؟ .

إسى أحد الدين تتلمدوا على ابن تيمية وابن القيم وابن رشد والعزالي
وابن الحوزي وابن حزم وطبعاً تلميذ تافه للأئمة الأربعة الكبار الذين
شمخت قممهم في تراثنا العقلي والفقهى ويعتبرون نماذج رائقة لتقوى الله
ونفع الناس !! .

ما أشك في أن الدين يضمرون التعصب لفلان أو لفلان من الأئمة
والعلماء ويريدون تمزيق مجتمعنا بمثل هذا التفكير ما أشك في أن وراء هذا
البعو ضامع حيثة من الصهيويين أو الصليبيين ممن يعملون لحساب الاستعمار
العالمى !! .

الفتنة في الداخل أقسى على الأمة من الهجوم الصريح من الخارج ،
ولذلك فإن المسلمين في عصرنا هذا ينبغي أن ينظروا بقلق إلى البرعات
البعالية التي تنتشر الآن فإن من العجيب أن يدخل اليهود كيستهم فتلتقى القلوب
على أكلمنا والهجوم علينا ويخرج المسلمون من المسجد ممرق الصعوف بأفكار
تافهة وقضايا حقيرة ! .

هذا الكلام استطراد مى أحيث إليه ، وأنا أريد في الحقيقة إلقاء نظرة
على سورة الأحزاب .

وسورة الأحزاب - كما نعلم من عناونها - تناولت الكلام عن غزوة
المخندق وعن تجمع أحزاب الكفر وثبة وكتاية لحصار المدينة المنورة
والضغط عليها بكل ما أوتيت من قوة حتى تخنق الإسلام وتبرز أمعاءه
وتحعله أثراً بعد عين !!

وتناولت السورة شيئاً آخر وهو عمل المنافقين داخل المدينة لجعل
المجتمع الإسلامى يتبرى ويتعب ، كان عمل المنافقين في أثناء الحرب أن

ينشروا الإشاعات والأراخيف وأن يشعلوا حقد الله ويلقوا نعرع في أفئدة الجماهير ، وكان عملهم أيضاً السحرية أو التلديد عما كان يؤثر عن رسول الله ﷺ وصحاحته الكرام من أن مستقبل للإسلام وأن بدعوة الماشئة سوف يطلع صبحها على الروم والفرس وسوف يدخل الأمم في هذا الدين .

كانوا يستهزئون ويسخرون ويتصاحكون وهم يرون المؤمنين من وراء الخندق يقاتلون بأس شديد وعنف رهيب كي يستبقوا حياتهم ويستبقوا دعوتهم ويجعلوا علم الإسلام باقياً في وجه الرياح اهورح التي تريد أن تطويه .

هذا عمل المنافقين في الحروب ، أما في أيام السلام فعملهم تتبع الشهرة وإثارة أساليب ومهومات على أهواء السكك لإلقاء اضطراب النهمه على أعراض المؤمنين وتضعها .

فكان لابد من علاج هذا كله ، وجاءت سورة الأحزاب فوصفت في صفحين تقريباً ما وقع في عروة الخندق ، ووصفت في بقية الآيات - وهي نحو خمس صفحات - تنظيم المجتمع الإسلامي وفي قمته الأسرة النبوية .

هذا هو محور الذي دارت عليه سورة الأحزاب ، وبدأ الكلام تنبيهاً للمؤمنين أن يوحدوا صفهم وأن يجمعوا شملهم وأن يركروا قواهم في مواجهة التيارات المنعثة من تلك الجبهتين : (الكفر والنفاق) .

بدأت بقوله حل شأنه ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله عليم حكيم ﴾ . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان عما تعملون خبيراً . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴿ [الأحزاب : ١ - ٣] .

لكلام عن الكافرين والمنافقين تكرر عدة مرات في السورة :

نص في وسط السورة بقول الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴿ [الأحزاب : ٤٥ - ٤٨] .

وفي ختام السورة يقول الله تعالى : ﴿ إنا عرصنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ . لعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴿ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣]

ومع هذا التوجيه في الوقوف ضد الكفار والمنافقين والتصدى لجهنم على سواء نلاحظ أيضاً خلال السورة أن الصبر على أدى هؤلاء وأولئك مطلوب وأن تحدير المؤذنين من المصطفى في طريقهم واضح ويحد هذا في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيباً ﴾ . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴿ [الأحزاب : ٥٧ ، ٥٨] .

وقل ذلك قال ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ [الأحزاب : ٤٨]

وفي آخر السورة قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وحيياً ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وفي جلوس الناس في بيت الرسول ﷺ دون سب واضح بين أن ذلك كان يؤذى النبي ﷺ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فاستحي منكم والله لا يستحي من الحق ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

ذاك كلام هامشي على جانب السورة أما الكلام في السورة نفسها فمحس نتلوه أيضاً هامشياً لنقول : إن السورة بينت أن صاحب الهدى الواحد لا يشعله عن هدفه شيء آخر لأن ما ارتكز في القلب من إيمان يربط صاحبه برب الأرض والسماء لا يجعله صاحب قلب آخر يلتفت إلى الناس ويرجوهم أو يحشاهم ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ [الأحزاب : ٤]

وعرض لشيء من القضايا التي تناولتها السورة وهي قضية تزوج لى صلى الله عليه وسلم بامرأة منساه - ريد بن حارثة - فقال : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهdy السيل * ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوالم في الدين وموالكم ﴾ [الأحزاب : ٤ ، ٥] .

تبيr الآية هنا أن من لا يعرف أباه فهو أحم لنا في الدين ، وينبغى أن لا يصبح في مجمعا ، لكن الذى حدث - للأسف - أنه صاع ، وقد رأيت - وأنا قادم من أسبوط من حوالى أسبوعين - مؤسسة على نحو ثلاثة عشر فدائاً جمعت اللقطاء من المدينة خلال ثلاثين سنة وتبنت هذه المؤسسة تربيتهم على البروتستنتية وهي الآن تأحد معوماتها من مجلس الكنائس العالمى !
أين المسمون :

يتقاتلون على التوافه من قصاياهم فيما يشب الألوف على غير دينهم وهم لا يدرون !! .

هذا استطراد آخر تركه بقول : إن الآية تحدثت بعد ذلك عن موقعة الأحراب وبيت أولاً أن الدولة الإسلامية وقعت في مأرق خطر وأها - حقيقة - امتحنت امتحاناً شديداً وأن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة من مهاجرين وأنصار كانوا حوله يتطلعون إلى الأفق في لهفة واضحة إلى عون الله وأن المستقل تبد بالعيوم لأن أعداءهم أحاطوا بهم إحاطة لا ماحة منها إلا بفصل الله ، وتمح هذا في التصوير الذى بدأت به هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحاجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ﴾ [الأحراب : ٩ - ١١] .

ظل المسمون قرابة شهر ومواقعهم بين حين وآخر مهددة بأن تُفتحهم ، صحيح أنهم حصروا الحديق وأهم باتوا ساهرين حوله وأهم منعوا حل الكفار من أن تفتحهم المدينة ، ولكن هذا كله ما هو من شدة

الحصار لأن الحصار جمع قريشاً التي أقبلت من مكة - عاصمة الوثنية يومئذ - ثم بدو الحرية ثم أهل الكتاب ثم يمثلون من حقد على عقيدة التوحيد ومن بعض على صاحب الرسالة الخاتمة ومن خيث وغدر في دمهم صد كل من يريد بالإسنانة حراً ويعي لها شرفاً ، اتفق هؤلاء كلهم على أن يدخلوا مع الإسلام في معركة حياة أو موت ، وكان كل شيء يشير إلى أنهم منصورون حتماً ، فالمسلمون داخل مصيدة لا يحدون مفذاً حتى إن النبي ﷺ أراد أن يتحايل على إيقاد الدعوة فأرسل إلى البدو - وهم قوم تجمعهم الأموال وتفرقهم المصاعف - وعرض عليهم أن يرجعوا - لتحدث ثغرة في هذا الحصار - وعرض عليهم نصف ثمار المدينة ليعودوا ، وفعلوا كادوا ، يقلون لولا أن المداينة والتصحبة والاستماتة ملأت قلوب رؤساء الأنصار سعد بن معاذ وسعد بن عباد وقال سعد بن معاذ : والله لا يعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال رسول الله ﷺ .

« فأنت وذاك » (١) .

وشاء الله أن ترداد الظلمة عندما اصمتت بنو قريظة إلى المشركين ولكن النبي ﷺ كان موقفاً بأن النصر له لأنه موقر بكلام الله ، والله أنزل عليه بمكة - في سورة الصافات : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] . وأمر عليه في سورة عافر : ﴿ إنا لننصر رسلاً والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢] .

كان واثقاً من صدق الوحي ومن أن الله لن يحدله فصاير حتى تدخل القدر وعصمت الرياح بحيام المشركين وأكملت قدورهم وألقت المرع في أنفسهم فافصوا ما همهم إلا الله ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام فيما استقبل بعد ذلك من معارك يقول : « اللهم منزل الكتاب * ومجري السحاب * وهازم الأحزاب * اهزمهم وانصرنا عليهم » (٢) .

(١) راجع بالتفصيل سيرة ابن هشام ٣ . ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) رواه البخاري في الجهاد - باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى يروى الشمس ٦٣/٤ ومسلم في الجهاد - باب كراهة تمس لقاء العدو ، والأمر بالصبر عند اللقاء ١٤٣/٥

وكان يقول : « لا إله إلا الله وحده ، أعز جده ، ونصر عبده ،
وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده » (١) .

لكن من الذى يستحق النصر ؟

قلوب أخرى ، فى الحقيقة عندما أقارن بين قلبى وقلوب أولئك الناس
أشعر بشيء كبير من البعد ، لأنه فى يوم من الأيام صاقت قريش بالحصار
وقررت أن تهجم هجوماً تنتهى فيه إلى نتيجة حاسمة ، ومعللاً وجهت قواها
فى ضربة شديدة لقلب المدينة ، وتجمع المسلمون من الطهيرة إلى صلاة
العصر إلى أن غرت الشمس وهم يقاومون حتى ردوا المهاجمين على أعقابهم
حاسمين ، تدرون ما ذا كان تعقيب صاحب الرسالة الحاتمة على المعركة ؟ .

يقول : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى
حتى غابت الشمس » (٢) .

هذا ما أحرته ، أحرته أنه لم يسعد بقاء الله فى صلاة العصر ، أحرته
أنه لم يشعر بحلاوة الوحي وهو يتلوه بين يدى رب العالمين !! .

هذا قلب وحوله قلوب على شاكته أو تعدت منه ، ما أساءها أن
بدلت جهداً أو فقدت مائلاً أو روعها الأعداء ، بل « شغلونا عن الصلاة
الوسطى » !! .

لس نعيد أن تمرل الأمطار وأن تعصف الرعود وأن تقصف قواصف
الحو على الكافرين فترعمهم على أن يعكروا الحصار ويذهبوا بدداً من حيث
حاءوا ﴿ ورد الله الدين كفروا بغيظهم لم يبالوا حيراً وكفى الله المؤمنين
القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الدين ظاهروهم من أهل الكتاب
من صياصيمهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً -
وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تظنوها وكان الله على كل
شيء قديراً ﴾ [الأحزاب : ٢٥ : ٢٧] .

(١) روه البخارى فى المعارى - باب عروة الخندق ١٤٢/٥ ومسم فى الذكر والدعاء - باب

لتعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨٣/٨

(٢) روه البخارى فى الجهاد - باب ندعى على المشركين بالفرقة والبرية ٥٢٤ ومسلم فى مساجد

١١١٢ . مع صلاة - باب الدليل - فإن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر ١١١٢

هذا ما تضمنته سورة لأحزاب عن عروة الأحراب ، وندوة ما قبله
يعد إشارات خاطفة ، أما المعركة وما وقع فيها وتفاصيلها فلها محل آخر
بعد ذلك جاء كلام في تنظم آية السور ، أساس هذا التظيم يجعلنا
نتحدث عن فلسفة الغنى والفقر في الإسلام
أيها الإخوة : الإسلام دين يكره الفقر ويراه نكبة تزل بالإنسان
فتزلزل مروءته وتكسر روحه ، ولذلك كان نبي ﷺ يسويه بالكفر في
الاستعادة بالله من وطئهما : « اللهم إني أعوذ بك من الكفر ولفقر ،
اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت »^(١) ، وكان يقول :
« اللهم إني أعوذ بك من الخوع فإنه ينسب الصحيح ، وأعوذ بك من
الحياة فإنها بنست البطانة »^(٢) .
وكان يقول : « نعمنا بالمال الصالح للرجل الصالح »^(٣) .

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة ، لكن هل كان نبي ﷺ عباً ؟
لقد أعماه الله فعلاً - نص القرآن الكريم - ﴿ ووحّدك عائلاً فأغني ﴾
[الصحن : ٨] عائلاً - فقيراً - فأعماه أعماه في شبابه ورحلته بكده في
الأرض وتجارته التي كسب منها الكثير ، وأعماه بعد الرسالة نصيبه في
الهيء والعائمه ، كان عباً ولكنه كان إماماً يسدل رقعته ، قال لأنبي در
رضي الله عنه يوماً وكان يمشي معه : « يا أبا ذر : ما يسرني أن عندي
مثل أحد هذا ذهباً تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده
لدين إلا أن أقول به عباد الله هكذا وهكذا وعن يمينه وعن شماله
ومن خلفه »^(٤) .

(١) رواه أبو داود في الأدب - باب ما يقول إذا أصبح ٤٣٣/١٢ والنسائي في عمل اليوم والليلة
١٤٦١ والحاكم وصححه ٢٥٢١ وبيهقي ١٢٧ وأحمد ٤٢٥ ورمز به سيوطي بالصحة (فيص
المدير ١٣٥/٢)

(٢) رواه أبو داود في الدعاء - باب في الاستعادة ٤٦٤ والنسائي في الاستعادة ، الاستعادة
من الخوع ٢٦٣/٨ ، وابن ماجه في الأطعمة ١١١٣/٢ وقال في صحيح الجامع : (١٢٨٣)
حسن

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد - باب المال الصالح للفرء الصالح : ٤٥ والحاكم في المستدرج
وصححه ٧/٢ وأحمد ١٩٧/٤ ، ٢٢

(٤) رواه البخاري في الرقاق - باب قول النبي ﷺ ما أحب أن لي مثل أحد ذهب ١١٧/٨ ،
١١٨ ومسلم في الزكاة - باب تعذيب عقوبة من لا يؤدي الزكاة ٧٥/٣

هذا عطاءه ، ومع ذلك بلغ به العطاء أن يسي حاجات بيته وربما سأل
أهله الأذم فقالوا ما عندنا إلا حل فدعا به فجعل يأكل به ويقول : نعم
الأدم اخل ، نعم الأذم الحل (١) .

ما السبب في هذه المعيشة ؟

السبب أن الأمة الإسلامية كانت تواجه مصاعب هائلة ، ففي مكة
حُصر المسلمون في شُعب بني هاشم نحو ثلاث سنين كانوا يأكلون التراب
من الفقر ، فكيف يتوسع ؟ .

ثم بعد هجرة وحدها المدينة المنورة تتعرض للهجوم والحصار
والصوائق ، أكان البيت السوي يستمتع بالخير الكثير والراد النوير والناس
يحيئون من كل ناحية فاقدين لأموالهم ولأملاتهم ؟

كان لابد أن يعيش البيت السوي عبثة فيها شدة ، كان لابد أن
يتحمل ، لكن السورة اللاق تروجهن - وقد حث من بيوتات كان فيها شيء
من الخير والثراء - تأمل وصقن ، وعلى ما بين الصرائر من خلاف اتفقن جميعاً
على إعلان رفضهن لهذه المعيشة القاسية فمادا بفعل الرسول ﷺ ؟ .

جاء الوحي الإلهي يقول له : ليس إلا هذا ، وقل لمن عندك في
البيت ! هذه معيشة بيت يصدر للناس العمة ولقاعة ، يصدر للناس السهر
في طاعة الله والتهجد وجعل الليل أبيض من طول القراءة والعبادة .
﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة لدنيا وزينتها فتعالين
أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار

(١) روى مسلم في لأشربة باب فصيلة عن واليهم به ١٢٥/٦ قال ابن القيم هذا شيء عليه
بحسب الوقت لا تفصله على غيره ، لأن سببه أن أهله قدموا به خيراً فقال ما من آدم ؟ فابوا
ما عندنا إلا اخل ، فقال ذلك جبراً لقلب من قدمه وبطريقاً لنفسه لا تفصيلاً له على غيره ، إذ لو
حصل نحو خير أو عمل أو كان أحق بالمدح (فيص العنبر ٢٨٦/٦)

الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴿ [الأحراب :
٢٨ ، ٢٩] .

وانتهت الآيات بقول الله لنساء النبي ﷺ : ﴿ واذكروا ما يتلى في
يوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ [الأحراب :
٣٤] .

هذا بدء لتنظيم البيت النبوي ثم اتصل التضييع بعد ذلك بقضايا
كثيرة ، ربما طال الوقت قل أن نهينا ، لعل لها مجالاً آخر .
أقول قولي هذا وأستعفر الله لي ولكم .

• • •

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستحب الدين أموا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأسياء وسيد المصحين
الهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين

أما بعد .

أيها الإخوة : من علامات المجتمع المسم ما قاله الله جل جلاله في وصف أمائه ﴿ أدلة على المؤمنين أعرة على الكافرين ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : ٢٩] .

نحن بحاجة إلى أن يكون المسلم دليلاً لأخيه ، ومعنى أن يكون المؤمن دليلاً لأخيه أن يكون سهلاً معه وأن لا يكون شرساً أو صعب القياد ، ومعنى أن يكون المؤمن رحيماً بأخيه أن يرق له ، إذا عثر أهضه وأزال عنه الفدى الذي قد بصره في سقطته وأن لا يكون عوياً للشيطان عليه .

وأنا أرحب بل أن مسرو . بالهضة الإسلامية التي انتشرت في عوصم الإسلام كلها بدىي أن تلحق هذه الهضة شوائب ، ونحن لسنا معصومين ، بدىي أن يكون هناك صلاب فيهم قصور فقهي .

بدىي أن يستغل أعداء الإسلام هذا ، وأن تتحول المحابر العالمية بأساليبها لدسة الخبيثة إلى صفوف هؤلاء الصلاب لترفهم أو لتحصل قوى بعضهم ضد الآخر .

إن الصخرة الإسلامية موحودة الآن في كل بلد ، وأنا أحشى على الصخرة الإسلامية لا من الأعداء التقليديين المعروفين وإنما أحشى أن يأكل

بعضاً بعضاً بسبب خلافات تافهة وأفكار صبيقة .. مسحدون كما ذكرت لكم في صدر خطبتي الأولى - من يفسر القرآن بخطأ ومن يدخل في السنة وهو لا يدرى رأساً من ذنب ولا يعرف صحيحاً من صعيب ، وإذا عرف لصحيح لم يعرف كيف فهمه فقهاء الإسلام .

لا بأس أبداً أن يحییء واحد من الناس يقول لك : الرسول ﷺ قال : (نَعَمْ الْأَذْمُ الْحُلُ) فسجعل طعاماً كنه حلاً !! .

أى تفكير هذا ؟ هذا إنسان كبير يرضى نفسه بواقع عابر

هناك ناس خبراء بالأحوال العلمية في القاهرة وفي دمشق وفي بغداد وفي غيرها يريدون إساءة هذه الأمة وكتبها في حاصرها ، فلكر بصراء بديننا ومن يعمنون في هذه الميادين المشبوهة .

« اللهم أضح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأضح لنا ديننا الذي فيها معاشنا ، وأضح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [الحل : ٩٠]

أقم الصلاة

بَيْنَ بَدْءِ الْوَحْيِ وَخِتَامِهِ

خطبة عيد الأضحى المبارك

عيدان عابدين في ١٩٧٩/١٠/٣١ م

الحمد لله حمداً مضاعف الشكر والثناء والتمجيد ، حمداً يواي نعمه
ويكافي مريده ، حمداً يُبتغى به رضاه ويُتقى به سخطه ﴿ وقل الحمد لله
الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدل
وكبره تكبراً ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . ما أُيدعت حياة وأحى
موات . الله أكبر ما اهتز في مهده طفل وما نَسَقَ (١) في حقه نبات . الله أكبر
ما دار في فصائه فلك . الله أكبر ما سبح بحمد ربه لأعلى منك . الله أكبر
ما انطلقت مواكب المحاهدين أنصار الله تنشر دعوته وتعلو كلمته وتُحى
شريعته . الله أكبر . ما انطلقت مواكب الحجيج صوب البيت العتيق الذي
جعل الله ريارته حجاً مبروراً وسعيّاً مشكوراً . الله أكبر ما انسكت
عبرات التائبين يستعفرون الله لزلتهم ويستقبلونه من عثراتهم ويقولون ما قال
أبونا الأول آدم وأما الأولى حواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا
وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٢٣] الله أكبر ما قامت
برها الأشياء وحصعت لحكمه الأرض والسماء . الله أكبر ما التقى على
طهر الأرض الكمر والإيمان ، وتصارع أنصار الحق وأنصار الباطل وكامح
بعضهم بعضاً ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت
لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في
بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد ﴾ [الحج : ١٩ - ٢١] .

هذا جراء الكفرة الصخرة ، أما الصالحون الأبرار ﴿ والذين قتلوا في
مسيل الله فلن يضل أعمالهم . سيدهم ويصلح بهم . ويدخلهم الجنة
عرفها هم ﴾ [محمد : ٤] .

(١) سر النبات : ارتفع وطال

الله أكبر ولا إله إلا الله ولا يعبد إلا إياه محصين له الدين ولو كره الكافرون .

أيها الإخوة :

إن أعياد الإسلام تقترون بالقرآن الكريم اقتراناً تاماً ، فمع بدء الوحي الأعلى كان رمضان ، وكان صومه ، وكان عيد المظفر ، ومع حوائيم الوحي الأعلى كان الحج ، وكان يوم عرفة ، وكان اكتمال الدين ، وكان بدء حصاره أطلت الدنيا فلم تر الدنيا لها نظيراً ، إذ أغلقت قدر الإنسان وشرفته على امتداد الزمان والمكان !!

وبين بدء الوحي وختامه ثلاث وعشرون سنة ، ربع قرن طويل امتلأ بالأحداث العجب ، كان هذا المدى من الزمن مشحوناً بالنصر والهزيمة وبالفرح والحزن وبالصرخ والصيق ، وكما قال رسا . ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

في هذا الربع القرن وجدنا صاحب الرسالة الحاتمة يطارد في الحرم الآمن ويقال له - وهو أنصر الناس عفلاً وأرشدتهم فكراً - ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك عجيب ﴾ [الحجر : ٦] .

ثم يطارد من يده إلى مهجره لتلحق به في أحد هزيمة رهبة صرعت من أئمة المسلمين سبعين شهيداً ، وبيع توقع الوثنية بعد أن أحررت نصرها أن وقف قائدها يقول : (أغل هُل . فقال النبي ﷺ : « أجيوه » قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » (١)

إذا كانت الوثنية قد طمرت بمعركة وألحقت بالمسلمين خسائر فإن خمس سنين أعقبت عروة أحد وإذا المسلمون سادة الموقف في مكة المكرمة ، وبعد سنة واحدة من فتح مكة كان المسلمون يسودون مواسم

(١) رواه البخاري في المعازي - باب عروة أحد ١٢٠/٥ ، ١٢١

الحج ومحيمات الصحيح ، وترلت في السنة التاسعة من المحرة سورة التوبة
تُهي الوحد الوشى في جريرة العرب وتحتم رواية حرافية دامية بقيت نخدم
الباطل أمدأ ليس بالقصير ، وأعطي المشركون فرصة محدودة إما عادوا
بعدها إلى رشدهم وإما فقدوا حياتهم وأماهم ﴿ براءة من الله ورسوله إلى
الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا
أنكم غير معزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله
إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم
فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معزى الله وبشر الذين
كفروا بعذاب أليم ﴾ [التوبة . ١ - ٣] .

هذه الصيحة بعد اثنتين وعشرين سنة من بدء الوحي ختمت صراعاً
دامياً طويلاً بين دعوة التوحيد وبين الجاهلية التي أبت إلا سبك الدم
ومصادرة آخريه ووأد الحق فكان حزاؤها أن طُبق عليها المانوس الأرى :
﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾
[الرعد : ١٧] .

لكن هذا الصراع عرة يحب أن يعيها الناس إلى آخر الدهر فإن
الصراع بين الحق والباطل مرُّ المذاق كثير الخراجات فادح التصححات ،
ولقد تحمل المسلمون الأوائل بحيد هذا كله ، وعلموا أن الصراع كلما
اشتدت وحدته وبلغت القمة وبلااته كان النصر القريب وكان تحقيق الأمل ،
ويش هذا رب العالمين حتى يدرك المسلمون أنهم لن ينالوا في زمن ما نصراً
مختصاً .

إن الكفاح يمس النفس الإنسانية حتى يسع شعاف القلب وحتى يسع
السكين حرَّ العنق ، وعندما تصل المحنة إلى هذا المدى الرهيب تبدأ حركة
التحول ، أما الكفر فيل إلى أدنى وأما الإيمان فيل إلى أعلى . قديماً أدق المراجعة
موسى وقومه بلاءً شديداً وعذاباً مهيباً فلما شاء رب العالمين أن يخرج موسى
وقومه من هذا الوادى رأى فرعون أن يتبعهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين . فلما
تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربي

سبيدين * فأوحينا إلى موسى أن اصرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنحينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴿ [الشعراء : ٦٠ - ٦٦] .

ولشاهد أن موسى لما رأى فرعون يطارده ورأى الجيش يقترب منه لم يهرع وبلغت ثقته في الله حداً عندما قال : ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ وقد هداه الله وأمر وعده وأعرق الحبابرة وملأ بالطين أفواههم !! .

إذا قلنا : إن حوائج الوحي نزلت في مواسم الحج فهذا يتناول أموراً كثيرة ويحتاج إلى شيء من التفصيل ، فإن السنة التاسعة قرىء في حجتها صدر سورة براءة ، وكان أبو هريرة وغيره من الصحابة ينسابون في كل فتح ويطلقون نحو كل اتجاه يقولوا بأعلى صوتهم : « ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » (١) . انتهت المهرلة ، انتهت الوثنية .

وفي السنة التي تلت هذه الحجة - حجة أبي بكر بالناس - نزل قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] .

وكثير من الناس يظن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وهذا غير صحيح ، فهي آخر ما نزل متعلقاً بالتشريع وآيات الأحكام ، لكن ثبت أنه بعد ثمانين يوماً من نزولها نزل قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

وهذه الآية سمة مميزة لحضارة الإسلام ، إن الحضارة الأوربية الغالبة في هذا الزمان شرقيها وغربيها تعبد اليوم الحاضر وتجدد الغد القريب ، هذه الحضارة بشقيها ما تعبد إلا جسدها وإلا لذتها العاجلة وإلا زمنها الموقتي ، أما أن يمهّد

(١) رواه البخاري في الحج - باب لا يطوف بالبيت عريان ١٨٨/٢ ومسلم في الحج - باب لا يحج البيت مشرك ١٠٦/٤

الإنسان لآحرته ، وأما أن يتروود من دياه رداً يلقي به ربه فهذا مالا تفكر فيه الحضارة الحديثة !! .

إن هذه الحضارة كافرة حقاً بالله مهما زعمت من إيمان ، ولكنها ما انتصرت وعبت إلا لتعريض المسلمين في مواريتهم وخلقلة اليقين في صدورهم وانحراف خطاهم عن نصراط المستقيم الذي ألزمهم الله إياه !! .

ودلك يحتاج إلى شيء من البيان ، فإن الأمة العربية كانت في تاريخها القديم أمة من الشعوب العادية لا ورن لها في الحضارات الغالة ولا في المدييات الكاسحة ثم جاء الإسلام ، فمادا صنع للعرب ؟ .

لا أقول : أطعمهم من جوع - وقد فعل - ولا أقول : آمهم من خوف - وقد فعل - ولكن أقول : إن الإسلام جعل العرب الأمة الأولى في العالم قريباً من ألف سنة !! .

إذا كان العرب معروفين في القارات بأهم يصدرون النفط (البترول) فإن العرب قبل أربعة عشر قرناً قد طلوعوا على الدنيا طوع الصبح بعد ظلام طويل ، وكانوا يصدرون الوحي والقيم وحقوق الإنسان وحرريات الشعوب !! .

كان العرب أمة أولى بما أهدت على الدنيا من خير وما أسدت للإنسانية من صيغ . كان العرب أمة أولى لا بشقشقة اللساد ولا بقم يفتخر كادياً وأعماله تُررى به وتقوده إلى أسفل . كان العرب في سيرتهم بمادح تحتدى وفي حصارتهم أفقاً عريضاً مليئاً بالنور والروحانية والثقافة والسماحة . كان العرب شيئاً مذكوراً في ديا الناس لأهم قاموا بالقرآن وساروا على هديه والترموا وحيه !! .

فمادا كسب العرب لما تركوا الإسلام ؟ ! .

إن العرب من غير إسلام كقصب السكر من غير سكر ، إن العرب من غير إسلام صفر لا ورن لهم في حضارة ولا قلرة لهم على كسب معركة ، إن العرب من غير إسلام ليسوا شيئاً في تاريخ الحضارات ولا في تاريخ الأمم .

لقد زود الله هذه الأمة بمال محمود وحاه عريض ويسط رقعتها بين المحيطين ، فأحشاء العالم كله بين أصابعها ، ولكن العرب هيون على الله وعلى الناس لأهم ما يريدون أن يستمسكوا بأيديهم وأن يجعلوا حماسهم . ٢٢٢ .

إن العرب - لو رشدوا - دماغ الإسلام وقلبه ، وقد امتن الله عليهم بهذه الحقيقة ، قست يوماً وأنا أقرأ في سورة البقرة . ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشواهم واحشوني ولأتعمى عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴿ [البقرة : ١٥٠ ، ١٥١] .

قست : ما تمام العمة وما حقيقة الهداية هنا ؟ .

واستبان لي المعنى ، إن الله يقول للعرب : إنه شرف ضخم أن تنجه القارات كلها من مشرقها إلى مغربها إلى هذه الكعبة المشرقة الحائمة فوق صلب الجزيرة العربية ، أي شرف هذا ؟ لكن هذا الشرف الذي ذكره القرآن به تعته آية أخرى فكرت فيها مياً ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ قلت لنفسي : ﴿ كما ﴾ هذه ما موقعها هنا ؟ التشبيه هنا ما معناه ؟ ثم تبين لي المعنى ، إن الله يقول للعرب : كما شرفتمكم فجعلت نقبله في أرضكم سنو أن شرفتمكم بحمل السوة الأحيوة فيكم ، يجعل الرسالة الحائمة منكم !! .

ثم دخل العرب التاريخ لا من باب واحد ولكن من أبواب متفرقة ، ثم تبدأ خطاهم تشكيب النهج السوى ، وتبدأ عيونهم تشخص إلى يمين ، وإلى يسار ، إهم ما أحسوا الاستفاح بتراتهم ولا الاعتداد بشيئهم ، وبذلك عرص لهم من الهزائم والآلام ما جعلهم مضرب الأمثال !! .

أيها الشباب : اعلموا أن شرفنا بالإسلام ، وأن انتصارنا بتعاليمه ، وأن استعادة ما افقدنا إنما هو بالوقوف عند حدوده والابطلاق مع عاياته وأهدافه .

أحب أن أقول للشباب : تشبثوا بالعقائد التي شرفكم الله بها ،

استمسكوا بأصول الإسلام التي آلت إليكم بعد جهاد مُرٍّ مع قوى الشر ..
لقد ورثنا الأجيال القديمة هذا الدين القيم ويجب أن يبقى في أيدينا وأن
نورثه غيرنا وأن نشيء عليه أجيالاً أخرى ربما كانت أصدق ما يقيماً وأعمق
إيماناً وأجدي إلى تحقيق النصر وأقرب إلى بلوغ الفور العظيم !!

أحب أن أقول للشباب : عليكم أن تُشعروا أعداءكم بأنكم طلاب
آخرة لا طلاب دنيا ، عليكم أن تشعروا أعداءكم بأننا لا نطلب حكماً
لنرتع فيه ، ولا نشتغل بسياسة لنكسب منها ، إننا حدم للقيم ولشعب
الإيمان ، فمن استمسك بهذه القيم وأحيا هذه الشعب فنحن من ورائه
نخدمه ونؤثر أن نكون جسوداً مجهرلين لا نستعي مآلاً ولا جاهاً لأن الله
علمنا في كتبه أن الدار الآخرة ليست لطلاب المال والجاه ﴿ تلك الدار
الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة
للمتقين ﴾ [القصص : ٨٣] .

أيها الشباب : إن القاهرة كانت عاصمة الإسلام ، ولا تزال عاصمة
الإسلام ، وستبقى بعون الله إلى آخر الدهر عاصمة الإسلام تصدر الثقافة
الصحيحة وتنشئ الأجيال المضحية ، وعلى مآكب الشباب أنجلد النقي
الظهور ومن هؤلاء الإخوة الذين حموا الإسلام في قرون مضت سوف
يكسب الإسلام معارك أخرى إن شاء الله في أيام مقبلة .

إننا لن نسي أبداً أن قوى الشر تترصد الدوائر بالإسلام وتطل منها ربما
بالت منه لبأساء أو صراء برلت بأهله ، ولكن هيهات هيهات مهما طال
المدى فإلى الحق المصير .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديارنا التي فيها
معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل
خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠]

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "يَس"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في سنة ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، به الملك ، وله الحمد وهو عن كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فستدبر الآن سورة من سور القرآن الكريم ، شرحها على طريقتنا في التفسير الموصوعي للقرآن الكريم ، هذه الطريقة التي يرسم بها صورة محملة للسورة تبين ملامحها ونستكشف الحيوط التي نشد أواخرها إلى آخرها وآخرها إلى أولها ، وتبين لنا المحور الذي تلور عليه السورة كلها .

والذي نبدأ تدبره هذه الساعة - مستعينين الله جل جلاله - سورة يس ، وهي سورة تستغرق نحو خمس صفحات في المصحف ، وهي تتكون - بعد دراسة عميقة ها - من مقدمة تتناول الرسالة وصاحبها ، وثلاثة فصول تستوعب الأدلة على صدق هذه الرسالة .

أما المقدمة فقد بدأت بقسم : ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم ﴾ [يس : ١ - ٥] .

وهناك علاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، فالمقسم بها قسم بقوة الدليل على صدق القضية ، قسم بوصوح الحجة على وجهة صاحبها الذي جاء بها ، قسم بما في القرآن على أن الذي تنزل عليه القرآن مرسل حقاً من عند الله جل شأنه .

هذه العلاقة مطردة في كثير من أقسام القرآن يراها من يراها وتغيب عن بعض عيبي عنهم .

عندما فسر الشيخ محمد عبده رحمه الله سورة الضحى - وكانت السورة قد نزلت بعد فتور الوحي وانقطاعه أمدأ طال أو قصر - قال : اختار الله القسم بهديين الوقتين : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ إشارة إلى أن وقت الضحى وقت تألق لنور فهو يشبه ساعات الوحي ، وأن وقت الظلمة بالليل وقت وحشة وسكون فهو يشبه انقطاع الوحي !! .

وترى ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ فإذا كانت السورة تتحدث عن معراج النبي ﷺ إلى ربه فإن هبوطه بعد استعراقه في التحلي الإلهي يشبه عودة الكوكب المطلق إلى مكانه في الأرض مرة أخرى !! .

قال تعالى : ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم ﴾ .

إن ما في القرآن من حكمة وما فيه من استقامة دليل على أن صاحبه يس كادياً به مرسل من لدن العلي القدير ليأخذ بهوصي أساس إلى الحق ، وليصنّف أقدامهم على الطريق القويم ، وليجعل منهم ناساً أهدي طريقاً ، وأقوم قِيلاً ، وأشرف غاية ، وأهدي سبيلاً ، وتنزل القرآن من الله جل شأنه الموصوف بالعزة والرحمة لتتضح هذه المعاني على الأمة التي تحمل الرسالة على الرسالة نفسها ، كأن الرسالة من لدن العرير الرحيم تقدم للبشر

ما يحتاجون إليه من كرامة وعزة ، وتقدم أيضاً لهم ما يفتقرون إليه من رحمة وسكينة .

وداك ما يسره الله للعرب ، وكانت العرب يومئذ أمة ما ورثت عن آبائها إلا الجاهلية الطامسة ، وما أخذت عن آبائها إلا الخيرة والوثنية ﴿ لتذر قوماً ما أنذر آبائهم بهم غافلون ﴾ . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴿ [يس : ٦ ، ٧] . والسأس أمام دعوات الإصلاح ورسالات الحق فريقان : بعضهم مرد يُخس أن يتدبر ما يعرض عليه وأن يستبين وجه الصواب فيه وأن ينخلع من تقاليد التي كبته ليذهب مع الدين الحديد حيث يذهب به .

وهناك ناس آخرون يعيشون في عالم من السندود والقيود كأنهم رُمى بهم في سجن ضيق فأبصارهم مهما تحركت لا تعدو لسندود التي حولهم من يمين ويسار ومن فوق ومن تحت : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴿ [يس : ٨ - ١١] .

ولقد تصممت السورة بعد هذه المقدمة ثلاثة فصول تعرض الدلائل التي تشرح الصدور ، والبراهين التي تقيم العوج وترفع بالفس الإنسانية إلى مستوى اليقين العاقل والإيمان الواعي :

أما الفصل الأول فدليل تاريخي يعرض موقف الأنبياء وموقف الناس من دعواتهم .

وأما الفصل الثاني فدليل عقلي يحرك الفكر الخامد وينظم له المقدمات التي يعرف بها ربه .

وأما الفصل الثالث فدليل تربوي يعتمد على الآخرة وأنها حق وأن ما يعقبها من ثواب أو عقاب ينبغي أن يلتفت الناس إليه حتى لا تستبد بهم خرافة طائشة أو مقالة ضالة .

الدليل الأول : دليل يتصل بالماضي قريبه وبعيده .

الدليل الثاني : دليل يتصل بالحاضر المعاصر الذى نعيش فيه .

الدليل الثالث : دليل يتصل بمستقبل الإنسانية وما أعده الله للأخيار والأشرار جميعاً .

وبذلك تكون السورة — فى فصولها الثلاثة بعد المقدمة — قد تعرضت للزمن كله : ما مضى وما ينتظر وما نعيش فيه .

بدأ الدليل الأول بقوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ۝ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ۝ قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ [يس : ١٣ - ١٥] .

أساس القصة يعطى شيئاً من الحقائق التى نحتاج إليها فإن الرسالة التى انفردت بالعموم زماناً ومكاناً هى رسالة محمد ﷺ ، أما الرسائل التى سبقتها فهى رسائل محلية موضعية ، يرسل النبى من الأنبياء إلى قرية بل يرسل عدد من الأنبياء إلى قرية واحدة كما فى هذه السورة ، إذ نجد اثنين من الدعاة إلى الله بُعث بهما معاً إلى قرية واحدة ، فلما كُذِّبَا قال الله : ﴿ فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴾ فكاد جواب أهل القرية : لستم مرسلين ، أنتم ناس لا تريدون علينا ولا تنقصون ، لا صلة لكم بالسماء ، ما تقولونه دعوى مرفوضة : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ كان رد المرسلين على هذا التحدى أو هذا التصدى ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ۝ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ [١٥ - ١٧] .

وظيفة الرسل . التعليم — تعليم الخاهل . وظيفة الرسل : التبليغ — تبليغ الناهل . وظيفة الرسل : تغيير النفس الإنسانية تغييراً يجعلها تعرف الحق وكانت تجهله ، تعرف الله معرفة صحيحة وكانت إما عاجزة عن هذه المعرفة وإما تعرفه معرفة فيها خطأ وصواب .

لكن كثيراً من الناس خصوصاً خدام الباطل المنتفعين من الأوضاع

الجائرة المرتزقين من المظالم القائمة ، هؤلاء لا يدعون كلمة الحق تمضي إلى آذان المستمعين لأهم يحشون أن يصححو السيام وأن يعتدل المسحرفون ، ولو كان أهل الباطل يطمثون إلى ما عندهم لتركوا أهل الحق يقولون ما لديهم ولكنهم ما يطمثون إلى ما عندهم ولذلك سرعان ما قاتوا لأهل الحق : ﴿ إنا نظيرنا بكم ﴾ تشاء منا مكم : ﴿ لكن لم تنتهوا ﴾ عن البلاع ﴿ لئلا نرجنكم ولنجنكم منا عذاب أليم ﴾ كان جواب المرسلين : ﴿ طائركم معكم أئن ذكرتكم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ [يس : ١٨٠ ، ١٩]

ويعرض القرآن الكريم هنا مثلاً لحدى مجهول ، لم يذكر القرآن اسمه لأنه يريد أن يستبقى هذا الاسم عند الله حتى يكون نموذجاً للناس الذين يحبون أن يعملوا بعيداً عن الضوء راكبين في الشهرة راعين عن الهتاف وعن التفاف الجماهير .

رجل مجهول الاسم ولكنه عند الله معروف المكاة رفيع الدرجة . رجل مجهول الاسم ولكنه في حماسه للحق وفي إيمانه بالدين وفي تأييده للمرسلين تحرك من أقصى المدينة ليصر الرسالة التي شعر بأن الحق فحواها وأن الهدى معها : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون ﴾ هؤلاء ناس ما يطلبون من أحداً ثمناً على موعظة تلقى أو نصيحة تؤدي أو حق يعلم ثم يتحدث عن نفسه فيقول : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إلى إذا لفي ضلال مبين * إلى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ [يس : ٢٠ - ٢٥] .

هذا حوار أداره الرجل بينه وبين نفسه وبين الناس واستحياء القرآن ليسمعه أهل مكة قديماً ولتسمعه البشرية على امتدادها مع تاريخ الحياة فوق هذه الأرض حتى يكون للتوحيد أسامه الحقيقي .

ما الذي يربطني بغير الله - كما يقول الإمام زين العابدين - إنها لمأساة أن يدعوا فقير فقيراً وأن يتعلق محتاج بمحتاج .

أنت فقير تعلق بالعنى ، أنت محتاح تعوق بمن لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد ، هذا المعنى هو الذى أودعه السي رحمته الله في حديثه الصحيح :
« اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجمد منك الجمد » (١) .

إذاً فلنسقط الآلهة كلها وليبق على عرش القلوب المؤمنة الإيمان برب العالمين وحده ، ما تتجه إلا إليه ولا تعبد إلا إياه ، هكذا تعلم الناس من هذا الدليل : ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ .

قيل في روايات التاريخ : إن أهل القرية قتلوا الرجل ورفضوا ما عنده وبداهة كانت المسافة بينه وبين الجنة مسافة الانتقال من الحياة إلى الموت ، في لحظة واحدة ينتقل إنسان من شارع ما في شوارع القاهرة ، من حارة ما في إحدى القرى ، من مساحة ما في إحدى الميادين ينتقل من ديار مغبرة إلى حمة عرضها السموات والأرض يمرح فيها ويستريح : ﴿ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قرمى يعلمون . بما غفر لي ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ [يس : ٢٦ ، ٢٧] .

هل احتاج القتلة إلى جيش يؤلف ونعاً قواه لينتقم منهم ؟ .
لا ، هم أهون على الله من هذا : ﴿ وما أنزلنا على قومك من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون . يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون . وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : ٢٨ - ٣٢] .

هذا هو المصل الأول من السورة وهو مع المقدمة يستغرق نحو صفحتين وتبقى من السورة ثلاث صفحات تضمنت فصلين آخرين :

(١) جزء من حديث رواه مسلم في الصلاة باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ٤٧/٢ .

الفصل الأوسط حديث معاصر ترك الماضي هم يتحدث عنه وم يتحدث أيضاً عن المستقبل ، إنما قال للناس : ألا يفكر أحدكم في الأكل الذي يتناوله ، كيف نبت ؟ ومن الذي صعه له ؟ إن الرعيف يقع في يديك فتمزقه كي تلتهمه ، أفكرت كيف كان هذا الرعيف حبوباً في سنابل القمح أو حبوباً في كيزان الذرة أو حبوباً في سنابل الأرز ؟ هل فكرت كيف انشق الوحل والطين عن الورود والرياحين ؟ هل فكرت كيف تحولت التربة الهامدة إلى أشجار شائخة ونخيل باسقة وثمار تتدلى ؟ .

قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . »
ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ [يس : ٣٣ - ٣٥] .

ثم إن ولداً لا يتكون في بطن أمه إلا من ازدواج ، وإن ثمرة لا تتكون إلا من ازدواج بل إن الذرة تتكون من عناصر مزدوجة ، وليس هناك من تفرد في كيانه وتوحد في ذاته إلا رب العالمين : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها لما تبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ [يس : ٣٦] .

هذه آية ، وآية أخرى .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ [يس : ٣٧ - ٤٠] إن أي سياحة مع علماء الفلك تجعل الإنسان يتصاءل في مكانه ويشعر بحقارته على ظهر هذه الأرض بل يشعر بحقارة الأرض كلها إذا قيسَت الأكوام بأحجامها .

إن أي دارس لعلم الفلك يعلم أن الأرض والمجموعة الشمسية كلها شيء ضئيل في كون كبير وأن الأرض لو تبددت في الفضاء وتلاشت فلم

يبقى عليها كافر ولا مؤمن ما نقص الملكوت الإلهي شيئاً طائلاً :
« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب
رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم
ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » (١)

وآية ثالثة :

﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من
مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقلدون * إلا
رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ [يس : ٤١ - ٤٤] .

الذى يقرأ السورة يجد أن الدليل العقلى امتد وتسلسل إلى الدليل الثالث
والأخير وهو الدليل الذى بسوقه القرآن الكريم ويكثر من عرض مشاهدته
لأمر واحد هو :

نحن البشر عارقون فى مطالبها ومآربنا فقدا تنمضى منها وتخلص من
قيودها كى نعيش فى عالم الحق لحظات ترتفع بنا ونعتز بها ، ولذلك يلح
القرآن الكريم على البشر بوصف الحمة حتى لا يزهّدوا فيها ويوصف البار
حتى لا يتحرّأوا عليها ، ويصح القرآن الكريم عليهم بمشاهد البعث والجزاء
ويبين أن ذلك سوف يقع لهم وهم منغمسون فى تحاراتهم أو فى صناعاتهم
أو فى أحوالهم المعاشية ، التاجران ييسطان الثوب بينهما فلا يتبايعانه
ولا يطويانه وتقوم الساعة . ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم
صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا
يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * ونفخ فى الصور فإذا هم من
الأحداث إلى ربهم ينسلون ﴾ [يس : ٤٨ - ٥١] .

* * *

(١) رواه مسلم فى البر - باب تحريم الظلم ١٦/٨ .

وختمت السورة بهذا الدليل على البعث وصدقه :

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [يس : ٧٨ ، ٧٩] .

تستطيع إن كنت حافظاً للقرآن أن تعمض عينيك ثم تتأمل علام تدور سورة يس ، تستطيع إذا كنت غير حافظ للقرآن أن تعود إلى مصحفك ثم تقرأ سورة يس وقد عرفت كيف أن أولها تمهيد لآخرها وكيف أن آخرها تصديق لأولها وكيف أن هناك حيوطاً خفية تشد معاني السورة وتبين حقائقها ، وبذلك نحسن فهم القرآن ونحسن تدبره والانتفاع به .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

حمد لله ﴿ الذى يقل التوبة عن عاده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون ﴾ ويستحب الذين امنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد .

فالقرآن كنز مشحون بهدايات مليء بالخيرات ، القرآن أوجد من العدم أمة كبيرة ، وقد ثبت أنه يستحيل أن تقوم مهضة تشق طريقها في الحياة وترحف نحو مستقلها العبد وهي راسحة وقوية ومتفائلة وناجحة إلا إذا كان لها مهاد معوى يمدّها بالقوة والأمل ، وقد كان القرآن الكريم أساس انطلاق العرب من حيزيرتهم لتبي عاشوا فيها رمياً كما وصف القرآن في هذه السورة . ﴿ لتذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴿ [يس : ٦ ، ٧] .

لكن هذا القرآن حوّل العفلة إلى يقظة ، حوّل الحمود إلى حركة ، حوّل الموت الأدنى إلى حياة !! .

هذا ما يصنع القرآن ، لكن كيف يصنع القرآن هذا ؟ بآيات تعلق على الحدران ؟ بقراء يُستجلبون في سرادقات الموتى ؟ .

لا ، تقول سورة يس : ﴿ يسدر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ [يس : ٧٠] .

على المسمين أن يُشثوا علاقة جديدة بالقرآن .. وأن يؤسسوا صلات

ذكية هذا الكتاب حتى يستطيعوا أن يحيوا وأن يؤدوا واجهم وأن يعودوا
سيرتهم الأولى رجالاً كباراً وشعباً محترمة .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دينا ينسب
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة ريدة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠]

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [سجدة ٩٠]

أقم الصلاة

* * *

نظرات في سورة الزمر (١)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ١٩٧٣/٦/٢٩ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والتعمة المسداة ، والسراح المبير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فبعون الله نلقى نظرات في سورة الزمر ، والزمر جمع زمرة وهي الجماعة .. والقارئ العادي لسورة الزمر يرى أن اسمها رعى أحد من آخر ما ورد في السورة من تقسيم الناس إلى قسمين

قسم يذهب إلى جهنم : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ [الزمر : ٧١] وقسم يذهب إلى الجنة : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ [الزمر : ٧٣] إلا أن القارئ المتدبر الذي يسعم النظر في السورة الكريمة يرى أن اختلاف الناس زمراً وانقسامهم جماعات والمقارنة بين مبدأ كل جماعة وطريقها ونهايتها وبين الجماعات الأخرى المقابلة لها يرى أن هذا التقابل موجود في السورة كلها .

قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذا جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين . والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ [الزمر : ٣٢ ، ٣٣] .

وقال تعالى ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين * وينحى الله الذين اتقوا بمفازيهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ [الرمر : ٦٠ ، ٦١] .

فهذه آيات - في السورة - ذكرت حال الحزين أو الفريقين أو الزميتين وقد تكرر - في السورة - أمر المقابلة بين العمى والبصر ، وبين الحق والباطل ، وبين الشرك والإيمان ، وسقف - إن شاء الله - أمام هذه المقابلات وقفات متأية تندر ما أودع الله فيها من عبرة وما بث في ثناياها من حكمة ورحمة

إلا أننا نريد - الآن - أن نعرف المحور الذي دارت عليه السورة كلها قبل أن نستعرض بتفصيل هذه المقابلات وما يعقها من شروح .. هذه السورة تقوم على : تصحيح المعتقد وتقية الإيمان من الشوائب التي عثقت به وإخلاص التوحيد لله ..

قامت اسورة كلها على هذا المعنى ، وهي في وفائها بحقه ودورها حوله ومحادلتها أصحاب الأوهام والنقائص والخرافات دونه ، هي سهدا جزء من القرآن الكريم لدى أمره الله سبحانه الحق ويبطل الباطل في شئون الناس جميعها . القرآن الكريم كتاب إذا قورن بعيره - فرضاً - وحدثناه أعمر الكتب بالأدلة لتي تافع عن وجود الله وكأله ، وأحرر الكتب أسوباً في دفع الناس إلى حب لله وليقين فيه والاعتماد عليه

القرآن الكريم كتاب الحقائق مصفدة مقاة لا شائبة فيها ، ولو أن أي إنسان ررق الحيات مطلق ثم قيل له : قرأ هذا الكتاب فإنه ينحدث عن رب العالمين وقرأ عيره إن شئت وقرب . فيه عندما يقرأ القرآن الكريم سيحدث حديثاً عن الله مفصلاً معقولاً . ويحد نراهين مستحلصة من مقدمات رنية ، ويحد أن مبهج في إثبات العقائد وفي غرسها ونحميع الناس عليها وفي مافشت عبه ثم دهه مده . أح غير ماشرح يحد أن القرآن الكريم في هذا كله يقع منى مسحين . ضرب منه عيره

• • •

وهذا هو السر في أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت تقرر هذه الحقيقة :

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴿ [الرمر : ١ ، ٢] .

لا بد من استعراض لأحوال الناس في علاقاتهم بالله ، وقد استعرضت الآيات هنا هذه الأحوال :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ﴾ . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ . لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿ [الزمر : ٢ - ٤] .

• هناك ناس لا يؤمنون بالوهمية ، يرون لكون مقطوعاً مبتوراً ليس له صاحب ولا مدير ولا موجد ، كان الإلحاد بهذا الوصف مرضاً يصيب بعض الأفراد قديماً ، ولكنه الآن أصبح مرضاً شائعاً قامت باسمه دول عظيمة - كما توصف - لها قوى ضخمة في البر والبحر والجو .

• وهناك - في أمريكا وغرب أوروبا - ناس لا دين لهم ، يؤمنون بالمادة وحدها ، ويعيشون لأهوائهم فوق هذا التراب ، وأكثرهم يسكر الألوهية ويعملها ويبعدها من طريقه ، فهو يرسم خطته في الحياة وفق دماغه .

• وهناك من يؤمن بالوهمية ، لكن هذه الألوهية قد تكون نتاج عمل عقلي ناقص ، وذلك كإيمان بعض الفلاسفة الإلهيين مثل « أرسطو » ، فهو يتصور الإله الذي خلق السموات والأرض مستغرقاً في تفكير ذاتي مشغولاً بنفسه وآفاقه عما عداه ، فهو لا يدرون شيئاً مما يقع في الأرض ولا يعرفون ما هالك .

• وهناك نوع من التدين الأرضي والسماوي فمثلاً اليهود يرون أن الله

الذى خلقهم خلق العام من أجلهم أو خلقهم في العالم ليحتكروه ويكونوا
سأدته (١) !! .

ومن تتجهمهم أنهم أثبتوا في العهد القديم أن أباهم يعقوب أحد لقب
إسرائيل بعد أن صارع لله طول الليل وكاد يغيبه ، وإنما أنقذ الإله نفسه بأن
أعطاه لقب إسرائيل (٢) !! .

* وهناك من انتزع من ذات الله جزءاً ، وزعم أن هذا الجزء ولد لله ،
واعتبر هذا الولد حياً إلهاً وحياً آخر ابن إله أو شبه إله أو ما إلى ذلك مما
حير الأفهام واستحال أن يوجد له تفسير واضح معروف !! .

* وهناك مشركو العرب الذين كانوا يعمنون أن الله موجود وأنه حق
ولكنهم يقولون إن الاتصال بهذا الإله مباشرة شيء صعب ، وهناك أولاد لله
يمكن الاتصال بهم فيقربوننا منه ويكونون شععاء لنا عنده !! .

أما الإسلام فقد جاء بعد هذه الأوهام الكثيرة ، والمزاعم المختلفة
وقال : إن الله واحد لا شريك له ، وقال : إن ما عدا الله من أشخاص أو
أشياء عبيد له ليس لهم مع الله شيء وأفضلهم قدراً وأكثرهم أجراً هو
أشدّهم إخلاصاً لله وتعبداً له واستعراقاً في طاعته وابتعاداً عن مخالفته .

يُسّ الإسلام أن قصة أن لله ولداً قصة سحيقة : ﴿ لو أراد الله أن
يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾
[الزمر : ٤] .

ليس لله ولد ، ما عدا الله عبيد له ، خلقه من عدم ودبر أمره وأقره
إلى داته أبد الآبدين ، فما يستعنى بداته عبد أبداً وإن كان نساً أو ملكاً ،

(١) في سفر التثنية الإصحاح الرابع عشر : « أنتم أولاد للرب إلهكم ، لا تخمشوا أجسامكم
ولا تعملوا قرعة بين عبيدكم لأجل ميت لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي
يكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض »

(٢) رجع سفر التكوين الإصحاح الثامن ، ملائوت

من العرش إلى القرش كل شيء عاب وجهه الله ، دليل في ساحتها ، مقهور له ، مغلوب على أمره لأنه عد ، ولو كان الله يريد أن يكرم أحداً لكرم من شاء لكن ولادة وبنة لا .

على هذا النحو بدأت سورة الزمر :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار * لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : ٢ - ٤] .

ولما كان المسلمون الآن قد تحرى بينهم بعض الخلافات في دعاء الله فإنني أحببت أن أذكر كلام لعلماء في معنى التوسل ، قال العلماء ، تذكر كلمة الوسيلة وتقصد بها معان خمسة :

أما المعنى الأول : فهو التوسل إلى الله بداته وصفاته وأسمائه الحسنى . وهذا النوع من التوسل لاشك في قبوله وصحته ، ومنه هذا الدعاء : « اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (١)

ومنه هذا الدعاء أيضاً « اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو

(١) عن بريده الأسمنى عن أبيه قال « سمع نبي ﷺ وحلاً بدعوه وهو يقول : اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » قال قتادة : « أى نصيب بيده لقاً . . . الله باسمه لأعظم الدعوات . . . دعوى » . . . حجاب ورد مثل « أعظم » . . . أى فى الدعوات . . . « . . . أن جامع بدعوى » . . . الله ﷺ قال « . . . حجب » . . . ٤١٥ ٩ وأبو داود فى « . . . ابن بدعى » . . . ٢٠٢ . . . ٥٢٣ . . . وفى « . . . فى بدعته » . . . باب سمى الله لأعظم ٢٦٧ ٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ . . . من حلال وصححه (٢٢٨٣) . . . وسنذكره وصححه ٤١٦ ٥ وقوله سبهي

أما المعنى الثالث : فهو التوسل إلى الله بدعاء الصالحين ، وهو أن تقول لمن شئت أو يقول لك من شاء : ادع الله لي ، وهذا النوع من التوسل لا خلاف بين العلماء في صحته وقوله ، ونحن جمهور المسلمين ندعو الله لنينا عليه الصلاة والسلام (١) ولمن سبقا من المؤمنين (٢) ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال : أى أحى أشركنا و دعائك ولا تنسنا (٣) ، وقد كان المسلمون عندما يقع لهم شيء من الصيق يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو الله هم ، وحدث - كما يقول أسد بن مالك أن « أصابت الناس سمة على عهد النبي ﷺ فبينا النبي ﷺ يحطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال . يا رسول الله هلك المال وحاع العيال فادع الله لنا ، ورفع يديه وما يرى في السماء قَرَعَةً ، فوالذى نفسى بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الحبال ، ثم لم ينزل عن مسبره حتى رأيت المطر يتحادر على خبته ﷺ فمطرنا يومنا ذلك ومن العد وبعد العد والذى بيده حتى الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال : يا رسول الله تهدم الباء ، وعرق المال فادع الله لنا ، ورفع يديه فقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » فما يشير يده إلى ناحية من السحاب إلا نهرجت وصارت المدينة مثل أنجوبة

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول
 « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عني فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها
 عشرًا ثم سدوا لي الوسيعة ، فإنها ممرية في الجنة لا تسعى إلا بعد من عبد الله وأرجو أن أكون أنا هو
 فمن سأل لي بوسيلة حلت له الشفاعة » رواه مسلم في الصلاة - باب أقول مثل قول المؤذن من
 سمعه ثم صلى على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة ٤/٢ .

وعن حابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يسمع النداء - اللهم رب هذه الدعوة التامة ونصلاة القائمة انت محمد، نوسية ونصيلة وابنته مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شصعتي يوم القيامة » رواه البخاري في الأدب - باب الدعاء عند النداء ١٥٩، ١

(۲) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجم ۱۰]

(۳) رواہ الترمذی فی الدعوات - باب (۱) وعال ۷۱۰ حدیث حسن صحیح

وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْبُيُوتِ - بَابُ الدُّعَاءِ ٤٦٥ وَ فِي مَحَلِّهِ : حَسْبُكَ - بَابُ فَصْلِ الدُّعَاءِ حَاجِجٌ

٩٦٦/٢ وأحمد ٢٩١، ٥٩/٢، ٥٩/٢ و صعب جمعة ٦٢٩٢ ٥٩، صعب

وسال الوادى قناة شهراً ، ولم يجىء أحد من ناحية إلا حدث بالجود (١) .

وعن أنس « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فسقنا . قال : فيسقون » (٢) .

أما النوع الرابع : فهو التوسل إلى الله تعالى بحق أو بحقه محمد ﷺ وهو ممنوع عند جمهور العلماء لأنه لم يقع من الصحابة رضى الله عنهم فى الاستسقاء ونحوه لا فى حال حياة النبي ﷺ ولا بعد موته ولم يثبت فى دعاء من الأدعية الصحيحة ، والدعاء عبادة أساسها التوقيف .

وقال الدين قبلوا هذا اللون من التوسل بل وجد فى السنة « أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافىنى ، قال : « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك » ، قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحس وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إلى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، إلى توجهت بك إلى ربي فى حاجتى هذه لتقضى لى ، اللهم فشفعه فى » (٣) وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً إلا أنه روى من نحو أربعة عشر طريقاً .

أما النوع الخامس : فهو دعاء غير الله ، وقد اتفق العلماء على رفضه لأن الدعاء عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله

(١) رواه البخارى فى الجمعة - باب الاستسقاء فى الخطبة يوم الجمعة ١٥/٢ ومسلم فى صلاة الاستسقاء - باب الدعاء فى الاستسقاء ٢٥/٢ و « قناة » اسم لواء معين من لؤدية المدينة .

(٢) رواه البخارى فى الاستسقاء - باب مؤمن الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ٣٤/٢

(٣) رواه الترمذى فى الدعوات - باب ٦ أحاديث شتى من باب الدعوات وقال هذا حديث

حسن صحيح عريب ٢٢١١٠ ونسأله وابن ماجه فى إقامة الصلاة - باب ما جاء فى صلاة الحاجة ٤٤١١١ وأحمد ١٣٨٤ ورواه أيضاً ابن حزيمة فى صحيحه وإسحاق وقال صحيح على شرط

شيخى

على هذا النحو يمكن أن يدرك الحقائق في عقيدة التوحيد عندما نقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الرمر : ٣ ، ٤]

والكاذب الكفار - ها - من افترى على الله ما لم يقله ، أو من افترى على الله آلهة لست معه ، فكل كذب على الله يعتبر صاحبه محروماً من توفيق الله ومن فضله .

بعد أن يست السورة أن الله هو رب العلمين وأنه الخالق وأن ما عداه محق وأن الأمر كله إليه وأن الحكم كله منه بعد أن يست هذا حركت في كل إنسان عقده الذي يعهم به ويخاص به ويرتفع أو ينخفض به ، وقد لوحظ أن السورة ذكرت « أولى الألباب » ثلاث مرات في خلال خمسة عشر سطراً منها .

قال تعالى ﴿ أَمْ هُوَ قَائِمٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاهِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرمر : ٩] .

وقال تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرمر : ١٧ ، ١٨] .

وقد تعال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الرمر : ٢١] .

هذا لإيضاح لأولى الألباب يعنى - لتدين يوم يكون ماقضاً للعقل فإن هذا التدين بسقط ، هذا الكلام مذكور عن أولى الألباب يعنى أن لإسلام عهد صريح بين عليم و غير عليم . . . لعلم والدين في نظر الإسلام من مهمما كمثل لآخر ، مريحه عن حاسب من الحقيقة الكونية في الأزل ، الأبد .

معنى هذا أن السورة التي قامت على إخلاص التوحيد أو على تصحيح العقيدة أرادت أن تقول للإنسان : إنك أيها الإنسان محبوق لك ناحيتان : ناحية مع الله - سلبية - تقف بين يديه خاضعاً تسمع منه ولا تقترح عليه ، تنتظر منه أن يوجهك هو بوجهه ، تطلب منه لأنك فقير وهو غني ، لأنك ضعيف وهو قادر

هذه ناحية ، وناحية أخرى إيجابية ، فأنت عند الله سيد للكون ، ملك في العالم ، العاصر تحت يديك ، البر والبحر والحو من مملكته ، كرمك الله في هذا الملك الواسع وجعلك سيد هذا الكون على أن تكون عبداً لرب الكون .

هذا المعنى هو ما قامت عليه سورة الرمر ، صححت العقيدة ، وبينت أن الله الفرد الصمد ليس له ند ولا ضد وعلمتنا إذا عبدناه ودعوانه أن نلجأ إليه وحده ولا نلجأ إلى غيره ، وعلمتنا في مجتمعنا أن كل ما أحل وأن نحرم ما حرم وأن نحتكم إلى القوانين التي شرعها .

أقول قولي هذا وأستعصر الله لي ولكم

، ، ،

الخطبة الثانية

لحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [سُورَى . ٢٥ - ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين . وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الناس أن الإسلام لا يزال ديناً مجهولاً في العلم كله حياً وبين أتباعه حياً آخر . أما في العالم فقد قال لي أحد القادمين من أوروبا إنهم عندما كانوا يسمعون مني احتراماً لعيسى يستعربون ويقولون : هل الإسلام يحترم عيسى ؟ .

إنهم لا يعلمون أن الإسلام يصف عيسى بأنه سيد وشریف ووجه في الدنيا والآخرة ، والسبب أن الأجهزة الضيائية الاستعمارية ناشطة في الكذب على الإسلام ، وليتها وجهت نشاطها في محاربة الانحلال والإلحاد الذي ملأ أوروبا وأمريكا ، إنها تنسى هذا كله وتشمر عن ساعديها لصرب الإسلام وحده !! .

لكن المشكلة أن المسلمين أنفسهم لا يعرفون دينهم معرفة صحيحة ، وكثير ما يجيء بعض إخواننا هنا لكي تجعل بعض الخلاقات الفرعية محالاً للحديث على هذا المبر ، وهذا مستحيل ، فله الملة على العبد الذي يتكلم ، يسكن إنني أوتيت رشدي ، إني لست مجنوناً حتى أتكم في خلاقات فرعية أو فقهية أو أمور جرتية ممكن أن تحل برفع المستوى العلمي للمسلمين .

إن أعداء الإسلام تمرو بالعلم الواسع في الدنيا وبالرأفة الهائلة في الإنتاج وبالقدرة على رسم الخطط ، ويطردوا للمسلمين كما يطرد بعض

الملاسة إلى جماعات من الصبية في الحارة ، فهو يدع بهم أو يسحر بهم أو يغري بعضهم بالعص الآخر أو يشعلهم شيء من العبت يصرفهم عن مستقبلهم وعن حياتهم وعن عدهم القريب والبعيد 11 .

نريد أن نعقل من نحن ؟ وما رسالتنا ؟ وأين نحن في دنيا الناس ؟ ومن أعداؤنا ؟ وما بيتوا لنا ؟ وما يمكن أن نتجاوز عنه من خلافات فرعية بيننا حتى نستطيع أن ننقد أنفسنا ؟ .

إن الشيوعية العالمية والصليبية العالمية والصهيوية العالمية إن كل هذه القوى شجعت مكبتها لتجهر على العرب والمسلمين ، فإذا لم يستيقظ العرب الآن فمتى يستيقظون ؟ بعد الدبح ؟ بعد الدبح لا نقطة إلا في جهنم وبئس القرار 12 .

يجب أن نكون كما وصف الله المؤمنين القدامى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح - ٢٩] فإن وصف المسلمين الآن أنهم رحماء بالكفار أشداء بينهم 11 .

نريد أن نعرف من نحن ؟ . وما مبتقنا ؟ .
فإن كل شيء يتجه على عجل لوأدنا والإجهار علينا وإلى متى نبقي في غملتنا ؟ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا ديانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [البقر : ٩٠] .
أقم الصلاة

نظرات في سورة الزمر (٢)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ١٩٧٣/٧/٦ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المير .

لهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين ما بعد

فقد شرحنا في الجمعة الماضية صدر سورة الزمر ، ومع التفسير
الموصوعي لنقرآن الكريم ممضى في استكمال هذه السورة المباركة آمين أن
يجعلنا الله ممن قال فيهم النبي ﷺ .

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) .

في سورة الزمر - كما أبتأ - تقوم على محور واضح هو إخلاص التوحيد
لله ، ونفى النقص ، وإثبات الكمال لله في جميع الشئون .. والمؤمن يدرك
من أعماق قلبه أن الله حل شأنه هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم
يكس له كفواً أحد ، ما من شيء إلا وهو خالقه ، وما من خير إلا وهو
سائقه ، وما من ضوء إلا وهو مشرقه ، وما من رزق إلا وهو رازقه ،
وما من أمر إلا وهو مدبره ، والله سبحانه وتعالى يسبح كل شيء بحمده ،
ويهتف بمحمده ، ويعو أمام وجهه ، ويشعر بالذل في ساحته ، وأكرم منزلة
للإنسان أن يكون بين يدي ربه ركعاً أو ساجداً يقول سبحان ربّي العظيم أو
سبحان ربّي الأعلى !!

١ - جبري في فضائل القرآن - باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٢٣٦/٦ .

وقد تصممت سورة الزمر مقارنات بين الفريقين :

* الفريق الذى آمن ووحد ونزه وانتقل التوحيد في حياته من التوحيد في العقيدة إلى التوحيد في العمل والسلوك فأصبح مؤمناً ظاهراً وباطناً .

* والفريق الذى احتلظت عليه الأمور وتورعته الأهواء في كل ناحية .

في سورة الزمر سبع مقارنات بين الفريقين ، يريد أن نذكرها ثم نرى التعقيب القرآنى عليها ، وقل أن نذكرها نريد توجيه الأنظار إلى إشارة بلاغية في هذه المقارنات ، فأحياناً يحكى القرآن المقارنة بين الطرفين فيثبت الطرفين معاً ، وأحياناً يذكر طرفاً ويسكت عن الطرف الآخر .

* المقارنة الأولى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ كَمَنْ هُوَ نَاتِمٌ مِلَّةِ أَحْصَانِهِ لَا تَوَرُّقَهُ فِكْرَةٌ وَلَا يَرْعِجُهُ عَنِ الْكُسَلِ وَالْخُمُولِ وَالْخُمُوعِ إِيْمَانٌ أَوْ تَهْجُدُ أَوْ رَغَبٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ؟ أَيْسَتَوِي الْكُسُولُ وَالشَّيْطُ ؟ . أَيْسَتَوِي الْخَامِلُ وَالنَّاهِضُ ؟ .

أَيْسَتَوِي مَنْ طَهَّرَ فَمَهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَمَنْ أَغْلَقَ فَمَهُ فَلَمْ يَتَلَّ حَرْفاً ؟ وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْمُخْتَمِعَ الْمُتَدَبِّرَ يَهْرَقُهُ عَنِ الْمُخْتَمِعِ الْمُلْحَدِ هَارِقٌ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَا قَدْ يَكُونُ فِي كِيَانِهِ فَضْلٌ شَاطِطٌ وَرِيَادَةٌ حَرَكَةٌ فَلَا يَكْفِيهِ الْهَارُ حَتَّى يَضُمَّ إِلَيْهِ اللَّيْلُ ، فَإِنْ كَانَ الْمُخْتَمِعُ مُؤْمِناً كَانَ شَاطِطُهُ اللَّيْلُ أَيْبَصَ ، بِصَرَفِهِ فِي قِيَمِ اللَّيْلِ وَأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ وَمَسَاحَاةِ اللَّهِ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمُخْتَمِعُ مَحَلًّا أَوْ مُلْحَدًا فَإِنَّ شَاطِطَهُ بِاللَّيْلِ يَحْمُرُ مِنَ الْأَعْرَاصِ الْمَدْبُوحَةِ وَالْحَرَمَاتِ الْمَسْفُوكَةِ وَالْخُلُودِ الْمَصِيعَةِ !! .

وَلَا تَزَالُ الْعَوَارِقُ قَائِمَةٌ ، فَلِيَالِي الْمُؤْمِنِينَ يَبْضَاءُ لِأَهْمِهِمْ يَقُومُ مَوْسِمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، أَمَّا لِيَالِي الْفَاسِقِينَ فَحُمْرَاءُ لِأَنَّهُمْ يَذْبَحُونَ الشَّرْفَ فِيهَا !! .

لَا تَزَالُ الْعَوَارِقُ قَائِمَةٌ ، فَلَيْلِ الْمُؤْمِنِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أَوْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ مَنْصَرِداً قَامَ يَدْعُو الْوَاحِدَ الصَّمَدَ
عَابِدٌ لَمْ تَبْقَ طَاعَتُهُ مِمَّنْ لَا رُوحاً وَلَا جَسداً

خطب العزالي - المجلد الثاني

المقارنة الثانية ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ [الزمر : ١٩] .

وهذه المقارنة كسابقتها حذف فيها طرف وأثبت فيها طرف ، وهنا أثبت الطرف الحسيس الذى حق عليه كلمة العذاب لأنه راع وصل ، والله جل شأنه يجعل إضلاله عقوبة لمن استمحق في تفكيره ولمن شرد في مسلكه : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ [الزمر : ٣] ، ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [عافر . ٣٥] .

فالذى يصل ويستكبر ويتحجر ويطغى بصله الله ويسبح على بصيرته عشوة سوداء ، وعدئد لو تجمع أهل الأرض على إسقاطه من صياح الدنيا وبوار الآخرة لعجزوا عن أن يسحوه من بطش الله !! .

أفمن حق عليه كلمة العذاب لأنه تكبر وطغى فأصده الله وأذله كمن عاش على نحو آخر استحق به أن يلهمه الله رشده وأن يتم له نوره وأن يحفظ عبده نعمته ؟ .

هذه المقارنة يدس عليها ما ذكر بعدها مباشرة : ﴿ لكن الذين اتقوا رهم هم غرف من فوقها عرف مبية تحرى من تحتها الأهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ [الزمر : ٢٠] .

المقارنة الثالثة ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾ [الزمر] وهذه المقارنة كسابقتها ذكر فيها طرف وحذف فيها طرف إلا أن الذى ذكر هنا هو النوع الطيب والذى طوى النوع الخبيث ١٩

ما الذى تعنيه كلمة ﴿ فهو على نور من ربه ﴾ ؟ .

يمكن أن تعنى هذه الكلمة أمرين :

الأمر الأول : أن الكافر يأكل فلا يدرى من رقه ، ويشرب فلا يدرى من سقاه ، ويكتسى فلا يدرى من ستره ، ويصح ويرق العافى فلا يدرى من أسبع عليه حبل العافية ومحه ما يستمع به من قوة في حواسه ومشاعره ، وفي هذا النوع من الناس يقول الله تعالى : ﴿ درهم يأكلوا ويتمتع » الأول فسوف يعلمون ﴾ [الحجر : ٣٠]

أما المؤمن فإنه يأكل ويشكر ، يعرف أن ما عنده من فضل هو حير الله ساقه إليه ، كان النبي ﷺ إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » (١) .

وقال : « من ليس ثوباً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا ورزقيته من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذبه وما تأخر » (٢) .
المؤمن الذي على نور من ربه يدرك أن ما فيه هو أمر الله وخيره وفضله ، فإن كان يرضيه شكر ، وإن كان يتعه صبر لأنه على نور من ربه لأنه يعرف أن كل شيء من الله .

المعنى الثاني للنور : أن المؤمن المستير في حياته يجعل هواه تعالماً جاء به الإسلام فهو إذا أمر الله قال . ليك أنا أول من يطيع ، وإذا نهى الله قال : أما أول من يجتنب ، إذا كان هناك لله حد كان أول من يحفظه ، وإذا كانت هناك وصية كان المفسد يحبها ، فهو في الحلال والحرام وفي الخير والشر وفي الأمر والنهي يمشي متعاً أمر الله مستيراً تعاليمه صافاً قدميه على بصراط المستقيم وماصياً إلى الهدى لأنه على نور من ربه ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

هذه الآية ذكرت الطرفين : الذي في الظلمات ليس بخارج منها ، والذي استنار بأمر الله ، أما آية الرمر فقد ذكرت طرفاً وطوت اطرف الآخر : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ أى كمن هو في الظلمات ليس بخارج منها ؟ .

وبلاحظ أن القرآن الكريم يتحدث فيه رب العزة عن قيمة هذا القرآن في أعقاب كثير من المقارنات ، وهما يقول الله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين

(١) رواه أبو داود في الأطعمة - باب ما يقول الرجل إذا طعم ٣٣٠/١٠ والترمذي في الدعوات - باب ما يقول إذا فرغ من الطعام والنساء في عمل اليوم والليلة : ٢٦٥ وابن ماجه في الأطعمة - باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ١٠٩٢/٢ وأحمد ٣٢٣ وحسنه الخطيب ابن حجر : فيص نقده ١٥١/٥ وقال في ضعيف الجامع (٤٤٤٢) ' ضعيف

(٢) رواه أبو داود في أول كتاب اللباس ٦٤/١١ ، وقال في صحيح الجامع (١٠٨٦) - (٢٠١٥) حسن .

جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهdy به من يشاء ومن
يضل الله فما له من هاد ﴿ [الزمر : ٢٣] .

ومعنى هذا أن لقرآن خير الكتب لأنه كتاب لا ريب فيه ، وهو
أحسن الحديث لأنه لا حداث فيه ولا حتل ولا كذب فيه ولا انحراف ..
وكلمة « متشابهاً » نحتاج إلى شرح ، ففي سورة آل عمران يقول الله :
﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات ﴾ [آل عمران : ٧] .

المحكم ها : ما تحدث عن العقائد والأحلاق والأحكام والعبادات
والفضائل وما إلى ذلك ، وهو أم الكتاب لأن التكليف به ولا يتحمل آراء
شنى

والمتشابه ها : ما تحدث عن الله وذاته وصفاته ، ولما كان العقل
الإنسان قاصراً بطبيعته عن أن يدرك أبعاد ما وراء المادة فإن الحديث فى
المتشابه رُفض ، وقد قيل : إن العقل يدرك الكثير ولكنه لا يدرك نفسه
ما هو ، كما أن الأسماك تقضم الطعام ولكنها لا تقضم نفسها ١٩ .

هذا هو المحكم والمتشابه فى سورة آل عمران ، لكن قد يطبق على
القرآن كله أنه محكم ، وقد يطبق على القرآن كله أنه متشابه ، ومعنى أن
القرآن كله محكم أنه محمك الصياغة دقيق المعانى ، يستحيل أن يتطرق إليه
تناقض أو أن يتسلل إليه لغو أو وهم ، ومعنى أن القرآن كله متشابه أنه
يهدى الناس إلى حقائق محددة ويجرى إلى عايات معينة ، ففي سورة يونس
يقول الله سبحانه : ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى
السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ [يونس : ٦] .

هذا المعنى الذى نزل فى مكة هو الذى نزل فى المدينة بعد عشر
سبب فى سورة آل عمران فى قوله تعالى ﴿ إن فى خلق السموات
والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبالب ﴾ [آل عمران
١٩٠] .

وكلمة « مثانى » تعنى أنه يتضمن الخوف والرجاء والأمر والنهى

والوعد والوعيد والنعيم والحجيم وكثيراً من المقارنات التي يحتاج أساس إليها لضبط سلوكهم وتحديد مواقفهم في دينهم .

وكلمة « تقشعر منه جلود الدين يحشون رهبهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » تحتاج إلى شرح فإن أثر القرآن - الحقيقي ليس في تصحيح الحمقى وليس في هذا الجوار الهلحلي الذي يصحب تلاوة القرآن كما نرى في بعض الأماكن مما يدل على عدم الوعي وقلة الفقه ، بل التأثير الحقيقي أن ترى إنساناً اخترقت الهدايات السماوية كيانه واستقرت في نفسه فجعلته خلقاً آخر لأن روح القرآن شرحت صدره ، ورفعت مستواه ، وجعلته يحس من جلال الله ما يرتعد به بدنه أو من بشاشة الرحمة الإلهية ما يفتح أقطار نفسه على أمل كبير وخير كثير .

المقارنة الرابعة : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الرمر : ٢٤] .

والمعنى : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » فتسود ملامحه ، وتنطمس معالمه ، ويكسو حريق النار أديم وجهه كمن يحییء آمناً يوم القيامة . ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الحديد : ١٢] .

هذا هو الفارق بين الاثنين ، وهو فارق كبير ، لكن هل يطلم ربك أحداً ؟ لا ، وبذلك يقول بعد هذه المقارنة : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الرمر : ٢٤] .

المقارنة الخامسة : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين » والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ [الرمر : ٣٢ ، ٣٣]

هذه المقارنة تحكي صنفين من الناس .

صفاً صادقاً يتبع الصدق في حياته ويهتدى بسننه في سيرته وأخلاقه .
وصفاً كاذباً يتبع الضلال ويمشي في الدنيا معوج المسلك .

أنطف ما في هذه المقاربة أن الله حل شأنه - رحمة منه بعباده وبراً منه
بمؤمنين - يقول : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين *
ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا
يعملون ﴾ [الرمر : ٣٤ ، ٣٥] .

سأل الله أن يجعل ممن قال فيهم : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي
عملوا ويمجزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾

ثم نسمع من رب العالمين حل شأنه عتاباً لعبيده ، هذا العتاب يقول
للعبد الفقير المسكين العاجز المحتاج . لم ذهبت إلى باب غير بابي ؟ هل
الباب الآخر فيه الغنى وعدى الفقر ؟ هل الباب الآخر فيه قضاء الحاجات
وعندى الحرمان ؟ .

هذا العتاب يقول : « أليس الله بكاف عبده » ؟ .

ثم يقول الله : ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ .

من هم الدين من دون الله ؟ وما قيمتهم ؟ وما ذا يصنعون ؟

يقول حل شأنه - مبيهاً فحشهم ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون
الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن
ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ [رمر ٣٨] .

هذا المعنى الخليل هو الذي وعظ منه النبي ﷺ الصحابي الخليل
عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عندما قل ه . « يا علام إني أعلمك
كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تحده تحاهك ، إذا سألت
فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على
أن ينهوك بشيء لم ينهوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على
أن يصروك بشيء لم يصروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام
وحفت الصحف » (١)

(١) روه ترمذي في معجمه - اب ٢٢٢ قال حسن صحيح ٢٩٧ . ٢٢٢ . ٣٠٣ .
٣٠٤ . وقال في صحيح جامع ١٩٥٦ - ٣٥٠ صحيح

المقارنة السادسة ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله
 وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ، وينجي الله الذين
 اتقوا بمفاضتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ [الرمر]
 المقارنة واصحة ، الذين كذبوا على الله لهم مصير أسود ، وائدين
 صدقوا معه وصدقوه لهم مصير طيب .

ومن الكذب على الله أن تشرك به ، ومن الكذب على الله أن تختلق
 حديثاً على نبيه ، ومن الكذب على الله أن تتدع حرافة من عندك ثم تجعلها
 دساً ، وكثير من الذين ألدوا أو انحلوا إما ألدوا أو انحلوا لأهم بطرو إلى
 لدين لا من خلال الوحي القوي ولكن من خلال أعمال الناس الحرافية التي
 جعلوها دياً وليست من دين الله لا في قليل ولا في كثير .

المقارنة السابعة ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا
 جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم
 آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة
 العذاب على الكافرين ﴾ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس
 مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها
 وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طعم فادخلوها خالدين .
 وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبأ من الجنة حيث
 نشاء فنعم أحر العاملين ﴾ [الرمر : ٧١ - ٧٤] .

وحنمت المقاربات هذه المقارنة الأخيرة إلا أنه بين المقاربات الأخيرة
 ك سورة اطع الرحمن على عباده ليقول لهم : من ضل يستطيع أن
 يهدى ، ومن كفر يستطيع أن يؤمن ، ومن زاع يستطيع أن يستقيم ، ومن
 نساء يستطيع أن يحسن ، لا تسكث على الله ديك إذا نويت أن تصلح
 ما بيك وبينه .

قال تعالى

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
 الله يعصر الذنوب جميعاً إنه هو العفو الرحيم ﴾ وأيسر إلى ربكم

وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن
ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم
لا تشعرون ﴿ [الزمر : ٥٣ - ٥٥] .

واعلموا أيها الناس أن كل دس يصدر وصاحبه متشبث بربه يرجو
رحمته ويحشى عذابه ويصر من الإصرار ويطلب من ربه غفران الذنب
وتكفير السيئة فإن هذا ادس معفور بعفو الله ، واعلموا أن كل من تبجح
بعصبيه وعال بها وأراد أن يصنع المختمع بشرها وأن يجعلها تقليداً قائماً
وعادة متبعة فهيئات هيئات أن ينال ذرة من غفران الله ما بقى على هذا
الضلال .

* * *

سورة الزمر سورة جليلة استطعت بعون الله أن أعطي حظوطاً سريعة
تدل على مسار الوحي الإلهي فيها ، يستطيع الحافظ بعد ذلك أن يراجع
نفسه ، ويستطيع أيُّ مكتم أن يقرأ في مصحفه ليرى هذه المقارنات بعد
العقيدة الأولى ، ويرجو - كما قلت أولاً - أن يكون ممن قال فيهم رسول
الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

(١) تقدم تخريجه صدر الخطبه

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى . ٢٥ - ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه

والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونصي بتقوى الله عز وجل . واعلموا أيها المسلمون أن المسجد روح المجتمع الإسلامي ، فيه يلتقي المؤمنون ليتصنوا برهم في الصلاة الخاشعة والمعرفة المبرأة والصدقة المتحبة بروح الله جل شأنه ، ثم هو مصير التوجيه الدائم للحير والبر والعدل ، ولذلك كان أول ما عني به النبي ﷺ عندما ملك القنطرة على العمل في المجتمع أن يسي المسجد في المدينة وكان أول ما صنعه عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما قدم إلى هذا الوادي المبارك كي يحرره من قيود الرومان ومن آثار الخرافة ومن طغيات الشرك أن يسي هذا المسجد .

وأنا أعلم أن مؤامرات قوية محبوكة بدلت جهداً هائلاً لمع تحديد هذا المسجد حتى سميته (جُراً) .

وعندما شرفني الله وجاءني إلى هذا المكان كان من قدر الله أن رجلاً ألهمه الله الرشيد وث في عزمته القوة وجعله يعالج كل أسباب الصعف وكل عناصر التفريط والتكاسل والتهاون ، واختفت بجهود هذا الرجل القاطير المقطرة من القمامة التي كانت حول هذا المسجد ، ولا يزال السيد الوزير محافظ القاهرة على العهد به يتعهد المسجد ونحيء إليه بين الحين والحين ، ورب العالمين يعطيه من الأمل ولقوه ، ما يرد المسجد به إلى أيامه الأولى يوم كان مشرقاً لتعاليم الإسلام .

ومن خير الله وبره بما أن جاءنا اليوم سماحة الشيخ الحليل إمام المسجد
السوى وخطيبه وقاصي قصاة المدينة وكبير علمائها ، جاء إلى مسجد عمرو
بن العاص وإبني سأصلي معكم وراءه إن شاء الله ، لعل قبساً من الرحمة
والخير والذكريات الطيبة يسرى في مشاعرنا ويحعل حو هذا المسجد مليئاً
بالقبول إن شاء الله .

إسارحب بخطيب المسجد النبوى المبارك ، والقاهرة تستقبله وهى
مرحة بقدومه ، وسأل الله أن يحصا من لدين يستمعون القول فيتبعون
أحسه .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنبا الذي
فينا معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء دي القرى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [الحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

نظرات في سورة النجم

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد .

ففي هذه الجمعة تبقى نظرة عامة على سور النجم ، لعنا بفضل الله تعالى نعود من ذلك عبر نافعة ونصائح عالية .

وعلكم تذكرون أساً في الجمعة الماضية أوصحنا أن الإسلام دين يقوم على العقل وأنه يحتضن بأولى الأليات ويعتبرهم حملة فكرته وملغى رسالته ، والواقع أن الإسلام إذ يحترم العقل ويعيه على دقة الفقه وحسن الحكم على الأمور يريد من ذلك شيئاً مهماً هو أن نصل في معرفتنا إلى اليقين ، أي أن تكون معارفنا صحيحة لا جهل فيها ولا زيغ .

وقد رأينا - مع دراسة التاريخ الإنساني ومع ملاحظة التجمعات البشرية في القارات الخمس - أن الأمم والحماهير تُسيرها الأوهام والظنون

والشائعات وتحامير أكثر مما تُسيره الحقائق التي لا ريب فيها وابعقائد التي لا شك في معناها ..

الأمم كثيراً ما تغلبها جهالات قد تكون مصحكة ومع ذلك فهي تقدسها وتنشئ بها وتندفع بوحيا شرقاً أو غرباً دون وعى وعلى غير هدى .

في سياحاتي الأخيرة رأيت تمثالاً لبودا في آسيا ، وسألني شاب مسلم : ما بوذا ؟ قلب له . هذا شاب اشتغل بدراسة الفلسفات المادية والنظم الاجتماعية على عهده ، وكان فكره تريباً ما نظر إلى السماء يوماً ولا اعترف بأن للكون رباً ، عاش في قوقعته المادية يسكر الألوهية ، فلما مات اعتبره أنبائه إلهاً وعدوه ، ثم وجدنا هذه الأصنام فوقها أبنية فوقها قباب ذاهبة في الفضاء وحولها قوافل تعد بمئات الملايين 11 .

هذا المعنى هو الذى تناوله القرآن الكريم من أساسه العقلى عندما قال : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴾ [يونس : ٣٦] .

ما يقال في عبدة الأصنام يقال في نمر من أهل الكتاب انتشرت بينهم شائعة أن هناك إلهاً ثانياً وثالثاً وأن لإله الثانى قتل افتداءً لخطايا اخلق ، انطلقت الإشاعة ، واحتضت بها جماهير من اخلق ، وفي التعليق عليها يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ﴾ [النساء : ١٥٧] .

إذن اتباع الظن مشكلة سيطرت على البشرية ، وعلاج هذه المشكلة أن نبحث عن اليقين ، ولذلك كانت الآية الثانية في سورة البقرة : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : ٢] .

إن الإسلام يرفض الظنون ويكرها ويعيب على أتباعها أن يتشبثوا بها .

هذه مقدمة بين يدي نظرتنا العامة في سورة النجم .

سورة النجم فيها حديث عن الأصنام التي يعبدها العرب : ﴿ أفرايت
اللات والعزى • ومناة الثالثة الأخرى • ألكم الذكر وله الأنثى • تلك
إذا قسمة ضيزى • إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها
من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم
الهدى ﴾ [النجم : ١٩ - ٢٣] .

شهوات أو أهواء أو طنون تجمع حولها أولئك الجاهليون وعاشوا بها :
﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ثم يحىء هذا السؤال : ﴿ أم للإنسان
ما تمنى ﴾ [النجم : ٢٤] .

إن الإنسان يتصور أنه يعيش وفق أحلامه وآماله ، ويظن أنه يفرض
أماله على الحياة ، إنه مهدا مخدوع ، فإن الإنسان في هذه الحياة يحيا داخل
إطار صممه العالِب على أمره القاهر فوق عباده ، ومهما كان الإنسان حراً
في قدرته وإرادته فهو محكوم في إطار القدرة العليا والإرادة العليا : ﴿ قلله
الآخرة والأولى ﴾ [النجم : ٢٥] .

وقد وصح النبي ﷺ هذا المعنى في هذا الحديث الذي رواه
البخارى :

عن عبد الله رضي الله عنه قال : خَطُّ النبي ﷺ خطأ ، مربعاً وخطاً
خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخطاً خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط
من جانبه الذي في الوسط ، وقال : « هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به
أو قد أحاط به ، وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار
الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه
هذا » (١) .

(١) رواه البخارى في الرقاق - باب في الأمل وطوله ١١٠/٨ ، ١١١ وقد رسمه الحافظ ابن حجر في
الفتح =



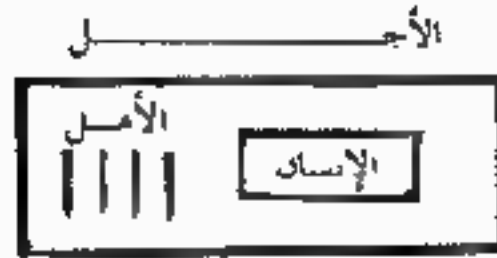
(١) مكدا



(٢) وقيل مكدا



(٣) وقيل مكدا



(٤) وقيل مكدا

قال الخافظ ابن حجر - والأول المعتمد ، وسبق الحديث برل عليه .

. بتعبير علماء الهندسة الآن رسم مربعاً أو رسم شكلاً رباعياً ، ثم وضع نقطة داخل الشكل الرباعي ، وأخرج منها خطاً ، امتد هذا الخط حتى قطع المحيط المربع وتجاوزته وخرج بعيداً ، ثم فسر النبي ﷺ ما فعل ، هذا الشكل المربع هو أجل الإنسان يحيط به ، هذه النقطة داخل الشكل المربع هي بدء حياته ، هذا الخط هو عمره ، امتداد الخط هو أمله ، ويمتد الخط حتى يتجاوز المحيط ، وما أكثر ما يؤمن الإنسان وأجه قادم يقطع الأمل ويُسبى الحياة فتكون آمله متاع العرور أو تكون آماله شيئاً وهمياً لأن الأجل اخترم حياته وهو ماض في آماله وأما به ما يمكر إلا فيها ؟!! .

قال تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَيَّ » فلوله الآخرة والأولى » وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴿ [النجم : ٢٤ - ٢٦] .

كم من عظيم في الأرض وكم من عظيم في اسماء ما يعى عنهم عظمتهم شيئاً وما ينفعون غيرهم بشيء إذ ما يفعلون أنفسهم .

في وسط السورة بين الله أن الطوبى لا قيمة لها ، وأن الحق هو الذي يجب أن يتبع وأن نرنوا إليه بأبصارنا وأن نتعشقه بأفئدتنا ومن هنا كانت الدعوة اللطيفة : « اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » فكم من غافل رأى الحق باطلاً أو رأى الباطل حقاً ثم انطلق في دنياه لا يلوى على شيء ، فإذا هو ينطلق وراء وهمه ، كما تقول لإنسان : « الإسكندرية » في جنوب القاهرة فهو يجرى حتى يصل إلى « أسوان » ولن يصل إلى « الإسكندرية » أبداً لأن الوجهة من البداية علط ، ولذلك كانت الطوبى والأوهام شيئاً يكرهه الإسلام لأن الإسلام - كما قلنا - يؤه بأولى الأبواب في ست عشرة آية لأهم حملة فكرته ومبلغو رسالته وأصحاب القدرة على إدراك قضائاه وفهم أهدافه .

الإيمان الصحيح وليد المعرفة التي لا ظل فيها ، وتوحيد الله أول هذه الحقائق ، وبذلك داس على عادة الأصنام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم : ٢٣]

إن توحيد الله هو اليقين النقاطع ، لكن مع توحيد الله ضميمة أخرى أشارت إليها أوائل أسورة وهي الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ فهو الذي عرفنا بالله الواحد ، وهو الذي نعى الأوهام والشائعات عن ذاته ، وهو الذي نرهبه ويؤمن ما يسعى له من كمال وحمال .

أحييت أن آيين أن محمداً هو الرجل الأول في التاريخ كنه فقلت :

إذا لم يكن محمد نبياً فمن يكون نبياً !! .

بحث في التراث الإنساني كنه فلم أجد أحداً ذكر ربه بعبارات أحر ولا أرق من العبارات التي ذكره بها محمد عليه الصلاة والسلام ، لم أجد أحد أفنى ذاته في مرضاة ربه وجعل حياته وموته وليده ونهاره وراحته وجهاده لله مثل محمد ﷺ !! .

استعرضت التاريخ البشري من أوله إلى آخره فم أجد إنساناً وقف في ساحة العبودية يُسبح ويُحمّد ويُكبر ، ويُحوف في لله فلا يخاف ، ويشعر بالألم والعنت فلا ينكص ولا يتأخر مثل محمد ﷺ !! .

لم أحد أحداً غير المجتمعت بعد أن كانت ضالة حائرة فجعلها مهدية راشدة مثل محمد عليه الصلاة والسلام !! .
ولذلك فإن المؤلف الأمريكى (١) الذى ذكر مائة من قمم التاريخ وجعل محمداً ﷺ القمة الأولى كان فى الحقيقة يذكر ما يشير إليه العلم الصحيح واليقين الحق !! .

إن الكواكب فى السماء قد هوى ، وبرى ببارك تحرق - كما يقال - فى اشتباكها مع الطبقة الهوائية ، وبرى كواكب تنحط عن مداراتها وتعود وترتفع مرة أخرى ، لكن الكوكب الذى لا يخبو له ساء ولا يكشف له شعاع ولا تنحط له منزلة ولا يهوى أبداً من عليائه هو محمد ﷺ وهو ما أقسمت عليه السورة فى السطر الأول منها : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى ﴿ [النجم : ١ - ٥] .

إن محمداً ﷺ هو السبى الخاتم والرسول الحق ، وما نزل عليه من قرآن : ﴿ لا يأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه ﴾ ، وسيرته وسنته ثمادح لإنسانية هى أركى وأرقى وأنقى ما عرفت الإنسانية فى معادن الرجال من نقاوة وصلابة ورفعة !! .

إن محمداً ﷺ نعم لم يهو له جرم ، ولم يقطع له ساء ، ولم يطرأ على دارته الخطا ، بل ظل معصوماً مذبحاً إلى أن ذهب إلى الرفيق الأعلى .

إن هذا الإيمان بأن الله واحد وبأن محمداً ﷺ حق يهدى إلى الإحسان ، أى أن المؤمن يعصمه إيمانه من الرذل ويقيه السيئات ويجعله إنساناً صاحب مناصب فاضل ، وهل خلق الله الحياة إلا ليميز فيها المحسن من المسىء والمصيب من المخطىء والناجح من الراسب فى ميدان الفصيلة والخير ؟ .

هكذا حقق الله الحياة ﴿ والله ما فى السموات وما فى الأرض ليعزى الدين أساءوا عما عملوا ويعزى الدين أحسنوا بالحنى ﴾ .
[النجم : ٣١] .

(١) هو مايكل هارت ، وكتابه « المائة : نقويم لأعظم الناس أثراً فى التاريخ » وقد نشر هذا الكتاب فى مصر بعنوان « الخالدون مائة »

هل معنى ذلك أن المؤمن لا يخطيء ؟ .

لا ، هذا غير ممكن ، لابد أن يخطيء الإنسان وأن تكون له هفوات أو أن تكون له كبوات ، ولذلك قال الله في وصف هؤلاء المحسنين : ﴿ الذين يحبون كباثر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [الحج : ٣٢] .

وهنا نقف لتأمل كلمة « إلا اللمم » .

كلمة « إلا » قد تكون بمعنى « لكن » .

وهذا ما يسميه علماء اللغة « استثناء منقطعاً » أى ما بعد « إلا » مخالف لما قبلها ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ [اسساء : ٢٩] قال العلماء : الاستثناء هنا منقطع ، أى لكن إذا كانت تحرة عن تراض كلوها .

فمعنى أن الاستثناء منقطع في قوله تعالى : ﴿ إلا اللمم ﴾ أن المؤمن لا يقارف فاحشة من الفواحش ولكن قد يلزم بصعائر الذنوب .

لكن بعض العلماء يقولون . الاستثناء في قوله تعالى . « إلا اللمم » متصل . ومعنى أنه متصل أن كلمة « اللمم » تعنى أنه قد يرتكب الفاحشة لمآما يعنى على نُدرة من باب : لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ، ويستشهد هؤلاء على أن المؤمن قد يقع فيه ما هو فاحشة بقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

على كل حال انكل متفق على أن التوبة لابد منها من الصعائر و من الكبائر ، وأن الإنسان لا يُستعرب عليه اخطأ لأنه كما هو نعمة من روح الله هو طينة من الأرض وكما قال ابن الرومى :

ولابد من أن ينزع المرء مرة

إلى الحمأ المسنون ضربة لارب^(١)

(١) أى شيء لارب أبدلت اليم به نظرب المحارج صوتياً

بعد أن ذكر أن الظن لا قيمة له ، وأن اليقين هو الأساس ، وأن توحيد الله هو أول اليقنيات ، وأن الشهادة تحتم محمد ﷺ للأنبياء وصدقه فيما يقول ضمنية لتوحيد الله ، وأن الإيمان بلد الإحسان والعمل الصالح ، وأن الإنسان قد يحطىء فإذا تاب تاب الله عليه ، بعد هذا كله بدأ شيء من التوبيخ للإنسان الذي يمشى وحده بعيداً عن هدايات السماء ، بدأ شيء من التوبيخ لهذا الإنسان مقرون بأن الإنسان ما يصلح إلا إذا ركنى نفسه ، وأصلح أحواله ، وهدب أخلاقه ، واعتقد بأنه صانع مستغنى ولا دخل لأحد معه في هذا ، قال تعالى : ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ وأعطى قليلاً وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ [النجم : ٣٣ - ٣٥] .

« تولى » رقص يسير مع المؤمنين .

« أعطى قليلاً » أى امتلك ما يمتلئ ويحل به .

« أكدى » عليه الشح وبكزارة فإذا هو باهر من العطاء .

« أعنده علم الغيب فهو يرى » معناها أن الذى يمتنع عن إعطاء شيء الظن بالمستقبل فهو يقول لك : أحفظ ما فى يدي اليوم يفعى غداً ، ولا معنى للتطويح بما فى اليد ومسحه للناس وانتظار ما عند الله !! ولهذا جاء فى الحديث : « أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلاً » (١) .

قال تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى » أم لم ينبأ بما فى صحف موسى » وإبراهيم الذى وفى » ألا تزدو واررة وذر أخرى » وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وأن سعيه سوف يرى » ثم يجزاه الجزاء الأوفى » وأن إلى ربك المنتهى » وأنه هو أضحك وأبكى » وأنه هو أمات وأحيا ﴾ [النجم : ٢٥ - ٤٤] .

فى تفسير هذه الآيات نرجع إلى سيرة النبي ﷺ فقد نظر النبي ﷺ يوماً إلى آفاق الدنيا فى ليلة من الليالى ثم كأنه أحد يفكر : ترى ثم يطلع اليوم الحديد على الناس ؟

أناس عجم من سموب ، فيهم من سيعحيا ، فيهم من سيفتسى ، فيهم من سيفتقر ، فيهم من سيصح ، فيهم من سيمرض ، فقال هذه الكلمة

(١) عن أبى هريرة أن النبي ﷺ دخل على بلال وعنده صبح من تمر فقال ما هذا ؟ قال . أدخره . قال . أما تخشى أن ترى به خار ؟ بارحهم أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش . فقللاً « روى » ببرر بن بعل والطبرانى فى الكبير والأوسط وإسناده حسن (مجمع الزوائد ١٠ / ٢٤٦) وقال فى صحيح الجامع (١٥١٢) صحيح

الموحدة . « سبحانه الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، وماذا فتح من
الخرائن ، أيقظوا صواحيات الحُجَر فُرب كاسية في الدنيا عارية في
الآخرة » رواه البخاري في العلم - باب العلم والعظة بالليل ٤٠/١

تُرى حرائر الرحمة الإلهية التي تتدفق في عالم الناس تذهب لمن؟ ومن
من حرق الله سيصْحك؟ .
تُرى حرس عتس وهي تبتلى الناس وتُعرفهم بالآلام والمتاعب تصيب
من ومن من حرق الله سيُكي؟ .

من - نى صحت وأكى؟ ومن الذى أمات ، أحيأ؟
إبه الله جل شأنه ، أما تدرى أن رمام الأمور بيد الله وأن الناس
مُصْطَفون في الحياة كما ترى الدابة بيد صاحبها يرسلها والحبل في يده ١٩ .
عَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَحْطَأُ نَمْنَى لَكَ طُوبِ الْمُرْخَى وَثِيَاءُ فِي الْيَدِ
مَنْ مَا يَشَأُ يَوْمًا يَفْعُهُ لِحَتْمِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ الْمَنِيهِ يَنْقَدِ
هل يستطيع أحد أن يقطع حبال القدر ويخرج من طوع الله؟ .

هيئات هيئات ﴿ والله غالب على أمره ﴾ [يوسف : ٢١] ،
﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام : ١٨] ، ﴿ والله يحكم
لا معقب لحكمه ﴾ [الرعد : ٤١] .

بعد ذلك فإن يعانى ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من
نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ [النجم : ٤٥ - ٤٧] .
كثير من الناس يحب بنات ويتصور أن الأم هي المسئولة عن هذا ، وقد
قرأت أحياً كتاباً طبياً لطبيب مسلم يقول فيه :

تبين أن الرجل وحده هو المسئول عن دريته ، فهو يحمل حيوانات
موية بعضها له رأس لامع يمثل الذكورة ، وبعضها له رأس خافت يمثل
الأنوثة ، فإذا سبق الحيوان السوى اللامع الرأس جاء الولد ذكراً وإلا جاء
المولود أنثى ، ثم قال :

وهذا ما صورهُ القرآن عندما قال : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر
والأنثى . من نطفة إذا تمنى ﴾ ١١ .

أيها الإخوة : هذه نظرة عجلت إلى سورة النجم ، ومن الممكن أن
نزداد غوصاً في المعاني جمعاً لأطراف السورة فنعطى صورة أخرى أدق
وأكثر علماً وتحقيقاً للقضايا التي وردت فيها لكن ما أهم الله به هو هذا
القدر من المعرفة . والله ولى التوفيق ..

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [اشورى : ٢٥٠ - ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً حاتم النبيين وإمام المرسلين اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعد :
فتحن في العشر لأوائل من دى الحجة ، وثبت في الأحاديث الصحاح أن هذه الأيام من أفضل أيام السنة أو لعنها أفضل أيام السنة ، ففي الحديث : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر . فقالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ولا الجهاد في سبيل الله إلا رحل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء »
رواه البخارى في العيدين باب فصل العمل في أيام التشريق

العمل الصالح له صور كثيرة : القرآن ، العلم ، العبادة ، الدراسة ، إننى أشعر بحزن عندما أرى أولاداً ينتسبون للشيوعية يأكلون الكتب أكلاً ولهم باع طويل في المعارف الإنسانية في الوقت الذى أحد فيه شتاء مسلماً معرفته ضحلة أو فكره قريب القاع !! .

ديننا دين العلم ، وكل ما يصقل عقل ويصم الفكر ويوسع آفاق النظر ويجعلك تُصدر حكمتك على ما صحيح هو من دين الله .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر]
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]
أقم الصلاة

نظرات في سورة الحشر

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فنستعين الله تعالى الآن على رسم صورة عظمى لسورة الحشر ..

بدأت سورة الحشر - كما حتمت أيضاً - بتسبيح الله وتحميده ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ١] .

وُحُت بتسبيح الله وتحميده ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٢٤] .

تسبيح الذات معناه أن الله ببارك وتعالى اسمه مزه عن الصدد والبد والصاحبة والوجد، وأنه يستحيل أن يشبه بشراً، وأن يشبه بهشراً وأنه لا يوصف بأنه والد ولا ولد .

وتسبيح الله بالنسبة إلى أفعاله - وهو مدخل السورة، هذا - أساسه أن المحسن اللعين الذي تمتع بالشهوات والذي تبجح في الأرض والذي استباح الربا والربا والذي عاش وفوق هواه واستدبر هدايات الله وترك ولكه ترك إلى حين وأمهل ولكه لم يهمل ، وأن العقوبة الإلهية أهدت تنزل به ، فتسبيح الله هنا إشعار بأنه م يترك أفعال الخلق تسير فوصي، إن الرمام بيده وهو

العالم على أمره ، ولذلك عندما بدأ يسكل هؤلاء ذكر اسمه مقرونا بالتسبيح والتحميد ، وهو جل شأنه يوجه أنظار الصالحين إلى هذه الحقيقة كما اشتدت عليهم الضوائق :

قال تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يصيق صدرك بما يقولون ﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴿ [الحجر : ٩٧ - ٩٩] إن توجيه نظرة إلى تسبيح الله وتحميده هو إشعار به بأن الأمور لا تُفقد من يد الله ، وأنه إن ضاق اليوم فإن المستقبل له .

وقال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ [الطور : ٤٨ ، ٤٩]

هذا التسبيح لله رب العالمين هو شعور من الإنسان بأن أحوال الخلق وأن مصائر العباد إلى الله ، لا بد أن يثبت فيها ولا بد أن يرسل حكمه العدل في قضايها إن عاجلاً وإن آجلاً ، وقد سكت على اليهود دهرًا ولكنه الآن بصرهم الضربة القاصمة : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل لكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننهم أن يخرجو وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴿ [الحشر : ٢٠]

هذا الوصف يعطى أن اليهود كانوا مركز القوة ، وأن حصونهم كانت تحيف المؤمنين وتدفع في قلوبهم يأساً من أن افتتاحها سهل ، كانوا يعتقدون أن حصونهم مانعتهم من الله ، وكان المسلمون يتهبون هذه الحصون التي أقيمت ، لكن الذي حدث كان مفاجأة فإن الحصون حُرِّبت والنُّور التي أقيمت حلَّمتها هُأمت ، وكان المؤمنون واليهود جميعاً يشتعلون بتحريب هذه الحصون

نظر إلى السورة فنجد أربعة أوصاف تُنسب إلى اليهود :

الوصف الأول أنهم شفقوا الله ورسوله . ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر : ٤] .

ومعنى مشاقتهم لله ورسوله أنهم عصوا ربهم واستباحوا حرمانه وعطلوا أحكامه وشرائعه وأضاعوا حدوده وحقوقه ، واليهود سادة هذه الخصال وأسباب انتشارها في العالمين .

الوصف الثاني : أنهم فاسقون ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ [الحشر : ٥] .

الوصف الثالث : أنهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله : ﴿ لأنهم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [الحشر : ١٣] .

الوصف الرابع : أن مظهرهم يدل على الوحدة والجماعة ولكن سرائرهم متفرقة ممرقة ، يكره بعضهم بعضاً ، وليست بينهم عقيدة جامعة ولا وحدة فكرية أو عاطفية تربط بينهم : ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء خدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ [الحشر : ١٤] .

هذه هي المواضع الأربعة في السورة التي تحدثت عن أخلاق اليهود عندما هُرموا ، وأظهر هذا الإحصاء ناصحاً بأن القوم قد استجمعوا ما يؤهلهم للضياع وما يرشحهم للغضب الإلهي .

ها يجب أن نسائل أنفسنا : هل الأمم تتوارث الأخلاق النفسية والتقاليد الاجتماعية والخصائص الفكرية والسياسية من جيل إلى جيل ؟ .

قد يحدث هذا وقد لا يحدث ، وعندما يحدث فإن السابق واللاحق يشتركان في نتيجة واحدة ، وربما لا يحدث هذا فيكون من جمع خصال الشر حديراً بأن يجنى الشر ، ومن استجمع خصال الخير كان حديراً بأنه يجنى الخير .

ومعلوم أن اليهود يوم خرجوا من مصر كانوا أدلة لأهم مرنوا على أن يوطنوا طهورهم ويخنوا رؤوسهم ولذلك ما أفلحوا في قتال ولا شرفوا موسى فيما قصد إليه من معارك وقالوا له : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] .

ولقد قال المؤرخون : إن الله أُنَاهِم في سيء أربعين سنة حتى هلكت
الأجبال الجمانة ونبتت أحيال شجاعة أمكن أن تحقق رسالة موسى، وأن
تكون وفق ما يرضى الله .

إذن الأخلاق تورث ولا تورث ، والخصائص العامة تنتقل
ولا تنتقل ، ولو كانت الأخلاق تورث والتقاليد تنقل لكان المسلمون الآن
على أخلاق الصحابة والتابعين .

إن السورة التي شرحت لنا لماذا هرم اليهود ولماذا قذف في قلوبهم
الرعب قالت لنا : كان لا بد أن يعاقب اليهود ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم
الجملاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ [الحشر : ٣] .

ولذلك فإن هذه السورة التي قالت للمسلمين : ﴿ فاعتبروا يا أولى
الأبصار ﴾ بدأت في صفحتها الأخيرة تحاطب المسلمين خطاباً تتحقق به
العبرة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتتظر نفس ما قدمت لغد
واتقوا الله إن الله خير بما تعملون » ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم
أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ [الحشر : ١٨ ، ١٩] هاتان الآيتان -
في سياق سورة الحشر - تنبئ المسلمين بأنه لا يجوز أن يقفوا فيما وقع
اليهود فيه ، واليهود نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، واليهود م يتقوا الله ولم
يحسبوا حساب الغد .

والواقع أن اليهود فيما يتصل بيوم القيامة حذفوا ما يتصل به من
نصوص ، لا يوجد في العهد القديم نص يُحدث عن يوم القيامة ، ولذلك
فإن أغلب اليهود يرون أن جنتهم في التجمع في فلسطين ، وأن إقامة مملكة
يهوه على الأرض - كما يرعمون - هذا البعيم الذي يوعلون به والذي يحییء
بهم من المشرق والمغرب إلى أرض فلسطين .

ينبه القرآن المسلمين إلى أن لا يسلكوا مسالك اليهود ويبين هم أن
مصير الناسين النار، وأن مصير الداكرين الجنة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتتظر نفس ما قدمت لغد واتقوا

الله إن الله خير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴿ [الحشر : ١٨ : ٢٠] .

وبين الله بعد ذلك أنه أرسل القرآن الكريم عقيدة وشرعة ، وأن الأمة التي تحبها رايته وتمشي تحته لا بد أن تسمو وأن تركو وأن تنتفع وأن ترتفع ، وأن هذا القرآن حوى من المواعظ ما يزلزل الطغيان ويمسح الكفران ويحس صفة الإنسان بربه جل جلاله صلة قائمة على الخوف والوجل :

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [الحشر : ٢١] .

بعد هذا العرض السريع بدأ حمام السورة يذكر الله مرة أخرى ونسيجه وتحميده :

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٢٢ : ٢٤] .

سورة الحشر - إلى هذا القدر من الشرح - تبين منها :

« أن الله تحدث عن نفسه أولها وآخرها .

« وأنه أدل أهل الكتاب من اليهود لمسالكهم الشائنة ومواقفهم الرديئة وبقي بعد ذلك أن يعرف الوقائع التي تضمنتها السورة .

« حاول اليهود قتل رسول الله ﷺ وانتهزوا لذلك فرصة أنه ذهب إليهم ليطلب منهم - كما تقضى المعاهدة المبرمة بين المسلمين واليهود - المعاونة في دية قتيلين ، ولقد أحاب اليهود إحابة حسنة ، وأظهروا كأنهم يستعدون لجمع الدية وتسليمها لنبى ﷺ ، واستند النبى ﷺ إلى جدار ينتظر الوفاء ، وبكده وهو المحموف برعاية الله عرف أنهم يتآمرون عليه ، وفعلًا لقد قال بعض

اليهود للنقص الآخر لن تحذوا الرجل مستعملاً كحالته هذه فليذهب أحدكم
بصحرة وليلقها عليه من السطح وهو مستند إلى الحدار ليحما منه ، وعرف
النبي ﷺ أمراً ، فترك المكان على عجل ، ولحق به أصحابه وفرص عليهم
الخصار !! .

« المختمع في المدينة كان مجتمعاً حليصاً ، كان فيه مؤمنون حُلص
صدقوا الله وكانوا أتباعاً ناصحين لله ولرسوله ﷺ وهم المهاجرون
والأنصار ومن انضم إليهم .

وكان فيه مافقون يعيشون في المدينة قلوبهم مع قريش ضد الإسلام ،
قنوبهم مع اليهود ضد الإسلام ، وفي الوقت نفسه يتظاهرون بأنهم على
إيمان ، هؤلاء قالوا لليهود : اثبتوا في مواقعكم إن الحصار الذي سيصرب
عليكم لن يدوم طويلاً وستشرك معكم في القتال حتى نفص هذا الحصار ،
ولكن المسلمين حاصروا بني إسرائيل وشددوا عليهم الحناق وبدأ من
حمسهم وقوتهم وجرأتهم وإيمانهم واعتمادهم على الله أنه من يستطيع أحد أن
يفك قصبتهم عن علو الله وعدوهم ، وبعد أن كان المافقون يلوحون
بتدخلهم ويشعرون اليهود بأنهم معهم تخاذلوا ..

قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين بافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا
من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً
وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا
لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصرهم ليولن الأدبار
ثم لا ينصرون ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] .

لو أن قوى الدنيا كلها تجمعت لمساندة اليهود فإن هذه القوى
ستتمزق وتتلاشى ولا بد من أن يرل بطش الله باليهود على يدي محمد ﷺ
وصحبه

هذا ما كان في بني النضير ، وهلاكت المعركة ، وكان الرعب الذي
نُفثه الله في قلوب يهود عودا عن أنفسهم وكان سلاحاً إسلامياً صدهم ،
وانتصر المسلمون وأخذوا أموال اليهود ، فمد فعوا بها " أعطوها الفقراء

المهاجرين الذين خرجوا من مكة تاركين أموالهم ودورهم ، فكان ذلك تعويضاً حسناً لهم ، وكان ذلك إشارة إسلامية إلى أن المجتمع المؤمن لا يبقى فيه ناس دون مال وناس لهم مال كثير ، ولذلك يقول الله جل شأنه .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر : ٧]

• تعطى هذه السورة الحليمة أن الله تبارك وتعالى لما نصر نصر عقيدة حرة عادلة منصبة هـ أساع كرام مؤثرون محبسون شجعان مؤمنون على قوم يتصفون بالفسق ومشاققتهم لله ورسوله ، ويتصفون بأنهم في مطهرهم كيان واحد وفي باطنهم أحزاب متفرقة و فرق متشاكسة ، ويتصفون بأنهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله

النصر هـ الأحوال والرجال ، والهرية هـ الأحوال والرجال ، ومعنى ذلك أن المسمين إذا فسقوا وإذا شاقوا الله ورسوله وإذا كانوا في مطهرهم كياناً واحداً وفي باطنهم أحزاباً متفرقة وإذا كانوا يخشون ناس أكثر مما يخشون الله فإنهم عندئذ ليسوا أهل نصر .

أقول قولي هذا وأستعمر الله لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

عاد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل .
واعلموا أيها الإخوة أننا في بلدنا هذا — وهو قلب الأمة الإسلامية —
حاربنا الشيوعية يوم كانت الشيوعية صبة غالية لعصر القابعين في كراسى
السلطة وبعض المتربصين على عرش الصحافة وبعض الذين منكوا ناصية
القوم وكثيرين من هؤلاء الذين أعواهم الشيطان فحطبوا في حبله ونصروا
طريقته . حاربنا الشيوعية ، ولى فيها كتاب — يشر في الخارج — اسمه
« الإسلام في وجه الرحف الأحمر » ألف في سنة ١٩٦٧ م في أيام عجاف
وأزمات عصيبة كانت تمسك بحلق المؤمنين وأصحاب العيرة عن الإسلام .
لم حاربنا الشيوعية ؟ .

حاربناها لأننا نحب الله نداءه ومن أكر الله احتقرناه ، حاربناها لأننا
نعرف الإسلام ونعرف أن الله سبحانه وتعالى أودع في تضاعيف الكتاب
والسنة من النصوص والتعاليم والقواعد ما يغنى الأمة الإسلامية عن أى
فلسفة لقيطة وأى فكر دخيل .

لكى أعرف ناساً كثيرين لا يحاربون الشيوعية للمعنى الخيل الذى في
نفسهم ، نعمهم يحاربونها لأنهم أموالاً يخافون عليها أو لأن لهم نفوذاً
يحشون أن يتقلص أو لأن لهم منافع يريدون أن تلوم ..

لسنا من هؤلاء ، إنما نحارب الشيوعية لحساب الإسلام وحده ،

ولذلك فنحن نقول : لا يكفي في محاربة الشيوعية أن أسماء تختفي وأن بعض الذين مسّت خيانتهم أولى الأمر يتلاشون من ظاهر الميدان ، إنما المهم أن التيار الإسلامي يقوى وأن الثقافة الإسلامية تنتعش ، وأن العودة إلى الإسلام تتضح وأن التقاليد الإسلامية تسود وأن الأخلاق الإسلامية تنمو وأن تقنين الشريعة يبدأ يأخذ طريقه إلى النور وإلى الحياة وأن الأجهزة المخطط في الأزهر وفي غيره الأزهر والتي كتب لها أن تعمل للإسلام وهي لا تعمل له إلى الآن عملاً محترماً ، أو عملاً واضحاً يجب أن تتحرك لخدمة دينها .

لا يكفي في صد الشيوعية أو الإباحية الغربية أن يختفي بعض الذين قادوا الضلال في بلدنا دهرًا طويلاً ، إنما يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن الثقافة الإسلامية معتلة وأن التشريعات الإسلامية مخفية وأن أوضاعاً إسلامية كثيرة مختلة ، ويجب أن يعود إليها ما ينبغي أن يسودها من نظام ومن اتساق ومن إنتاج ، هذا هو الكفاح الحقيقي للشيوعية وللإباحية الهاجمة علينا ، وأنا موقن بأنه يوم تبدأ اليقظة الإسلامية تأخذ طريقها إلى الضمير العربي وإلى العقل العربي فإن المد اليهودي سيأخذ في الانكماش .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

فهرس الكتاب

الصفحة

الموضوع

١١ تأملات فى مناسك الحج
٢٦ قصة القتال فى الإسلام
٤٢ عهد المظالم والهزائم
٧١ تأملات فى سورة آل عمران
٧١ أهل الكتاب كما تحدثت عنهم السورة
٨٣ النكبة الكبرى
٩٧ غزوة أحد كما تحدثت عنها السورة
١١٢ العالم فى انتظاره ﷺ
١٢٦ تأملات فى الهجرة
١٣٩ كان خلقه القرآن
١٥٦ عرض موجز لمسيرة الدعوة الإسلامية خلال أربعة عشر قرناً
١٧٠ حركة الارتداد بين الماضى والحاضر
١٨١ أحوال المسلمين فى القلبن
١٩٥ الشخصية العربية عوامل اضمحلالها وعناصر ازدهارها
٢٠٩ نظرات فى سورة البقرة (١)
٢٢٢ نظرات فى سورة البقرة (٢)
٢٣٦ نظرات فى سورة البقرة (٣)
٢٥٠ الذكر (خصائصه ووسائله)
٢٦٣ نفحات الرحمة وبشريات الخير
٢٧٧ نظرات فى سورة النساء (١)
٢٩٣ نظرات فى سورة النساء (٢)
٣٠٨ نظرات فى سورة النساء (٣)
٣٢٥ نظرات فى سورة النساء (٤)

٣٣٨ القرآن يتحدث عن الهجرة
٣٥١ شبهات حول بعض الأحاديث النبوية
٣٦٥ الإسلام والمتغيرات الدولية
٣٧٦ نظرات في سورة الأنعام
٣٨٥ أولوا الألباب في القرآن الكريم
٣٩٧ نظرا في سورة الأنفال
٤٠٩ من نبوءات القرآن الكريم
٤١٩ نظرات في سورة يونس
٤٣٢ الدين الإسلامي وحاجة الإنسانية إليه
٤٤١ نظرات في سورة الحج
٤٥٧ حاضر العالم الإسلامي
٤٦٧ نظرات في سورة الشعراء
٤٨٠ بناء الأمم
٤٩١ نظرات في سورة الروم
٥٠٥ الأمم بين الصعود والهبوط
٥١٦ نظرات في سورة الأحزاب
٥٣٠ بين بدء الوحي وختامه
٥٣٧ نظرات في سورة يس
٥٤١ نظرات في سورة الزمر (١)
٥٦٠ نظرات في سورة الزمر (٢)
٥٧١ نظرا في سورة النجم
٥٨١ نظرات في سورة الحشر

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٠٢/١٩٩١

الترقيم الدولي ٥-٠١٠-٢١١-٩٧٧

دار النشر للطباعة الاستاذية

٢- شارع الصحافة - القاهرة

الرقم البريدي - ١١٢٣١